للبحث عن التراث

رحلات

حمد الجاسر

(١)

باشراف : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
المملكة العربية السعودية

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

هاتف: ٢٢٩١٥ / ٢٠٧١٤ / ٦٦٠٨٢ - ص.ب ١٣٧١

الرياض - المملكة العربية السعودية

أُنشِئتْ سنة ١٣٨٦ (١٩٦٦م) للإسهام في نشر المؤلفات المتعلقة بتاريخ الجزيرة وجغرافيتها وتراثها الفكري ، ومن منشوراتها :

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية

(معجم مختصر)

يقع في ثلاثة أجزاء (١٩٩٠ صفحة) . يحوي أسماء المدن والقرى والهجر والموارد . نحو (١٦١٠٦) في مقدمة وافية عن الأقسام الإدارية في المملكة .

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية

(معجم مفصل)

صدر منه :

١ ــ مقاطعة جازان للأستاذ محمد بن أحمد العقيلي ــ ٤٨٦ صفحة .

٢ ــ بلاد غامد وزهران للأستاذ علي بن صالح الزهراني ــ ٣١٦ صفحة .

٣ ــ عالية نجد للأستاذ سعد بن جنيدل ــ ١٣٩٠ صفحة كمل في ثلاثة أجزاء .

٤ ــ بلاد القصيم للأستاذ محمد العبودي ــ ١٣١٢ صفحة صدر منه ثلاثة أجزاء .

٥ ــ شمال المملكة تأليف حمد الجاسر ــ ١٣٦٨ صفحة كمل في ثلاثة أجزاء .

٦ ــ المنطقة الشرقية تأليف حمد الجاسر ــ ٩٥٤ صفحة صدر منه جزءان .

٧ ــ معجم اليمامة تأليف الأستاذ عبدالله بن خميس ــ ١٢٦٢ صفحة كمل في جزءين .

٨ ــ بلاد رجال الحجر تأليف الأستاذ عمر العَمْرِي ــ ٢١٨ صفحة .

مجلة العرب

تعتبر دائرة معارف عن ماله صلة بتاريخ الجزيرة وجغرافيتها وتراث العرب الفكري .

وقد صدر منها ١٤ مجلداً في (١٥٩٩٦) صفحة .

إعتباراً من شهر رجب سنة ١٣٨٦ (تشرين ١٩٦٦) ولا زالت مستمرة في الصدور .

مطابع الانشعاع التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعـــة الأولى

١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م

مقدمة

بَعْثَرْتُ في مجلة « العرب » وجريدة « اليمامة » وغيرهما من الصحف أحاديثَ عما شاهدته أثناء رحلاتي في البلاد العربية وفي البـــلاد الأوربية والأمريكية ، كما نشرت أحاديث عن رحلاتي داخل بلادنا .

وقد رَأَيْتُنِي أحتاج إلى مراجعة بعض ما تحدثت به من وصف كتاب أو تحديد موضع أو الحديث عن مدينة شاهدتها أو مكان مررت به ، فرأيت جَمْعَ ما تَبَعْثَرَ من تلك الأحاديث لا اعتزازاً به أو اهتماماً بقدره ، ولكن لحاجتي إليه بعد أن أصبح النسيان يتطرّقُ إلى ذاكرتي .

ثم كان من الابن الكريم الأستاذ محمد بن عقيل الظاهريّ إلحاحٌ عليّ وتكرار مراجعة لي لكي أقدم له شيئا مما كتبت لنشره .

وفي إحدى زياراته أطلعته على إضبارة تحوي قسما من أحاديث تلك الرحلات ، فما كان منه ـ قبل أن يقرأ شيئا مما فيها ـ إلا أن أمسك بالإضبارة ، وألحّ بأن يأخذها لتتولى (الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون) نشرها . وهي جمعية ذات مكانة عندي ، ورئيسهـــا أثِيرٌ في نفسي ، فتركته وما يريد ، وأنا واثق بأن غايته بالنسبة إليّ مبعثها التقدير والإكرام .

إذ ما أكثر الذين يرغبون نشر مؤلفاتهم ! ! وقد يكون من بينها ما هو أعم نفعا وأجزل فائدة للقراء .

إن تلك الرحلات التي أشرت إليها يمكن تقسيمها إلى :

١ ـ رحلات خارج بلادنا :

والغاية منها زيارة المدن التي تحوي مكتباتها مخطوطات عربية ، للاطلاع على تلك المخطوطات ، ووصفها ، وتصوير ما استطعت تصويره منها .

٢ ـ رحلات داخل بلادنا :

لمشاهدة بعض المدن والقرى والمواضع التاريخية للكتابة عنها في كتاب « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » الذي يعاونني بعض الإخوة في تأليفه ولم يبق منه سوى القسم المتعلق بالحجاز ، والقسم المتعلق بالمنطقة الجنوبية (بلاد عسير ونجران وما حولهما) .

٣ ـ وهناك نوع من الرحلات للاستجمام أو للعلاج ، وهذا النوع وإن كنت نشرت طرفاً يتعلق به إلاّ أنه لا يهمّ كثيرا من القراء .

وها أنا أُقَدِّمُ جانبا ممّا نشرت عن النوع الأول من الرحلات وأراه أولى بالنّشر من غيره .

مقدما للجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ، وللإخوة القائمين عليها ما هم جديرون به من شكر وتقدير .

حمد الجاسر

الرياض { ١٤٠٠/٢/١٥ هـ .
١٩٨٠/١/٣ م .

جولة في المغرب العربي الحبيب

إلى الجزائــر
من الجزائر إلى المغرب .
النشاط الثقافي في المغرب العربي
تحية للمغرب العــربي
في مدينة الربـــاط
بين مرّاكش والدار البيضاء
في مدينـــة تونس

إلى الجزائر

أحسست أنني بحاجة إلى الراحة ، وترك المطالعة والكتابة فترة من الزمن رأيت قضاءها بعيدا عن مقر عملي ، فسافرت من بيروت إلى القاهرة في شهر رمضان ١٣٩٢ (١٩٧٢/١٠/١٤) وبقيت فيها قرابة أربعين يوماً . أمضيت أكثرها في التردد على مستشفى في مصر الجديدة يدعى (مركز العلاج التخصصي) أعالج بالتدليك الكهربائي وغيره من آلام الظهر . ولما لم أجد الراحة التامة عزمت على السفر إلى المغرب بعد أن اتضح لي أنني لا استطيع الصبر عن المطالعة ، وكنت قد بدأت بدراسة كتب الرحلات المتعلقة بالحج مما استطعت الحصول عليه، فرأيت في تلك الكتب من المعلومات المتنوعة عن تاريخ بلادنا وجغرافيتها ومختلف احوالها مالا يوجد في غيرها من المؤلفات ومن العلوم أن علماء المغرب تفوقوا على المشارقة في هذا المجال ، وأن هناك عشرات من المؤلفات عن الرحلات لأولئك العلماء لاتزال مخطوطة ، وأن مكتبات المغرب العامة والخاصة تحفل بكثير منها [١] ، فكان هذا من أقوى البواعث لي على الاتجاه إلى تلك البلاد .

وما دام الموضوع ذا صلة بالرحلات فلماذا لا أسير على النهج المألوف الذي سار عليه الرحالة قبلي بتدوين بعض جوانب مما شاهدته اثناء رحلتي ، معتقداً بأنني سوف لا آتي بشيء جديد أو طريف ، فالبلاد التي سأتحدث عن بعض مشاهداتي فيها ليس فيها ما هو مجهول ، وليست بِدْعاً من غيرها من البلدان العربية الأخرى ، وقلَّ أن يكون من بين قراء ما سأكتبه من لا يكون أعلم مني بها ، غير ان من طبيعة المرء أن يرى في عمله ــ ولو كان

(*) مجلة « العرب » ــ المجلد السابع ص ٤٠١ ــ .

(١) : أنظر « العرب » ص ٧٤٦ السنه السادسة .

تافهاً – ما يحمله على إظهاره ، ومن هنا رأيت أن أدع نفسي على سجيتها في كتابة ما قد يعن لي من الآراء والمشاهدات . وهي – على ما فيها – لن تعدم قارئاً يرى فيها ما لايراه الباحثون في الدراسات العميقة . وكثيراً ما يلجأ القاريء عند السأم من قراءة بحث علمي أو تاريخي مركز جاد إلى ترويح نفسه بقراءة خفيفة لا تستدعي إجهاد الفكر ، وإن لم تكن مفيدة .

وأحب أن لا يعزب عن بال القاريء – سواء كان من اهل هذه البلاد أو من غير أهلها – أن ما يدونه مسافر عابر مثلي لا تزيد إقامته في البلدة عن بضعة أيام ، وما قد ينطبع في ذهنه عنها ، لا يكون صحيحاً من كل وجه . ولا يصح أن ينظر اليه على أنه الصورة الواضحة لتلك البلدة أو أنه يدل على ما يحمله ذلك المسافر لها من مشاعر .

الاعداد للسفر :

رأيت البداءة بالقطر الجزائري لأنني كنتُ أثناء اقامتي في القاهرة لم أنل قسطاً كافياً من الراحة ، لا من حيث الابتعاد عن العمل ، ولا من حيث الاستفادة من العلاج ، ولا من حيث اراحة نظري من ارهاقه بكثرة المطالعة لقد أحسست أول ليلة بتُّها في القاهرة بعيداً عن مكتبي بملل شديد ، فأدركت أنني لا أستطيع الاستقرار والهدوء والاطمئنان ما لم يكن في يدي كتاب أطالعه ، وليس كل كتاب يستهويني ، فكان أن أستعرت في صباح اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة كتاباً مخطوطاً في تراجم علماء الحنابلة من الصديق الكريم الأستاذ أحمد المانع شغلت نفسي بنسخ ما فيه من تراجم علماء نجد ، ومررت بعد الانتهاء من مطالعة ذلك المخطوط بالأستاذ زكي مجاهد مؤلف كتاب « الاعلام الشرقية » وهو من العلماء الفضـــلاء ، ويشتغل ببــيع الكتب وله مكتبة في (خــان الخليلي) فاشتريت منــه القسم المطبوع من كتاب « الســلوك » للمقريزي في ستة أقســام ، كما اشتريت

من غيره الجزءين الثاني والثالث من « بدائع الزهور » لابن إياس ، و « المنتخب في تفسير القرآن الكريم » وأهدى إليّ الصديق الاستاذ ابراهيم الترزي – من موظفي (مجمع اللغة العربية) – الجزء العاشر من « تاج العروس » الذي قام بتحقيقه من الطبعة الكويتية فأصبح بين يدي من الكتب ما أدخل الطمأنينة إلى نفسي فأقبلت على مطالعتها ونقل ما يعُنّ لي نقله منها إقبالاً قوياً بحيث أصبحت شغلي الشاغل ، ولا أبالغ عندما أقول بأنني أحسست كأنني بعيد العهد عن مطالعة الكتب بعدا جعلني أقبل على المطالعة والكتابة إقبال من يحاذر أن تخطف الكتب من بين يديه . ولكني لم أشعر بعد مضي أسبوعين إلا وقد بلغت مني آلام الظهر والكتفين درجة لا أستطيع معها الاستقرار جالساً . فصرت أقلل من الكتابة التي تستدعي الجلوس ، وأطالع مستلقياً أو مضطجعاً على السرير ، ولكن الآلام ازدادت ، ولم أشبع نهمي بعد من المطالعة ، غير أن الله أراد لي الخير من حيث لم أحتسب ، فقد سطت الصانعة (الخادمة) على ما استطاعت السطو عليه مما خفّ وغلا ثمنه مما في البيت ، ومنه (نظّارتي) التي ألفت استعمالها منذ بضع سنوات ، حتى أصبحت لا أقدر على القراءة ولا الكتابة بدون استعمال نظارة . وكان ذلك قبل العيد بيومين لم أتمكن فيهما من الإهتداء إلى طبيب أثق به ، فاسترحت – مُرْغَماً – من المطالعة أسبوعاً، وبعد انتهاء عطلة الأسبوع راجعت طبيباً يدعى (الدكتور محمد عبد المنعم لبيب) فقال لي : إن ارتفاع الضغط في عيني شديد جدّاً ، فقلت : لعله من أثر كثرة المطالعة ، ولذلك سأقللها . غير أنه هوّل الأمر في نفسي ، وألحّ بضرورة مراجعته هو أو أحد الأطباء كل يوم لقياس الضغط، وللتخلص منه قلتُ بأنني سأسافر غداً أو بعد غدٍ ، ولا أريد الا قياس النظر ، وكتابة ما ينبغي استعماله من دواء ، فكان ذلك .

وعزمت على السفر إلى المغرب مبتدئاً بالجزائر ، معتقداً بأنني لن أجد في هذه البلاد من الكتب ما تستهويني مطالعته ، فأنال شيئاً من الراحة بفقد أحبّ شيء إلى نفسي !!

وبعد انتهاء أيام العيد مررت بأحد مكاتب السياحة (اكسبرس امريكان) فأوضحت لأحد موظفيه رغبتي في السفر إلى الجزائر فالمغرب فتونس فطرابلس فرأيت من لطفه ما أقنعني بأن أطلب منه الحجز في أول طائرة ، وأن أدفع لمصرف في نفس المكتب مبلغ ٣٦٤ دولاراً ثمناً لتذكرة السفر بحيث لم يبق معي سوى قليل من النقود ، ومن الملاحظ أن صرف الدولار ٦٥ قرشاً مصرياً إذا استعمل المبلغ المصروف داخل مصر ، و ٤٢ قرشاً إذا كان سيستعمل أجوراً للسفر خارجها .

ذهب الرجل الذي قابلته في مكتب السياحة — ويدعي علي علام — إلى مكتب الخطوط الجزائرية المجاور له ، وأتي بالتذكرة محدداً فيها يوم السفر وساعته (يوم الخميس ١٩٧٢/١١/١٦ الساعة ١٢,١٥) فاستوضحت منه هل احتاج إلى سمة دخول (تأشيرة في جواز السفر) فنفى ذلك ، وأكد لي أن في استطاعتي النزول في أي بلد من البلدان الثلاثة ، وآخرها الدار البيضاء في الذهاب أو الإياب . فقلت : لماذا لا أنزل أولاً في طرابلس ؟ واختمرت هذه الفكرة في نفسي ، فعدت في اليوم الثاني إلى المكتب مستوضحاً مرة أخرى : ألا أحتاج إلى سمة دخول في طرابلس ؟ فأرشدني الرجل الذي كنت اجتمعت به بالأمس إلى المكتب الليبي للسياحة القريب ، فعلمت من أحد موظفيه أن النزول في طرابلس يتطلب شهادة من أحد المصارف في جواز السفر بأنني أحمل من النقود ما يقابل ثلاثين جنيهاً ليبياً . فعدلت عن النزول في طرابلس لأن معاملات المصارف في مصر معقدة ومتعبة .

وقبل ميعاد السفر بيومين قال لي أحد الأخوان — وكان قد سافر إلى الجزائر — : لا بُدّ من سمة دخول وإلا فإنك لا تستطيع النزول في الجزائر ، مع أنني لا أنصحك بالسفر إليها لأنك ستتعب هناك كما تعبت أنا . ولكنني لم أقبل نصحه فأنا قد وطنت نفسي على تحمل المشاق في السفر ، كما أنني لا أتعرض لكثير من الأمور التي قد تسبب للمسافر شيئاً من المتاعب ، فأنا

أحرص قبل السفر على إعداد جميع وسائله وأُقابل ما قد يعرض لي بالأناة وطول البال وعدم الاكتراث ، في الغالب .

ذهبت قبل السفر بيوم إلى مكتب الخطوط الجزائرية لأؤكد ميعاد السفر ولأستوضح عن سمة الدخول . فقال لي الموظف المسؤول في ذلك المكتب : اخواننا العرب لايحتاجون إلى (تأشيرة) فرجوته أن يتأكد من ذلك وأخبرته بأنني سعودي فاتصل بالقنصلية هاتفياً . ثم قال لي : لا بُدّ من (تأشيرة) والسفر غدوة لا يمكنك ، لأن (التأشيرة) لا تنتهي قبل موعد السفر ! ! فقلت له : وإذن ما العمل ؟ فقال : تؤجل السفر . غير انني فكرت في العدول عن النزول في الجزائر ، فرجوته أن يشير في تذكرة السفر بعدم نزولي فيها واستمراري إلى الدار البيضاء ولكنه صمم على تأخير سفري للحصول على سمة دخول في الجزائر قائلاً : نحن نعاملكم بالمثل . فاظهرت له عدم رغبتي بالنزول في الجزائر وحرصي على السفر غداً ، لأن التذكرة سياحية ، وظروفي وأحوالي لا تمكنني من إطالة وقت السفر ، ولا أريد زيارة الجزائر . فاحتدّ وغضب ورمى إلي التذكرة قائلاً — وهو مصرى ليس جزائرياً — : اذهب إلى المكتب الذي قطعها لك ! ! وانصرف إلى الحديث مع انسان جالس بجواره ، فمررت بمكتب السياحة فأخذ التذكرة أحد موظفيه وأمرني بالانتظار وما أسرع ما عاد مصلحاً التذكرة وفق رغبتي ، على أن أسافر في الموعد المحدد فيها ، ولا أنزل في الجزائر . لقد اتجهت إلى المطار في صباح يوم السبت ١٩٧٢/١١/١٦ فوصلت اليه الساعة الحادية عشرة — أي قبل الموعد المحدد في التذكرة بساعة وربع — وجلست في المكان المخصص للمسافرين بعد أن بحثت عن مكتب يحمل اسم (الخطوط الجوية الجزائرية) فلم أرَ بين مكاتب الطيران شيئاً ، وبعد برهة من الوقت سألت عن ذلك المكتب فأرشدت إلى أحد مكاتب (مصر للطيران) فلما قدمت التذكرة للموظف الذي يعمل فيه قال : سافرت الطائرة فأريته موعد السفر المكتوب في التذكرة ، وأنه قد بقي عليه أكثر

من ساعة ، ولكنه أصَرَّ على أن الطائرة سافرت ، وأنني جئت متأخراً ، فأوضحت له أنه لم يحدد في التذكرة الوقت الذي ينبغي أن أحضر فيه إلى المطار ، وأن ميعاد السفر لم يحن بعد . غير أنه لم يصغ إلى كلامي فاضطررت — لعدم اكتراثه بأمري وخوفي من التأخر — إلى أن أصرخ في وجهه : لماذا تريد أن تمنعني من السفر ؟ واسترسلت في الكلام حتى لفتُّ أنظار من حولي ، فما كان منه إلا أن أخذ التذكرة مني وقال : اجلس وأشار إلى كرسي قريب منه — وستسافر على الطائرة المتوجهة إلى طرابلس ، ومن هناك تنتقل إلى طائرة أخرى ، فشكرته وجلست . وبعد مضي ما يقرب من نصف ساعة سمعت الاعلان عن اقلاع الطّائرة الجزائرية ، ثم بعد ساعة أعلن عن سفر الطائرة الليبية ، وأنا على أحرّ من الجمر ، أقوم بين كل آونة وأخرى لأعرض نفسي امام هذا المكّار لكيلا ينساني ، فيشير إلي بالجلوس ، حتى قاربت الساعة الثانية ، فما كان منه إلا أن قام من مكانه وأتي إليّ وقال : أين التذكرة ؟ فلما قدمتها له ، أعادها إليّ قائلا : — بضحكة مملوءة سخرية — : لا مؤاخذة يا أستاذ — ما فيش مكان في الطائرة الليبية ؟! مع ان الطائرة الليبية قد سافرت قبل ساعة .

عُدْت من المطار بعد أن فقدت من النقود التي معي ستة عشر جنيها . عشرة عند استرجاع ما أبدلته من نقود في المصرف . فقد كنت بحالة من التأثر فقدت في خلالها هذا المبلغ ، غالطْني الصراف أو غالطته لا أدري أينا غالط الآخر ، والبقية ذهبت من هنا وهناك ، ففي هذه البلاد الطيبة — وفي المطار بصفة خاصة — ضعْ يدك في جيبك دائماً ، فلن تجد من يعفّ .

وكان عودٌ إلى مكتب السياحة ثم تحديد لموعد السفر مرّة أخرى وجد فيها موظف الخطوط الجزائرية وسيلة لتأخيري أسبوعاً آخر ، فكان ذلك . وفي هذه المرة كتب فوق التذكرة : (الحضور الساعة ٩/٣٠ في المطار عند مكتب الكرنك) مع أن السفر الساعة الثانية عشرة والربع .

أصبح أمامي من الوقت ما أتمكن في خلاله من الحصول على سمة دخول

في الجزائر وما دمت قد دفعت الأجرة فلماذا لا استفيد من الرحلة بمشاهدة البلاد التي اتمكن من النزول فيها ؟ .

مررت بالقنصلية الجزائرية فعلمت أن السمة تتطلب كتاباً من السفارة السعودية وأربع صور وجنيها ونصفاً مصرياً .

ولقد وجدت من الأخ حسين الأشعري من العون ما مكنني من الحصول على السمة إلى الجزائر وإلى تونس في خلال ساعتين ، لا يومين كما ذكر لي من قبـــل .

وعلم الصديق الكريم الأستاذ أحمد المانع بتأخري عن السفر ، فأكرمني — أكرمه الله — بأن أوصلني إلى المطار في سيارته ، وبقي حتى ودعني في ساحة انتظار ركوب الطائرة ، أربع ساعات .

كان الإقلاع في الساعة الواحدة إلا ثلثا — لا اثنتي عشرة وربعا — والوصول إلى مطار (طرابلس) الساعة الثالثة والنصف والبقاء فيه نصف ساعة ، ولم أر في المطارات الدولية أصغر ولا أضيق من أبنيته المخصصة لاستقبال المسافرين ، فالحجرة المعدة للعابرين (الترانزيت) ليس فيها سوى بضعة كراسي . وقد امتلأت — اعني الحجرة — بالواقفين ، وضاقت عن استيعاب أكثرهم ، وأمامها ساحة أحيطت بسياج من الحديد (الشبك) ، وقد امتلأت أيضاً ، مع أن بجوارها يقع مجلس واسع يدل تأثيثه على أنه أعِدَّ لاستقبال كبار القادمين إلى المطار ، ومن طرابلس كان الوصول إلى مطار تونس (قرطاج) الجديد المنظم الواسع ، الذي قد أعِدَّتْ فيه صالة العابرين إعداداً حسناً ، والمسافة بين طرابلس وتونس أقل من ساعة . ومن الجزائر إلى تونس ساعة حيث كان الوصول في الساعة السادسة — بتوقيت القاهرة — ومن تونس يتغير التوقيت فيتأخر ساعة وكذا في الجزائر ، فالوصول اليها كان الساعة السابعة بتوقيت القاهرة . والخامسة بالتوقيت المحلي .

لم أجد أي عناء عند الدخول ، فقد سجلت ما معي من نقود بعد ختم جواز السفر ، ثم فتحت لموظف الجمرك حقيبتي فلم ير فيهما ما يدفعه

إلى نبش ما في داخلهما فعلّم عليهما وخرجت ، ولكن عندما أردت ركوب الحافلة إلى المدينة طلبت مني الأجرة سبعة دنانير جزائرية ، ولم أكن صرفت شيئا من النقود ، فاضطررت إلى الرجوع إلى داخل المطار والمصرف قبل الدخول إلى الجمرك ، ووضعت الحقيبتين عند المفتش الذي سمح لي بالخروج بهما أولاً وأخبرته بأنني أريد الذهاب لصرف النقود والعودة لأخذهما ولكنه بعد ذلك قال : لا بُدَّ من تفتيشهما ، وبعد فتحهما أمرني بالخروج بهما ولم يمسهما . كان أحد الاخوان – في القنصلية الجزائرية في القاهرة – كتب لي اسم فندق عندما استشرته ، فلما وصلت موقف الحافلة عند مكتب الخطوط الجزائرية داخل المدينة أعطيت أحد الحمالين الورقة فعرف موقع الفندق (فندق انجلترا) وهو قريب من المكتب ، ولكنني لم أجد فيه مكاناً ، وسار بي الحمال إلى فندق آخر . . وآخر . وأكثر من عشرة فنادق فنادق بين كبير وصغير . وكل فندق نصل إليه يكون أول ما نشاهد لافتة مكتوب فوقها (COMPLET) .

لقد قال لي أحد الإخوان – في القاهرة – إنك ستتعب هناك ، وسوف لا تجد فندقاً تسكنه يلائمك . وأخبرني بما جرى له من التعب في البحث عن فندق بحيث لم يجد إلا خارج المدينة وبأجرة كبيرة له وللسيارة التي أوصلته . وكان المعروف عن سكان المغرب – على وجه العموم – سرعة الانفعال والتأثر وهما صفتا ذَمٍّ في جميع الحالات. أما هذا الحمال الذي ساقه الله اليّ فقد كان على جانب من الأناة تبلغ درجة (البرودة) في هذه المدينة في تلك الليلة وهي تتجاوز العاشرة بقليل .

كنت – أول الأمر – أبحث عن فندق وَسَطٍ ، ولكنني اضطررت بعد أن أعياني البحث وأرهقني التعب من المشي إلى البحث عن أي فندق كان صغيراً أو كبيراً ، فكان صاحبي – ونعم الصاحب في تلك الليلة الليلاء – يسير بي في أسواق ضيقة ، ويدخل في سكك مظلمة إلى أمكنة لا تحمل من الفنادق سوى اسمها ، ومع ذلك لا نجد فيها مكاناً . خطرت لي

فكرة الأخ الذي قال بأنه لم يجد إلا خارج المدينة . فكنت كلما حاولت الاشارة إلى سيارة أجرة يحاول صاحبي منعي قائلاً : هُنا فندق قريب ، لاحاجة إلى (التكسي) ! ويسير بي كأنه واثق مما يقول .

وبعد ان قاربت الساعة الثانية عشرة وجدنا الفندق ! قال صاحبه لي : ليس عنده سوى غرفة فيها سريران بأجرتهما ، فانظر هل تصلح لك ؟ فقلت : لا حاجة إلى أن انظرها فهي تصلح ، ودفعت لصاحبي مبلغاً من النقود ، فكأنه استقله ، وما كنت اعرف مقداره فأعطيته ما جعله يودعني شاكراً وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه فخرجت من الفندق قبل أن أرى الغرفة ، ومالي ولِرُؤيتِها لتكن ما تكون فهي خير من المبيت في العراء ، ولقد عدت إليها فوجدتها مهجورة — فيما يظهر — ونافذتها مكسرة الزجاج ، وشباكها مخلوع ، وكل هذا يسير ، فالهواء الشديد الذي يدخلها — مع شدة برودته — يمكن الاحتراز منه بالنوم على السرير والاكثار من الأغطية فوق الجسم ، ولكنني عندما كشفت الغطاء — قبل خلع ملابسي — رأيت ما يدعوني إلى عدم خلعها ، ذلك أنني لم أقدر على مغالطة نفسي فأغمض عيني واسُدُّ انفي والقي بجسمي داخل تلك الأغطية ، فكان أن اكتفيت بعد إعادتها على حالها وإضفاء الستارة فوقها — بالجلوس فوق السرير ، مسند ظهري إلى أعلاه ، فأخذني النوم على تلك الحالة ، ولم استفق إلا الساعة السابعة . وقد أحسست بالراحة . خرجت من الفندق إن صحَّ أن يطلق عليه فندقاً — وأصبح شغلي الشاغل البحث عن مكان غيره ، وكنت مصمماً على السفر إذا لم أجد في أول الصباح ، ومن حسن الحظ انني لم امش خطوات في الشارع العام حتى مررت بفندق يدعي (الفندق الملوكي) وبلا إطالة فقد وجدت فيه غرفة ملائمة . وأسرعت بإحضار أمتعتي اليها . وقد علمت — فيما بعد — أن هذا الفندق قل أن لا توجد فيه غرفة خالية . وقال لي الأستاذ محمد بن عبد السلام ملحقنا الثقافي في هذه البلاد : إنه كثيراً ما يلجأ اليه عندما يحتاج إلى مكان لاسكان قاصديه أو معارفه ، فيجد فيه ما يحتاج إليه حتى يجد خيراً منه ، إذ هو من درجة متوسطة وإن كان

غيري يراه أقل من ذلك ، وأجرته مناسبة (٢٥ ديناراً في اليوم أي ما يقارب ستة دولارات امريكية) .

واصلت التجوال في المدينة – كعادتي في كل صباح – حتى توسطت داخلها ، فرأيت على يميني درجاً طويلاً صاعداً إلى أعلى ، ذكرني بمدينة اسطنبول ، ومدينة الجزائر تقع فوق تلال مرتفعة – ملتوية ومتعرجة بتعرج ساحل البحر ، وممتدة على الساحل بشكل انصاف الدوائر ، صعدت مع الدرج الذي يقارب ١٦٠ زلفة (درجة) فأعجبني ما شاهدت على قمة التل من الحدائق والمباني التي أكثرها حديث ، فواصلت السير محاولاً أن أصل الى أعلاه ، من أسهل الطرق .

كان اليوم جمعة ، ولكنه ليس يوم عطلة ، ففي الجزائر يعطلون آخر نهار السبت ويوم الأحد ، لم أشعر أثناء السير إلا وأنا أمام مبنى جميل حديث كتب فوقه (المكتبة الوطنية) فاستهواني الاسم :

وذو الشوق القديم وإن تَسَلَّى مشوقٌ حين يلقى العاشقينا

في (المكتبة الوطنية في الجزائر) :

دخلت المكتبة رغم تحذير طبيب العيون لي من كثرة المطالعة ، ورغم عزمي على إراحة نظري ، إذ لم استطع الصبر على عدم القراءة ، مع أنني كنت مرهقاً من أثر التعب ولكنني كثيراً ما أجد فيها كل راحة . وسألت أول جالس قابلته داخل المكتبة من موظفيها : هل لديكم قسم للمخطوطات ؟ وكان يقف بقربه سيدة فأخبرها بما سألت عنه فالتفتت إليّ مستوضحة ثم أجابت باللهجة المصرية : (أمّال ! عندنا كل حاجة) وفخّمَت الميم . فطلبت منها إرشادي إلى ذلك القسم واطلاعي على (الفهرس) الخاص به ، فبعثت معي من أبلغني ما أردت ، غير ان الموظف وهو رجل فاضل يدعي الاستاذ (بِلْقَضَا طَيّب) أطلعني على فهرس وضعه أحد المستشرقين الفرنسيين هو (I·AGNUN) منذ أكثر من سبعين عاماً باللغة الفرنسيةما

عدا أسماء الكتب ، يقع في مجلد ، ويحوي وصف ١٩٨٧ مخطوطاً ، واعتذر لي الرجل بأن الفهرس العربي الحديث لم يكمل بعد ، وهو في بطاقات ويصعب تقديمه إلي ، فاكتفيت بما قدم لي ، وأقبلت على تصفحه كالجائع النهم على طعام لذيذ ، وكأنني قد طال العهد بيني وبين الكتب .

كانت كتب الرحلات إلى الحج أهم ما أبحث عنه ، فرأيت في (الفهرس) بين ما هو معروف منها كرحلات عبد الغني النابلسي ، ورحلة أحمد بن ناصر الدرعي – رحلة كتب عنوانها : (رحلة المجاجي) برقم ١٥٦٤ و ١٥٦٥ و (رحلة اليوسي) ١٨٩٦ فطلبتهما فلم أجد في الأخيرة شيئاً عن الحج ، ووجدت الأولى ناقصة الأول تبتديء – وهي منظومة – بما هذا نصه :

نشقُّ الفيافي فَدْفَداً بعد فَدْفَدِ
جبالاً وأوعاراً وأرضاً وَطِيةِ
فبتنا بواد قد يُسَمُّوه أهله
بفاطمة الزهراء ، بيت الرسالة
وأبيارُ عزَفان (١) شربنا من مائهم
وبتنا تجاه البئر عند الرُّميلة

على هذا النمط من النظم الركيك في وصف طريق العودة إلى المدينة فمصر فالجزائر ، عبر الصحراء ، وآخرها :

وناظمها عبد الرحمن نعته
وكابن الخرُّوب جده به يُنْعتِ

(١) يقصد عسفان وكذا سماه صاحب «الترجمانة» ص ٤٩٤ خطأ .

وأما أبوه فهو يسمى محمدا
فيعطيه ربي رحمةً بعد رحمة
مجاجيّ الأصل ثم داراً ونشأة
وربي إله العرش يدخله جنَّة
بتاريخ عام ثالث لوقوفنا
من الحادي عشر بعد ستين حجة

وتقع — على نقصها — في ٢٢ صفحة في الصفحة ٢٠ سطراً ، مسرودة النظم بدون عناوين أو فواصل ، ويظهر من آخرها انها نظمت سنة ١٠٦٣ — أي في القرن الحادي عشر — وإن كان واضع الفهرس يرى أن البيت الذي ذكر فيه التاريخ يدل على أنها نظمت سنة ١١٦٣ ﻫ وعلى كل حال فهي ليست بذات قيمة علمية ، وقد نقلت عنها صورة ، أما النسخة الثانية منها ، فاعتذر الأخ عن إحضارها بانها معارة في الخارج .

ورأيت للفيروز آبادي رسالة بعنوان (حكم قناديل المدينة) في مجموع رقمه ١٣٦٠ وعندي نسخة من هذه الرسالة في آخر كتابه « المغانم المطابة » الذي حققت القسم الجغرافي منه ونشرته منذ سنوات ولكنني رغبت في الاطلاع على هذه النسخة ، فلما رأيتها أعجبني قدمها فهي مخطوطة سنة ٨١٦ بعد وفاة مؤلفها بثلاث سنوات [١] فطلبت منها صورة ، وهي تقع في وريقات (١٢٢ إلى ١٣٩) من ذلك المجموع . وفي المكتبة آلة للتصوير من النوع السريع وكان الوقت قد قارب الانتهاء عندما أحضرت الرسالتان مصورتين ، غير أن ما معي من النقود نقص عن دفع الأجرة كاملة ، فأخذت الرحلة على أن أعود صباح السبت إلى المكتبة .

(١) النسخة الملحقة بكتاب «المغانم» مخطوطة سنة ٨٦٦ ﻫ .

يوم السبت(*) : ١٣٩٢/١٠/١٩هـ (١٩٧٢/١١/٢٥م) جُلْتُ ليلاً في أعظم شارع في المدينة، تقع فيه دار الولاية، ودار البلدية، وفندق (آليتي) أشهر فندق داخل الجزائر – العاصمة – وأدهشني كثرة ما شاهدته من المقاهي الصغيرة، وما فيها من كثرة الروّاد، وأكثرهم من الشباب، والمقهى هنا غالباً يقدم كل شيء من المشروبات وأنواعاً يسيرة من المأكولات. وفي الصباح تغصُّ بالمقاهي بالناس الذين يتناولون طعام الإفطار فيها، كوباً من القهوة بالحليب مع قطعة من الخبز الليّن (كيك) وأحسست أثناء جولتي أنني في إحدى المدن الأوربية (غريب الوجه واليد واللسان) فعدت إلى الفندق بعد أن تناولت العشاء في مطعم يقع تحته، أكلا اعتدته من الحساء (شربة خضار) واللحم المشوي والفاكهة، ومع أنه من مطاعم الدرجة الثانية – على ما يقولون – فالوجبة تكلف ١٥ ديناراً (أي ما يقارب أربعة دولارات).

ما كادت الشمس تشرق حتى أخذت طريقي نحو المكتبة العامة، بعد أن قمت بجولة حول الميناء، وفي حديقة صغيرة مجاورة للفندق تدعى (حديقة بورسعيد) والأسماء العربية غير كثيرة في شوارع هذه المدينة، وفي ميادينها العامة، ولكنها بدأت تحل محل الأسماء الفرنسية، بكتابة عربية، فأطلق على كثير من الشوارع أسماء بعض الشهداء والعلماء وغيرهم فالشعب الجزائريّ شعب عربي مسلم :

شَعْبُ الجـزائِرِ مسـلِمٌ ... وإلى العُـروبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قـال – حاد عَنَ اصْلِه ... أو قال : ذابَ فقد كَذَبْ
أو رام إدْمَاجـاً لـه ... رامَ المُحَـالَ من الطَّلَب (١)

غير أنّ وطأة الاستعمار كانتْ من القسوة والشدة ذات أثر سيّءٍ تتطلب إزالته من الجهود العظيمة والوقت الطويل ما يأمل كل عربي

(*) مجلة «العرب» – المجلد السابع – ص ٤٨٧ – .
(١) من شعر الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس .

مخلص لهذا القطر الحبيب أن يحقق الله له كل ما يصبو إليه من عزٍ ورفعة ، وحياةٍ حرّة كريمة :

عدت إلى صاحبي في (المكتبة العامة) فقدم لي فهرس المخطوطات ، فأكملت تصفحه ، وكان مما طلبت الاطلاع عليه كتاب (خلاصة الوفاء) ورقمه في الفهرس ١٣٥٢ ، ولكنني عند مطالعته اتضح لي أنه قطعة من كتاب « وفاء الوفاء ، بأخبار دار المصطفى » من (الفصل[١] الخامس في الأمر بسدّ الأبواب الشارعة في المسجد) إلى (الفصل الثاني في صدقات الرسول (ص) وما غرسه بيده الشريفة) وهذه القطعة تقع من المطبوع من ص ٤٧١ إلى ص ٩٨٨ — وتقع هذه القطعة الناقصة من أولها وآخرها في ١١٠ ورقات وتقع هذه الورقات في (٢٢٠) صفحة وخطها حديث ، ومملوء بالتصحيف . كان النور — في المكان الذي جلست فيه للمطالعة — ضعيفا ، ومطالعة المخطوطات تتطلب أناةً وصبراً ، وكنت مشغول البال بالذهاب إلى (السفارة) لتسجيل جواز السفر ، وهذا أمر يتساهل فيه كثير من المسافرين ، فَفَضْلاً عن كون المادة الرابعة من التعليمات الحكومية المتعلقة بالسفر تنصُّ على أنه : (يجب على كل سعودي يحلُّ في بلد فيه ممثل حكومة جلالة الملك أن يتقدم إليه بتسجيله لديه مجاناً وذلك خلال شهر من وصوله ، واعطائه العنون الثابت لمحل اقامته ومن يخالف ذلك يجازى) . فَضْلاً عن هذا فإن تسجيله في مصلحة المسافر ، اذ لو ضاع الجواز لما تيسرت له العودة الا بعد اتصالات طويلة بالجهات الحكومية المعنيَّة بالأمر .

لقد اكتفيت بمطالعة مجموع يحوي كتاب « القاموس » ورسالتين لمؤلفه صغراهما « تحبير الموشين في الفرق بين السين والشين » كنت اطلعت على مخطوطة منها في مكتبة الأزهر فاستظرفت موضوعها غير أنني لم اتمكن من نسخها أو تصويرها ، فطلبت صورة منها ، وما علمت بأنها مطبوعة إلا

(١) وهو (الفصل الحادي عشر) في المطبوع .

عندما مررت بالقاهرة عائداً فاطلعني الأستاذ الجليل محمود شاكر على مطبوعتها [1] في بيروت فلم آسف ؛ فقد ظهر لي أن في هذه الصورة ما ليس في هذه المطبوعة ولا في نسخة مكتبة الأزهر ، ومن ذلك ما أورده على طوله، فهو يكشف للقارىء عن جانب من صلة الفيروزآبادي بملوك عصره قال : (وإني لما سعدت باستظلالي بظل مراحم سلطان الورى ، كهف العلماء والكبرا ، ملجأ الضعفا والفقرا ، خليفة الله الزاهي بذكره المنابر ، المفتخر بنعوته الأقلام والدفاتر ، الْوادُّ كلٌّ منصف تقدم على عصره لو أنه آخِر ، الهامي على البرّية هامي جوده ، المباهي آناءَ الأيام والليالي بجُوده ، المنفق في ذات الله تعالى جُلَّ موجوده ، الخاضع لجلال الله تعالى في ركوعه وسجوده ، السائر تأييد الله تعالى في أتباعه والإقبال في جنوده :

ملك تألَّق نوره بين الورى
كالشمس ، ما بين الكواكب تُشْرِقُ
سلطان أرض الله والملك الذي
أنْواءُ أنعمه الغزارُ تدفَّقُ
فالعدل منه والعطاء سجيّة
والجود عُودٌ في يديه مورقُ
يُجْبَى إليه جَنَى العلوم لأنه
ملك به سوق الفضائل تَنْفُقُ

مولانا ومالك أمرنا [2] وخليفة الله في عصرنا ، السلطان ابن السلطان ابن

---

(١) طبعت في بيروت سنة ١٣٣٠ في المطبعة الأهلية في ١٨ صفحة . وقبل ذلك طبعت في الجزائر سنة ١٣٢٧ في المطبعة الثعالبية بتحقيق العالم الجليل محمد بن شنب (بنشب) غير أن هذه الطبعة من الندرة بمكان .

(٢) هذه الأوصاف لا تليق بمخلوق ، وأوردناها محافظة على الأمانة العلمية ، دليلا على بعض أخلاق مؤلف الرسالة .

السلطان ، السيد الأجل ، الملك الأشرف ممهّد الدين اسمعيل [1] بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي ، هناه الله تعالى وهيّأ افتتاح الأقاليم بسيوفه وأقلامه ، وانتظام التأليف والتصنيف في سلك عقود نظامه، وظهور العلوم الواضحة الأعلام في شريف أيامه ، وأجرى في أقطار البسيطة ماضي حكم عزمه وقاضي عـزْم أحكامه ، حتى تعود الأيام مندرجة تحت أدراج أوامره الجارية بعفوه وانتقامه [2] . رأيت لاسمه الشريف مدخلاً في كتابي هذا من وجهين : أحدهما اشتمال اللقب الشريف بالشين ، واشتمال الاسم الشريف بالسين . والثاني : كون الاسم الشريف قبل التعريب بالعبرانية اشموايل ، فعربته العرب ، وقالت : اسمعيل ، فساغ من هذا الوجه فيه السين والشين ، وزاد به بهجة وضياءً وحبرةً « تحبير الموشين »ونظيره في الأسماء يوشع ، فإن أصله بالعبرانية يوسع ،فعربته العرب وقالت يوشع بالشين ، كما يأتي ذكره في آخر الكتاب عن البخاري وكذلك سعيا وشعيا في اسم نبيٍّ من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فتعين حينئذٍ جلاء هذه الخريدة الغرا على منَصَّة العرض بين يديه، وعرض هذه الفريدة الغرا في موقف الخدمة عليه ، فهي عقيلة تعقي العقول وتزري بالعقايل ، وتفعل بألباب ذوي الآداب فعل شَهيّ الشَّمُولِ وبَهِيّ الشمايل ، وتزهو على الزهور وتُخملُ زهْرَ الخمايل ، وتحور القول بإدراك القول بإدراك الأواخر ما فات الأوائل ، وتسير كالمثل سَيْراً أسْيَرَ من « المثل الساير » وأدور بأفواه الرواة من الفلك الداير ، وأحرز لقصب السبق من المُجَلِّي وإن جاء في الآخر . فيا له من كتاب فتحت به الكتب وكان المسكُ ختامَه ، وجامع لما تشتت من الغريب فهو أحقّ بالإمامة ممن جاء أمامه ، كل ذلك أكسبه انتسابه إلى من وُسِمَ باسمه ، وجدّد ديباجه بوسمه :

الأشرف الملك المأمول نائله
من باسمه تزدهي الأقلام والصحف

---

(١) أبقيت كثيراً من الكلمات على صورتها .
(٢) وهذا من الاعتداء في الدعاء ، والمبالغة في المدح ، وكلاهما لا يجوز شرعاً .

كفاه فخراً بأن العلم يخدمه
والعلم فيه لأرباب النهى شرف

لا زالت الصحف والكتب مزينة بذكر صفاته ، والملوك مُحرِمَةً إلى حرم كرمه آمّين كعبة عناياته [1] ، لاجئين إلى ظله الظليل في شرايف عتباته ولا برح النصر واليمن مقرونين بآرائه وآياته [2] ، والبيض والسمر كالأقدار في جنود عزماته) [3] .

تقع هذه الرسالة في سبع صفحات من القطع الكبير (مقاس المكتوب فيه ٢٥ × ٨ سم) في الصفحة ٣٥ سطراً بالخط الفارسي ، والكاتب يمني — فيما يظهر — في القرن الحادي عشر تقريباً .

ومن لطيف تعبيرات المؤلف قوله : (الدَّسْتُ والدشتُ — بفتح الدال فيهما — الصحراء الواسعة ، ولا تتوهم أن الدست فارسيةٌ ، بل عربية أغاروا عليها . قال في كساء صوف :

من كان ذا بَتٍّ فهذا بتي — مُقيِّظٌ مصيفٌ مُشتّي
تخِذْتُهُ من نَعَجاتٍ سِتِّ — سُودٍ سمانٍ من نعاج الدسْت

انتهى . وأقول: ليت إغاراتهم التي من هذا النوع تكثر ، ولا تتجاوز الكلمات اللغوية !!

عندما انتهيت من المطالعة دعاني الأخ المشرف على قسم المخطوطات إلى غرفة تقابل مكتبهُ ، وأدخلني على صاحبها ، وكنت قد قدمت بطاقة اسمي للأول ، ولما جلست قال لي صاحب الغرفة : إنه يحب معرفتي فهو موظف في (قسم الابحاث) وقدم لي بطاقة تحمل اسمه : (محمد قنانش — المكتبة الوطنية — قسم الأبحاث) فرأيت فيه الرجل الفاضل المتخلق بأخلاق العلماء ،

(١) وهذا تشبيه قبيح — فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم — .
(٢) كذا ولعله (وراياته) .
(٣) لولا الأمانة العلمية لوجب حذف هذا الدعاء المحتوي على مبالغات . بل مجازفات قبيحة .

وأخبرني عن قرب افتتاح (اسبوع الكتاب) من ١٩٧٢/١١/٢٧ إلى ١٩٧٢/١٢/٢ وأنه سيقام معرض للمخطوطات تقيمه وزارة الأنباء والثقافة في (المكتبة الوطنية) وقد رصدت له ثلاث جوائز ، كل جائزة ثلاثة آلاف دينار (٦٦٠ دولاراً تقريباً) لأحسن مخطوط من حيث القدم ، أو الموضوع ، أو الندرة ، وسيعرض في هذا المعرض مخطوطات تقدم بها أصحابها لنيل الجوائز ، وقد كرُمَ الأستاذ فأراني بعضها ، ولكوني قد تعبت من المطالعة وأصبح ذهني مشغولاً بزيارة السفارة اكتفيت بوصف مخطوطة كتاب « الانس الجليل » للعليمي ، لعلمي بأن الصديق الكريم الدكتور ناصر الدين الأسد مدير الإدارة الثقافية في الجامعة العربية ، يعنى بتحقيق هذا الكتاب الذي طبع طبعتين غير محققتين . والمخطوطة التي ستعرض في (معرض المخطوطات) يملكها الأستاذ الشيخ المهدي البو عبدلّي ، من موظفي وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية . وهي مخطوطة سنة ١٠٧٠ هـ وتقع في ٤٩٦ صفحة ، ولكنها تمتاز على المطبوعة بزيادة في آخرها عن حوادث سنتي ٩٠٢ و ٩٠٣ — بينما المطبوعة تقف عند ذكر بعض حوادث سنة ٩٠١ ، وفي هذه المخطوطة تقريظ لابن أبي شريف المعروف بابن عوجان المالكي شيخ المؤلف ، وهذا الشيخ تقع ترجمته آخر المطبوعة ، وآخر نسختين مخطوطتين رأيتهما في المكتبة العامة في تونس برقم ٤٨١٠ و ٤٨١١ وهما لا تزيدان على ما في المطبوعة . وسألت الأستاذ عن رحلتين إلى الحج لعالمين جزائريين أحمد بن عمار والورثلاني وهما مطبوعتان : هل أجدهما لكي اشتريهما ؟ فكتب لي اسم كتبي كان صاحب مطبعة منذ عهد قديم ، وكان يبيع الكتب القديمة : (مكتبة السيد قدور رودوسي — نهج لالير — بقرب مسجد كشاوة) فودعته وخرجت قاصداً السفارة . وكنت قد استكتبت عنوانها في الفندق بالحروف اللاتينية التي يقرأها اكثر أصحاب سيارات الأجرة ، ولكنني لما قدمتها لأحدهم لم يحسن قراءتها وعرف من كلامي ماذا أقصد ، فاخترق المدينة صُعُداً ، ثم انحدر إلى سفوح تكثر فيها البيوت الحديثة ، وتزدان بالاشجار والحدائق

الكثيفة ، حتى وقف عند باب أحدها مشيرا إلى الكتابة الجميلة التي تزدان بالشعار السعودي الجميل ، غير أن الشرطي الواقف على الباب لما علم ان قصدي تسجيل الجواز قال : هذا مسكن السفير ، وارشد السائق إلى المكان الذي ينبغي ان أذهب إليه ، فسار منحدراً في شارع طويل تحيط به الدارات الجميلة بحدائقها النضرة ، وهو يحمل اسم العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي — رحمه الله — أحد زملائي في (مجمع اللغة العربية) وقد جرى التعارف بيننا قبل اثني عشر عاماً ، ولما زار الرياض أكرمني — اكرمه الله برضوانه — فزارني في مكتبي في (مطابع الرياض) وزادني إكراماً بقبول دعوتي لزيارة بيتي لقد توفي — رحمه الله — وخلفه في المجمع الاستاذ الشيخ محمد توفيق المدني ، وللشيخ البشير ابن أخ يتولى وزارة الاعلام والثقافة هو أحمد طالب الابراهيمي ، خرجت عن الموضوع ، والحديث (ذو شجون) كما يقولون .

ووقفت بي السيارة عند باب منزل لم أتبين فيه ما يهدى إلى موقع السفارة منه فنقدت الأجرة ، ولم تكن بالقدر الذي تصورته على أساس ما قيل لي عن الأجور فلم تتجاوز ١٢ ديناراً (٣ ٣/٤ بالنسبة للدولار) ودخلت الدار ، وصعدت المصعد مع رجل سبقني إليه فلما بلغ الدور الخامس وأراد الخروج سألته عن (السفارة السعودية) ففهمت من كلامه أنه لا يعرف موقعها ، وأشار لي بالنزول ، وعند الباب علمت أنها في الدور الثاني .

لم أر مكاتب سفارة ما في مكان ما أقرب إلى الاقتصاد مما شاهدت اليوم ، وهذا في رأيي يرجع إلى أسباب أحدها أن السفير — أيّ سفير كان — يقوم بكثير من الأعمال كالاستقبالات الرسمية وإقامة الحفلات في الدار التي يسكنها وهي السفارة في الواقع ، بخلاف المكاتب التي قد تنحصر أعمالها في الشؤون القنصلية وما شابهها من الأمور المتعلقة بعامة الناس لا بخاصتهم . وثانيها : أن أزمة المساكن — في الجزائر — على ما يقال — على درجة لا تمكن من العثور على منزل مناسب في كل وقت .

أُرشدت — بعد أن قرعت الجرس وفتح لي الباب — إلى مكان تسجيل الجواز ، فوجدت الأخ إبراهيم الصالح الحُلَيْسي ، وكنت عرفته قبل

عشرين عاماً حينما كان يدرس في القاهرة ولبعد العهد ، لم يعرف أحدنا الآخر ، فقد سألني عن صلتي بـ (حمد الجاسر) الذي كان . . . وكان . . . ولما عرف أنه لا فرق بيني وبين من سأل عنه استغرب مني كيف لا اعرفه . إنه رجل طيب حقاً فقد استقبلني أحسن استقبال ، وتجاذبنا أطرف الأحاديث وشاركنا في ذلك زميل له من بيت (البرزنجي) من طيبة الطيبة، وعلمت منهما أنهمالا يطلعان على أخبار بلادنا إلا من صحفنا، وكثيراً ما يتأخر وصولها ، أما الإذاعة فلا تسمع من كل مذياع . ولما اردت الخروج أخبرت بوجود السفير ، وهو الأستاذ رياض بن فؤاد الخطيب . وفؤاد — رحمه الله — شاعر العرب الكبير الذي لا يجهله أحد ، ولكنني عرفته أول مرة قدم فيها مدينة الرياض سنة ١٣٧٠ هـ — تقريباً — معرفة خاصة ، وكنت آتي لزيارته كل ليلة في دار الضيافة، وشكا إليّ في أحد الأيام قلة الكتب التي يتسلّى بمطالعتها . وكنت في ذلك العام أتسلى — بعد فراغي من عملي — ببيع الكتب في مكتبة دعوتها (مكتبة العرب) مجاورة للمسجد الكبير في الرياض ، من جهته الشرقية ، وقد دخل موقعها داخله بعد زيادته ، وقد أهديت للأستاذ فؤاد — رحمه الله — طائفة من الكتب التي طلبها كـ « الأمالي » للقالي وشرحها و « شرح ديوان المتنبي » . وأذكر أنني احدى المرات التي زرته فيها وجدت عنده زائراً كان الأستاذ استثقله ، وسئم من كلامه ، فكان مما عَرَّضت به أن قلت : انظر — يا أستاذ — و (أعجب) وكان لهذا التعريض من الموقع في الكلام مالم يحس الزائر بالمقصود منه . فلما خرج قال الأستاذ : هل تعني : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسندة) ؟ فقلت : لم تخطر لي الآية الكريمة على بال حينما قلت ما قلت ،ولكنني أشرت إلى قول أستاذنا الجليل :

واعـــجب لغوغـــاء إن تشبع فقد رضيـــتْ
رضا السوائم ، أقصى هَمّهـــا العَلَـــفُ

وقصدت أنه منها . فكان ــ رحمه الله ــ كثيرا ما يقُول لي عندما يجري الحديث عن بعض الناس : هل هو منها ؟ !

أدخلني الأخ الحليسي على الأستاذ رياض ، فكان استقبالاً كريماً ، وأحاديث شتىّ ، وسؤالاً عن الفندق الذي أسكن فيه، غير أنني أظهرت عدم رغبتي بالاخبار باسم الفندق ، وودعته شاكراً ، ومررت على غرفة ثالثة سلمت على الذين فيها من أبنائنا من موظفي السفارة وتأبطت مجموعة من صحفنا أنست بقراءتها اليومين اللذين مكثتهما في الجزائر . ولم أكد أصل إلى الفندق ــ بعد أن تناولت الغداء في المطعم الواقع تحته ــ الا بابننا الأستاذ محمد بن عبد السلام ــ الملحق الثقافي ــ يدخل عليّ ، والأستاذ محمد أحد تلاميذي حينما كنت مدرسا فمديرا لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض ، وكان الصديق الأستاذ أحمد المانع أشار عليّ بالاتصال به قبل السفر إلى الجزائر لكي يساعدني فيما قد أحتاج إليه من الأمور ، غير أنني لا أرغب الإثقال على أحد في شيء من أموري ، ما لم أضطر إلى ذلك . ولما قابلت الأستاذ رياضا الخطيب سألني : هل قابلت فلانا ــ فأخبرته بانني أود لو تمكنت من اقتطاع أجزاء من وقتي لأقدمها لإخواننا من الموظفين ، فضلاً عن إشغال وقتهم بزيارات قد تؤثر على سير أعمالهم ، وقلت له ــ بعد الاعتذار ــ : ولولا اضطراري لتسجيل الجواز لحرمت مما شملني اليوم من سعادة الاستاذ ومن اخوانه من لطف وكرم [1].

ولكن الأخ الحليسي أراد ــ أكرمه الله ــ المبالغة في اكرامي فاتصل بالأخ محمد فأخبره بالفندق الذي أحل فيه، فجاء مسرعاً ، وكان منه عتاب كريم على عدم الاتصال به ، وكان حسن استقبال منه أكرم وأكرم .

يوم الأحد ١٣٩٢/١٠/٢٠ (١٩٧٢/١١/٢٦ م) لم أخرج لَيْلاً من الفندق ، فقد استهوتني قراءة الصحف التي كرم الاخ الحليسي فزودني

(١) توفى الأستاذ رياض هذ العام ١٤٠٠ ﻫ بغتة وهو سفير في (الباكستان) .

بها ، بل أوصلني معها (!) إلى الفندق في سيارته ، فقد أتى عليّ أكثر من ٥٠ يوماً لم أقرأ صحيفة من صحف بلادنا . وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً خرجت كعادتي ، فقد نصحني أحد الاطباء قبل خمس سنوات بأن أمشي كل يوم ما لا يقل عن ساعة ، لكيلا يترهل جسمي ويثقل ، ولأقلل من كمية تخثر الدم (الكلسترول) الزائدة . وفي أثناء عودتي إلى الفندق مررت بالجامع الكبير ، فدخلته ، وبينما أنا أسير في سَرْحَتِهِ – الجانب المكشوف منه – اذ تبعني رجل وسار معي ، فوقفت عند قربة معلقة في مؤخرة المسجد ، مملوءة ماء ، وقد رُبِطَ في فمها أنبوب طويل مرتفع من القصب (الحلفاء) ليشرب منه ، فسألت الرجل : ما اسم هذه – مشيراً إلى القربة – فقال : قربة – ونطق القاف كما ينطقها الحضر في نجد من مخرج يقرب من مخرج السين ، بخلاف البدو الذين ينطقونها من مخرج يقرب من مخرج الكاف ، ومما لاحظته في المغرب أن القاف والكاف والجيم لكل حرف صورتان في الكتابة ، الصورة المعروفة فيما اذا كان الحرف ينطق نطقاً فصيحاً ، ووضع ثلاثُ نقط عليه اذا كان مُعَطَّشاً – أي منطوقاً نطقاً يقرب من نطق حرف آخر ، فكلمة (قاز) تكتب : (كاز) وفوق الكاف ثلاث نقط ، وكلمة (الرقراقي) تكتب : (الرقراقي) وفوق القاف ثلاث نقط ، وهكذا . وهي طريقة سار عليها بعض المتقدمين من العلماء في المغرب .

لنعد إلى صاحبنا فلقد صار يكرر كلمة (قربة) ! حتى أحسست أنه بحالة غير طبيعية فأردت التخلص منه واتجهت نحو الباب غير أنه أمسك بيدي مشيراً إلى نافورة في صحن المسجد قائلاً : هذه نافورة ، وهذه أخرى . فشكرته ، وأظهرت له عدم رغبتي في رؤية النافورتين ، ولكنه لازمني ، ولما أردت الخروج من المسجد قال لي : أنا متنبي من بلدة بني هاشم ، فلم أفهم كلامه وقلت : أنت الذي تنبه في المسجد ؟ ومثلث ذلك بصوتي . فقال : (لا أنا نبي . . نبي مستخفي . أنزل عليّ سورتين . . . قرأت اليوم ورد سيدي محمد الجزولي وطلبت من الله مئة درهم) وأخرج

من جيبه كتاباً صغيراً كأنه « دلائل الخيرات » مشيراً إلى احدى صفحاته ، مكرراً (مئة درهم) وواقفا أمامي . لقد خفت من الرجل مما رأيت من تعلقه بي ، والخوف يطغى عليّ في مثل هذه المواقف بدرجة سيئة ، فأخرجت من جيبي ديناراً ودفعته اليه قائلا : هذا مئة درهم ، وكنت أظنه كذلك ، ولكن الرجل صار يكرر كلمة (مئة درهم . مئة درهم) ! فانسللت منه وذهبت مسرعاً .

لم يستقر بي الجلوس في الفندق حتى جاء إليّ الاستاذ ابن عبد السلام ، والاستاذ محمد المعتاز من خريجي (دار التوحيد) ومن خيرة رجال التعليم وهو من الأساتذة المبعوثين للتدريس في الجزائر فذهبا بي في جولة في المدينة وضواحيها حتى بلغنا في طرفها الشمالي الغربي ضاحية تدعى (سيدي فرج) على بعد عشرين كيلاً من المدينة ميناء على شاطيء البحر ، بينها وبين المدينة مروج وغابات كثيفة من الصنوبر ومزارع ، وفي الطرف الغربي من هذه المروج يقع (قصر الصنوبر) من أجمل القصور الحديثة هندسة وموقعاً فهو مطل على البحر ، فوق ربوة يزدان ما حولها بالدارات الجميلة ، والمروج الخضر ، وقد بني هذا القصر في آخر عهد الرئيس أحمد بن بلاّ ولكنه لم يكمل ولم ينزله ، فأكمل في عهد الرئيس هواري بومدين ، وأصبح خاصاً لإقامة المؤتمرات والاجتماعات الكبيرة . وهذه الأرض الواقعة بين الجزائر (العاصمة) وبين (سيدي فرج) كانت مزارع لكبار الفرنسيين فأممتها الدولة ، وأطلقت اسم أحد الشهداء ويدعي (بوشاوي) على أعظم مزرعة فيها . وفي هذه الناحية فنادق جميلة واسعة ، منها فندق يدعى الرياض ، وعلى ساحل البحر منها أقامت الحكومة مجموعة من المساكن تستعمل وقت الصيف وفيها أمكنة مهيأة للسباحة ، ووفرت فيها جميع ما يحتاج اليه من أثاث وطعام وشراب ، وتؤجر بأجور مرتفعة على الأثرياء والأجانب ، وهناك دارات جميلة بقرب قصر الصنوبر أعدتها الحكومة للسكن في كل وقت ولكن بأجور ترتفع عن مقدرة متوسطي الحال ولهذا فسكانها من الأجانب من الغربيين ، ذلك أن أصعب ما يعترض من يريد

سكني الجزائر – العاصمة – وجود المسكن الملائم سعةً وموقعاً وأجرة ، بسبب كثرة العائدين من الجزائريين إلى وطنهم بعد استقلالها .

للموظفين من أهل بلادنا عادة جميلة في هذا اليوم ، فهم يخرجون جميعاً بأهلهم واولادهم إلى (غابة بوشاوي) من الصباح ، ويقضون بياض اليوم مجتمعين ، متشاركين في أكلهم وجلوسهم وألعابهم ، ولهذا فهم كالأسرة الواحدة ، تقوى الصلة وتتوثق عرى المحبة والصداقة بين كبيرهم وصغيرهم . وقد دعاني الاخوان ابن عبد السلام ومحمد المعتاز للمشاركة في الاجتماع هذا اليوم ، غير أنني – وبين الحضور من لم يسبق لي أن عرفته – لم استحسن أن أفاجئهم برؤية إنسان قد يرون فيه ظلاً ثقيلاً يحول بينهم وبين الانطلاق على سجيتهم في يوم راحتهم فكان أنْ أكد الإخوان لزوم اجتماعنا عشاءً وحضرا إلى الفندق في الوقت المحدد وقد حضر قبلهم ابننا الكريم الأستاذ أحمد بن عبد الرحمن الغنيم ، من الأساتذة الذين ندبتهم وزارة المعارف للتعليم في هذه البلاد . ولقد عرفت الاستاذ أحمد بطريق المكاتبة أولاً ، فهو يُعدُّ دراسة عن إقليم الأحساء في العهد التركي الأخير ، ثم عرفته عن مشاهدة أثناء مروره بمدينة بيروت ، إذ كان يكرمني – أكرمه الله – بالزيارة ثم زاد إكرامه وفضله بزيارته لي اليوم ، بما أربى على شكري ، فله ولكل الأخوة في هذه المدينة الكريمة ممن أحاطوني بعنايتهم وشملوني بفضلهم ما أعتبر العجز عن شكره غاية ما أستطيع فعله كفاءً واعترافاً .

ولقد ألحّ الأستاذ ابن عبد السلام عليّ بعدم الخروج غداً إلى المطار حتى يكون معي – وإن كنت قد رتبت أمري على أن أحضر إلى مكتب شركة الطيران الجزائرية القريبة من الفندق ، لتنقلني سيارتها إلى المطار ، وأنا متخفف من كل شيء مما يجعلني لا أجد ما يضايقني فيه غير أن ابننا الكريم أراد أن يحقق القـــول :

ونكرم ضيفنا ما دام فيـــــنا ونتبعـــه الكرامة حيث ســـارا

ليس في الجزائر من الأماكن ما يقصد ليلاً للزيارة أو التسلية ، ولست من هواة مشاهدة السينما ، فكان أن أويت إلى الفندق مبكراً بعد أن تزودت ببعض الصحف اليومية والمجلات العربية .

وأقوى صحيفة تصدر في الجزائر هي « المجاهد » يومية بطبعتين عربية وفرنسية ، وجريدة الشعب عربية ، والجمهورية فرنسية ، أما المجلات ف « الأصالة » تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية و « الثقافة » تصدرها وزارة الاعلام والثقافة .

والصحف العربية وغيرها منتشرة بكثرة ، أما الكتب العربية فإن المطبوعات اللبنانية تطغى على غيرها ، لصلة أصحاب المكتبات بلبنان لنشاطه في مجال النشر ، ولعدم القيود على التصدير ، والطباعة العربية في الجزائر لا تزال ضعيفة لايتلاءم مع توثب هذا القطر الكريم نحو التقدم في مختلف مجالات الحياة . وفي هذا الأسبوع أقيم معرض للكتاب الجزائري في الجزائر ، كما أقيم في تونس بعد أسبوعين ، وقد جاء في كلمة ألقاها مدير دار النشر الوطنية في الجزائر أن حركة التأليف في العام المنصرم ١٩٧٢ أضعف منها في العام الذي قبله . ومن الحقائق المؤلمة التي ذكرها ان المؤلفات العربية التي قدمت لدار النشر لم تزد على أربعين كتاباً في مختلف الفنون كلها ، لم ير المشرفون على النشر منها ما هو صالح سوى سبعة ، ومعلوم أن الثقافة الفرنسية متغلغلة في هذا الجزء الحبيب من البلاد العربية منذ ١٣٢ سنة (من سنة ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢ م) وليس من اليسير اقتلاع جذورها في زمن يسير ، بل من العسير حقاً — إن لم يكن من المستحيل — اقتلاع تلك الجذور ، بل لعل من الخطأ محاولة ذلك ، فالثقافة الفرنسية ما هي سوى مظهر من مظاهر الثقافة الإنسانية العامة ، ولن تجد عاقلا يدعو إلى محاربة هذا النوع من الثقافة ، ولكنك تود لكل أمة تسعى نحو حياة كريمة من الحرية والاستقلال كيانا متميزا محاطا بجميع أسباب القوة التي تظهر تلك الأمة بمظهرها الصحيح ، وما سكان الجزائر سوى جزء من الأمة العربية الإسلامية التي تعتز بدينها الحنيف ، وترى الحفاظ على اللغة العربية حفاظاً

على كيان المجتمع الجزائرى ، وصيانة له . وأكتفي – عن الحديث في هذا الموضوع – بايراد ملخص مقال نشرته جريدة « العلم » التي تصدر في الرباط بتاريخ ١٣٩٢/١٠/٢٢ (٢٨/١١/١٩٧٢ م) .

لعل الجزائر هي البلد الوحيد الذي يعيش تحت ظله أدبان محليان : أدب باللغة الفرنسية . وأدب باللغة العربية . وقد اختلف الأدبان في النشأة وفي التطور ، ولكنهما التقيا حول الروح الوطنية ، وحول بحثهما المخلص في أزمة الانسان وبحثه عن هويته .

ارتبط الأدب المكتوب باللغة العربية في الجزائر بحركة « جمعية العلماء » ١٩٣١ وهي الجمعية التي قامت للمحافظة على تعاليم الدين واللغة العربية في مواجهة سلطات الاحتلال . وكان شعار هذه الجمعية هو « ما يصلح آخر هذه الأمة هو ما صلح به أولها » فأنشأت المدارس والكتاتيب والمعاهد الدينية ، وعملت على نشر الشعر العربي والنثر الأدبي القديم . ومن هذه الحركة انطلقت موجة من الشعر الثوري الملتهب . ولكننا نلاحظ انه بعد اندلاع حرب التحرير الجزائرية خفتت حدة موجة الشعر الحماسي حيث تركت الكلمة مكانها للمدفع والرصاص .

كذلك يمكن تتبع بدايات القصة القصيرة في مجال نشاط « جمعية العلماء » حيث بدأت القصة بشكل مقال أدبي ثم تطورت إلى ما يعرف « بالنماذج البشرية » .

ثم في عام ١٩٥٤ مع انفجار الثورة الجزائرية حققت القصة تطوراً كبيراً . وان بقيت مغلفة بغلاف من الرومانسية والتقريرية في سرد الاحداث من خلال تجميع قصص البطولة والشهداء .

ولعلّ النظرة القريبة لبعض قصص الشبان الجزائريين المكتوبة بالعربية تؤكد ان الشباب في الجزائر لم يقع في موجات الغموض والرؤيا الضبابية أو رفض الواقع لمجرد الرفض . لقد كانت هناك دائما مشاكل حية تدور حول بحث الشباب المثقف عن نفسه وعن مكانه في المجتمع الجديد .

الملاحظة العامة التي تميز أسلوب القصة القصيرة هي حدة الاسلوب وعنفه ، وقلة عدد المرادفات اللغوية التي لا تسعف الكاتب ليقدم وصفاً رقيقاً ناعماً .

أما الادب المكتوب بالفرنسية وهو الادب الاكثر شهرة على المستوى العالمي فهو ايضاً يعكس مأساة استعمارية .

لقد كان على الكاتب المثقف الوطني أن يواجه قدره وهو ان يكتب بلغة أعدائه ، وان يخاطب جمهور فرنسا قبل أن يخاطب جمهور الجزائر . كانت هذه هي البطولات التي حققها أدب مولود فرعون ، وكاتب ياسين ، ومحمد ديب .

توجد مجلة « آمال » وهي تنشر اعمال الشبان من قصة وشعر ، وهي تصدر عن وزارة الثقافة بالفرنسية كل شهرين .

وملحق « جريدة الشعب » الذي يصدر كل أسبوعين . كذلك مجلة « المجاهد الثقافي » ومجلة « الثقافة » ومجلة « الاصالة » .
وأنشط دور النشر والتوزيع ما تزال هي دور النشر الفرنسية تليها دور النشر اللبنانية . انتهى .

وأضيف إلى ما تقدم أن أدب هذا القطر الحبيب يبدو له ظاهرة تميزه عن الأدب في الأقطار العربية الأخرى هي التأثر العميق بما أحرزته البلاد من انتصار ، وبما برز من أبنائها من بطولات رائعة أثناء حرب التحرير ، فكان ان أصبح التغني بتلك البطولات من سمات أدب هذا القطر ، وكما كان العربي ينشد إبان مجده :

بلغنا السما مَجْداً وجُوداً وسُؤدُداً
وإنا لنرجو فوقَ ذلك مَظْهَرا [1]

(١) للنابغة الجعدي كما في « جمهرة أشعار العرب » .

فإن شاعر الجزائر في أيامنا هذه مفدى زكريا لا يرى ما يمنعه من أن يكرر في (إلياذة الجزائر) [1] :

جزائر ، يا مطلع المعجزات ويا حجّة الله في الكائنات
شَغَلْنا الورَى ، وملأنا الدُّنا بشعرٍ نُرتِّلهُ كالصلاة
تسابيحُهُ من حنايا الجزائرْ

ولا مجال للغض من هذه الحماسة الوطنية ، متى كانت غايتها إبراز ما للأمة من أمجاد ومآثر كريمة بدافع الحفاظ عليها . ولكنها متى تجاوزت الحد كانت ذات أثر غير حميد .

وقد أدرك هذا – ولا شك – الإخوة القائمون على تصريف أمور هذا البلد الكريم فسعوا – جاهدين – في سبيل توجيه الأمة للأفعال النافعة المجدية على قاعدة : (كونوا محققي أعمال ، لا مرددي أقوال ، وكونوا رجال مبادىء ، لا أتباع رجال [2]) .

* * * *

(١) « الأصالة » ج ٩ / ١٠ ص ٤٢ السنة الثانية .

(٢) الدكتور أحمد طالب الابراهيمي – وزير الاعلام والثقافة – في (مهرجان الشباب العربي) يوم الثلاثاء ١١ / ٧ / ١٩٧٢ – عن مجلة « الثقافة » ج ١٠ ص ٦ السنة الثانية .

من الجزائر إلى المغرب

وفي صباح[*] هذا اليـــوم (الاثنـــين : ١٣٩٢/١٠/٢١ ــ ١٩٧٢/١١/٢٧ م) بكَّرتُ في الخروج ، فأمضيت جزءاً من الوقت في التجوال حول البحر ، وفي وسط المدينة ، بقرب الجهة التي ذكر الاستاذ محمد قنانش أن مكتبة السيد قدُّور ردوسي ، تقع فيها ، وما ابتدأ الناس في أعمالهم في دكاكينهم إلا وأنا أقف أمام محلّ كتب فوقه : (مطبعة ومكتبة قدور) بعد أن سرت في شارع ذي سكك متشابهة كثيرة ، دخلت أكثرها بحثاً عن هذه المكتبة التي يظهر من وقوعها في (زنقة) منخفضة عن الشارع انخفاضاً كثيراً على قدم موقعها . دخلتها فوجدت رجلاً تدل سحنته على أنه تركيّ ــ وكذا قيل لي ــ شاحب اللون اشعل الشعر ، قصير الجسم ، ممتلئه ، وشاهدته واقفاً أمام منضدة طويلة ، وأمامه ورق سميك ، وفي يمناه حديدةٌ بطول الشبر يستعملها لتثنية الورق وتكسيره . سلمت على الرجل ، فرفع إليَّ رأسه ولم يردّ علي ، فلم أستغرب هذا فالناس في هذه البلاد وفي أكثر بلاد المغرب قد تحول عدم معرفتهم للهجة المتكلم دون الردّ عليه ، فصرت أنقل بصري في جوانب المكان المملوء بالكتب والدفاتر ، وبأجزاء من القرآن الكريم ، لعلي أرى بينها ما اتخذ منه وسيلة للتحدث مع الرجل ، وقلت في نفسي : لعله لا يفهم اللغة العربية ، وليس هذا بأمر مستغرب ، فقد رأيت في (الباكستان) استاذاً يحمل شهادة علمية رفيعة في الأدب العربي ، ويشرف على تنظيم مكتبة من انفس المكتبات الخاصة هناك ، وهو لا يحسن الكلام باللغة العربية ، انه ابن استاذنا الجليل الذي أمضى حياته في خدمة اللغة العربية ، وفي إحياء تراثها الشيخ عبد العزيز

(*) مجلة « العرب » ــ المجلد السابع ــ ص ٥٧٢ ــ .

الميْمني – رحمه الله – فابنه الاستاذ عمر بن عبد العزيز هو المشرف على تنظيم مكتبة والده حينما زرت الباكستان عام ١٣٨١ – وهو لا يحسن التكلم بالعربية ، وان كان يفهم ما يقال – على ما حدثني والده – ورأيت في إيران وفي تركيا أصحاب مكتبات تحوي كتباً عربية وهم لا يقرأون تلك الكتب ، ولا يفهمون لغتها ، وأشهر مكتبة في أوربا لنشر الكتب العربية هي مكتبة (بريل) في ليدن في هولندا ، ولما زرتها في شهر اكتوبر سنة ١٩٦٠ – لم أجد فيها من أتخاطب معه باللغة العربية ، فاكتفيت بنقد الثمن الذي كتب لي في ورقة الحساب (الفاتورة) وطلبت قائمة المكتبة فتبين لي فيما بعد بأن ما دفعته زائدا على ما في القائمة بما يقارب ٥٠ دولاراً من ١٣١ أعيد إلي نصفه ، واعتذر عن النصف بأن أثمان الكتب تغيرت عما في القائمة . لندع هذا ولنرجع للسيد الرودوسي التركي الجزائري . لقد مشى من مكانه نحوي حينما رآني انصرفت إلى أحد جوانب المكتبة فالتفت إليه قائلاً : أبحث عن كتب قديمة ، رحلة الورثلاني ورحلة أحمد بن عمار ؟ ! .

فصوب إلي نظره بحدّة ، ورفع يده و (المطوى) بها رافعاً صوته : (اخرج ، اخرج . مع السلامة . قديمة . قديمة . سبعين سنة ! قديمة ! قديمة !) فهرولت إلى الباب خارجاً ، وقلبي يرجف خوفاً مما في يده ! ! – وأنا كما كررت كثيراً – شديد الخوف إلى درجة الجبن من هؤلاء الذين قد ابتلي بالاجتماع بهم بدون سابق معرفة، وفي بلاد لا أعرف فيها ، وعلى حدّ المثل (ما الذي يدْري الثور بأنني عنتر ؟ !) وأمام مسجد كشاوة وقفت عند صاحب مكتبة كان له الفضل في ارشادي إلى مكتبة السيد قدور رودوسي، ولما حكيت له ما جرى قال : إن الرجل مصاب بمرض ، تعتريه نوباته بعض الاحيان ، وهو منذ سنوات منقبض عن الناس لذلك .

في أسواق الجزائر يكثر عرض ما يوجد في الصحراء من أشياء كالأمتعة والأواني والأسلحة، بل حتى بعض الحيوانات تُصَبَّرُ ثم تعرض للبيع وتستعمل معلقة في داخل البيوت، ولتلك الأشياء أسماؤها العربية كـ (القوس) و

(السهام) و (النشابة) ونحو ذلك من الأسماء التي أصبحت غير معروفة في جزيرة العرب ولكنها بقيت مع أهلها الذين انتقلوا إلى صحراء المغرب قبل الفتح الاسلامي وزمنه وبعده ، ولهذا فإن الباحثين في اللغة العربية قد يجدون في تلك الصحراء ما هو جدير بالدراسة .

اشتريت حِسْلاً – ضبّاً صغيراً – وعدت إلى الفندق لألمّ شعثي استعداداً لمرور الاستاذ محمد بن عبد السلام الملحق الثقافي لكي أزور المكتب الثقافي قبل ذهابي إلى المطار ، وعلى مقربة من الفندق مررت بمكتبة جذبتني كثرة ما رأيت في واجهتها من الكتب المتعلقة بتاريخ المغرب لدخولها هي (مكتبة الشركة الجزائرية) ، وكان الضبُّ في يدي ملفوفاً بورقة ، فلما سألت صاحبها عن بعض الكتب التي أبحث عنها قال : إنه ذاهب الآن لحضور الاحتفال بأسبوع الكتاب وسيعود بعد ساعة ، وفي إمكانه البحث عما سألت عنه إذا عدت إليه . فقلت له مازحاً : إذَنْ سأغادر هذه البــلاد الجميلة الحبيبة إلى النفس ، وأنفس هدية أحملها هذا الضب ؟ فتناول بيده كتاباً مدرسياً من الكتب التي أمامه ودفعه إليّ قائلاً : خذ هذا هدّية – والكتاب خير هدية – فاعتذرت عن قبوله ولكنه ألحّ ، فأخذته [1] ثم علمت أن الرجل كثير التردد على بيروت ، فرجوته عندما يمر بالدكتور المنجد أن يمر بي – بعد أن أخبرني بصلته بالدكتور – .

أتى إلي الاستاذ ابن عبد السلام فمررنا بالمكتب فأعجبت بمكانه ، فهو في دارة تتكون من دورين ، تحيط بها حديقة قد أينعت بعض ثمارها كالنّارنج (وغيره) ومدخل المكتب مزدان بمناظر مصورة عن بلادنا – – كالمشاعر المقدسة – ويحوي بعض الأواني والأشياء المستعملة عندنا . والدور الأول يحوي – فيما يحوي – حجرة واسعة حسنة الأثاث للاجتماعات والدور الأعلى يشتمل على المكاتب ، ويضم أحدها مكتبة قليلة الكتب مع حرص الاستاذ ابن عبد السلام على تنميتها .

(١) واسم الكتاب « تاريخ الجزائر » للمدارس الأبتدائية ج ٢ .

لم أطل الجلوس في المكتب خشية من التأخر عن موعد السفر ، فكان الخروج إلى المطار ، وإجراء ما يتعلق بالرحيل بسرعة ، بمساعدة الاستاذ محمد ، والواقع أن السفر – مع تقدم جميع وسائله وتيسرها – لا يزال (قطعة من العذاب) كما ورد في الأثر ، والمرء دائماً محتاج إلى من يعينه بالارشاد والتوجيه وغيرهما من وسائل المساعدة لاسيما في كثير من المطارات التي زادت الأمور فيها تعقيداً وصعوبة.

استغرق التهيؤ للسفر أربع ساعات في المطار من الساعة الحادية عشرة، ثم دعي المسافرون للخروج إلى الطائرة ، فمرُّوا أولاً بمفتّشين نبشوا بدقة ما يحملونه بأيديهم ، وبعد ذلك مَرَّ كل واحد بمكان صغير سُتِرَ مدخله بستارة من قماش وفي داخله إنسان يقوم بتحسس جسم الإنسان ! اعتراني شيء من الرهبة خشية أن المرء يُعَرّى في هذا المكان ، وذكرت حادثة وقعت لي في عام ١٣٦٧ هـ عندما سافرت من عمان إلى أحد الأقطار العربية في حافلة تضم ٤٣ راكباً ، فمررنا بالحدود فجرى تفتيش الأمتعة تفتيشاً دقيقاً ، ولكننا بعد أن وصلنا إحدى قرى ذلك القطر وقفت بنا السيارة أمام دار ذات ساحة واسعة ، وطلب من جميع من في السيارة النزول والدخول إلى ساحة الدار والاصطفاف صفاً واحداً ، فكان ذلك ، فإذا برجل كريه الخُلق والخلق يبدأ بتحسس جسم كل واحد منا ، ولا يستنكف من الوصول إلى مراقّ الجسد، فما كان مني قبل أن يصل إليّ إلا أن خلعت ما علىجسمي من اللباس سوى تُبَّان (سروال قصير) يواري العورة فقط، ورجوته أن يفتش الملابس وأن لا يمس جسمي ، وصرت أبرز له ما قد يريد ابرازه ، وجسمي يرتعد خوفاً من أن يضع يده عليّ ، ولكنّ الله سلم.

أما في مطار الجزائر فقد قال لي الرجل الذي دخلت عليه : أنت الذي أعطى المفتش السكين ؟ ! فدهشت وقلت : لماذا ؟ ولا أدري ماذا يقصد بقوله هذا فاكتفى بتحسس صدري وما حوله . ولكن المفتش الذي قبله لم يرَ في الحقيبة التي أحملها معي ما لفت نظره سوى الضَّب ، وكان ملفوفاً بورق فقال : ما هذا ؟ فأخبرته بأنه ضبّ غير أنه لم يفهم

مني مع أنني قلت له : (ليزر) وكذا يسميه بعضهم ، وهو اسمه بالفرنسية. فأزال الورق ، وفحصه بدقة ، ثم أعاده إلى الحقيبة .

كان وقت مغادرة المطار الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان الوصول إلى مطار النواصر وهو مطار الدار البيضاء الساعة الخامسة إلا ثلثاً ، وكان الجو حسناً فدرجة الحرارة ١٨ ° ، وكانت المعاملة في المطار سهلة ، فتح الحقائب والنظر إلى ما في داخلها . وقال أحد المفتشين وهو ينظر في حقيبتي — : أين ضيافتنا ؟ فأجبته مبتسماً : أنا الضيف يجب أن تضيفني أنت ، ونحن جميعاً في ضيافة مليك البلاد ! فضحك وقال : مع السلامة . ومما يحزن حقاً أن كثيراً من مفتشي (الجمارك) في بعض الأقطار العربية يتخلقون بخلق ذلك المفتش ولا يستنكفون .

يوم الثلاثاء (١٣٩٢/١٠/٢٢ هـ — ١٩٧٢/١١/٢٨ م) . وبعد انتهاء تفتيش الأمتعة — وكان سريعاً ، وختم الجواز وتغيير النقود بعملة مغربية كان الاتجاه من مطار النواصر إلى الدار البيضاء ، وكان الوصول إليها ليلاً ، مما اضطرني إلى المبيت فيها ، وعدم مواصلة السفر إلى مدينة الرباط . وعند النزول من الحافلة في محطة السيارات العامة تناول أحد الحمالين حقيبتي فطلبت منه إيصالي إلى فندق نظيف متوسط ، قريب من المحطة، فكان ذلك ، وكانت الاجرة ١٥ درهما (٣ دولارات تقريباً) والفنادق في الدار البيضاء بل في جميع مدن المغرب كثيرة، ولا يجد المرء صعوبة في البحث عما يلائمه منها. ومدينة الدار البيضاء هي القاعدة التجارية لبلاد المغرب،وهي أكبر مدنه — وسيأتي الحديث عنها عند العودة إليها — وتكاليف المعيشة في هذه البلاد سهلة ، يستطيع الإنسان أن يُكيِّفَها وفق حالته .

وبعد استراحة قصيرة في الفندق خرجت بحثاً عن العشاء ، فسرت في أحد الشوارع الكبيرة حتى مررت بمطعم ، يعتبر من الدرجة الأولى ، وما اعتدت ارتياد هذا النوع من المطاعم ، ولكن المشي أرهقني ، وأعياني العثور على مطعم يلائمني ، فكان ان دخلته ، وتناولت فيه حساء (شوربة)

وقطعة من اللحم مشـــوية ومتمماتها من خبز و (سلطة) وماء معدني — ودفعت مقابل ذلك ١٥ درهماً .

وفي الصباح حملت حقيبتي إلى (المحطة) فهي غير بعيدة من الفندق ، واتجهت إلى الرباط على إحدى حافلات (الشركة المغربية للنقل) والاجرة ستة دراهم ، وهي من مطار النواصر إلى الدار البيضاء خمسة دراهم ، لأن المسافتين متقاربتان فهي من الدار البيضاء إلى المطار ٧٣ كيلاً ، ومنها إلى الرباط ٨٠ كيلاً . واستغرق السير ساعة واحدة .

ومن محطة السيارات حملت حقيبتي إلى فندق مجاور لها ، فكان السكن فيه بأجرة أقل بيسير من أجرة الفندق في الدار البيضاء . مع أنه أحسن منه .
أخلدت إلى الراحة في الفندق‌هذااليوم بعد أن تجولت في المدينة ، ومررت بأمكنة كنت عرفتها في سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م فلم أشاهد تغييراً في أكثر ما شاهدت . . وكنت في رحلتي الأولى قد أمضيت في المغرب قرابة ٤٠ يوماً حيث مثلت صحافة بلادنا في معرض الصحافة العربية الذي أقيم من قبل مركز التنسيق بين اللجان الوطنية العربية لليونسكو في مدينة الرباط في المدة الواقعة بين ١٨ و ٣٠ من شهر رجب سنة ١٣٨٥ (١٢ إلى ٢٤/١١/٢٩٦٥ م) والقيت كلمة في الموضوع ، نشرت في العدد الثاني من نشرة « العالم العربي واليونسكو » كما نشرت في صحيفة « اليوم » التي تصدر في الظهران .

النشاط الثقافي في المغرب العربي

[كنت زرت المغرب ممثلا لصحافة بلادنا عند إقامة معرض للصحافة العربية في عام ١٣٨٥ فكتبت هذه الكلمة التي تصور جانبا من النشاط الثقافي قبل خمسة عشر عاماً].

القاريء العربي في بلادنا ، لا يزال يجهل كثيرا من نواحي النشاط الثقافي والأدبي في القسم الغربي من بلادنا العربية (المغرب العربي) جميعه .

ويرجع هذا إلى سببين .

أولهما : أن وسائل الثقافة الحديثة من صحافة وطباعة ومدارس وغيرها وإن انتشرت ووجدت في ذلك القطر في زمن متقدم ، إلا أنها كانت تخدم اتجاهات خاصةً بعيدةً كُلَّ البعد عن العالم العربي ، في لغته وفي مختلف اهدافه وغاياته ، وما كان لأبناء المغرب من يد في ذلك ، شأنهم شأن كثير من أقطار العالم التي كانت ترزحُ تحت نِيرِ الاستعمار .

وعندما هبّ اؤلئك الاخوة من غفوتهم ، وتخلصوا من الحكم الأجنبي سرعان ما سعوا جادّين بمختلف الطرق التي تمكنهم لا من اللحاق بركب الامة العربية فحسب بل من القيام بنصيبهم الكامل بدفع ذلك الركب وتقويم سيره ليبلغ الغايات الكريمة التي لا حياة لأية أمّة من الأمم بدون بلوغها .

ومظاهر النشاط في ذلك الجزء الحبيب من وطننا العربي وأوجهه المختلفة المتعددة لا يزال الكثير منها في بداية الطريق ، ولكن البوادر الطيبة منها وبواكير الأعمال — وإنْ بدَتْ مجهولة لدى كثير من المثقفين في المشرق

(*) اليوم — العدد ٥٨ — السنة الثانية — ٢١ ذي الحجة ١٣٨٥

العربي – كلها تبعث على الاعتقاد بأنّ ذلك القطر الكريم العربي المسلم سيسهم في بناء حياة أمته وحفظ كيانها في عصرها الحاضر ، كما أسهم في وضع أقوى اللبنات وأصلحها في بنائها في عصرها الغابر .

أما السبب الثاني لجهل القاريء العربي بنواحي النشاط الثقافي في ذلك القطر العربي الكريم فيرجع إلى ضعف الصلات بين اجزاء الوطن العربي في الشرق والغرب ، وعدم الوسائل التي تعين على ترويج وسائل الثقافة ونشرها في مختلف تلك الاجزاء ، فالقاريء في شرق البلاد أو غربها يقرأ الكتاب الذي تصدره إحدى دور النشر في أوروبا او امريكا في خلال أسبوع من نشره ، ويقرأ الصحيفة في يوم صدورها، ولكنه لا يتمكن من هذا بالنسبة للكتب أو الصحف العربية بل لا يكاد القاريء من شرق البلاد العربية أو غربها ان يعرف عن الكتب او الصحف التي تصدر في الجزء الآخر من بلاده ما تجب معرفته ، بالنسبة له كمثقف يعتبر جهله لأحوال بلاده نقصا مُشيْنا ، ولا سيما ما يتصل منها بالثقافة واصولها .

والحديث هنا ما هو إلا اشارة موجزة إلى بعض الجوانب الثقافية في – (بلاد المغرب) – : ولقد كان لذلك القطر الحبيب فضل السبق فيها في بعض تلك الجوانب بالنسبة لبلادنا – المملكة العربية السعودية – .

فلقد عُني ذلك القطر الكريم بصيانة تراثه عناية كان من أثرها طبع عدد كبير من المؤلفات المتعلقة بذلك القطر في الأدب أو الجغرافية أو التاريخ أو غيره من مختلف النواحي الفكرية .

معهد مولاي الحسن للأبحاث :

هذا معهد للدراسات والأبحاث ، يعني بما يتعلق بالمغرب من مؤلفات ، وبما يبرز آثار علمائه في مجال العلم والادب ، وقد قام بنشر عدد من المؤلفات منها ما هو قديم ككتاب « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » ورحلتي ابن جبير وابن بطوطة و« لباب المحصل » لابن خلدون وكتاب

« الفلاحة » لابن بصال ، ومنها ما هو حديث مثل « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» و« تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » و« البحرية العربية وتطورها في البحر الابيض المتوسط » و« تاريخ تطوان في أربعة اجزاء » و « علم الفلاحة عند المؤلفين العـــرب في الاندلس » ، و « ركب الحاج المغربي » ، ثم سلسلة « مشاهير رجال المغرب » وقد صدر منها خمسة وعشرون كتابا من تأليف الاستاذ عبد الله كنون .

وقد اصدر المعهد مجلة للابحاث والدراسات تدعى « مجلة تطوان » ، من سنة ١٩٥٦ م إلى سنة ١٩٦١ م .

ومن أبرز العاملين في هذا المعهد الاستاذ عبد الله كنون العالم العربي الكبير الذي طبع له المعهد كتبا كثيرة من تأليفه ومن تحقيقه ، والأستاذ عبد الله كنون من اعضاء (مجمع اللغة العربية) وقد طبع المجمع من تحقيقه كتاب « عجالة المبتديء » — في النسب للحافظ الحازمي المتوفي سنة ٥٨٤ هـ . وللأستاذ ابحاث في اللغة والأدب والتاريخ نشرت بعضها مجلة « المجمع العربي» في دمشق .

ومقر المعهد في مدينة تطوان الجميلة .

وفي المعهد مكتبة تضم مجموعة من الكتب والنشرات المطبوعة من عربية وافرنجية وقد صور قرابة خمسين مخطوطا من مكتبة (دير الاسكوريال) نشر بعضها ويقوم علماء وادباء من المغرب بدراسة قسم منها لاعداده للنشر

جامعة القرويين :

في المملكة المغربية — كما هو معروف — جامعتان جامعة محمد الخامس في الرباط وجامعة القرويين في مدينة فاس .

وتعتبر (جامعة القرويين) من اقدم جامعات العالم فقد انشئت في سنة ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م بصفة مسجد تقام فيه الصلوات أنشأته سيدة كريمة تدعى أمّ البنين فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري القيْرواني ، ثم اصبحتَ بمرور

الزمن جامعة اسلامية كان لها أثر كبير في حفظ التراث الاسلامي ، وفي نشر تعاليم الدين الحنيف ، في القارة الافريقية وما يجاورها ، بل تعداها إلى مختلف الاقطار الإسلامية الاخرى بما كان للعلماء الذين درسوا على علمائها او تلقوا العلم من مؤلفاتهم .

وفي عام ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م اقيم في مدينة فاس مهرجان ثقافي كبير بمناسبة الذكرى المائة بعد الألف لتأسيس تلك الجامعة حضره مندوبون عن جامعات العالم وشارك فيه من بلادنا سفيرنا في المغرب في ذلك العهد ، العالم الجليل الاستاذ خير الدين الزركلي بقصيدة من غرر الشعر ودرره منها :

من سفح (أجياد) ومن (يثرب)
تَحِيّةَ الْمَشْرِقِ لـ (المغربِ)
علوية النفحة قدسيّة
من طَيّبٍ تُهْدَى إلى طيبِ
لِلْوَحْيِ في إشْرَاقِهَا وَمْضَةٌ
من صادق البارق لا الْخُلَّبِ
تُعْرِب عن (عَدْنَان) فوّاحة
أنْسَامُهَا نداً وعن (يَعْرُبِ)
تَحِيّةَ النائي عَلَى وَجْدِهِ
ومن يُقَرِّبْهُ الْهَوَى يَقْرَبِ
ما مَشْرِقُ (الضّادِ) وما غَرْبُهَا
كلاهما شرقٌ على الأجْنَبِ
من دَوْحَةٍ أغْصَانُهَا ظَلّلَتْ
شعباً على الايام لم يُشْعَبِ

الأخــوانِ انضمَّ صَفَّاهُمَا
والتصَقَ المَنْكِبُ بِالمَنْكِبِ
عَيْنَانِ في وَجْهِ الزَّمانِ التَقَى
ضَوْؤُهُمَا في المَأمَلِ المُخْصِبِ

ومنها :

(أمُّ البنين) ازداد مَجْداً بها
(فهر) وفهر من بنيه (النبي)
ارست صُخَيْرات فكُنَّ الهدى
للناشِيءِ اليَافِعِ والأشْيَبِ
وكُنَّ للأجيالِ أحْدُوثَةً
للمُفْصِحِ المَوْجِزِ والمطنِبِ
(القَرَوِيِّين) التي نحتفي
بيومها الخالد في الأحْقُبِ
ليست بذكرى أو بأسطورة
نحن أمام الهيكل الأعْجَبِ
الدرة الغراء لما تزل
مصونة اللَّألاءِ لم تُثْقَبِ
ورضة المرتاد ، بل كعبة الْـ
قصاد ، لم تُوصَدْ ، ولَمْ تُحْجَبِ
أملى عليها الدهر اسراره
في الأعْصُرِ الأولَى ، وقال : اكتبي
سِيري بابنائك مَهْدِيَّةً
وشَرِّقِي بالرُّشْد أوْ غَرِّبِي

ويتبع جامعة القرويين في مدينة (فاس) مكتبة قيمة عامة تدعي (الخزانة الكبرى للقرويين) .

وإخواننا في المغرب يطلقون اسم (الخزانة) على المكتبة فيقولون (الخزانة العامة في الرباط) ويقصدون (دار الكتب العامـــة) ويستعملون كلمة (خروم) يريدون ما يطلق عليه الشرقيون (الدشت) أي الأوراق أو الكراسات من الكتاب او الكتب التي لم ترتب .

وفي (خزانة القرويين) في فاس محفوظات من أقدم المحفوظات العربية منها ما هو مكتوب على رَقّ غزال ومنها ما هو بالخط الكوفي القديم مثل كتاب « التاج » للجاحظ ، اجزاء منه مكتوبة للوزير الفتح ابن خاقان ومن هذه النسخة قطعة في المكتبة الكتّانيّة في (الخزانة العامة في الرباط) .

ويتولى ادارة (خزانة القرويين) عالم فاضل هو الاستاذ السيد محمد العابد الفاسي وهو استاذ في الجامعة وقد وضع للخزانة فهرسا كبيرا أكمل منه ثلاث مجلدات ضخام ، وألف رسالة عن المكتبات دعاها (الخزانة العلمية في المغرب) طبعت سنة ١٣٨٥ هـ تحدث فيها عن اهتمام ابناء المغرب من علماء وملوك بصيانة التراث بانشاء المكتبات ، وبالحرص على جمع الكتب وبين ما يتعلق بخزانة القرويين مما يهم الباحث بيانه .

والاستاذ العابد من أسرة علمية كريمة المحتد ، قرشية النسب، تدعى (آل الفاسي ابن الجد) هاجرت من (الأندلس) إلى (فاس) أثناء استيلاء الاسبانيين على الأندلس وخرج من تلك الاسرة عدد كبير من العلماء والاعيان وقد الف احد امراء المغرب كتابا عن تلك الاسرة يدعي « عناية أولي المجد ، بذكر آل الفاسي ابن الجد » طبع في فاس سنة ١٣٤٧ هـ .

ومن ابرز رجال هذه الاسرة في العصر الحاضر الشيخ محمد الفاسي رئيس (جامعة محمد الخامس) في المغرب والسيد علال الفاسي السياسي العربي المعروف ورئيس حزب الاستقلال في المغرب .

المركز الجامعي للبحث العلمي :

وفي مدينة الرباط مركز ثقافي يُعْنى بالبحوث والدراسات العلمية والأدبية والثقافية ، وهو تابع لجامعة محمد الخامس ، التي يرأسها العلامة الكبير الشيخ محمد الفاسي عضو مجمع اللغة العربية ، وللمعهد مجلة من أجود المجلات الثقافية العربية تصدر — بصفة دورية — وتعني بنشر البحوث المتعلقة بالمغرب على وجه العموم فتقرأ مثلا في عددها الرابع والخامس لسنتها الثانية سنة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م — الكتاب المغربي وقيمته للاستاذ محمد ابراهيم الكتاني — البحث العلمي والاستقلال للاستاذ محمد الديوري — الخزانة السلطانية وبعض نفائسها للاستاذ محمد الفاسي — كتاب « ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم » حققه وعلق عليه الاستاذ عبد القادر زمامه .

ثم تقرأ بحوثا بعنوان العلوم الاجتماعية — هي : مآل الدول المتخلفة أحمد بن موسي ، جوانب من الازمة المالية في المغرب سنة ١٨٣٠ م جرمان عياش — تاريخ القضاء بشمال المغرب على عهد الحماية : الحسن بن عبد الوهاب — التخطيط الاقتصادي في المغرب : عبد السلام الديوري — لغة الملحون : محمد الفاسي .

وفي العلوم الطبيعية بحثان عن آفاق العلم ، والذبذبات المناخية في المغرب خلال الزمن الرابع الجيولوجي .

وفي التاريخ والجغرافيا : نظم الدولة المرينية : محمد المنوني ، نشاة دولة الخوارج في المغرب : محمد بن تاويت — سياسة مولاي اسماعيل الخارجية : عبد الله العمراني .

ثم عن الكتب — في المكتبة المغربية — وصف لكتاب « الاكسير في فكاك الاسير » كتاب حققه الاستاذ محمد الفاسي وطبعه المركز الجامعي للبحث العلمي وهو أول كتاب طبعه في سلسلة (الرحلات) والأستاذ الفاسي ذو اطلاع واسع ومعرفة تامة بالكتب المؤلفة عن الرحلات في البلاد العربية

وعلماء المغرب ـ الأندلس والمغرب ـ قد بزّوا علماء المشرق في هذا المجال ولهم عشرات الكتب المؤلفة في وصف رحلاتهم إلى الشرق وإلى غيره ، مما لا يزال الباحثون عندنا يجهلون الكثير منها ، وقد تخصص الاستاذ السيد الفاسي في هذه الناحية وهو يقوم بتحقيق عدد منها كما سيُصْدِر كتاباً مطولا عن الرحلات يصف فيه ما اطلع عليه وما عرف عنها ، مضافا إلى ما سيقوم بنشره منها .

ثم وصف كتاب آخر نشر في المغرب هو « مستودع العلاقة » نشره المركز الجامعي للبحث العلمي ايضا وطبع في المغرب ـ تطوان ـ بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت مدير المعهد بتطوان ـ معهد مولاي الحسن للابحاث المغربية .

والاستاذ محمد بن تاويت عالم فاضل ، وهو يتفق مع الاستاذ محمد بن تاويت الطنجيّ في الاسم واسم الاب ، مما يوقع كثيرا في عدم التمييز بينهما ، ولقد كنت في بغداد منذ بضع سنوات ، مدعوّاً لحضور (مهرجان الكنديّ) فسألت أحد اخواننا من الوفد المغربي عن الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، وكنت قد عرفته في القاهرة وفي اصطانبول ، ولكنني لم اذكر كلمة الطنجي للأخ المغربي فقال لي : ها هو نازل في هذه الغرفة ، ولكني فوجئت برجل يفتح الباب نحيف البنية يختلف كثيرا في مظهره عن صاحبي فقلت له بعد السلام عليه : أنا اريد الاستاذ محمد بن تاويت فقال : أنا محمد بن تاويت ، واخيرا ادرك حيرتي فقال : لعلك تقصد الطنجي فقلت : هو ذاك فاخبرني بأنه في المغرب .

والاستاذ الطنجي من افاضل العلماء واوسعهم خبرة بالمخطوطات العربية ومن أعمقهم وادقهم في تحقيق تلك المخطوطات [١] ، وفي مجلة البحث العلمي بحوث على جانب كبير من القوة والدسامة لا نجدها في كثير من المجلات العربية الأخرى .

(١) توفي رحمه الله في اصطنبول قبل عشر سنوات .

مكتب تنسيق التعريب :

وفي المغرب ـ في الرباط ـ مكتب يدعى (المكتب الدائم لتنسيق التعريب) تابع للجامعة العربية والامين العام لهذا المكتب هو الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله وهو شعلة عمل متوقدة بكثرة ابحاثه اللغوية ، ويصدر المكتب مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب في العالم العربي ، يشارك في تحريرها علماء البلاد العربية شرقا وغربا ، ولهذا المكتب مقر يقع مجاورا لمقر جامعة محمد الخامس بينها وبين (الخزانة العامة) .

ويُخطِطُ هذا المكتب لأعمال واسعة ، ولهمة أمينه العام الاثر الكبير في هذا التخطيط الذي قد لا يتلاءم مع ما يستطيع المكتب تحقيقه ، فهناك عدد كبير من المعاجم يسعى المكتب لوضعها مثل « المعجم المصور » و « المعجم الحضاري » و « المعجم الوسيط » و « المعجم السياحي » و «معجم الحِرَف» بكسر الحاء وفتح الراء كالطّحَانة والخِبَازَةِ والفِرَانة .

وغير ذلك من المعاجم ، وهناك موضوع « موسوعة المَغرب العربي » التي دعا اليها المكتب وسعى لتحقيقها ، حتى تألفت هيئة للقيام بتدوين مواد تلك الموسوعة بجمعها وترتيبها وتتكون هذه الهيئة من لجنة التاريخ ، ولجنة الجغرافيا ولجنة مفاهيم الحضارة ولجنة الاقتصاد ولجنة المؤسسات والنظم المعاصرة ، ولجنة الترجمة ، وقد حوى العدد الثالث من مجلة « اللسان العربي » وهي مجلة ذلك المكتب ايضاحات وافية عن موضوع تلك الموسوعة

ولا نطيل الحديث عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب ـ ففي نشاط أمينه الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ما ابلغ صداه إلى مختلف الاقطار العربية .

تحيّة للمغرب العربي

[كتبت هذه الكلمة في جمادى الآخرة سنة ١٣٩٠ « ايلول سنة ١٩٧٠م» فرأيت المناسبة تدعو لايرادهاهنا ، ثم أعود لتحديث عن رحلتي في شوال عام ١٣٩٢ «نوفمبر سنة ١٩٧٢م»].

في (*) بلادنا لا نعرف أو لا يعرف الكثيرون منا الجهود العظيمة التي يبذلها أبناء عمومتنا في المغرب العربي في سبيل نشر الثقافة العربية ، ذلك أن الصلات الثقافية بيننا وبين مختلف الأقطار العربية تخضع لمؤثرات خاصة ، والقسم الحبيب الغربي من بلادنا وهو ما نسميه باسم (المغرب) بعيد عنا من حيث المسافة وبعيد عنا من حيث الصلة ، وبعيد عنا من حيث الحياة العامة ، ولهذا فقل أن تجد بين مثقفي الجزيرة من يدرك أن هناك إخوة لهم يسهرون أتم السهر على التمسك بالتراث العربي القديم ، يبرز أثره في النشر وفي التحقيق وفي الدراسة وفي التدريس ، وأذكر من أنشط القائمين على هذا الأمر أستاذنا وزميلنا في (مجمع اللغة العربية) السيد محمد الفاسي القرشي الأندلسي المغربي ، الذي يشرف الآن على توجيه الثقافة في هذا القطر العربي الشقيق ، توجيها عربيا ينبع عن محبة وعن إخلاص لأمته ولعروبته ولبلاده ، ولعل أبرز ما يقوم به هذا العالم الجليل إحياء كل ما له صلة بأرضنا الطيبة منبع الوحي والعرفان ، فقد عني أكثر ما عني بنشر الرحلات المغربية إلى البلاد الشرقية ، وأبرز من ذلك حلقة تتكون من خمس رحلات ، منها رحلتان خاصتان بالحجاز ، تحدثنا عن أولاهما في الجزء الذي هذا الكلام فاتحة ملحقه ، ثم رحلة ثانية هي « انس الساري السارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب »لعالم

(*) مجلة « العرب » — المجلد الرابع — ص ١١٥٣ — .

جليل يدعى محمد بن أحمد القيسي السراج ويلقب بابن مليح قام بهذه الرحلة فيما بين سنتي ١٠٤٠ و ١٠٤٢ هـ (١٦٣٠ – ١٦٣٣ م) ورغم أن العهد الذي قام الرحالة فيه برحلته كان عهد تبلبل فكري واضطراب ذهني ، وخمود من حيث الاتجاه للأبحاث المركزة التي تقوم على أساس عميق من الإدراك والفهم ، إلا أنه سجل معلومات ذات قيمة ، قد تفيد الباحث وقد تمده بشيء من المعلومات التي سجلت بطريقة من البساطة تتلاءم مع الحياة العقلية لهذا العهد ، يضاف إلى ذلك أن هذه الرحلة التي دونها الرحالة كانت وليدة نسخة واحدة يعتورها الخطأ والاضطراب والنقصان ، ومع أن المحقق البحاثة الجليل بذل الجهد ، غير أن الجهد وحده يحتاج إلى عون ، وهذا ما نراه مفقودا بالنسبة لهذه الرحلة .

ونحن في مقام التحية والترحيب لا مقام النقد ومن هنا كان لنا أن نقف ملاحظاتنا عن هذه الرحلة على أشياء تتفق مع ظروفها المختلفة ومع ما يجب أن نعبر به عن عميق ادراكنا لما بذله أستاذنا السيد محمد الفاسي في سبيل تحقيقه .

معروف أن القرن الحادي عشر الهجري عصر ركود فكري في العالم العربي ، وأبرز ظاهرة له ظاهرة التصوف ، وهي ظاهرة أقرب إلى الخمول منها إلى الحياة ، ولعل هذا أبرز ميزة تتصف بها هذه الرحلة ، وندع الاسترسال في الحديث عن هذا الجانب ، فهو أمر يوشك أن يكون عاما في مختلف الأقطار العربية في ذلك العهد ، ومن ثم فيحسن أن نمر على هذه الرحلة مر الكرام – كما يقولون – ضاربين صفحا عما زخرت به من أخبار مستفيضة عما يتصل بناحية التصوف . وناحية ما يتصف به أولئك المتصوفون ومن نحا نحوهم من صفات ندع تقديرها للمعنيين بذلك .

١ – ص ٧١ ثم لمقابر سيدنا شعيب . صوابها لمغاير سيدنا شعيب ، وهذا هو الاسم الذي لا يزال معروفا . وورد في كثير من الرحلات المشرقية بهذه الصفة .

٢ ــ ص ٧١ القول بأن مغاير شعيب بناحية الشام صحيح ، غير ان استدراك المؤلف ليس في محله إذ مغاير شعيب في شمال الحجاز المتصل بالشام .

٣ ــ ص ٧٢ ثم لماء الحورة صوابها الحوراء ، أشهر ميناء عرفت في هذه الناحية قبل عهد الاسلام ، وهو ميناء حل محله الآن ميناء صغير يدعى (املج) وأثبتنا تحديد هذا الموضع في كتابات كثيرة .

٤ ــ ص ٧٢ النبط صوابها نبط بدون اداة التعريف ، منهل لا يزال معروفا بهذه الصيغة التي وردت في كتب المتقدمين .

٥ ــ ص ٧٢ قال انه بعد سبع وعرات بأنَّ نور النبي إلى آخر الجملة التي يجب تأخيرها إلى جملة ثم (الينبوع) والينبوع صوابه : ينبع ، وهو بلاد واسعة ، ألفنا عنها كتابا مطبوعا حددنا فيه هذا الموضع ، وذكرنا كل ما يتعلق به من النواحي التاريخية .

٦ ــ أما القصائد الكثيرة التي حفل بها الكتاب ولم تنسب لقائليها ، ففي المؤلفات الحجازية عن المدينة مثل مؤلفات السمهودي وغيرها ما يوضح المجهول منها.

ثم إن المقام مقام تحية وتقدير وهذا يستلزم الايجاز بأقصى حدوده ، فلننتقل إلى تحفة أخرى من تحف ذلك القطر العربي الحبيب .

لقد كانت مجلة الثقافة العربية ــ حسبما قرأنا في عددها الأول ــ مصدرا ذا أهمية كبيرة لمن يعنون بدراسة الثقافة في ذلك القطر ، فشيخنا الفاسي يتحدث عن نوع من الشعر يسمى الملحون ، ويذكر عروضه ومصطلحاته ، وهو نوع من الشعر لا يزال متداولا في وسط الجزيرة العربية وفي حجازها ويمنها ، وفي شرقها وشمالها . ويأتي السيد العلامة علال الفاسي القرشي الأندلسي فيتحدث عن التصوف ، وتلك ظاهرة شملت جنوب الجزيرة العربية وغربها بصفة لا تبعد عما عرف في المغرب .

ويأتي الأستاذ الشيخ عبد الله بن كنون ليتحدث لنا عن أبي عمران الفاسي حديثا نجد نفحاته طرية وقوية ومتشابهة أتم الشبــه بكثير ممن عاش في عصره من المشارقة .

أما حديث الأستاذ ابن شقرون عن توحيد الثقافة بين دول المغرب العربي فهو حديث اليوم وغدا وبعد غد ، في مختلف أنحاء الأقطار العربية . ويتحفنا الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني بطاقة فكرية عن الإمام ابن حزم ، وهي ما نجد روافدها قوية في مشرقنا العربي قوة تجعل من هذا الامام منارا يهتدي به .

أما ما كتبه الدكتور محمود قاسم عن ابن عربي فهو يمثل دورا من أدوار صلة الثقافتين المغربية والمشرقية . وابن عربي بصرف النظر عن اتجاهاته الفكرية ، إلا انه ممن برز بروزا في الغرب والشرق لا يستطيع أحد نكرانه ، وأثر في الثقافة الشرقية تأثيرا مهما كانت نتائجه إلا انها قوية . ومعروف موقف علماء دمشق الذين عرفوا ابن عربي معرفة صلة ومن بينهم شيخ الاسلام ابن تيمية الذي كان من ألد اعداء هذا الصوفي ، اذ الفرق بين الرجلين ان أحدهما يدعو للقوة ، والآخر للخنوع والاستكانة ، وما أحوجنا إلى القوة في كل زمان ؟ !

أما عن حضارة العرب في الأندلس وعن جوانبها الغامضة في مقــال الدكتور كمال شبانه ومحمد المصمودي ، فمع كونهما زاخرين بأفكار قوية الا ان الموضوع لا يحتاج إلى كل الجهد الذي يحاول الباحثان بذله في هذا السبيل ، يضاف إلى ذلك مقال الأستاذ انور الجندي عن الثقافة المغربية .

والتحرر اللغوي وظهور الموشحات ، رافق في المشرق العربي ما يماثله مماثلة يصلح ان يقال عنها (وقع الحافر على الحافر) .

ويضيف الاستاذ محمد بن تاويت – وليس الطنجي ، بل هو التطواني – شيئا جديدا عن الثقافة المغربية حينما يتحدث عن معجم شمال المغرب .

والغريب في هذا المعجم الذي نقده ابن تاويت ان كثيرا من اسمائه تتفق مع اسماء كثيرة مشرقية ولا بدع في ذلك ، وقل مثل هذا فيما كتبه الاستاذ

عبد القادر زمامة ، عن مصطلحات علمية ، وان اختلفت التعبيرات تبعا لتطور الاحوال بين الشرق والغرب .

ومما اتحفنا به مغربنا الحبيب جزء من مجلة البحث العلمي ، وهو جزء شوال ورمضان (١٣٨٨ و ١٣٨٩) (يناير ديسمبر ١٩٦٩) وليس الذنب ذنب المجلة في كوننا لم نطلع على هـذا الجـزء الا في وقت متأخر. فالحـدود والقيود والفواصل والتعقيدات وأمور اخرى لا داعي لذكرها ، هي التي وضعت فواصل منيعة بين اجزاء البلاد العربية ، فأصبح الفكر العربي في دائرة ضيقة ، بحيث أن القارىء لا يعرف عن كثير من اجزاء الوطن العربي ما يريد معرفته ، وانما يخضع كل ذلك للتطورات والاحوال السياسية ، وقديما أثر عن حكيم مصر وعالمه الشيخ محمد عبده كلمته المأثورة عن السياسة ، ولا نريد استعراض هذا الجزء من مجلة البحث العلمي فقد يكون بين ايدي القراء ، وهذا يغنينا عن ذلك ، غير اننا نقدمها تحية من الاعماق لاخوتنا في ذلك القطر الحبيب ، فحياهم الله وقواهم ، وزادهم نشاطاً واستمراراً في سيرهم ، لكي تصبح الثقافة العربية كُلاً متكاملا على أقوى درجة من الصحة والكمال .

أما نشاط اخواننا وعلمائنا في المغرب العربي في مجال اللغة العربية الكريمة فهو نشاط بلغ درجة من الجودة أصبح كل واحد من المعنيين بالدراسات العربية يدركها أتم الادراك فهناك (المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي) وهو مرتبط بجامعة الدول العربية ، ويتولى ادارته احد علماء المغرب الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله .

ولقد حرصت عندما مثلت الصحافة في بلادنا في المعرض الصحفي الذي أقامته (اليونسكو) في الرباط سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٥ م) حرصت على أن أتصل بهذا المكتب ، وأن أعرف رئيسه معرفة مشاهدة فزرته في أحد الأيام ، فاستقبلت من أخ قيل بأنه هو مدير المكتب وهو الطريق الموصل إلى الرئيس، فقدم لي ورقة مطبوعة لتسجيل اسمي والغاية من الزيارة . وبعد وقت قادني

هذا الأخ بعد أن قال لي : لا تطل الجلوس عند الرئيس فهو مشغول ، فكان ان قابلت الأستاذ ابن عبد الله ، وبعد جلوسي برهة قصيرة جداً ، سألني عن الغاية من الزيارة ، ولما أخبرته لم يتبسط معي في الحديث ، بل اكتفى بأن دعا انساناً أرجعني إلى صاحبي الأول ، الذي قدم لي رزمة من الأوراق مطبوعة طبعا أوليا ، وليس من بينها من مطبوعات المكتب ما يفيد ، وقد وجدت الأستاذ ابن عبد الله بحالة لا تسمح له بالاسترسال في الحديث ولعلها طبيعته ، فعذرته واكتفيت بأخذ تلك الأوراق التي لم أستفد منها حرفا ، ولكنني — والحق يقال — استفدت من مطبوعات المكتب التي وصلت إلى بطريقة أخرى فوجدت فيها جهداً عظيماً ، إذ من بينها مجلة تدعى (اللسان العربي) ومن بينها معجمات أريد منها استعمال الألفاظ العربية ، وأخرى تتعلق بشؤون الحضارة العامة ، وغير ذلك من المطبوعات التي حملتني على اكبار ذلك العمل الذي يقوم به (المكتب الدائم لتنسيق التعريب من العالم العربي) في مدينة الرباط . ولا أدري عن مبلغ أثر هذا المكتب بين المعنيين بالحفاظ على لغتنا الكريمة ، لأنني لم أقرأ ما يطمئن النفس في صحافتنا الشرقية عما يبذله اخواننا علماء المغرب في هذا المجال الحيوي الذي هو دعامة من دعائم حياتنا ، ولا أدري هل سبب ذلك عدم انتشار مطبوعات المكتب ؟ ! أم هناك من الأمور ما أجهله مما جعل ادراكنا في المشرق العربي لجهود اخوتنا في مغربنا العربي ليس إدراكا كاملا يحمل على تقوية الصلة ، وعلى التآزر والتعاون في أمر هو من أوجب الواجبات وأجدرها بأن يتشارك الأخوة ويسعون لتحقيق الغاية الكريمة .

في مدينة الرباط

عندما حللت في مدينة الرباط [يوم الثلاثاء ٢٢ / ١٠/ ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢/١١/٢٨م] رأيت الاستفادة من وقتي في الاطلاع على كتب الرحلات التي تتعلق بالحج ، والخزانة العامة في هذه المدينة هي أحفل المكتبات بها ، إذ علماء المغرب بزوا المشارقة في هذا الفنّ . إننا لا نعرف من رحلات متقدمي المشارقة سوى عدد قليل منها :

١ — « سفرنامة » لناصر خسرو — رحلة طُبعت معربة عن الفارسية — .

٢ — رحلة الصفدي إلى الحج ، كانت بخطه في الزاوية الناصرية في درْعة في المغرب ، وعنها نقل ابن عبد السلام الناصري في رحلته الكبرى نصوصاً .

٣ — رحلة النابلسي الكبرى ولا تزال مخطوطة .

٤ — رحلة البكري ومنها نقول كثيرة في « الرحلة العياشية » و « الرحلة الناصرية » و « الترجمانة الكبرى » .

٥ — رحلة لبكري آخر نشر خلاصة ما يتعلق منها ببلاد الشام الاستاذ سامح الخالدي في مجلة « الرسالة » .

٦ — رحلة ابن القاسم الواحدي من حلب إلى مكة — ذكر الدكتور صلاح الدين المنجد أن منها نسخة في (كلية العلوم — بمعهد الدراسات الشرقية في لينغراد [١]) برقم(B 800).

(*) مجلة « العرب » — المجلد السابع — ص ٦٤١ — .

(١) « مجلة معهد المخطوطات » ٦/٣٢٢ .

٧ — « الانعام التام بالرحلة إلى البيت الحرام » تأليف عبد الملك بن حسين الآنسي المتوفي ١٣١٥ هـ . مخطوطة في المجموع رقم ٣٤ المكتبة المتوكلية بصنعاء [١] .

٨ — بلوغ المرام [٢] ، في الرحلة إلى البيت الحرام وإلى المدينة المنورة لزيارة سيد الأنام . تأليف يحيى بن مطهر بن اسماعيل اليمني المتوفى ١٢٦٨ هـ.

٩ — قرة العين ، بالرحلة إلى الحرمين ، تأليف لطف الله بن أحمد جحاف (المتوفي سنة ١٢٤٣ هـ) في سنة ١٢١٧ هـ [٣] .

ولكن للمغاربة عشرات الرحلات طبع القليل منها ، وبقي أكثرها مخطوطاً ، وقد كنت نقلت من مقال الشيخ عبد الحيّ الكتاني [٤] عنها أسماء ما أنا بحاجة إلى الاطلاع عليه ، غير أن الكتاني — رحمه الله — أورد الأسماء بدون أن يبيّن في كثير منها ما يتعلق بالحجاز ، فكان عليّ أن أطلع على ما ذكر من هذا القبيل ، مما أضاع جزءاً من وقتي ، يضاف إلى هذا أنّ الخط المغربيّ تصعب قراءته إذا كان مجوداً واضحاً ، فكيف إذا كان سقيما غير واضح ، كخط كثير من الرحلات المغربية .

كان الكتاني ذكر رحلة ابن حمادوش الجزائري ، ولكنني لما اطلعت عليها وتدعي « لسان المقال في النبّإ عن النسب والحسب والحال » لم أر فيها شيئاً يتعلق بالحجاز ، وما اطلعت عليه منها هو الجزء الثاني — رقمه في المكتبة الكتانية في (الخزانة العامة) : ك ٤٦٣ ومثلها رحلة محمد الحمّال ، فهي إلى مدينة فاس ، وهي برقم ك : ٤٦٧ في مجموع تبتديء من ص ٩٧ .

وكذا رحلة الكتاني رقم ك ١٠١٢ ، فإنها — وإن كانت إلى الحج — إلا أنها تنتهي إلى الحديث عن مصر ، إذ هي ناقصة ، وهي في مجموع تبدأ من ص ٢١٣ إلى ٢٧٩ ، ثم إن كثيراً من مخطوطات (الخزانة العامة)

---

(١) « مراجع تاريخ اليمن » ص ٤٦ .
(٢) « نيل الوطر » ٢/٤١١ .
(٣) « نيل الوطر » ١/١٩٠ .
(٤) « العرب » السنة السادسة ص ٧٤٦/٧٥١ .

لم يفهرس بطريقة تسهل الاطلاع على ما يراد منه ، فقد ضُمّ إلى الخزانة عدد كثير من الكتب من أماكن مختلفة ، ولم تجمع في فهرس عامّ ، ولهذا فلا بُدّ للباحث أن يطالع عدداً من الفهارس .

لقد أمضيت يومي الخميس والجمعة (٢٤ و ١٣٩٢/١٠/٢٥ ـ ١١/٣٠ و ١٩٧٢/١٢/١ م) أمضي بياض النهار في تلك الخزانة ، أكون من أول داخليها في الصباح ، أما في المساء فإن شدة البرد وكثرة المطر ، ورداءة الانارة في تلك الخزانة ـ بالنسبة لضعف بصري ـ كانت من الأسباب التي تجعلني حبيس الفندق . ولقد تيسر لي تصوير جانب كبير مما أحتاج اليه من الرحلات التي اطلعت عليها في تلك الخزانة ، واني لأذكر شاكراً فضل الصديق الكريم الاستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتاني ، فقد كان لي خير عون للحصول على ما أريد ، وأذكر أنني في رحلتي الأولى طلبت من زميلي الأستاذ الشيخ محمد الفاسي ـ وكان رئيس جامعة محمد الخامس ، والخزانة تابعة لها ـ طلبت منه المساعدة فيما إذا أردت تصوير شيء من الكتب ، غير أنني عندما رغبت في تصوير كتاب « الدلائل » للسرقسطي لم يتيسَّر لي ذلك ، لعدم توفر الوسائل إذ ذاك ، أما الآن فقد أنشيء في الخزانة قسم للتصوير ، ولم أصور كل ما يتعلق بالموضوع الذي أعنى به فهناك عدد من الرحلات في الخزانة السلطانية ، ومنها :

١ ـ إحراز المعلّى والرقيب ـ لمحمد بن عبد الوهاب المكناسي (... / ١٢١٩) ورقمها ٥٢٦٤ .

٢ ـ رحلة القاصدين لعبد الرحمن المزمزي في سنة ١١٤٠ ورقمها ٥٦٥٦.

٣ ـ الإصليت الخرّيت . . لأحمد بن عبد الله السجلماسي (... / ١٠٢٣) ورقمها ١٠٠ و ٤٤٤٢ (١)

---

(١) منها نسخة في (دار الكتب المصرية) برقم ٤٣١ « دليل مؤرخ المغرب » ص ٣٦٩ ـ وتسمي عذراء الوسائل ، وهودج الرسائل » .

ورحلات أخرى – مما لم استطع الاطلاع عليها ، إذ دخول الخزانة ، ثم الاستفادة منها مما لا يتيسّر لكل أحد .

ومما لم أطلع عليه : « رحلة الأميرة خناثة بنت بكار (٠٠٠/١١٥٥) إلى الحج ، وفي المكتبة القروية بفاس الجزء الأول منها برقم ٣٨٣ – إذ لم أذهب إلى فاس ، فقد كنت زرت تلك المكتبة في تلك المدينة فكانت استفادتي منها قليلة ، لعدم تنظيم أوقات مطالعة المخطوطات .

ورحلة محمد بن عبد الله بن مبارك الوريكي ، وهي مصورة في الخزانة العامة في الرباط ولكنني لم أرها ، ورحلة محمد بن يحي بن المختار الشنجيطي (.../١٣٣٠) مصورة في (الخزانة العامة) على شريط (ميكرو فلم) فلم أستطع قراءة الصور .

ومما لم اطلع عليه من الرحلات المغربية المتعلقة بالحج مما أورده الأستاذ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المُرّي في كتاب « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » :

١ – « إتحاف الناسك ببيان المراحل والمناسك » : قال ابن سودة [١] : رحلة لم أدر جامِعهَا ، رأيت ذكرها بأسماء كتب دار المخزن السعيدة بفاس .

٢ – تعداد المنـــازل :

قال الأستاذ ابن سودة : رحلة صغيرة لأبي سالم اقتصر فيها على ذكر المراحل ، وذكر الاستاذ محمد الفاسي أنها توجد عند شيخنا عبد الحفيظ الفاسي [٢] ..

٣ – رحلة محمد بن عبد الله الشهير بمولاي الشريف الولاتي (.../ ١١٠١ هـ) .

---

(١) ٢/٣٣٣ .
(٢) « دليل » ٢/٣٣٩ .

٤ – رحلة أحمد بن عبد الله السوسي البيوركي الاسفريكيسي [١] (١١٣٦/٠٠٠) .

٥ – رحلة أحمد بن أبي عسيرة الفاسي [٢] (١١٣٧/٠٠٠) .

٦ – الرحلة الشافية . لأبي العباس أحمد بن صالح بن ابراهيم الدراوي الدرعي (١١٤٤/٠٠٠ هـ) .

٧ – رحلة أحمد بن محمد السوسي العباسي [٣] (١١٤٩/٠٠٠) .

٨ – رحلة محمد بن علي المعروف بالعياشي لقباً لا نسباً (١١٤٩/٠٠٠) . ذكر الزبادي في رحلته انه وقف عليها بخطه في خزانة رواق المغاربة في الأزهر [٤] .

٩ – رحلة محمد بن عبد السلام بناني في ١١٤١ هـ .

١٠ – رحلات محمد بن الطيب الشركي الصميلي في سنة ١١٣٩ .

١١ – رحلة عبد القادر بن أحمد الكوهن (١٢٥٨/٠٠٠) في خزانة الكتاني بفاس [٥] .

١٢ – الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية لأحمد بن العربي حسون الوزاني رحل سنة ١٢٦٩ . بخزانة الشيخ عبد الحفيظ الفاسي ، وفي الخزانة الأحمدية [٦] .

١٣ – رحلة المهدي بن الطالب بن سودة سنة ١٢٦٩ . قال ابن سودة : وقفت على الكراس الأول منها بخطه [٧] .

---

(١) « دليل » ٢/٣٤٥ .
(٢) « دليل » ٢/٣٤٥ .
(٣) « دليل » ٣٤٧ .
(٤) « دليل » ١٩/٣٤٧ .
(٥) « دليل » ص ٢٨٨/٣٥١ .
(٦) « دليل مؤرخ المغرب » ٣٥١ .
(٧) « دليل » ٣٥١ .

١٤ — رحلة محمد سعيد الشريف الكثيري السوسي المتوفي في آخر القرن الثالث عشر . قال الأستاذ ابن سودة : ذكر الاستاذ الفاسي أن الفقيه البونعماني (؟) عنده نسخة منها في سِفْرٍ وَسَطٍ [١] .

١٥ — رحلة لبعض السوسيين الغيغائيين تقع في مجلد ، في مدرسة الغيغائيين بسوس [٢] .

١٦ — « الرحلة العريضة في أداء الفريضة » لأبي حامد العربي المشرفي (٠٠٠/١٣١٣ هـ) تقع في مجلد ، يوجد طرف منها في الخزانة الأحمدية [٣]

١٧ — اللؤلؤة الفاسية في الرحلة الحجازية ، تأليف عبد السلام بن محمد بن المعطي العمراني المراكشي (٠٠٠/١٣٥٠) في سنة ١٣٢١ .

١٨ — المنح الوهبية في الرحلة الحجازية لابي عبد الله ، محمد التاودي بن محمد السقاط (؟) تقع في مجلد .

١٩ — المعارج الراقية في الرحلة المشرقية لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الرافعي الاندلسي التطواني ابتدأ رحلته سنة ١٠٩٦ .

في مجلد على ما ذكر الاستاذ ابن سودة ، وقال ان عند الأخ محمد بن داود نسخة منها [٤] .

٢٠ — «نسمة الآس ، في حجة سيدنا ابي العباس » تأليف أحمد بن عبد القادر الحسيني (٠٠٠/١١٣٣ هـ) .

تقع في نحو خمسة كراريس منها نسخة بالخزانة الفاسية [٥] .

٢١ — « نشر الاعلام بالحج إلى بيت الله الحرام » لأبي عبد الله محمد بن علي دينية الرباطي (٠٠٠/١٣٥٨) .

---

(١) « دليل » ٣٥٢ .
(٢) « دليل » ٣٥٢ .
(٣) « دليل ج » ١٢١/٣٥٣ .
(٤) « دليل » ص ٣٦٦ .
(٥) « دليل » ٣٦٨ .

٢٢ – « الفتح المبين في وقائع الحج وزيارة النبي الأميّ الأمين » لأبي الفضل جعفر بن ادريس الكتاني (٠٠٠/١٣٢٣).

٢٣ – « شفاء الغرام في حج بيت الله الحرام » لأبي عبد الله محمد الحجوجي (١٣١٠/١٣٧٠).

ومما صوِّرَ لي من (الخزانة العامة) :

١ – رسالة « المستبصر » لأبي بكر بن العربي المالكي الاندلسي ، فيها إشارات موجزة إلى رحلتـه في بلاد المشرق ، اعتمدت على قول الشيخ الكتاني أنها من رحلته قال : (وفي مكتبتنا الكتانية منها جملة صالحة ، وهي قطعة فذّة تتيه بها المكتبة فخراً) . ولكن تبين لي فيما بعد عدم صلتها بالرحلة وأن الاستاذ المحقق الجليل أستاذنا الدكتور إحسان عباس قد نشر هذه الرسالة في مجلة « الأبحاث » (١) عن نسخة أخرى ، وباسم آخر هو « قانون التأويل » .

٢ – رحلة إلى الحرمين الشريفين لمحمد بن أحمد اللكوسي (١١١٨/ ١١٨٩ هـ) .

٣ – « الرحلـة الحامدية إلى الاقطار الحجـازية » لإسماعيل الحامدي في سنة ١٢٩٧ هـ .

٤ – رحلة إدريس بن عبد الهادي العلوي المتوفي سنة ١٣٣١ هـ .

٥ – « بلوغ المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام » تأليف عبد المجيد بن علي الزبادي .

٦ – « الرحلة الفاسيّة الممزوجة بالمناسك المالكية » لمحمد بن الطيّب بن كيران المتوفي في سنة ١٣١٤ .

---

(١) في جزء كانون الأول سنة ١٩٦٨ م .

٧ – « الرحلة الحجازية » لعبد السلام بن العربي الوزّاني في سنة ١٢٦٩ هـ .

٨ – رحلة لأبي مدين عبد الله بن أحمد الروداني الدرعي ، المتوفي سنة ١١٥٧ هـ (على شريط) .

٩ – « هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام » لأحمد بن محمد الجزولي الهشتوكي المتوفي سنة ١٠٩٦ (على شريط) .

يوم السبت(*) : (١٣٩٢/١٠/٢٥ هـ – ١٩٧٢/١٢/٢ م) اضطررت – لاشتغالي بالتردد على الخزانة العامة – لتأخير زيارة السفارة إلى هذا اليوم وكنت أعرف موقعها – فذهبت بعد التاسعة متجهاً اليها ، ماراً بشارع محمد الخامس أعظم شوارع المدينة ، وفيه أهم الدوائر والمحلات التجارية وفيه حديقة صغيرة جميلة اسمها (حديقة الطائف) أمام مجلس النواب ، والماشي في هذه المدينة لا يستغرب اطلاق كثير من اسماء المدن العربية على شوارعها : (زنقة جدة) و (زنقة بغداد) و (زنقة حمص) و (زنقة صنعاء) و (زنقة الرياض) بل و (زنقة الكوفة) ويقصدون بالزنقة الشارع الصغير ، كالسكة عندنا أو العطفة في مصر ، ولكن الزنقة غالباً ما تكون نافذة بخلاف السكة والعطفة ، ومن ثم أصبح الاسم يطلق على الشارع عندهم كـ (المحَجّ) أيضاً . دخلت الدار التي تقع فيها المكاتب ، وبينما أنا أصعد في الدرج لحق بي شاب فسلمَ عليّ تسليم العارف وسار معي ، فدخلت أقرب مكتب يجلس فيه أحد الموظفين .

وجلست فيه بعد أن سلمت على من فيه ، ثم أخرجت الجواز ، وطلبت تسجيله فأخذه الشاب ، وسرعان ما عاد إلي هو وسليمان الناصر القائم بأعمال القنصلية ، وهو أحد تلاميذي القدماء . قابلني الاخوة الثلاثة بحفاوة وأخبروني أن السفير جالس ، عندما اظهرت لهم رغبتي في السلام عليه وهو الأستاذ فخري شيخ الأرض ، وقد كنت عرفته في فينّا حينما كان فيها سفيراً .

(*) مجلة « العرب » – المجلد السابع – ص ٧٢١ – .

ولقد حرص — اكرمه الله — على إكرامي ، فدعاني للعشاء ، وألح ، ولكنني اعتذرت ، فقال لي بأنه دعا للعشاء السفير العراقي اللواء فاضل سلمان العساف بمناسبة نقله من المغرب لسفارة بلاده في (ماليزيا) و (جاكرتا) ودعا معه السيد علالاً الفاسي ، ومع حرصي على مقابلة السيد علال فقد اعتذرت ، لقد عرفت السيد علالاً في القاهرة وكان يزور استاذنا الأستاذ محمود شاكر قبل خمسة عشر عاماً ، وحرصت على مقابلته حينما علمت وأنا ابحث في الخزانة العامة (دار الكتب) عن « رحلة الشريف عبد السلام بن العربي الوزاني » التي ذكرها الكتاني في المقال المنشور في « العرب » في شهر ربيع الأول من هذا العام (١) فقال لي الاستاذ ابراهيم الكتاني : بلغني أنها آلت إلى مكتبة السيد علاّل غير ان مقابلته لم تتيسر لي .

خرجت من عند الاستاذ فخري مغموراً بكرمه في حسن استقباله ، بعد ان زودني بمجموعة من صحف بلادنا ، وأمر ذلك الشاب الكريم عبد العزيز السلطان بإيصالي إلى الفندق الذي سألني عنه فأخفيته وأنشدت قول عروة ابن الورد :

وسـائلةٍ أيـن الطريـق ؟ وسـائل ؟
ومَنْ يسأل الصعلوكَ أينْ مذاهبه ؟ !

وقال الأستاذ فخري : إن مجلة « العرب » لا تصل إلى السفارة بانتظام كما كانت تصل إلى فينا ، وإن لها قرّاء كثيرين يسألون عنها ، ولكن لا يصل منها سوى أعداد قليلة جدّاً أو غير متتابعة ، بخلاف الصحف الأخرى .
وقال الاستاذ ابراهيم الكتاني : لقد كنت كثير الاتصال بالسفارة للحصول على « العرب » غير أنها — على ما يقولون — انقطعت منذ عام .

مما قرأت هذا اليوم : جريدة « العلم » بفتح اللام — لسان حزب الاستقلال اكثر الصحف رواجاً ، وأشدها اهتماماً بأحوال العالم العربي ،

---

(١) ص ٧٤٩ السنة السادسة .

ومديرها الاستاذ عبد الكريم غلاّب من خيرة الكتاب وأكثرهم اتزاناً ، كنت استمعت إلى محاضرة [1] له ألقاها عن الصحافة المغربية إبان إقامة معرض الصحافة العربية في رجب سنة ١٣٨٥ نوفمبر ١٩٦٥ ـ الذي أقامته (اليونسكو) في الرباط ، كما قرأت قليلاً من كتاباته في جريدة « العلم » وفي غيرها ، ورأيت فيما قرأت آراء الكاتب المتزن الغيور على أمته وبلاده . وقرأت في عدد اليوم من « العلم » تعليقاً عن الآثار الطيبة للرحلة الملكية في إفريقيا ، مما يبعث السرور في قلب كل عربي مسلم جاء فيه :

تعيش الأوساط الإسرائيلية على أعصابها هذه الأيام ، والدليل على ارتباكها تضاعف التخمينات في الصحف الإسرائيلية واهتمام أكيد من طرف حكومة تل أبيب بالقضية الجديدة التي يخشى الإسرائيليون أن تفضحهم وسط افريقيا وأمام العالم . فالنيجر قد تقرر بدورها قطع علاقاتها الديبلوماسية مع إسرائيل ، وقد جاء في البلاغ المشترك الذي صدر عقب زيارة الملك فيصل للنيجر ما ينبيء عن احتمال مبادرة مماثلة للقرار التشادي . ويشبه البلاغ في شكله وألفاظه محتوى البلاغ التشادي السعودي الذي سبق اعلان قطع التشاد علاقاتها الديبلوماسية مع إسرائيل . وحسب الأوساط الحكومية الاسرائيلية فإنه لا يخشي أن تقدم النيجر على قطع علاقاتها مع إسرائيل ولكن الأوساط السياسية والصحفية الاسرائيلية تختلف في تناولها لهذا الموضوع ، فبينما يعتقد بعضهم أن الوضع في النيجر يختلف عن الحالة في التشاد التي أرغمت الرئيس (تومبا لباي) على اصدار قرار المقاطعة تحت ضغط الحركة المعارضة التي يجابهها في شمال البلاد وهي « فرولينا » والتي كانت السعودية تساندها وانضمت إليها ليبيا منذ ثورة فاتح سبتمبر ١٩٦٩. وتؤكد مصادر أخرى ان النيجر في حاجة إلى مساعدة اقتصادية وفي امكان العربية السعودية تقديم المساعدة المطلوبة .

---

(١) نشرت في « العالم العربي واليونسكو » ع ٢ ص ١٣ / ٢٠ يناير سنة ١٩٦٦ .

يوم الأحد : (١٣٩٢/١٠/٢٦ هـ - ١٩٧٢/١٢/٣ م) :

أين أذهب ؟ ! السماء تكسوها الغيوم الكثيفة ، والامطار تسقط بغزارة ، والبرد شديد ، والفندق لا مكان فيه يقي من البرد سوى الاستلقاء فوق السرير و (تكديس) خمسة أغطية فوق الجسم والاسترخاء وأنا ممن لا يطيق ذلك ، وها هي الساعة قد قاربت السابعة وهو الوقت الذي اعتدت فيه الخروج والتجول سيرا على الأقدام حتى الساعة الثامنة ، وإذن فلأخرج وليكن ما يكون ! . سرت متحملاً ما يسقط فوق رأسي من زخات المطر ، ما يقرب من نصف ساعة ، ولكنني أحسست بأن الماء قد ملأ خُفيَّ ، مع كون الحذاء جيداً ولكن المياه المتجمعة في الطريق كانت غزيرة ، فاضطررت إلى التعريج إلى مكان أستريح فيه ، وكان (قهوة) لا بُدَّ لي من طلب شيء فيها ، لكي أتمكن من الاستراحة . فطلبت كوبا من الحليب وبعد شربه اردت اردت الخروج فلم أتمكن لغزارة المطر ، فرجعت إلى مكاني بعد أن تناولت من بائع صحف صحيفة تدعى (الأنباء) ويظهر انها هي الجريدة الرسمية ، فهي أقوى الصحف مظهراً من حيث جودة الورق وجمال الطبع ، وبعد تصفح عناوينها بسرعة خرجت عائداً إلى الفندق :

نطوّف ما نطوف ثم نـــــأوي إلى (البيت) . . .

وقبل الوصول إليه مررت بحافلة كتب فوقها (باب الخميس) فركبت فيها بعد أن دفعت ثمن تذكرة ٠/٢٥ من الدرهم ، وما كنت أعرف اتجاهها ولكني بحاجة إلى الحركة والمشي إلى أية جهة كانت ، لقد سارت بي - بعد أن امتلأت من الراكبين - حتى وقفت عند أحد ابواب مدينة عرفت انها (سَلاَ) إحدى مدن المغرب القريبة من الرباط ، فنزلت منها واتجهت مع أوضح منهج يسلكه الناس ، وكان طويلاً ضيّقا ، ذكرني بما كانت عليه مدينة الرياض قبل خمسين عاماً لا من حيث طول الشارع بل من حيث عرض البضائع على مختلف أنواعها إلا أن هذه المدينة قد شمل التنسيق كثيرا من جوانبها ، فهذه اللحوم والاسماك لها مكان ، وهذه الخضر ، وهذا

سوق الأحذية ، وهذه حديقة عامة واسعة في طرف المدينة ، والأطفال يسرحون فيها ويمرحون ، وهذا موقف للسيارات لا تتجاوزه إلى داخل المدينة ، وهذه ساحة واسعة ذات مدّرج يظهر أنها أعِدَّت للاجتماعات والاحتفالات العامة ، ولكنك عندما تتعمق داخل المدينة تشاهد كثيراً من المناظر المألوفة في بلاد نجد قبل خمسين عاماً ، فترى امرأة جالسة على الأرض وأمامها بعض العطور وغيرها كالحنّاء والسدر تبيع ذلك على الطريقة التي كانت مألوفة عندنا ، ولا تلبث وأنت سائر في طريق ضيّق ان تسمع صوتاً مرتفعاً يُكرر : (بالك ، بالك ! !) كما كنت تسمعها قديماً في أسواق الرياض أو الأحساء . وتشاهد في الحوانيت التي تمر بها أصناف البضائع المألوفة هناك كالتمر وانواع الحبوب وبطريقة العرض نفسها ، بل تشاهد بعض المصنوعات التي لا يخطر ببالك أن تراها ، فهذا (المنفاخ) الذي كان مستعملاً في نجد لإشعال النار مما لا تخلو منه أية (قهوة) في القرى الآن ، وهذه الأواني المتخذة من خوص النخل ومن الجلود ومن غيرهما .

إن المطر يهطل بقوة ، والأسواق كالانهار الصغيرة والمرء يسير بحذر شديد متتبعاً الأمكنة المسقفة أو المغطاة عن المطر ، لكن سرعان ما أقلعت السماء وطلعت الشمس ، ونضبت مياه الأسواق ، وهكذا الحال في جوّ هذه البلاد فإنه سريع التقلب .

واصلت السير داخل البلدة فمررت بقرب أحد مساجدها بمكتبة وقفت عندها فسلمت على الجالس فيها ، ولعله لم يفهم كلامي فلم يردَّ عليَّ ، وهذه عادة شائعة في هذه البلاد ولا استطيع تعليلها فقلت له ــ بصوت واضح ــ : ياأخي هل لديك كتب قديمة ؟ ! فقال : لا ــ وفخّم اللام ــ عندنا كتب مدرسية . فسألته : أين المكتبة التي تبيع غير الكتب المدرسية ؟ فقال : في الرباط فاجبته : لقد استرحتم ! ! ولكنه لم يفهم كلامي وأقبل على صحيفة كان يقرأها .

مما قرأت هذا اليوم : (النمل يبحث عن الماء : يسترشد مهندسون سوفييتون يبحثون عن مياه جوفية بآثار فصيلة من النمل ، لا تستطيع العيش بدون ماء ، وتحفر الأرض إلى مسافة ٢٠ متراً بحثاً عن رواسب مائية) جريدة الأنباء : (٢٦/١٠/١٣٩٢ ـ ٣/١٢/١٩٧٢ م)

وأقول : قد أدرك العرب هذا منذ عهد قديم . فقد ذكر المؤرخون أن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه سلم[1] لما أمر بحفر زمزم ، كان من العلامات التي اهتدى بها إلى موقع البئر قرية النمل . ولا تزال طريقة تحري مواقع المياه الجوفية بقرى النمل متبعة لدى بعض العرب في الجزيرة في عهدنا .

يوم الاثنين : (٢٧/١٠/١٣٩٢ ـ ٤/١٢/١٩٧٢ م) بكرت للخزانة العامة ـ كعادتي ـ فكان مما طلبت الاطلاع عليه كتاب « المقتضب من جمهرة النسب » و « الجمهرة » لابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب المتوفي سنة ٢٠٤ ـ تقريباً ـ والمقتضِبُ ياقوت الحموي ، ورقمه في الخزانة : ٧١٤٢ (١٣١٥ D) فوجدت النسخة سقيمة مملوءة بالتحريف والتصحيف كثيرة البياض ، ويظهر أنها منسوخة من نسخة دار الكتب المصرية التي بخط ياقوت نفسه ، ففي هذه الأخيرة كلمات انطمست حروفها بسبب تلاصق الورق فبدت غير واضحة ، فترك ناسخ النسخة أمكنتها خالية مما يدل على أنها نسخت في عهد متأخر ، ولم يُذكر تاريخ نسخها .

كتاب في الحماسة : وفي الخزانة مخطوط برقم ١٨٣٩ (١١٧١ D) كتب عنوانه في الفهرس المطبوع[2] « مجموع أشعار الحماسة » يقع في ١٠٥ ورقات (٢١٠ من الصفحات ، الأولى والأخيرة خاليتان من الكتابة ، في الصفحة ٢٣ سطراً) بخط مغربي مجودٌ مشكّل الكلمات وإن كان حديثاً (سنة ١٠٨١ هـ) وفي كثير من صفحاته هوامش لإيضاح بعض الكلمات ، أو لذكر الخلاف في نسبة بعض المقطوعات الشعرية ، وليس كل ما فيه

---

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام ١ / ١٥١ ط : مصطفى الحلبي بمصر ١٣٥٥ هـ ـ ١٣٩٦ م .
(٢) ج ٢ .

أشعار الحماسة ، بل يحوي ١٢ ـ باباً : ١ ـ الحماسة ٢ ـ المراثي، ٣ ـ الأدب ٤ ـ النسيب . ٥ ـ المديح ٦ ـ الأضياف ٧ ـ الهجاء ٨ ـ الصفات ٩ ـ السير والنعاس ١٠ ـ الطرف والملح والمفاحشات ١١ ـ مذمة النساء ١٢ ـ الكِبْر .

والمقطوعات فيه مرتبة على الحروف حسب ترتيب المغاربة مما يدل على أن مؤلفه مغربي ، وفيه كثير من الأشعار لشعراء مشهورين ومغمورين ممن لم تصل إلينا دواوينهم . وقد يورد بعض الأشعار غير منسوب بل يكتفي بكلمة (قال بعضهم) وقد يذكر في الهامش اسم القائل او الاختلاف في نسبة الشعر ، أو التنبيه عل خطإٍ في ذلك .

وبالجملة فهو من نوادر المخطوطات من حيث موضوعه ، لجودة اختيار أشعاره ، ولاحتوائه على مقطوعات لشعراء لم تصل إلينا أشعارهم كاملة كالقتال الكلابي وابن هرمة وأبي دهبل الجمحي وابن الدمينة وغيرهم .

والمخطوطة ورقها قد بَلِيِ بحيث أنه عند التقليب تتحات أطرافه ، وقد حدثت الأستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتّاني عن هذا الكتاب وهو ـ لا شك يعرفه ـ وانه يجب أن يصور صيانة له ، وها هو عرض موجز لمحتوياته :

أول الكتاب : (بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . باب الحماسة وهي الشجاعة قافية الألف . .

ثأرت عديّاً والخطيم فلم أضع وصية أشياخ جُعِلت إزاءها

ثم قافية الباء والتاء ـ فقصائد على حرف الراء ، ثم قافية الكاف ، فاللام فالميم فالنون ، ثم قافية الضاد فالعين فالفاء ، ثم قافية السين فالياء) .

ق ٢٨/أ (كمل باب الحماسة بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه) .

٢٨ ب (بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

وسلم تسليما . باب المراثي قافية الألف قال سُوَيْدٌ المراثي(١) الحارثي :

لعمري لقد نادى بأرفع صوته نَعِيُّ حُيَيٍّ أن فارسكم هوى

٤٦ ب (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . باب الأدب ، قافية الألف .
قال قيس بن الخطيم الأنصاري :

وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى إلا عناء

٥٩ / أ (كمل باب الأدب بحمد الله وعونه .
باب النسيب قافية الألف قال بعض الشعراء وتنسب لأبي زبيد الطائي :

إنّما مِيتٌ غير أني حيٌّ يوم بانت بودها مَسَاءُ (٢)

٧٣ ب (كمل بحمد الله وحسن عونه ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله . باب المديح ، قافية الألف قال أمية بن ابي الصلت الثقفي يمدح عبد الله بن جدعان التيمي :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياءُ)

٨٣ (كمل باب المديح الله تعالى وحسن عونه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله . باب الاضياف قافية الألف . قال بعض الرُّجّاز :

إنك يابْنَ جَعْفرٍ نِعم الفَتَى ونِعْمَ مأوى طارقٍ إذا أتَى)

٨٩ ب (بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . باب الهجاء ، قافية الألف قالُ محْرزُ بن المكعبرِ الضبِّي :

ألاَ ابلغْ عديًّا حيث صارتْ بها النوى

وليس لدهر الطالبين فناءُ)

---

(١) كذا في الأصل .
(٢) كذا ولعله (أسماء) أو (ميثاء) .

٩٨/أ (كمل بحمد الله وحسن عونه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما) .

٩٨ ب (بسم الله الرحمن الرحيم : صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما : باب الصفات . قافية التاء ، قال البَعيث بن حُرَيث :

وهاجـــرةٍ تشوي المهـــاةَ ســـمُومُها

طبَخْـــتُ بهـــا عـــيرانةً واشـــتويتُهـــا

— أربع مقطوعات — ٢٠ بيتاً .

٩٩/أ (باب السير والنعاس . قافية الباء ، قال بعضهم :

وَهُـــنَّ مناخـــاتٌ يُحاذِرْنَ قولـــةً

من الركـــب : أن شُدُّوا قتود الركائـــب)

— ٨ مقطوعات — ٤٢ بيتاً — .

١٠٠/أ : (باب الطرف والملح والمفاحشات . قافية الألف ، قال بعضهم :

وما العيـــش إلا أكْـــلةٌ وتَشَـــرُّقٌ

وتَمْـــرٌ كأكبـــادِ الجـــرادِ ومـــاء)

١٠٢ ب (باب مذمة النساء . قال بعضهم :

لا تنكحـــنَّ عجـــوزاً إنْ دُعيت لهـــا

واخـــلع ثيابك منهـــا مُمْعِنـــاً هرَبا)

١٠٤ ب (باب الكبر . قافية التاء ، قال بعضهم وهي تصلح لباب الأدب :

إذا ما يـــدٌ لم تُعْـــطِ ممـــا تخـــوَّلَتْ

من المـــال في المعـــروف يومـــاً فَشُلَّتِ)

— ٥ مقطوعات — ٢٦ بيتـــاً — .

١٠٥/أ (قافية الياء ، قال المستوغر بن ربيعة — وهو أحدُ المعمرين :

إذا ما المرءُ صمَّ ولم يُكلَّمْ
ولم يكُ سمعهُ إلاَّ نِدَايا [١]
ولاعَبَ في العشيِّ بَني بنيه
كفعل الهرّ يحترش القطايا[٢]
يُلاعبُهُمْ وودُّوْا لو سَقَوْهُ
من الذِّيفان مُتْرَعة إنايا [٣]
فذاك الهم ليس له دواءٌ سوى الموت المُبطّنِ بالمنايا
وَأبعدَهُ الإلهُ ولا يُحيَّا ولا يُشفى من المرض الشفايا

كمل جمع أشعار الحماسة والحمد لله على حسن عونه ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته وسلم وشرف وكرّم ، ليلة السبت الثامن عشرين ذي الحجة سنة احدى وثمانين والف على يدي عبد الرحمن اليعقوبي كان الله له . . .) .

إضافة : تبين لي بعد إطلاعي في (المكتبة الوطنية العامة) في تونس على « الحماسة » للأعلم الشنتمري أن الكتاب الذي تقدم وصفه نسخة أخرى من نسخ تلك « الحماسة » وسيأتي وصف النسخة التونسية .

رحلة ادريس بن عبد الهادي العلوي : (المتوفي سنة ١٣٣١ فيالمدينة[٤]) : ذكر الاستاذ ابن سودة في كتاب«دليل مورّخ المغرب[٥] » أن له رحلتين رحلة حجازية تقع في نحو الكراستين ، في الخزانة العامة بالرباط تحت عدد ١١١٥

(١) في الهامش : أراد نداء .
(٢) نوع من الحشرات .
(٣) الذيفان السم القاتل ، أي يبغض لكبره فيود أن يسقى السم ليموت .
(٤) « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ص ١٤٢ .
(٥) ص ٣٥٦ .

ضمن مجموع ، وهي رحلته الأولى ، خرج من فاس مسقط رأسه في جمادى الأولى سنة ١٢٨٨ هـ ، وأما رحلته الثانية الثانية فإنه لم يرجع إلى فاس بل توفي هناك انتهى. أما الرحلة التي اطلعت عليها فهي عن حجته سنة ١٢٨٣ هـ وقد تصفحتها وقال فيها : (وسرنا من سويس إلى ينبوع البحر ، ٤٨٠ ميلاً ، ووصلنا ينبوع البحر يوم الاحد رابع قعدة الحرام ، ونزلنا بدار الشيخ ابراهيم عواد وهو القاضي وقتئذ — على شاطيء البحر ، ونِعْمَتِ البلدة ، ولا زالتْ بها المآثر الأول [1]) وذكّر من المجودين لتلاوة القرآن المبين فيها : (السيد حامد الضرير ، وموذن جامع نبى الله يونس ، وكلاهما ممن تفضل الله بهما على تلك البقعة المكرمة [2]) وذكر انه زار (قبر الولي الصالح ، سيدي زارع ، وعن يمين الداخل خارج الروضة قبر الفقيه الأجل الأجل الألمعي الحافظ الأكمل شيخنا مُلين كل قلب قاسي ، سيدي محمد المكناسي ، وسيدي يحيى الهمداني ، ومعه في روضته سيدي أحمد الرفاعي ، وسوق الذيب (؟) المغربي وسيدي موسى ، وسيدي أبو فرّاج ، وسيدي ابن علوان ، وكل واحد من السادات الأربع (؟) له روضة خاصة) . ومن زوايا الذكر : زاوية الشيخ السنوسي ، وزاوية السمان ، ومما تقدم يظهر أن الرجل غير محقق وإلا فأين نبي الله يونس ، وأين السيد أحمد الرفاعي من ينبع ؟ ! ، أما الأسماء التي ذكر أنه زار قبورها فلأناس مجهولين وزوايا الذكر أفضل منها المساجد التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . ورحلة إدريس هذه كانت في سنة ١٢٨٣ — لا كما ذكر الاستاذ ابن سودة ، وتابعه مؤلفا « فهرس مخطوطات الخزانة [3] » أنها سنة ١٢٨٨ فقد جاء في مقدمتها : (في يوم الأحد الثالث عشر من رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين خرجت من محروسة فاس) وقد طالعت النسختين وليس فيهما كبير فائدة .

(١) ص ١٠ .
(٢) ص ١٧ .
(٣) ج ٢ ص ٢٣٩ .

« هداية الملك العلام ، إلى بيت الله الحرام » : كان الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ذكر في محاضرته التي قدمها لمؤتمر المستشرقين السابع و العشرين المنعقد في مشيجن في الولايات المتحدة في شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ م أن مما عثر عليه من الكتب في مكتبة الزاوية الناصرية في (تامكروت) بوادي درعة على بعد نحو ٤٠٠ كيل جنوب مراكش حوالي ٤٠٠٠ مخطوط ، أمر الملك محمد الخامس بنقل حوالي ألف منها إلى قسم المخطوطات في الخزانة العامة في الرباط . ومما ذكر الأستاذ ابراهيم من نوادر تلك المخطوطات : « هداية الملك العلام ، إلى بيت الله الحــرام » ، لأحمد بن محمد بن داود الجزولي الهتشوكي المتوفي سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م) ورحلة الحج لعبد الله ابن مدين بن أحمد الدرعي الروداني المتوفي سنة ١١٥٧ (١٧٤٤ م) . وقد ذكر لي الأستاذ ابراهيم أن الرحلتين من الكتب المنقولة إلى الخزانة العامة ، ووعدني بإطلاعي عليهما . بينما أنا أطالع أحد الكتب التي تقدم ذكرها إذا به يأتي إليّ بنسختين من الرحلة الأولى ، رقماهما : ١٩٠و ١٤٧ (مخطوطات الأوقاف) فتصفحت الأولى – وهي في مجلد – فلم أرَ فيها شيئاً يتعلق بالحجاز ، وكل ما رأيته خاص ببلاد المغرب ، مع مباحث علمية عامة يوردها المؤلف استطراداً ، فهو يدوّن كل ما يعن له تدوينه بمناسبة أو بدونها ، وهذه النسخة – بخط المؤلف كما يرى الأستاذ ابراهيم – وقد ترك في كثير من صفحاتها بياضاً لإكمال كتابة ما بدأ به فلم يتم ذلك . والنسخة الثانية (رقم ١٤٧) تقع في مجلد يحوي غيرها ، ولكنها – فيما يظهر – قطعة من النسخة الأولى ، ومكملة لها ، وهي مماثلة لها من حيث الكتابة ، والقسم المتعلق منها بالحجاز يقع في ٥٢ صفحة – أي منذ مغادرته للعقبة حتى انتهاء المخطوطة – والكلام فيها لم ينته ، وقد تحدث المؤلف طويلاً عن العمارة الأخيرة للبيت الحرام ، وهو كثير الاستطراد ، وواسع الاطلاع ، وقد طالع رحلة العياشي وغيرها ، فحين يذكر بعض المناهل يقول : وهذه لم يذكرها ابو سالم العياشي في رحلته لأنها حدثت بعده ، والمؤلف تلميذ لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (٠٠/١١٢٩ هـ) صاحب

الرحلة المطبوعة ، وألف في ترجمته « إنارة البصائر في ذكر مناقب القطب ابن ناصر ، وأتباعه من أهل الهداية الأكابر [1] » .

ومع أن المؤلف يدون كثيراً من المعلومات التي لا يجمعها موضوع واحد إلا أن القسم المتعلق بالحجاز من رحلته يحوي فوائد جمة ، ولا شك أنه في تدوين رحلته متأثر بشيخه ابن ناصر وبأبي سالم العياشي ، وتكمل فوائد الرحلة متى تم العثور على باقيها ونسقت ورتبت اوراقها وضمت في نسخة واحدة ولو مجزأة .

مما قرأت اليوم : أتحفني العالم الجليل الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ببحث من تأليفه مطبوع بعنوان « سلفية الإمام مالك » وقد يستغرب القاريء لأول وهلة هذه التسمية إذ من المعلوم أن مالكا — رحمه الله — من أجل أئمة السلف الصالح ، إلاّ أن بعض اعداء السلفية يطلقونها — في معرض الذم — على من أنكر ما هم عليه من البدع والخرافات ، كما يزعم آخرون من اعداء الإسلام (أنها منافية للتطور ، عائقة عن التقدم ، حائلة دون كل تجديد أو إبداع [2]) ومن هنا يزول الاستغراب ، وتتضح الغاية التي من أجلها كتب الاستاذ الكتاني هذا البحث.

ومما قرأته فيه — عن شيخ الإسلام ابن تيمية : (ومع أنه يعتبر من ألدّ الأعداء للتصوف المنحرف فقد عثرت له في مكتبة جامعة برينستون بالولايات المتحدة الامريكية على شرح لبعض كلمات من كتاب « فتوح الغيب » في التصوف للشيخ عبد القادر الجيلاني ، وهو أثر لم يسبقني أحد للتعرف عليه أو التحدث عنه ، وما يزال موضوع تصوف كل من الشيخ عبد القادر الجيلاني وشيخ الاسلام ابن تيمية في مسيس الحاجة إلى دراسة جامعية موضوعية متعمقة .

أما ما كتبه الدكتور . عبد القادر محمود في « الفلسفةالصوفية في الاسلام »

---

(١) « دليل مؤرخ المغرب » ص ١٨١ .
(٢) « سلفية الامام مالك » ص ٢٧ .

ص ١٣٦ – ١٤٨ فإنه يتسم بطابع العداء للسلفية ، ناهيك أنه يصف مالكاً وأحمد بالتجسيم !!) انتهى

وأقول : لا أعتقد أن الاستاذ الكريم يجهل كتاب « مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » وهو شرح للكتاب الصوفي « منازل السائرين » على طريقة السلف الصالح ، ومؤلف المدارج ، هو ابن قيم الجوزية تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد نقل فيه عن شيخه فأكثر النقل فيما يتعلق بالمباحث الصوفية ، والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات . أما الشرح الذي عثر عليه الاستاذ الكتّاني فهو طريف حقاً ، ولكني لم اطلع عليـــه .

يوم الثلاثاء : (١٣٩٢/١٠/٢٩ هـ – ١٩٧٢/١٢/٥ م) كان يوماً دافئاً فالشمس مشرقة والسماء صحو خالية من الغيوم ، والهواء راكد ، بحيث يذكر بفصل الربيع . وكان عليّ أن أمضي أطول وقت استطيع إمضاءه من هذا اليوم في الخزانة العامة (المكتبة) لأنهي مطالعة ما أريد مطالعته ، استعداداً للسفر إلى مدينة مراكش ، وما كنت مفكراً في السفر إليها لولا أنني قابلت قبل ثلاثة أيام أخاً من أهل مكة من أحفاد الشيخ عباس قطان ، وأظن أن اسمه محمد سعيد بن عبد الرحمن قطان ، فلما علم بأنني لم أرَ مرّاكش قال لي: إذا لم تزر مراكش فإنك لم تزر المغرب. وكان خبيراً بهذه البلاد تجول في كثير من مدنها . فعزمت على السفر إلى مراكش ، واختزلت مدة إقامتي في الرباط لذلك بعد أن قوى عزمي الاستاذ إبراهيم الكتّاني ، حينما ذكر لي أن فيها مكتبة تضم قليلاً من المخطوطات .

كان مما طالعت هذا اليوم : « الرحلة إلى بيت الله الحرام » لأبي مَدْيَن بن أحمد الدرعي (٠٠٠/١١٥٧ هـ) التي سبقت الإشارة إليها ، والنسخة برقم ٢٩٧ (مخطوطات الأوقاف) ضمن مجموع تقع الرحلة فيه من ص ١٩ إلى ٢٨٠ وهي مخطوطة ١١٥٦ هـ أي قبل وفاة مؤلفها بعام . وجاء في آخرها : (مات مؤلف هذه الرحلة . . . ليلة الخميس ١٣ جمادى الأولى عام سبعة وخمسين ومائة والف شهيداً بالطاعون . . .) وهو فيها يتحدث

عن منازل الطريق على نمط ابن ناصر الدرعي ، وقد نقل كل ما في رحلة البكري من وصف المنازل من بركة مصر إلى مكة المكرمة ، وينقل عن العياشي وغيره ويقع القسم المتعلق بالحجاز منها في ١٠٣ من الصفحات .

ومما اطلعت عليه كتاب « وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى » للسمهودي ، مخطوطة رقمها ٥٣٥ (مخطوطات الأوقاف) لعلي أجد فيها ما يصحح أخطاء المطبوعة ، فوجدتهما متشابهتين في ذلك ، وتاريخ كتابتها ١٠٧٨ هـ ، وتقع في مجلد كبير صفحاته ٦٢٥ و ٣٩ سطراً في الصفحة ، وهي من كتب الزاوية الناصرية ، وممن ملكها الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر — صاحب الرحلة — وقد ورد اسم الكتاب في طرة النسخة خطأ هكذا : « اقتضا الوفا بأخبار دار المصطفى » .

ورأيت في فهرس (مخطوطات الأوقاف) برقم ٢٠٤ اسم كتاب « اللباب من علوم الكتاب » لابن عادل الحنبلي النعماني ألفه سنة ٨٧٩ هي ٤ أجزاء : ١/٢/٦/٧ — ولكنني لم أطلع عليه [1] .

ومما طالعته : ديوان حمدون بن الحاج السلمي المتوفي سنة ١٢٣٢ هـ جمع ولده محمد الطالب ابن حمدون . وما كنت أطالع من الكتب ما لا يتعلق بتاريخ الجزيرة وجغرافيتها لضيق الوقت غير أنني رأيت مؤلف كتاب « الترجمانة الكبرى [2] » أنحى باللائمة على هذا الشاعر لكونه مدح الإمام سعود بن عبد العزيز الأول ، فدفعني إلى مطالعة ديوانه ، وهو في الخزانة العامة برقم ٢٥٠ د — فبحثت عن القصيدة التي أورد صاحب « الترجمانة » بعض أبياتها فرأيتها تقع في قرابة ٢٠٠ بيت (من ص ١٩٩ إلى ص ٢١٦ من الديوان) مطلعها :

مِنَّا الهناءُ لكم جيران ذي سَلَمِ

وبارقٍ واللِوَى ، والبان والعلم

---

(١) « دليل مؤرخ المغرب » ص ٢١٥ / ٣٩٠ .

(٢) ص ٣٨٨/٣٨٩/٤٦٢ .

ومنهــا :

لا شيء يمنــع من حــجّ ومعتمــر
وزورة تكمــل المــأمول في حــرم
إذْ عــاد دَرْبُ الحجــاز اليــوم ســالِكُهُ
أهنــا وآمَنُ من حمــامة الحــرم
مُــذْ لاحَ فيه (ســعود) ماحِياً بِدَعــاً
قد أحدثتهــا ملوك العُــرْب والعجــم
(سعود) بعد ســلام الله جاءك مــن
(غَــرْب) يسير لشرق ضائــع النســم
هذا كتــاب محــب إليــك أتــى
إذْ مــا تــأتَّى له الإتيــان بالقــدم
مخاطبــا لــك باللســان من قــلم
إذ ما تســنَّى له مخاطــب بفــم (؟)
و (إنــه من ســليمان وإنــه بسم الله)
لازلــت بــاسم الله أي سَم
إعــلم وقيــت الردى بقيــت بدر هــدى ،
لبــوس أيّ رِداً ، من الســنا العمــم
ان قمــت فينــا بأمْــرٍ لم يقــم أحــدٌ
به فجــوزيت مــا يجــزاه ذُو نِعَــم
ومنهــا :

حــتَّى جــرى الماء في عــود الحجــاز لأن
طلعت سَــعْدَ ســعُود غير ملتثــم

ومنهـا :

بعثـتُ حجـاجَ بيت الله قائدهـا
شـوق يقـود بـلا سَـوْقٍ ولا خطـم

وفيهـم فلـذة غـَـرّاء من كبـدي
أقمتـه خـَلَفَـاً في نيـل مُغْتَنَـمِ

وآخـرها :

وهاكهـا (بُـرْدَةً) مـني مطـرّزةً
بمـا تزيـد به في العـزّ والشـمم

لا زلـتَ مُنْتَصِـراً بالله مُحْيِيَ مَـا
أمِيـتَ من سـنّةٍ في عُرْبٍ أو عجـم

ودمـت طالـع سَـعْدٍ في الرعيـة ذا
بشْرٍ ونَشْرٍ، بِمُبْـتَدَاً ومُخْتَتَـمِ

وهذه القصيدة قالها الشاعر على لسان سلطان المغرب في ذلك العهد السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله بن العلوي (المتوفي سنة ١٢٣٨ هـ) وهي صريحة في ذلك ويفهم منها أنها أرسلت مع الحجاج ،وكان فيهم أحد أبناء السلطان الذي الذي عبر عنه بقوله (فلذة غرّاء من كبدي) أما الزياني صاحب « الترجمانة الكبرى » فانه يقول : (وكذب على الله في نسبتها لأمير المؤمنين ، وإمام أهل السنة [1]) ، غير أن الزياني متعصب ضدّ أهل الدعوة الاصلاحية السلفية ويسميهم (الوهبية) ويرميهم بما هم منه براء ، تأثراً بصلته بالدولة العثمانية في ذلك العهد التي ناصبتهم العداء ، وجيشت الجيوش لحربهم . ومع أن الشاعر — كما يتضح من قصيدته وكما عرف من تاريخ حياته — ذو نزعة

(١) ص : ٣٨٨ .

سلفية إلا أن القصيدة تحتوي على أمور ينكرها دعاة الاصلاح ، ولا يتسع المجال لايضاحها .

أما السلطان سليمان — الذي قيلت القصيدة على لسانه — فقد حدثني الاستاذ محمد بن ابراهيم الكتاني ، بان أباه محمد بن عبد الله كان سلفي العقيدة ، وكان يكتب في توقيعاته (الحنبلي معتقداً) أو ما هذا معناه ، وقد بنَى في الرباط مسجداً دعاه (جامع السنة) بدون زخرفة أو تزويق غير أنه في عهدنا الحاضر جدد بناؤُه ولكن على طريقة تخالف ما قصده منشئه من حيث البساطة . وأطلعني الأستاذ الكتاني على خطبة لذلك السلطان (في الانتصار للسنة ومحاربة بدع الطوائف الضالة) وجهها لخطباء المساجد ليخطبوا بها في الجمع ، وقد نشرها الاستاذ الكتاني اثناء الاحتلال الفرنسي للمغرب ، حيث كان الفرنسيون يوأزرون تلك الطوائف ، ويحاربون الدعاة إلى تحرير العقيدة من الخرافات والبدع . وقد ختم السلطان خطبته بحديث العرباض بن سارية المعروف في الحث على التمسك بالسنة والتحذير من محدثات الأمور ومنه : « فإن كل مُحدَثة بدعة وكل بدعة ضلالة » (وها نحن عباد الله قد ارشدناكم وحذرناكم ، فمن ذهب لهذه المواسم [(١)] ، أو أحدث بدعة في شريعة أبي القاسم ، فقد سعي في هلاك نفسه ، وجرَّ الوبال عليه وعلى أبناء جنسه ، وتَلَّهُ الشيطان للجبين ، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ ألـيم) . انتهى.

وليس من المستبعد أن يكون هذا السلطان قد تأثر بآراء الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله تعالى — فقد انتشرت في ذلك العهد في انحاء العالم العربي ، ووصلت رسائل دعوته إلى المغرب ، وقد أورد الزياني في « الترجمانة [(٢)] » احدى الرسائل المتضمنة لخلاصة آراء الشيخ ، أما

(١) يقصد مواسم أهل الطرق الخرافية المتصوفة .
(٢) ص : ٣٩٤ .

قول محقق كتاب «الترجمانة» الاستاذ عبد الكريم الفيلالي: (إنه لم يتأثر بها ، وانما قادته دراساته واجتهاده إلى نفس الأفكار التي ظهرت في مذهب محمد بن عبد الوهاب، والتي لم تصل إلى المغرب إلا بعد مراسلة عبدالله بن سعود لعلماء تونس ، ومنهم علماء المغرب في عهد المولى سليمان ، والتي أجاب عنها حمدون بن الحاج السلمي [1] هذا القول عليه مآخذ :

١ ـ أن صاحب « الترجمانة » أورد رسالة نسبها للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، مما يفهم منه انها وصلت في عهد السلطان محمد .

٢ ـ أن السلطان محمد بن عبد الله كان ذا صلة قوية بالحجاز في العهد الذي انتشرت فيه دعوة الشيخ محمد ، فقد ذكر الاستاذ الفيلالي في مقدمته عن هذا السلطان أنه زوج ابنته حبيبة سنة ١١٩٧هـ ابن شريف مكة سرور. ودعوة الشيخ قد مضى على ظهورها قبل هذا العام أربعون سنة وليس من المعقول ان يجهلها السلطان محمد بن عبد الله .

٣ ـ أن المراسلة التي وصلت إلى المغرب في عهد السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله هي من الامام سعود بن عبد العزيز [2] ابي عبد الله الذي كانت ولايته من سنة ١٢١٨ إلى سنة ١٢٢٩ هـ لا من ابنه عبد الله الذي خلفه في الولاية .

---

(١) مقدمة « الترجمانة » ص ١٣ .

(٢) أورد هذه الرسالة الجبرتي في تاريخه ، في حوادث سنة ١٢١٨ (ج ٣ ص ٢٥٥ /٢٧٧) ولكنه نسبها إلى الإمام سعود بن عبد العزيز وان سعوداً أرسل هذه الرسالة إلى شيخ الركب المغربي في موسم حج سنة ١٢١٨ ، أي بعد وفاة الشيخ محمد رحمه الله بـ ١٢ سنة .

بين مراكش والدار البيضاء

في صباح يوم الاربعاء(*) (١٩٧٢/١٢/٦) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر شوال على ما عليه أهل المغرب ، واليوم الأول من ذي القعدة ، بحسب تقويم أم القرى ، وبسبب هذا الاختلاف سأكتفي بذكر الشهر الميلادي للاتفاق عليه .

كان السفر إلى مدينة مراكش والمسافة بينها وبين الرباط ٤٣٤ كيلاً منها ٩٢ كيلاً بين مدينتي الرباط والدار البيضاء ، ومن الدار البيضاء إلى الرباط ٢٤٣ كيلاً ، وكان السفر في الساعة السابعة صباحا في حافلة من حافلات (الشركة المغربية للنقل) ولا تكاد تعرف في هذه البلاد إلا باسم (ستيام) من (.C. T. M) الاسم الفرنسي لها ككلمة (أرامكو) عندنا ، والحافلة — ويقصد بها السيارة الكبيرة — هي الكلمة المستعملة في المغرب ، وهو اسم عربي اختير ليحل محل كلمة (اوتوبيس) أو (لوري) في بعض البلاد العربية . وليت اسم الحافلة يستبدل بذينك الاسمين فهو أجمل منهما وأسهل نطقاً .

كان الوصول إلى الدار البيضاء الساعة الثامنة والنصف ، والبقاء فيها إلى الساعة الثانية عشرة ، ثم السفر على احدى سيارات تلك الشركة ، مع كثرة السيارات المسافرة غيرها ، إذ هي أضبط عملاً من حيث المواعيد وتعيين كرسي المسافر ، وحفظ أمتعته بطريقة منظمة ، ومع ذلك فالأجرة لقطع تلك المسافة الطويلة لا تتجاوز تسعة عشر درهما (تقارب ١٨ ريالاً سعوديا)

إن الطريق إلى مراكش — كغيره من الطرق الموصلة إلى المدن الرئيسة —

(*) مجلة « العرب » — المجلد السابع — ص ٨٠١ — .

مُعَبَّدٌ ، وهو مُشَجَّرٌ على طوله ، ويتخلل كثيراً من المدن والقرى ، تتوقف الحافلة في بعضها لأخذ البريد وقتاً قصيراً . ومن أشهر ما يمرُّ به من المواضع (ابن رشيد) اسم مدينة تبعد عن الدار البيضاء ٤١ كيلاً ، وعلى ذكر هذا الاسم يلاحظ المرء أن أكثر القرى الواقعة بين الدار البيضاء ، ومراكش تضاف إلى اسم رجل كـ (ابن رشيد) و (ابن جرير) و (ابن أحمد) وكـ (أولاد احْسين) هكذا يكتبونها تبعاً للنطق ، (اولاد سعد) ومن اسماء القرى ما هو مضاف إلى رجل مشهور فيها بالصلاح ، مسبوقاً بكلمة (سِيدي) وما أكثرها . وهناك قرى تسمى بأسماء اليوم الذي يقام السوق للبيع والشراء فيها ، كـ (سوق الخميس) و (سوق الاثنين) وإقامة الاسواق الأسبوعية لا تزال متبعة في جميع انحاء المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا ، كالحال في الحجاز في السراة [1] جنوب الطائف إلى نجران ، وفي تهامة وفي أودية السراة الجنوبية الشرقية كتَثْليث وطَرِيب ووادي بيشة ووادي رنية ووادي العقيق ، وما حولها .

ومن القرى التي يمرُّ بها الطريق إلى مراكش سِطّات ـ بكسر السين وتشديد الطاء بعدها الف فتاء مثناة ـ وهي مدينة رحيبة الفناء ، تحيط بها الحدائق والاشجار ، وتبعد عن الدار البيضاء ٧١ كيلاً . ثم بلدة تدعي (صخور الرحامنة) على ما كتب عند مدخلها ، ويسمونها (أربعة صخور) وتبعد عن الدار البيضاء ١٤٠ كيلاً ، ثم بعدها بلدة تسمى (ابن جرير) ـ كما ينطق اسم المؤرخ إلا انهم يسكنون الجيم كعادتهم في مثله ـ فكأن التاريخ يسير معي حيثما سرت !! .

ومما يلفت النظر كثرة أشجار (البرشومي) أو ما يعرف باسم (التين الشوكي) قد سيجت به بعض المزارع ، وقد زرع بهيئة بساتين صغيرة ويسمون ثمره (كَرْمُوس) .

ويسير الطريق في أرض مستوية تتخللها بعض التلال والأودية حتى يبلغ

(١) أنظر كتاب « في سراة غامد وزهران » تأليف حمد الجاسر ص ١٠٠ .

مدينة مراكش ؛ ومن أشهر الأودية التي يمر بها (وادي آم الربيع) ويبعد عن الدار البيضاء ١١٨ كيلاً ووادي (تسيفت) في مدخل مراكش ، وقد شاهدت الواديين يجريان سيْلاً ، كما شاهدت قطعان الغنم ترعى على جانبي الطريق ، أما الإبل فهي قليلة ، ورأيتها تجرُ آلة الحرث – على الطريقة المعروفة في بعض قرى نجد . وعندما يشاهد المرء منظراً ألفه يغمره السرور كما حدث لي عندما شاهدت مظاهر الصحراء هنا المشابهة لما هي عليه في بلادنا مع الفارق العظيم في خصوبة هذه الأرض وكثرة مياهها ونباتاتها وأشجارها بخلاف صحراء الجزيرة التي أوشكت مظاهر البداوة أن تزول منها بسبب الجفاف وقلة الأمطار ، وقديماً أطرى ابو العلاء المعري البداوة وهي ابرز مظاهر الصحراء :

الموقدون بنجد نار باديةٍ لا يحضرون ، وفَقْدُ العزّ في الحضر

وتغنّى أبو الطيّب بجمال فتيات الصحراء :

أفْدي ظباءَ فلاةٍ ما عَرَفْن بها
مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيبْ

قطعنا المسافة في أربع ساعات ونصف ، مع استراحة استغرقت نصف ساعة ، وكان النزول في مراكش في المدينة القديمة عند خارج أحد أبواب سورها.

إن كثيراً من المدن المغربية القديمة لا تزال محافظة على مظهرها القديم ، فالعمران الحديث ينتشر خارج المدينة القديمة حتى يكوّن مدينة أخرى متصلة بها تسمى بالاسم نفسه ، فيقال (مراكش الجديدة) و (فاس الجديدة) وهكذا . لقد تمنّيت قبل عشرين عاماً عندما قررت الدولة نقل الوزارات والدوائر الرسمية إلى الرياض ، فبدأ توسيع شوارعها تمنيت أن تبقى المدينة القديمة على حالتها مدينة تاريخية ، لا يغيّر شيء من معالمها ، لأن أي تغيير أو إصلاح في المدينة – مهما عظم – لن يجعلها تستوعب من السكان أكثر ممن كانوا يسكنونها في ذلك الوقت ، فلا تتسع لاستيطان من سيَفِد إليها ، بل لا تغني سكانها عن الانتقال إلى ما سينشأ خارجها من مساكن حديثة

تتوفر فيها جميع وسائل الراحة . أما الآن بعد أن تغيرت كل معالم الرياض القديمة فلا أعتقد أن الذين كانت لهم يد في تغييرها لم يدركوا خطأهم ، فهل يتخذ القائمون بتخطيط المدن واصلاحها مما حدث في مدينة الرياض عبرة ، ليبقوا الطابع القديم لكل مدينة يجري إصلاحها وتنظيمها ؟ !

مرّاكش – خارج المدينة القديمة – فسيحة الارجاء ، كثيرة الميادين والحدائق ، واسعة الشوارع التي تزين جوانبها الأشجار الكثيرة ، ومنها ما هو مثمر كشجر النارنج ، وتكثر النخيل عند مدخلها ولكنها من النوع الذي لا يثمر ، وقل أن يرى المرء بيتاً لا حديقة له . ومع قربها من الجبال فهي شديدة البرودة ، واسواقها رطبة بسبب كثرة الحدائق بداخلها ، ومع ذلك فقد شاهدت السقّاءَ بقربته يرش أرض السوق الكبير في المدينة القديمة ومع كثرة ارتياد الأجانب لها لا يوجد فيها مسارح أو ملاهي ، وفيها دور قليلة للسينما .

ويتوسط بين القسمين من المدينة ميدان فسيح ، يغصُّ بالناس من وسط النهار إلى منتصف الليل قل ان يوجد له مثيل في بلاد المغرب ، وقد لا يوجد في غيرها من البلاد ، يشاهد المرء فيه كثيراً من مختلف أوجه الحياة في هذه الجهات ، فهذه فرقة من المتصوفة – بشكل الشحاذين – قد اتخذت لها حلقة ، وشيخها يردد كلمات فتهتز الفرقـــة مترنحة مرددة إحدى كلماته ، وهذه حلقة يتوسطها عدد من الرجال السود البشرة يغنون ويرقصون رقصات رشيقة بمنتهى الخفة ، وتلك أخرى قد اجتمعت على شيخ كث اللحية،أمامه عدد من المسابح والأطباق ، وبيده أحدها يكتب فيه بحروف وأرقام كتابة تشبه الاشكال الهندسية من التدوير والتربيع والخطوط المستقيمه، ويتمتم بكلمات ، يهمس بعدها للجالس بين يديه بكلام يقوم بعده ، بعد ان ينفحه ببعض النقود ، وهذا مشعوذٌ اجتمع عليه الناس وهو يقوم بحركات تثير الدهشة والاستغراب، حتى الشحاذين قد تجمعوا حلقاً، يكرر أحدهم أدعية فيردُّون مؤَمِّنين ، ولن يعدموا من يقف متعجبا من مظهرهم، ولعل هذا الميدان هو أبرز مظهر لهذه المدينة ، وقلَّ أن يقدمها سائح لا يأتي اليه .

وفيه تعرض البضائع يعرضها رجال ونساء مفروشة على الأرض ، وفي حوانيت خشبية مقامة بجانبه ، وفي سوق المدينة الكبير الواقع بجواره ، وفي وسط هذا الميدان تكثر المطاعم — على الطريقة المغربية — مما يذكر بأيام مِنَى قبل رُبع قرْنٍ ، عندما كان الطباخ يضع أمامه بعض الكراسي الصغيرة ويوقد ناره ، فيتهافت عليه الناس . وهكذا في هذا الميدان . وأكثر من يرتاد تلك المطاعم من الغرباء ، وفيهم من الأوربيين المغرمين بالمشاهدة وحب الاستطلاع ، وفي أول النهار يبدو الميدان خالياً . أما وسائل المواصلات فسيارات الأجرة والعربات التي تجرها الخيل وكثير من السياح يفضّل ركوبها ، وهناك الحافلات ولكن قَلّ من يستعملها من غير أهل البلاد .

والمغرب بلد سياحيٌّ يحرص على تنمية السياحة فلا غرابة حينما يشاهد الانسان الأسواق مملوءة بالصناعات الوطنية ، والحكومة تقيم لها معارض سنوية ، وتحرص على تشجيعها ، فالسياح يقبلون على شرائها ، واعتبارها من التحف التي يعرضونها في بيوتهم ، أو يقدمونها هدية لمعارفهم . ومن تلك الصناعات كثير من الأواني المستعملة عندنا في القرى إلى الآن كصناديق الخشب المنقوشة والجواعد — الجلود المدبوغة بشعرها — لاستعمالها فُرُشا ، والمنافيخ المستعملة لإشعال النار في الخشب . والزنابيل بأشكالها (١) ، والبُرَمِ — جمع بُرْمةٍ من النحاس أو الحجر — وأشياء أخرى مصنوعة من الصفْر ، بعناية ودقة مما يستعمل عندهم .

لقد استطبت من انواع المأكولات المغربية (الكُسْكُس) وعندهم نوع نوع من خبز الشعير ، لا يقدم في المطاعم ولكن يعرض في أمكنة بيع الخبز ، أما انواع التمر فكثيرة في المغرب وفي الجزائر ، وهم يجذون النخلة عندما يبدأ إرطابها فيعلقون العذق ، حتى يذبل رطبه ويعرضونه للبيع ، ولهذا يكون طعم الرطب لذيذاً ، ولكنه غالي الثمن أغلى من اللحم ، حيث يباع كيل التمر الواحد بإحدى عشر درهماً وأكثر إذا كان من النوع الجيد الذي

(١) يسمونها القفاع — والزنبيل يطلقونه على الكبير جدا .

وصفت ، وسائر التّمر لا يقل ثمن الكيل الواحد عن ستة دراهم ، أما اللحم فأرخص أنواعه لحوم الخيل وهي تعرض بكثرة في مدن المغرب ، وكل جزّار قد كتب فوق دكانه اسم اللحم الذي يبيع ، ولحم الخيل يباع الكيل الواحد بـ ٤ دراهم ، أما لحم البقر فإذا كان من النوع الجيد فيتجاوز ١٠ دراهم وكذا لحم الغنم .

مما قرأت عن الكسكس : قال الزياني في كتابه « الترجمانة الكبرى [1] » في خبر سفارته من سلطان المغرب إلى اصطنبول سنة ١٢٠٠ هـ في حديثه مع كاتب الدولة في مدينة إزمير عندما زار الزياني في بيته ، (فقلت له : لا بُدّ من أكل كسكسنا ، ولا تكدّر علينا بعدم الأكل ، وإلا لم آكل عندك فقال : إلى مرة اخرى آتي فارغا ، لأني إن أكلت على هذا الامتلاء ربما يحصل لي ضرر . قلت لا بأس عليك ، ببركة نبي الله سليمان !! قال : كيف ذلك ؟ قلت : ألم تسمع بأن الكسكس اخترعه طبيب الجان لنبي الله سليمان لما حصل له السهر والأرق ، فصنع له الكسكس ، ولما أكله نام ، فكان لا يخلو من سفرته . فقال : أسألك بالله !! فقلت : تواتر هذا عندنا ، وأنا إن لم آكله ليلة ينقص نومي . وهذا مجرب عندي . . وطلب ملعقة وصار يأكل بها وكل ما أكل لقمة يقول : والله إني خمت منه لأنه فطير فأقول له : قال هذا قبلك علي آغا (المهمندار) إلى أن ألف أكله معنا ، فصار يأكل بيده وترك الملعقة فأكل إلى أن اكتفى واستطابه ، وقال : والله طيب) !!! .

انتهى كلام الزياني ومهما يكن فناقل التخريف ليس مخرفا ، وكتاب « الترجمانه الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحراً » من الكتب التي لها قيمتها في المغرب وقد نشرته (وزارة الأنباء) في منشورات (لجنة إحياء التراث القومي) وهو يحوي كثيراً من الخرافات ، بل الأكاذيب وخاصة ما يتعلق

---

(١) ص : ٢٨٠ .

بكلامه عن الدعوة الإصلاحية التي قام بها الإمام المجدّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وعن مؤازريها .

يوم الخميس : ١٩٧٢/١٢/٧ (وهو اليوم الثاني من ذي القعدة سنة ١٣٩٢ في التقويم المغربي) . رأيت القيام بجولة في المدينة لأشاهد معالمها التاريخية ، بعد أن تجولت في الصباح المبكر داخلها ، فنصحني أحدهم أن أركب عربةً فهي أقل أجرة ، وسيرها بطيء يمكن المرء من إمتاع النظر أكثر مما لو ركب سيارة ، ولكنني فضلت ركوب سيارة لأكون بجوار سائقها ليعرفني بما قد احتاج إلى معرفته مما نمرُّ عليه ، وقد ظننت بأنني لن أجد صعوبة في التخاطب معه ، لتغلغل مراكش في الصحراء ، وبعدها عن المدن الساحلية التي تأثرت لغة أهلها لكثرة مخالطتهم للفرنسيين والاسبان وغيرهم من الأعاجم . ولكنني عندما بدأت الحديث معه ذكرت قصة رواها لي صديقنا الأستاذ محمد ابراهيم الكتّاني . قال : إن أحد الجبالية — وهم بَدوٌ من العرب يسكنون الجبال الواقعة بين فاس وطنجة — سمع قارئاً يقرأ قول الله عزوجل (ظهر الفساد في البر والبحر) قال : وفي الجبال !! .

لم يفهم صاحب السيارة الغاية التي ركبت معه لأجلها ، ولحسن الحظ أنني اتفقت بواسطة الرجل الذي أرشدني اليه ، بأن تكون الأجرة على أساس الساعة عشرة دراهم ، فقلت له : إذهب بي إلى قصر البديع — وقد عرفت أنه أحدالأمكنة التاريخية، وقبل دخوله اعترضني شابٌ رَطَنَ لي بغة لا أفهمها فأخبرهأنني عربي فعرض علي مرافقتي لإرشادي — بلغة فصيحة — في وقت كنت في أشدّ الحاجة لذلك ، ومن المعروف أن اكثر من يقومون بمثل هذا العمل لا تكون المعلومات التي يدلون بها صحيحة كلها ، لأنهم لا يتلقونها عن دراسة ، ولكن مما يتناقله العوام وأشباههم ، وأنا لا اريد من جولتي هذه أكثر من مشاهدة الآثار التاريخية الباقية رأي العين ، أما الأخبار المتعلقة بها فيمكن الرجوع اليها — لمن أراد ذلك — في الكتب المخصصة لتاريخ هذه البلاد .

قصر البَدِيع — بفتح الباء وكسر الدال — من آثار دولة السعديين التي حكمت مراكش حقبة من الزمن ، وأزالتها الدولة العلوية التي امتدّ حكمها

إلى عهدنا الحاضر ، وهذا القصر لم يبق منه سوى سوره القوى المحيط به ، وقليل من الحُجر ، ذلك أن المولى اسماعيل الذي قضى على الدولة السعدية أمر بهدمه — على ما روى لي المرشد — حتى المسجد أزيل سقفه ، وفتح في جداره باب واسع لدخول السيارات الكبيرة (١) ، وللمرور معه إلى القصر ، وأغلق باب القصر القديم لضيقه ، وفي وسط القصر — أي مكان حُجيره وغُرفه — أُعِدَّ ميدان فسيح تقام فيه في شهر مايو من كل عام حفلات شعبية للرقص والالعاب ، ويقام المسرح فوق بركة مستطيلة مملوءة ماء ، يُطمُّ وسطها ويبدو طرفاها تنعكس فوقهما صور ما يجرى فوق المسرح ، وهذا القصر يتوسط المدينة القديمة الآن ، اما في القديم فيظهر انه كان خارجها ، وإذا صعد المرء على سطح ما بقي من منازله شاهد كل جهات المدينة ، وبدَتْ له سلسلة جبال الأطلس كأنها تحتضن المدينة من الجهة الشرقية الجنوبية ، وقد عَمَّمَ الثلج قممها ، كما تبدو مئذنتا جامع الكتبيَّة — أعظم جامع في المدينة — والجامع اليوسفي شامختين ، ويجاور القصر حيّ يدعى (الملاَّح) وهو حيّ لا يسكنه الا اليهود ، فيه أسواق للخضر واللحوم والصياغة وغيرها ، وفيه مقاهيه ومطاعمه . وبجوار القصر — متصل به — السّجْن ، ولقد تأثرت عندما ذِكر المرشد خبر هدم هذا القصر ، ولكنني بعد أن شاهدت هذا السجن زال تأثري وذكرت قول جحدر العكلي وقد حبس في سجن مماثل له ، يُدعي دوّاراً في اليمامة :

يـــا رَبَّ دوَّار أنْقِـــذْ أهْلَـــه عَجَلاً
وانْقُضْ مرائِـــرَهُ من بَعْـــد إبْرام
رَبّ ارْمِـــهِ بِخَـــرَابٍ ، وارْمِ بَانِيَـــهُ
بِصَـــوْلَةٍ منْ أبِـــي شِبْلَيْنِ ضِرْغَامِ

وهذا السجن أقبية تحت الأرض مقسمة إلى أماكن ضيقة يصل بينها ممرٌّ

(١) وذلك عند اعداد المسرح داخله ، اما غير ذلك من الاوقات فالسيارات أيا كانت لا تدخله .

طويل ، وكلما نزل المرء في ذلك الممر اشتد الظلام حتى يصل إلى أمكنة لا ترى النور ، وإيصال الغذاء – إن كان هناك غذاء – إلى من يسجن فيه من ثقوب في السطح . . . لم أستطع السير مع صاحبي داخل هذا المكان الذي هو أثر لأبشع ما يعذب به الإنسان أخاه الإنسان ، بل خرجت من القصر ولم أشاهد بعض آثار السعديين التي وضعت في إحدى حجر القصر .

عدّد لي الدليلُ الأماكن التي تحسن زيارتها كـ (قصر الباهية) و (مقبرة سيدي أبي العباس) و (قصر السلطان فلان) و (حديقة كذا) ، ولكنني رأيت – وقد شاهدت أثرا من آثار السعديين في عنفوان قوتهم ، وكيف كانت نهايته – أن أرى آثارهم بعد أن أصبحوا أمواتا . وقفنا عند باب مسجد جميل البناء ، البناء ، قد زين بالنقوش البديعة ، والكتابات الجميلة التي لم استطع لدقة حروفها قراءتها ويدعونه (جامع مولاي اليزيد) ثم دخلنا مع دهليز ضيق أفضى بنا إلى حديقة مستطيلة تنتشر في جوانبها القبور ، ويحيط بها حُجَرٌ مزخرفة بالنقوش والكتابات ، تحوي قبوراً أيضاً ، وكل القبور ليست مسنمة ولا مرتفعة عن الأرض اكثر من شبر ، ولكن ليس لها نصائب ، وقد نصب فوق القبر لَوْح من رخام ، فيه كتابة ، وأحيط القبر بالرخام ، أو بقطع الفسيفساء الملونة المنقوشة ، وأكثر القبور لاطيء بالأرض غير مرتفع عنها ، ولكنه مميز بما فرش فوقه من الفسيفساء ومن المعروف أن البناء على القبور وتزويقها والكتابة عليها كل هذه من الأمور المحرمة .

أما لماذا بقيتْ مقابر السعديين ولم تزَل – أو تدرس كغيرها – فلعل هذا يرجع إلى أن السلطان اليزيد بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل الذي قتل سنة ١٢٠٦ هـ دفن في مقبرة السعديين على ما في مقدمة « الترجمانة [١] » والمسجد [٢] المزخرف المقام في جانب المقبرة بُني على قبره – على ما أخبرني

---

(١) ص : ٢٤ .

(٢) اقامة المساجد على القبور من الأمور المحرمة في الشريعة الاسلامية كما في الحديث الشريف .

المرشد – ولا يتسنى دخوله لكل أحد ، كهذه المقبرة . فقلت : وماذا نريد من دخوله ، ألا تعرف قبر القاضي عياض ؟ فقال : ومن عياض ؟ أعرف قبر ابن تاشفين . . وقبر مولاي . . .

– إذن فلنذهب إلى (مكتبة ابن يوسف العامة) ولكنه لم يعرفها ولما قلت له : إنها في (الستّينية) أحد قصور (الجِلْاوي) قال : إذن هي في (بيت الطالب) وكذا كان . ولقد كانت رؤية هذه المكتبة من أقوى البواعث لزيارة مراكش ، لعلي أن أرى في مخطوطاتها ما استفيد بمطالعته .

دخلنا (دار الطالب) وصعدنا إلى (المكتبة) وأثناء الصعود مرّ بي رجل فسلم عليّ تسليم العارف ، فسألته : أتعرفني ؟ . فأجاب : ألست من بيروت ، فقلت : إنني أقيم فيها الآن : فقال : ألست الدكتور عمر فرّوخ . فقلت : أنا أعرف الدكتور عمر ، ولست إياه ، فأكد لي قُوّة التشابه بيننا وما كنت أظن بوجود انسان يُشابهني في الخلقة فأدخل كلامه السرور على قلبي ، وأرجو أن لا ينعكس الأمر بالنسبة لزميلي – في (مجمع اللغة العربية) – الدكتور عمر فروخ ! لقد كان ذلك الرجل يعمل في المكتبة فسألته عن مديرها الاستاذ الصّديْق بن العربي فقال : سيحضر قريباً ، وأحضر لي كوباً من الشاهي (الأتاي) وآنسني بحديثه حتى مرّ بنا الأستاذ الصّديق فأخبره بأنني أسأل عنه ، فأخذني إلى مكتبه ، وتحادثنا عن المخطوطات وعن التراث – بصفة عامة – فأعجبت بلطفه وسعة اطلاعه وقدم لي فهرسة ما في المكتبة من مخطوطات ، طبعت على الآلة الكاتبة ، ورتبت في كراريس بترتيب موضوعاتها ، وقد قال لي : إنها تبلغ ١٦٠٠ (تقريباً) .

وأطلعني الاستاذ ابن العربي على تأليف له بعنوان : « دليل خزائن كتب المغرب » يتحدث فيه عن ٣٠ خزانة من الخزائن التي توجد فيها مخطوطات ويشير إلى نوادرها . وقدم لي نسخة مطبوعة من كتاب « فنون الافنان في عيون علوم القرآن » للإمام ابن الجوزي الحنبلي (٥٠٨/٥٩٧ هـ) بتحقيق الاستاذ أحمد الشرقاوي إقبال – استاذ في مدرسة المعلمين بمراكش –

مطبوع في الدار البيضاء في مجلد صغير صفحاته ١٢٨ .

ومن مخطوطات هذه المكتبة جزء من كتاب : « الجليس الصالح » للمعافي بن زكريا النهرواني الجريري المذهب المتوفي سنة ٣٩٠ هـ وقد الف هذا الكتاب وهو في عشر التسعين من عمره ، والكتاب يقع في مائة مجلس ، وكنت قد طالعت جزءاً منه في (مكتبة الحرم الملكي) يحوي ٢٥ مجلساً من أول الكتاب ، فأعجبني أسلوبه ، فهو على نمط كتب الامالي يفتتح المجلس بحديث أو خبر يورده مسنداً، ثم يشرحه ويسرد أخباراً ومقطوعات شعرية ، ويفسر آيات يتعرض فيها لاختلاف العلماء — في بعض الأحيان — ويذكر مذهب إمامه الامام ابن جرير الطبري المفسر المؤرخ المعروف وينصر ذلك المذهب ، وقد يتحدث عن نفسه فيذكر كيف حزن لموت ابنة له صغيرة وما قال في رثائها ، ويورد شيئاً من اشعاره عند المناسبة ، ومما حفظت له قولـه :

يا محنـة الله كفـي ... إن لم تكـفي فخـفي[1]
قـد آن أن ترحميـنا ... من طول هذا التشـفي
طلبـت جـدي بِسعْيِيْ ... فقيـل لي قـد تـوفي
فـلا علـومي تجـدي ... ولا صنـاعة كـفي
ثـور ينـال الثريـا ... وعـالم متخـفّي

وقد يورد أشعاراً بالفارسية — ان لم تخني الذاكرة فأنا اكتب هذا بعد أكثر من ثلاثين عاماً على مطالعتي ذلك الجزء من الكتاب — ولقد نقلت منه فوائد ، وجمعت لمؤلفه ترجمة نقلتها من عدد من المؤلفات وأضفت اليها ما يتصل بها من كتابه ، ثم لما قدمت القاهرة سنة ١٣٥٨ — أو بعدها بيسير — اجتمعت في مكتبة الاستاذ حسام الدين القدسي بالشيخ محمد زاهد

---

(١) وقد نسبت ليوسف بن عمر الأزدي البغدادي (٣٠٥/٣٥٦) — انظر « الأعلام » ٣٥٥/١٠ — المستدرك — .

الكوثري فحدثته عن هذا الكتاب ، فأخبرني بأنه يوجد كاملا في احدى مكتبات اصطنبول سماها لي ، ونسيتها ، ولم أشعر بعد ذلك بيومين وأنا أطالع مخطوطة (دار الكتب) منه إلا بالاستاذ سيد صقر — ولم أكن عرفته قبل — يسلم علي ويسألني عما أعرف عن كتاب « الجليس الصالح » فأخبرته بالنسخة التي في (مكتبة الحرم) وبما نقلته عنها وعن مؤلفها ، فرغب الاطلاع عليه لأنه يعنى بتحقيقه فوعدته باحضاره ، وكان ان قدمته له ، ثم بعد زمن قيل لي إنه هو والاستاذ عبد السلام هارون يحققان الكتاب ، ومنذ عشر سنوات قرر (مجمع اللغة العربية) طبعه ، وبعد ذلك نشر أحد المستشرقين مقالاً عنه في « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق ، وذكر بأنه يعدّه للنشر . تم نشر هذا الكتاب في مصر أخيراً (أنظر مجلة «العرب » : س ١٤ ص ٣٧١ و ٧٩٤)

هذا استطرادٌ جرّتْ اليه مناسبة وجود نسخة من هذا الكتاب في (المكتبة اليوسفية العامة) في مراكش رقمها (٢٧٢) ويقول الاستاذ الصديق بن العربي مدير المكتبة : إن هذا الجزء متمم للنسخة التي في (دار الكتب المصرية) .

وفي هذه المكتبة من المخطوطات جزءان من « تاريخ بغداد » للخطيب يبتديء احدهما بمن اسمه (حماد) والآخر بمن اسمه (عثمان) وكتاب « بدائع السلك في طبائع الملك » أو « تحبير السياسة في تدبير الرئاسة » تأليف محمد بن عبد الله الازرق الغرناطي ، وقد لفت نظري إلى هذا الكتاب :

(١) وجود عالم يدعى ابن الازرق له كتاب على مذهب الإمام الشافعي ، ومؤلفا الكتابين عاشا في عصر واحد .

(٢) ان احدى المجلات عندنا ذكرت أن كتاب « بدائع السلك » قد طبع بتحقيق الاستاذ حسن السائح ، وقد رأيت هذا الاستاذ قبل أسبوع يتحدث مع الاستاذ ابراهيم الكتاني عن هذا الكتاب فلما ذكرت أنه طبع — اعتماداً على ما نشر في مجلة « قافلة الزيت » — نفى الاستاذ ذلك وقال : هذا هو الاستاذ السائح ، وهو يقوم بدراسة الكتاب لإعداد رسالة جامعية

عنه ، ثم أثني على الكتاب ، وقال إن من مميزاته تأثره بما أورده ابن خلدون في « مقدمته » من آراء مما يبطل القول بعدم تأثير آراء ابن خلدون .

ومما في المكتبة من المخطوطات رسالة لابن شرف دعاها « الأمثال المختارة من كتاب أبكار الأفكار » تحوي مائة بيت مما يستعمله الناس في كلامهم من أشعار العرب ، واكثرها من شعر المتنبي ، والرسالة تقع في عشر ورقات في (قسم المجاميع) ورسائل المجاميع لم تفهرس حسب موضوعاتها ، ذكرتني هذه الرسالة بما يقوم به الأخ الاستاذ عبد الله بن خميس من جمع الأشعار المتداولة على الألسنة في كتاب ، غير أن تأليف الاستاذ لا يقتصر على ما يتمثل به بل يشمل مقطوعات كثيرة في مختلف فنون الشعر .

وفي المكتبة أجزاء من « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، ولما أردت الاطلاع عليها لوصفها علمت من الاستاذ ابن العربي أن صديقنا الدكتور شكري فيصل طالعها . ولما علمت بأنه أقام في مراكش مدرسا في الكلية العربية ، وانه تردد كثيرا على هذه المكتبة عرفت بأنه قد نخلها نخلاً ، فلم يترك لغيره مجالا للبحث ، فاكتفيت ، وودعت مديرها الاستاذ قائلاً : لو لم أستفد من رحلتي إلى مراكش سوى الاجتماع بك لكفاني ذلك .

في الدار البيضاء : عدت من مراكش ليلة الجمعة (١٩٧٢/١٢/٨) للسفر منها إلى تونس ولكنني لم أجد طائرة قبل يوم الاحد في المساء ، وهكذا فعلي أن أمضي قرابة ثلاثة أيام في هذه المدينة ولكن كيف أمضيها ؟ سألت في الصباح : أين تباع الكتب العربية ؟ فقيل : عند الجامع بقرب الباب الكبير ، باب مراكش ، أي مدخل المدينة القديمة ، فالدار البيضاء — كغيرها من من المغرب — تتكون من قسمين القسم القديم وهو على ما هو عليه — ولم يغير العمران فيه سوى تبليط بعض شوارعه ، وبناء بيوت أو متاجر قليلة على الطراز الحديث ، والقسم الحديث حديث في كل شيء ، وهو بالنسبة للدار البيضاء لا يقل في تنسيقه وفخامة متاجره ، وكثرة بضائعه وطريقة عرضها عن أرقى المدن ، بحيث يشعر من يشاهد ذلك القسم أنه في مدينة

أوربية في كل شيء – حتى في اللغة – ولكنه عندما يخرج إلى نواحي المدينة يُصْدم فجأة بما يراه من التباين بين نواحي مدينة واحدة ، وهذا مما هو عامٌ في كثير من المدن. وتعتبر الدار البيضاء قاعدة بلاد المغرب التجارية، وهي أكثر مدنه سكانا، إذ سكان أهم المدن على ما رأيت في نشرة احصائية:

١ – الدار البيضاء	١,٣٥٠,٠٠٠	٥ – مكناس	٤٢٥,٠٠٠
٢ – الرباط	٤١٠,٠٠٠	٦ – طنجة	١٥٠,٠٠٠
٣ – مراكش	٢٨٥,٠٠٠	٧ – تطوان	١٥٠,٠٠٠
٤ – فاس	٢٥٠,٠٠٠		

والدار البيضاء – كما هو معروف – على شاطيء البحر ، ولكن ساحلها صخريٌ وهواة السباحة في البحر يذهبون إلى ناحية تقع في طرفها الشمالي الغربي تدعى (عين ذياب) وفي المدينة مسبح كبير تابع للبلدية ، وهو حوض واسع ، يمتليء بماء البحر ، مهيأ بما يُحتاج إليه، وبجواره مسبح آخر كبير يدعى (النوتيلوس) ، وفي المدينة معرض للسمك يدعونه (حوض الحوت) جميل الوضع ، حسن التنسيق، ويظهر أن العناية به في الأيام الاخيرة بدأت تقل ، فبعض جوانبه أصبح خالياً مما كان يعرض فيه ، وهو على نمط (حديقة الأسماك) في القاهرة إلا انه أصغر ، وأحكم بناءً . ومن أعجب ما شاهدت فيه نوع من السمك يدعى (سيبيا) أقل من الذراع بيسير ، تغطيه قشرة رقيقة تفترش فوق ظهره ، حتى يكاد تكون مستديرة الشكل ، وحول فمه زعانف محيطة به من كل الجوانب ، وله عينان جاحظتان وشكله غريب حقاً . ورأيت هيكل إحدى السلاحف الكبيرة ، كتب عنها أنها صيدت في مياه الدار البيضاء ، وان وزنها يبلغ ٥٠٠ ك . وهناك انواع من السلاحف الحيـة .

ذهبت إلى الباب الكبير – باب مراكش على ما وصُف لي – فبلغت المسجد بجوار الشارع الرئيسي للمدينة القديمة الذي سرت فيه حتى تغلغلت وسط المدينة ، ولكني لم أجد من يبيع كتاباً ، ولم يضع وقتي فقد عرفت

أماكن ربما أحتاج إلى معرفتها ، تعرض فيها الاشياء بثمن أقل بكثير مما تعرض به في الأسواق التجارية الكبيرة .

وفي عصر ذلك اليوم سألت عن أكبر مسجد يقصده الناس ، فكتب لي أحدهم اسم (سيدي بَلِيوط) فظنته يهزأ بي ، ولكنني علمت من أحد أصحاب الفندق أن هذا مشهور عندهم ، وهو قريب من وسط المدينة ، فاتجهت كما وصف ، حتى بلغت (زنقة سيدي بليوط) ثم رأيت قبة ليست عالية تتوسط بين شوارع رئيسة في أعظم شوارع المدينة فدخلت المكان المحيط بالقبة ، فإذا المكان ليس مسجداً ، إنه قبر داخل القبة .

وكنت شاهدت بقرب (مسجد الكتبية) أعظم مساجد مراكش ساحة واسعة ، قال لي أحدهم : انها كانت مقبرة فسوّيت بالارض وهدم ما فوقها من البناء ، واتخذ قسم منها حديقة أصبح ساحةً خالية من المقابر سوى قبة صغيرة في أحد جوانبها . دخلت البناء الذي تقع القبة داخله فلما رأيت من فيه من الزوار رجالاً ونساءً ، وما يحدث منهم ،تمنيّت لو أن اولئك الذين أزالوا ما حول (مسجد الكتبية) من مقابر — إن صح أنهم أزالوها — أنهم بدأوا بإزالة هذه القبة التي تقع على مرأى ممن يفد إلى هذه المدينة العظيمة ممن لا يعرفون الدين الاسلامي ، فيظنون أن ما يجرى عند هذا القبر من الأمور أنها من الدين ، ثم من هو (بَلِيُوط) هذا ؟ وماذا تفقد هذه المدينة بإزالة قبته وقد ضيقت جوانب من أهم شوارع البلدة ، وميدانا من الميادين التي تتوسطها ؟ ! ما لنا ولهذا ف (أهل مكّة ادرى بشعابها) وأهل هذه المدينة أدرى بصالح مدينتهم .

أصبح صباح السبت وقد أوشك ما معي من النقود المغربية أن ينفد سوى أجرة الفندق للايام الثلاثة وفي أثناء تجوالي وجدت المصارف مغلقة ، فرجعت أسأل صاحب الفندق عن مكان للصرف ، وكنت قد علمت أن يومي السبت والأحد يوما عطلة رسمية في المغرب وفي الجزائر — كما في لبنان — فوصف لي موقع (البنك العربي) ولكنني وجدته — كما قال القائل :

إنْ جئتَ داراً أهْلُهَا كُلُّهُمْ

عُورٌ ، فَغَمِّض عينَكَ الواحدة

إذنْ فلا مَفَرَّ من الاكتفاء بما بقي من النقود خلال اليومين . وعلى ذكر الصرف فإن النقود كالدولار والاسترليني والفرنك والفرنسي غيرها من عملات البلاد (الرأسمالية) تصرف في المغرب وفي الجزائر وفي تونس بما يقارب قيمتها الحقيقية يوم الصرف ، فكان صرف الدولار أول ما وصلت إلى المغرب (٤/٤٧) درهما ، وفي آخر الأيام بلغ (٤/٥٥) منه والمغرب – بالنسبة إلى الجزائر – الأشياء فيه متيسرة ، ولكن بالنسبة لمصر – بل وللبنان – تعتبر مرتفعة القيمة . كأجور الفنادق وأثمان المواد الغذائية والملبوسات . فأجرة الغرفة – ذات السرير الواحد بدون حمام – لا تقل عن ٢٥ ديناراً في الجزائر في الفندق الذي دون المتوسط وعن ١٥ درهماً في المغرب (أي ما يزيد على خمسة دولارات في الجزائر ، وثلاثة في المغرب) . والوجبة في المطعم المتوسط لا تقل عن ١٥ ديناراً أو درهماً ، وسيارات الأجرة في الجزائر تسير بالعدّاد ، وفي المغرب بدونه .

ما أشدَ ما يقاسيه المرء من ألم الانتظار ، فقد كان اليومان اللذان أمضيتهما في (الدار البيضاء) من أطول الأيام، وان كنت قضيت أغلبهما في التجوال في المدينة، على غير غاية ، وفي السير على شاطيء البحر ما أمكنني السير .

لقد كان الوقت المحدد لسفري – على ما كتب لي في التذكرة – أن أكون الساعة الثالثة والنصف في محطة شركة النقل (ستيام) للذهاب إلى (مطار النواصر) وهو يبعد عن المدينة ٢٤ كيلاً ، ولكنني حضرت قبل الموعد بساعة ، وحسناً فعلت ، فقد وصلت المطار مبكراً ، واسترحت هناك حتى آن وقت السفر الساعة الخامسة والنصف ، ولو تأخرت إلى الوقت المحدد لي لفاتتني الحافلة إن لم تفتني الطائرة ، مع أن الحافلات تتردد على المطار في أغلب الأوقات ، وصدق عليه الصلاة والسلام : « بورك لأمتي في بكورها » والحوادث التي جرت لبعض الطائرات زادت السفر تعباً .

في مدينة «تونس»

لم تقلع الطائرة[*] من (مطار النواصر) إلا الساعة السادسة (مساء الأحد ١٩٧٢/١٢/١٠ م) ووصلت مطار الجزائر بعد ساعة وخمسين دقيقة ، وبقيت ما يقرب من نصف ساعة ، وكانت درجة الحرارة في الجزائر ١٥ مئوية ولم يستغرق الطيران من الجزائر إلى تونس أكثر من ٥٠ دقيقة ، وكان المتوقع ان تكون تونس أدفأ من المغرب إذْ كلما اتجه المرء نحو الجنوب تضعف البرودة ، غير أن موجة من البرد مرت بالشواطيء القريبة من تونس ، فكانت درجة الحرارة في (قرطاج – تونس) قد نزلت إلى سبْع .

الاجراءات في مطار تونس – عندما مررت به – في غاية السهولة ، فلم تفتح حقائب أحد من المسافرين ، بل كان المفتش يكتفي بسؤال المسافر : هل معك شيء للجمرك ؟ ثم يصدقه ، ويترك له متاعه ، ولكي أدرك الحافلة – ظناً مني أن هناك سيارة تابعة لشركة الخطوط التونسية إلى المدينة – أسرعت ، فلم أستفد مما وقع لي في مطار الجزائر – بل رميت بما معي داخل حافلة رأيت أكثر المسافرين ركب فيها . وقبل أن تتحرك طُلبتْ مني الأجرة ، فأخرجت نقوداً غير تونسية ، ولكن الجابي قال لي : ها هو البنك داخل المطار ، انزل واصرف . غير أن شاباً تونسياً كريماً لا أعرفه قال : أنا أدفع عنه ، ودفع فعلاً ثم سألني : هل أنت ليبْبي ؟ فأجبته بأني سعودي . فقال مازحاً : سأخبرك بعنواني لكي تبعث لي بدل الاجرة (بترولاً) !!

لقد كان المبلغ الذي دفعه زهيداً ، يقارب الريال العربي السعودي ولكن أثره كان كبيراً بالنسبة إلي ، فقد أراحني من تعب النزول

(*) مجلة « العرب » – المجلد السابع – ص ٨٨١ – .

وحمل متاعي والرجوع إلى المطار ، ومكنني من الركوب في الحافلة والوصول في وقت مبكر ، ولقد كانت وصية كثير ممن عرف أنني مسافر إلى تونس لي أن أسجل نقودي في المطار غير أنني نسيت ذلك ، فلما وصلت إلى داخل المدينة نزلت ـ حيث نزل غيري ـ من الحافلة ، ووقفت في انتظار سيارة أجرة تحملني إلى أحد الفنادق ، وبجهلي بالفندق الملائم لي سألت إنساناً واقفاً بقربي ، فقال : الفنادق كثيرة ، ولكن ما نوع الفندق الذي تريد ؟ فقلت له : متوسط . فما كان منه إلا أن قال : تعال أوصلك إلى فندق . وحمل حقيبتي إلى سيارة قريبة ، وسار بي غير بعيد ، ثم نزل من السيارة وأمرني بالانتظار ليسأل هل يجد مكاناً خالياً في فندق وقف بي عنده . ثم عاد وأخبرني بمقدار الأجرة وانها ثلاثة دنانير تونسية فلم أتردد في الموافقة ، مع انني لم أعتد السكن في فندق تبلغ أجرته ما يماثل هذا المبلغ ، ولكن كرم الرجل ، وحاجتي إلى الراحة ، وحيائي من تكليفه بالبحث حملني على السكن في ذلك الفندق ويدعى (نزل كارلتون) في أعظم شوارع المدينة (شارع الحبيب بورقيبة) طلبت من الرجل لما أراد الانصراف : الجلوس قليلاً للتعارف ولكنه اعتذر بكونه أدخل أبناءه في (المسرح) بقرب المكان الذي حملني بسيارته منه ، وقد آن وقت خروجهم ويخشى أن لا يجدوه في مكانه ، ووعدني بأن يزورني غدا الساعة الثانية عشرة ، ووفى بوعده ، وعرفني بأنه (محمد الهادي السويّح) من أهل هذه المدينة وعنوانه (١٣ نهج رومة) وأنه حج منذ سنتين ، وهو يعمل موظفا في وظيفة مالية حكومية .

لم أستيقظ في الصباح (يوم الاثنين) إلا متأخراً ولما نزلت إلى أسفل الفندق وجدت القوم لم يستيقظوا بعد ، وقد بلغت الساعة السابعة ـ أو قاربت ـ ولكني أدركت أنني لم أُؤَخرْ ساعتي عما هي عليه في المغرب ، وفرق التوقيت ساعة تأخير في تونس ، فالسابعة في المغرب هي السادسة في تونس ، والخامسة في ليبيا والقاهرة .

لقد عرفت كثيراً من علماء تونس وأدبائها في القاهرة وفي بيروت ،

غير أن من طبيعتي أن لا أسارع بالاتصال بمن أعرف ، لئلا أثقل على أحد ، وقد تدفعني هذه الرغبة إلى عدم مقابلة بعض اصدقائي في البلدة التي أقدم عليه فيها ، وهذا ما عزمت عليه عندما قدمت هذه المدينة ، ولكن الاخوان فيها كانوا أكثر وفاء ، وأسبق إلى الفضل مني .

لقد سألت صاحب الفندق عن المكتبة العامة فلم يعرفها ، ولكنه عندما سألته عن (جامع الزيتونة) الذي توقعت أن تكون المكتبة بقربه قال لي : سرْ في شارع الحبيب على يمينك ، وعند انتهائه اتجه أمامك وواصل السير وستصل إلى الجامع فكان الأمر كما قال ، ولكنني قبل وصولي إلى الجامع مررت بإحدى المكتبات اسمها (المكتبة العتيقة) وكنت بحاجة إلى بعض الرحلات المطبوعة في المغرب ، وهي :

١ ـ رحلة الشيخ أحمد بن عمار الجزائري .

٢ ـ رحلة الورثلاني (جزءان) بتحقيق الأستاذ محمد بن شنب .

٣ ـ الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية ، للطيب بن كيران .

٤ ـ الرحلة المكية لأحمد الرهوني .

٥ ـ رحلة العياشي أبي سالم .

٦ ـ رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي .

٧ ـ الرحلة الحجازية لأحمد بن المأمون البلغيشي .

دخلت تلك المكتبة وأخرجت دفتراً كنت كتبت فيه أسماء هذه الرحلات وغيرها من الكتب المطبوعة في المغرب مما أحتاج اليه ولما سلمت على صاحبها وبدأت في سؤاله عما احتاجه قال لي : ألست فلانا ؟ فقلت : هو ، فقام وسلّم علي . لقد كنت عرفت الرجل في العام الماضي في القاهرة هو وحبيبنا الحبيب اللمسي ، وهذا الرجل هو الحاج علي العسلي من الرجال الأفاضل ، وبعد حسن الاستقبال والاستراحة ذهبت إلى حيث قصدت ، ووعدني بالبحث عما سألت عنه من الكتب ، ولما بلغت المكتبة العامة ، اتجهت إلى قسم المخطوطات فدخلت في مكتب مديره بدون قصد ، وأبديت للرجل

الذي وجدته فيه رغبتي بمطالعة بعض المخطوطات ، فقال : كأن الأخ غير تونسي ؟ فقلت : نعم أنا من السعودية . وبعد حديث قصير قام يحييني فإذا هو أخونا الاستاذ عبد الحفيظ منصور ، وكنا تعارفنا — على عدم التقاء — بالمكاتبة ، وبواسطة مجلة « العرب » وبينما كنا نتحدث في محيط ما هو حولنا من المخطوطات ، إذا بالأستاذ الحبيب اللمسي يدخل علينا ، فقد أخبره الحاج العسلي ، فجاء مسرعاً . وبعد برهة قصيرة جاء الاستاذ الجليل محمد المطوي العروسي — الذي أقام أكثر من عامين في جدة سفيراً لبلاده [1] — وقد عرفته قبل عام في بيروت ، حيث أكرمني — أكرمه الله — فزارني ، فوجدت فيه العالم المتصف بخير المزايا من التواضع واللطف وغيرهما من الخصال الحميدة .

كانت جلسة ممتعة بين هؤلاء الاخوة الأحبة ، جادوا علي من عطفهم وكرمهم بما أثقل كاهلي حمله — إن صح هذا التعبير — واستفدت من علمهم وأدبهم الوفير الغزير ، ولم أخرج من المكتبة — على قصر الوقت الذي أمضيته فيها — إلا بعد أن تأبطت بغيتي من « رحلة السنوسي » مصوراً . فقد كان الاستاذ الكريم عبد الحفيظ منصور كريماً معي حقًّا ، فقد سارع بإمدادي واطلاعي على كل ما أردت .

كان الحديث كله يدور حول المخطوطات . وهو ذو شجون ، وكان أن أخبرت الاخوة انني اطلعت — فيما اطلعت عليه من مخطوطات (الخزانة العامة في الرباط) — على كتاب في الحماسة ، تقدم ذكره ، وقلت : ان مؤلفه من علماء المغرب لأنه رتب الحروف على ترتيبها عندهم . فذكروا لي كتاب « الحماسة » للأعلم الشنتمري ، وان منه نسخة في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، ورقمها ١٨٦٥٦ ، وان الاستاذ حسن — رحمه الله — قد وصفها ومما قال في وصفها : « شرح ديوان الحماسة [2] » .

---

(١) وهو الآن من النواب ، و « رئيس لجنة التوجيه » وهي اللجنة التي تشرف على التوجيه الثقافي والسياسي والاقتصادي في البلاد .

(٢) حوليات الجامعة التونسية ٧/١٣٨ سنة ١٩٧٠ م .

ترتيب أبي الحجاج يوسف بن سليمان الاعلم الشنتمري الاندلسي المتوفي سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٤ م ، وترتيبه مغاير للنسخ المتداولة فإن كل باب منه مرتب على حروف المعجم بحسب القوافي .

هذه النسخة اندلسية الخط ، لا نظير لها في حسن الخط العجيب ، وجمال الطوالع المذهبة مع كل لفظ بالحمرة في خلال الشطور ، وبهوامشها طرر مفيدة الشطور وبهوامشها طرر مفيدة جداً ، وهي في القالب الكبير وورقها شاطبي صقيل ثخين ، وفي آخرها بخط مغاير : (قرئت هذه باشبيلية في شوال سنة خمس وستين وأربعماية) وعلى هذا تكون هذه النسخة هي التي قدمها مؤلفها الاعلم الشنتمري إلى المعتضد ابن عباد ملك اشبيلية والد المعتمد بن عباد ، فقد جاء في « البيان المغرب » لابن العذاري المراكشي -: وفي سنة ستين واربعمائة توفي المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد صاحب اشبيلية في جمادى الآخرة وسِنُّهُ إذا ذاك سبع وخمسون سنة . قال ابن القطان : كان عباد ذا سياسة ورأي يدير ملكه من داره وكان يغلب عليه الجود ، وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله في ذلك همة عالية ، ألف له الاعلم اديب عصره ولغويُّ زمانه: « شرح الأشعار الستة » و« شرح الحماسة » والف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس .

وبالجملة فانها نسخة بديعة لا نظير لها كأنها وضعت اليوم لما لها من الرونق والجلاء العجيب، ومنها يستفاد اشكال الخط النسخ الاندلسي ورقي صناعة الورق والحبر والاصباغ في ذلك العصر .

عدد أوراقها : ١٦٣ ورقة ، انتهى .

ويظهر أن الأعلم شرح حماسة أبي تمام وأنه ألف حماسة على نمطها فقد قال ابن حجر (١) - بعد ايراد ما أنشده أبو تمام في « الحماسة » - :

شهدن مع النبيّ مسوّمات حُنَيناً وهي دامية الحوامي

---

(١) « الاصابة » ٣١/ ٣٩ - طبعة مصطفى محمد .

قال : وهذه الأبيات عزاها أبو الحجاج الأعلم في « شرح الحماسة » لخفاف بن ندبة .انتهى. وذكر ابن خير[1] — وهو يتحدث عن شروح حماسة ابي تمام — « شرح اشعار الحماسة » للأعلم .

— أما الحماسة التي ذكرتها فهي حماسة الأعلم .

ولما اطلعت على هذه النسخة تحققت أن الكتاب الذي طالعته في المغرب نسخة أخرى من « حماسة » الأعلم الشنتمري ، لا تختلف عن هذه النسخة إلا بكون المغربية أحدث خطاً ، فهي من مخطوطات القرن الحادي عشر الهجري .

أما رحلة السنوسي التي سبقت الاشارة اليها ، فصاحبها متأخر زمناً ، فقد حج سنة ١٢٩٩ هـ أثناء إمارة الشريف عون الرفيق ، وهو من أجلة العلماء[2] ومشاهيرهم ، ورحلته تقع في ثلاثة أجزاء ، والقسم المتعلق بالحج يقع في ٨٠ صفحة (من ٧٢ إلى ١٥١ من الجزء الثاني) ورقم النسخة في المكتبة ٤١٩٧ — وقد أعود للحديث عنها .

لم أحس ذلك اليوم أنني أقيم في بلد لست من أهله ، بل بعكس ذلك ، فقد وجدت من كرم الإخوة الذين تقدم ذكر بعضهم ما جعلني أشعر بالراحة والاطمئنان ، وأنسى كل أثر من آثار مشقة السفر ، ووحدة الغربة ، ولقد كان للأخ الصديق الأستاذ الحبيب اللمسي الفضل في ذلك ، فقد حرص على أن يوفّر لي من الراحة ما قدر عليه ، لقد أمضينا جُلّ النهار ، والهزيع الأول من الليل في التجوال في المدينة ، في شوارعها الحديثة ، وفي مشاهدة بعض معالمها وفضلاً عن ذلك فالأستاذ اللمسي من أوسع الباحثين في التراث العربي اطلاعاً وبخاصة ما له صلة بتاريخ المغرب قديمه وحديثه ، يضاف إلى ما يتمتّع به من روح كريمة مرحة ، وخلق سمح ومعرفة بأحوال العالم العربي ، وتتبّع لحركات تطوره الفكرية والأدبية ، اكتسبها من رحلاته

(١) « فهرست ابن خير » ص ٣٨٨ .
(٢) « تراجم الاعلام » ص ١١٧ .

إلى مصر والحجاز وغيرهما من الأقطار الأخرى ، وهو يعمل الآن موظفاً في (الدار التونسية للنشر) من خلال صفات الأخ اللمسي هذه وغيرها من صفاته الكريمة الأخرى كانت زيارتي لهذه المدينة مريحة ومُفيدة حقاً .

ذكرت الصديق الأستاذ ابراهيم شبُّوح فأخبرني الأخ اللمسي انه اتصل ببيته هاتفياً فلم يجده ، وقيل له : إنه في القيروان ، حيث يقوم ببعض الدراسات التي لها صلة بمهنته ، فهو من علماء الآثار ، فأبرق اليه ، ولكنه علم — بعد — أنه — سافر إلى (باريس) ولكنني وإن لم أحظ برؤية صديق حبيب إلى النفس ، فإن ما وجدته من اخوانه كالحبيب اللمسي وغيره جعلني أحسُّ بعدم غياب الأستاذ ابراهيم .

علم الأستاذ الدكتور الحبيب الجنحاني — المدرس في كلية الآداب — بوجودي فكرم بزيارتي في الفندق ليلاً ، ثم خرجنا ثلاثتنا ، وأمضينا فترة من الوقت في إحدى المقاهي ، والدكتور الجنحاني يدرس التاريخ العربي ويقوم بتأليف كتاب عن (أدب الخوارج) ولهذا فليس غريباً أن تنحصر أحاديثنا في التراث العربي وما يتصل به ، وأن نسترسل استرسالاً جعلنا لا نشعر بمرور الوقت حتى انتصف الليل .

يوم الثلاثاء : ١٣٩٢/١١/٦ (١٩٧٢/١٢/١٢) بكرت في الذهاب إلى المكتبة العامة ، فوجدت الأخ الأستاذ عبد الحفيظ منصور مشغولا باستقبال وفْد جزائري ، ولكنني ما لبثت حينما أرشدت إلى غرفة المطالعة إلا بالموظَّف المكلف بتقديم المخطوطات يقدم لي البطاقات التي ينبغي أن أكتب فيها أسماء ما أريد الاطلاع عليه ، وسرعان ما أحضر لي ما طلبت بعد أمر من الأستاذ عبد الحفيظ وهو المسؤول عن المخطوطات بذلك . وكان منها :

١ — « **الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة المِعْلا** » لجمال الدين محمد بن علي الشيبي ، ولقد كنت اطلعت على بعض نسخ هذا الكتاب ، ومنها ما وصفته في كتاب « في شمال غرب الجزيرة » ص ١٧٩ وأشرت إلى نسخة

منه في مجلة « العرب [1] » ولكن ما اطلعت عليه كان ناقصاً .

وهذه النسخة من مخطوطات مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب وتقع في مجموع يحوي :

١ – الشرف . . من ص ٢ إلى ١١٦ .

٢ – « ما ورد عن شفيع الخلق يوم القيامة أنه احتجم وأمر بالحجامة » لأحمد بن أبي بكر البوصري (٨٤٠/٠٠٠ هـ) كما في « الضوء اللامع » (٢٥١/١ – من ص ١١٧ إلى ص ١٨٣) .

٣ – « محض النصيحة ، لذوي العقول الصحيحة » لمحمد بن أبي بكر بن خضر المعروف بابن الديري (٨٩٢/٧٨٨ هـ) كما في « الضوء » : (١٦٧/٧ من ص ١٨٥ إلى ص ٢١٠) .

٤ – « الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة » الأصل لابن حجر ، والمختصر محمد بن أبي بكر بن خضر (٨٦٢/٧٨٨هـ) كما في « الضوء » (١٦٧/٧ – من ص ٢١١ إلى ٢٢٤) – وكان من هذا المجموع : « عجائب القدرة ، فيمن يهجم على قناديل الحجرة » فأخذ منه ، والمعلومات المتعلقة بهذا المجموع نقلتها من طرته من خط الاستاذ ح . حسني عبد الوهاب – رحمه الله – .

ويبتديء كتاب «الشرف الأعلى » بالخطبة ، وبيان الغاية من تأليفه .

وسبق أن أشرت إلى ذلك ، أما آخر هذه النسخة فهو ص١١٣ : (ومنها حجر عليه بعد البسملة والصلاة على النبي (ص) وبعد قوله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله) الآية ما صورته هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى – رحمه الله – السعيد الشهيد ، محمد بن عبد الملك المعروف بالمعدم ، توفي بِمِنَى ، يوم الخميس الحادي عشر من ذي الحجة ، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله وجميع المسلمين آمين ، وعلى جوانب

(١) ص ٩٥٣ السنة الرابعة .

القبر قوله تعالى : (ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله — إلى قوله تعالى — أجر عظيم) انتهى ذلك هذا آخر ما وجد) . وفي ص ١١٤ (من هذا الكتاب) بخط جامعه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي القرشي العبدري الشيبي الشافعي والحمد لله وحده :

تـمّ كتـاب الشرف الأعلى تأريخ ألواح قبور المِعْلاَ

وهـو كتاب فائـق المعانـي ورائق التصريف في المباني

— ارجوزة في ٢٧ بيتاً ذكر فيها أن ناظمها كاتبه أبو القاسم علي بن محمد ، شهر بابن زبيدة اليماني البلد ، القحطاني النسب في ذي الحجة سنة ٨٥٤ ، ثم تاريخ كتابة النسخة ٢٩ شوال سنة ٨٩١ هـ .

ويقع الكتاب في ١١٥ صفحة — عدا طرة الكتاب — في الصفحة ١٥ سطراً ، ويظهر أن تاريخ كتابة « الشرف » متأخر عن تاريخ كتابة بقية نسخ المجموع ، إذ يفهم مما ورد في ص ٢٢٤ أن كاتب تلك النسخ يدعى محمد بن كبير [1] الديري الشافعي ، بمدينة دمشق في ٢١ شعبان سنة ٨٤٨ — ورقم هذا المجموع ١٨٣٢٥ (عبد الوهاب) .

إنّ مؤلف كتاب « الشرف الأعلى » من مشاهير علماء مكة ، وتولى سدانة الكعبة المشرفة والقضاء بمكة ، ولد سنة ٧٧٩ وتوفي سنة ٨٣٧هـ (١٣٧٨ — ١٤٣٣ م) وله مؤلفات منها «تمثال الأمثال» لا يزال مخطوطاً ، ويظهر أنه لم يكمل كتابة « الشرف الأعلى » كما يظهر من النسـخ المخطوطة التي اطلعت عليها .

٢ — « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، في أنساب الصحابة ورواة الآثار » لعبد الله بن علي الرشاطي الاندلسي (٥٤٢/٤٦٦ هـ) .

هذه القطعة من هذا الكتاب من مخطوطات المكتبة الأحمدية ، وقد

---

(١) قرأها الاستاذ ح . حسني عبد الوهاب : (بكر) وأحال إلى كتاب الضوء «اللامع» ١٦٧/٧ .

وصفها الاستاذ عبد الحفيظ منصور [1] وتقع في ٢٣٦ صفحة ويظهر انها قديمة الخط ، وورقها غير مرتب أو أن فيه نقصاً . والرشاطي كثير النقل عن الهمداني صاحب « الاكليل » وابن الكلبي وابن دُريد — قبله — و « الإكمال » لابن ماكولا ، ويصحح أغلاطه ، كما ينقل عن الهجري [2] ، ولكتاب الرشاطي مختصر لعبد الله بن عبد الرحمن الاشبيلي منه قطعة في خزانة الأزهر في القاهرة ومن حسن حظ كتابه أن البُلبَيْسي اسماعيل بن ابراهيم (٧٢٨/٨٠٢ هـ) قد اختصره ثم جمع بين المختصر وبين كتاب « اللباب » مختصر انساب السمعاني لابن الأثير — جمع بينهما في كتاب لا يزال مخطوطاً — مسودة المؤلف في مكتبة رئيس الكتاب في اصطنبول وقد صوره معهد المخطوطات .

ومما نقلت من مخطوطة الأحمدية : (المُرَيْدي في بَلي . قال أبو محمد : لم أجدْ هذا النسب في كتاب ابن الكلبي ولا في غيره ، وليس عندي سوى ما حكاه أبو عليّ الهجري قال : مُريد قبيلة من بلي وحكي ابن هشام قال : قال ابن اسحاق : قالت امرأة من المسلمين من بني مُريد بطن من بلي ، كانوا حلفاء بني أمية بن زيد، يقال لهم الجعادرة— تجيب كعباً [3] . . . (الورقة ٤٣) المرداسي : . . . من ولده شدّاد بن يزيد بن مرادس ، بشير رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأسد (؟) قيل فيه :

ومن مثل مرْداسٍ بشير محمد على الهول والطخياء مُوفٍ ضبابُها

ذكره أبو علي الهجري ، ولم يذكره أبو عمر ، ولا ابن فتحون ، وعسكر ابن فراس بن عقبة المرداسي كان بعد المائتين ، ومن ولده أبو مروان : عبدالملك بن حبيب بن ربيع بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي المرداسي السلمي الأندلسي صاحب كتاب « الواضحة » الورقة ٤٧ .

---

(١) « فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية » ص ٤١٥ .

(٢) انظر كتاب « أبو علي الهجري وابحاثه في تحديد المواضع » ص . ٢٦ .

(٣) « السيرة النبوية » ٣ لابن هشام ٣ /٥٧ .

إن الرّشاطي الأنداسي أحد علماء المغرب الذين بواسطتهم عرفنا عالماً جليلاً تصدّى لتدوين علوم العرب من شعر ولغة ونَسَب وغيرها بطريقة لم يسبق إليها ، فلم يصل الينا من آثاره إلا ما نقله لنا علماء المغرب ، مضافاً اليه نقول يسيرة في بعض كتب المشارقة وقطعتان من كتابه الذي ألفه ، ونعني أبا علي الهجري صاحب كتاب « النوادر » وأكثر نقول المشارقة عن هذا العالم كان بواسطة علماء المغرب ، كما نرى في مؤلفات ابن حجر ک « الاصابة » و « تبصير المنتبه » فمصدره الرشاطي ، وفي « تاج العروس » وغيره من كتب اللغة ، فمصدره كتابا ابن سيدة الاندلسي « المحكم » و « المخصص » .

٣ ــ « الأمثال السائرة بين الناس » ورأيت في فهرس (مكتبة ح . حسني عبد الوهاب « كتاباً بهذا الاسم ، رقمه ١٨٥١٣ ، فوجدته يحوي امثالاً قليلة باللهجة التونسية ، مرتبة على الحروف إلى حرف الضاد ثم تنتهي مسرودة سرداً ، وليس فيه اسم لمؤلفه وهو في ٥٧ ص في الصفحة ١٧ سطراً ، ويظهر أن مؤلفه متأخر ، والأمثال تتشابه في الأقطار العربية .

٤ ــ رسالة في البُنّ ، ظننت أن في هذه الرسالة التي برقم ١٨٥٨٠ (مكتبة عبد الوهاب) ما يفيد من الناحية التاريخية ، غير أنني لم أجد فيها كبير معنى ، فهي حديثة الخط والتأليف أيضاً ، مخطوطة سنة ١٣٤٣ بقلم سالم بن سعيد باسودان ، ومؤلفها حضرمي لم يذكر اسمه ، ولكنه ينقل عن حضارمة ، وهي بلهجة عامية ، وتقع في ٢٩ ص .

٥ ــ وكنت حريصاً على أن اعرف متى بلغت الدعوة الاصلاحية السلفية التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ بلاد المغرب ، وقد طالعت في كتاب « الترجمانة » للزياني المتوفي سنة ١٢٤٩ هـ طرفاً من ذلك غير محرّر ولا محقق ، وأورد فيه رسالة لأحد علماء تونس في الردّ على الشيخ ، فرأيت في (مكتبة ح . عبد الوهاب) رسالة رقمها (١٨٧١١) بعنوان رسالة في الرد على محمد بن عبد الوهاب أولها : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . . . أما بعد فإنك راسلتنا تزعم انك القائم بنصرة الدين)

وآخرها : (وأما إن أطلقت في لجة الغواية سبْحاً ، وشيدت في الفتنة صَرْحاً واختلت (؟) عارض رمحك ، فإن بني عمك فيهم رماح . . .)
وظهر لي أن هذه الرسالة هي التي أوردها صاحب « الترجمانة » وهي ليست رداً على الإمام محمد بن عبد الوهاب ، بل على الامام سعود بن عبد العزيز الذي أرسل إلى المغرب احدى رسائله في الدعوة إلى العقيدة الصحيحة السلفية ، وتقدمت الإشارة إلى هذه الرسالة [1] . أما عن تاريخ بلوغ تلك الدعوة إلى هذه البلاد فقد أشار إلى ذلك الشيخ أحمد بن أبي الضياف (١٢١٩/١٢٩١ هـ) في كتابه « إتحاف أهل الزمان [2] بأخبار تونس وعهد الأمان » وابن أبي الضياف لم يكن محققاً فيما كتب في الموضوع .

وفي هذا اليوم افتتحت الشركة التونسية للتوزيع معرض الكتاب الجزائري الذي أقامته بمناسبة الأسبوع الثقافي الجزائري ، بإشراف وزير الشؤون الثقافية والأخبار ، وكرم الإخوة المشرفون على ذلك المعرض بدعوتي لحضور حفل الافتتاح غير أنني كنت بحاجة إلى الراحة ، فلم أخرج من الفندق — في المساء حتى حضر إلي الصديق الأستاذ اللمسي بعد ذلك ، فقمنا بجولة في شارعي المدينة الرئيسين شارع الحبيب ، فشارع محمد الخامس المتفرع منه ، ومن نهايته عدنا من شارع باريس إلى حيث بدأنا ، فاسترحنا في أحد المطاعم، والمطاعم في أقطار المغرب العربي الثلاثة تتشابه فيما تقدم من المأكولات ، وتتقارب من حيث الأثمان .

مما قرأت هذه الليلة : جاد علي الاخوة بمجموعة من المطبوعات التونسية كان منها كتاب « ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية » للعلاّمة حسن حسني عبد الوهاب ، الذي جمعه الاستاذ الجليل محمد العروسي المطوي ، فكان مما قرأت [3] فيه عن كتاب « الشرف الأعلى » : وهنا تجدر ملاحظة ،

---

(١) مجلة « العرب » السنة السابعة ص ٧٣٧ .
(٢) مطبوع في ثمانية أجزاء .
(٣) ج ٣ ص ٤٠٩ .

وهي ان من العلماء العرب من اهتم منذ خمسمائة سنة بالنقائش المرسومة على أضرحة مقبرة معينة بطريقة لا تبعد عن الطريقة العلمية التي يسلكها علماء الغرب المختصون بالبحث عن الآثار القديمة، وهذا أحد قضاة مكة المكرّمة يُعْنَى بمقبرة المِعْلَى ، ويخصها بتأليف مستقل سماه « الشرف الأعلى في ذكر قبور المعلى » ويطوف بنفسه على قبورها قبراً قبراً ، وينقل ما هو مكتوب على كل واحد منها بالحرف الواحد ، من غير زيادة ولا نقص ، كما يشير — عند الاقتضاء إلى أغلاط النقاشين مع التنبيه إلى نوع الخط ، والإتيان بترجمة المتوفيّ استناداً على أوثق المصادر السابقة ، كما لا يفوته — متى توفّر له ذلك — التنبيه إلى أن المتوفي لم يمت بمكة ، وإنما نقل جثمانه إليها بعد وفاته من المكان الذي مات فيه ولو كان من أقاصي البلاد . والقاريء لهذا الكتاب لا يسعه إلا الاعتراف لصاحبه بما لديه من المستلزمات العلمية المشروطة لدراسة النقائش في عصرنا الحاضر . انتهى كلام الأستاذ حسن عبد الوهاب — رحمه الله — واضيف إلى أن معاصراً لمؤلف كتاب « الشرف الأعلى » هو مؤرخ مكة الامام تقي الدين الحسني الفاسي المتوفي سنة ٨٣٢ قد استفاد من كتابات قبور المعلاة في كتابة « العقد الثمين » فقد يذكر ترجمة شخص ما نقلاً عما قرأ على قبره ، كما يحقق نصاً تاريخياً اعتماداً على ما قرأه على حجر مكتوب كإنشاء رباط أو مسجد ، أو تعمير عين ونحو ذلك ، مما لا نطيل بذكره ، ولا تفوت الإشارة إلى ان الكتابة على القبور من الأمور المحرمة ، كالبناء عليها وزخرفتها .

يوم الاربعاء ١٣٩٢/١١/٧ هـ (١٩٧٢/١٢/١٣م) : كان لا بُدّ لي من زيارة السفارة ، وقد عرفت مكانها ، فذهبت مبكراً — في صباح هذا اليوم — إلى جهتها ، ماراً بشارع محمد الخامس المتفرع من شارع الحبيب أبو رقيبة ، حتى انتهى فملت ذات اليمين فشاهدت تلاًّ مرتفعاً قد ازدان بالأشجار الباسقة الخضراء ، واكتسب أرضه بمختلف أنواع النباتات ، وقد أحيط بسياج من حديد ، فدرت حوله حتى بلغت أحد أبوابه ، فدخلته ، فوجدت في وسطه مقهى بنيَ على الطراز الأندلسي ، مجاور لحديقة الحيوانات

في داخلها وكنت بحاجة إلى إراحة عيني من المطالعة ، فكان أن جُلت في داخل الحديقة حتى قاربت الساعة العاشرة وتحققت انني سأجد دار السفارة مفتوحة ،وقد اتضح لي من تجوالي في ذلك المكان أن ذلك التلّ الاخضر يمتدُ ويرتفع مسافة واسعة والمدينة تحتضنه من الناحية الغربية وتتصل بالبحر من الناحية الشرقية بحيث أن الواقف في طرف شارع الحبيب يشاهد السفن الراسية في الميناء ، ولعل الإطلال على ذلك التّل الجميل الاخضر على المدينة من أجْلِه دُعيت (تونس الخضراء) — لا أدري !! — .

تقع السفارة في دار جديدة ، وإن كانت غرفها ليست واسعة ، ولم أجد السفير الشيخ عبد الرحمن البسام ، فقد كان مسافراً إلى لندن لعلاج عينيه — على ما قيل لي — ووجدت من حسن استقبال الإخوه الموظفين الاستاذ محمد الشبل — القائم بالأعمال — وزملائه في العمل ما كان متوقعاً ، واطلعت على بعض صحف بلادنا ،وعلى ذكر السفارة فإن المباني في هذه المدينة على نوعين :

(١) الطراز القديم ويمثل هذا النوع بيوت المدينة القديمة التي لا تزال باقية ، معتنى بالمحافظة على بقائها كالحال في مدن المغرب القديمة ، وهذه البيوت — كما تبدو — صغيرة وشوارعها ضيقة ، لا تجتازها السيارات بل تقف عند مدخلها ، ولم أدخل شيئاً من البيوت القديمة لكي اتحقق من صحة وصف ياقوت الحموي لها ولكنني لا استبعد أن المثل الذي أورده في تلك البيوت لا يخلو من التجنّي (١)

(٢) الطراز الحديث الذي طغى على المدينة ، بحيث أصبحت المدينة القديمة تعتبر حياً صغيراً من أحياء تونس ، وشوارع هذا القسم مستطيلة ، وهو يضارع أمثاله في المدن الحديثة في كل شيء .

كانت لي عودة إلى (المكتبة الوطنية العامة) فأوصلني أحد الاخوان — في سيارته — إلى مدخل المدينة القديمة القريب من المكتبة ، ولكنني لم أبق فيها طويلاً لقصر الوقت ، فكان أن اطلعت على مخطوط عنوانه « التحرير

(١) هو : دور تونس أبوابها رخام ، وداخلها سخام .

فيما وقع بين الفرزدق وجرير » رقمه في الاحمدية ٤٥٤٧ فظهر لي انه مجرد من كتاب « النقائض » لأبي عبيدة ، حذف منه النثر ، وأوله : (قال ابو عبيدة واسمه معمر بن المثنّى . . . كان السبب الذي هاج التهاجي) والكتابة حديثة ، ولم أر فيه ما يلفت النظر ، وطالعت ديواناً كتب عنوانه « ديوان العيوني » ورقمه ٤٥٢٥ والعيوني هو ابن مقرب الأحسائي ، والنسخة حديثة الخط ، ولا تمتاز عن غيرها من النسخ المعروفة ، وطالعت نسختين من كتاب « الأنس الجليل » رقمهما ٤٨١٠ و ٤٣٨١١ فلم أر فيهما زيادة عما في المطبوعة ، وسألت الأستاذ عبد الحفيظ منصور – المشرف على قسم المخطوطات – عن عددها فاخبرني بان الرقم بلغ ٢٢،٠٠٠ (اثنان وعشرون الفاً) والرقم الواحد للمجلد الذي قد يضم كتباً ورسائل ، وقال : إن مخطوطات الاحمدية ٥٥٠٠ ، وقد وضع الاستاذ عبد الحفيظ لها فهرساً مطبوعاً [1] ومخطوطات المكتبة العبدلية : ٥٠٠٠ ، وفي المكتبة الوطنية ما يقرب من هذا العدد . وفي مكتبة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب قرابة الف مخطوط ، وقد وضع لها الاستاذ محمد العروسي المطوي فهرساً نشر في مجلة « حوليات الجامعة التونسية [2] » يضاف إلى هذا كتب جمعت من المساجد والزوايا والمكتبات الأخرى . وحدثني الأستاذ عبد الحفيظ أنه نُدِب – في العام الماضي – لوضع فهرس لكتب جُلِبت للجامعة الليبية من (الجغبوب) من الزاوية السنوسية تقارب ثلاثة آلاف مخطوط ، وأن من نوادر تلك المخطوطات :

(١) نسخة من « ديوان ابن حزم » كاملة ، بخط مشرقي عتيق .

(٢) نسخة من « مجالس ثعلب » برواية تتصل من كاتبه علي الشهرياني سنة ٥٨٣ إلى المؤلف – والكتاب مطبوع غير أن هذه النسخة قيّمة .

(٣) نسخة من « صحيح البخاري » رواية أبي علي الصدفي ، وعليها

---

(١) انظر « العرب » ص ١٧٥ السنة الرابعة .

(٢) انظر مجلة « العرب » ص ٨٣٢ السنة السادسة .

بخط القاضي عياض ، وتعرف هذه النسخة عند علماء المغرب بـ (الشيخة) .

(٤) «الجوهرة في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة» ـ والكتاب وان لم يكن قديماً غير أن النسخة جميلة ـ كذا قال الاستاذ عبد الحفيظ ـ الذي قام بوضع فهرس لتلك المخطوطات .

ثم كانت العودة إلى الفندق للتأهب للسفر إلى القاهرة ، وعند العزم على مغادرته إلى المطار اتصل بي الاستاذ أبو القاسم محمد كِرّو ليتحقق من وجودي في الفندق وسرعان ما حضر ، وكان الأخ الصديق الاستاذ الحبيب اللمسي قد حضر قبله . لقد جاء الاستاذ أبو القاسم ليدعوني لحضور مهرجان أقيم في مدينة قفصة باسم (مُلْتَقَى ابن منظور الافريقي الثاني ـ للغة والآدب والتاريخ) وقد دُعِي لحضور هذا المهرجان علماء وأدباء للمشاركة في القاء بعض الأبحاث والدراسات والأشعار ، ومنهم زميلنا في مجمع اللغة العربية العالم الجليل الاستاذ عبد الله كَنون الذي أعَدّ بحثاً عنوانه (مع ابن منظور في تحقيقات لغوية) والدكتور رشاد الحمزاوي عن (طريقة ابن منظور في تأليف اللسان) والاستاذ عبد العزيز بن يوسف عن (لسان العرب : منهجه ومادته) والاستاذ أبو القاسم محمد كِرّو عن (حقائق جديدة عن ابن منظور) تصدّى في هذا البحث لإثبات البلدة التي منها ابن منظور ، وتعرض لتصحيح الاخطاء في نسبته و (المدارس الثقافية في الجزائر) للدكتور أبو القاسم سعد الله ، وغير ذلك من الأبحاث المتنوعة التي تتخلل إلقاءَها زيارةُ بعض المعالم التاريخية ، ومشاهدة بعض (التمثيليات المسرحية) والاستماع إلى نماذج من الشعر الحديث .

ولقد ألحّ الأخوان الكريمان علي بتأجيل السفر ، وحضور ذلك المُلْتَقَى غير أنني مع رغبتي الشديدة في الاستفادة والاستزادة من العلم والاجتماع بتلك النخبة الطيبة ممن حضر ذلك (الملتقى) ـ لم استطع البقاء ، فكان أن ذهبت مع الأخوين الكريمين إلى المطار في سيارة الاستاذ أبي القاسم ، بعد تصميمهما على مرافقتي إليه . وكان ان قام الاستاذ اللمسي بعمل كل ما

يتطلبه سفري ، ولم يغادر الأخوان المطار حتى توجهت إلى الطائرة ، مغموراً بما أضفياه علي من لطف ، مسروراً بتلك السويعات القصيرة التي سعدت فيها وأمتعت حقاً بالأنس بهما . ومشاركتهما الأحاديث العذبة التي وإن طالت وتشعبت فإنها تلتقي حول التراث العربي وما يتصل به ، ولكن أترى ما أحسست به من راحة وسعادة امتدّ وبقي ولو زمناً قصيراً ؟ ! إنه في الواقع وبالنسبة إليّ سيبقى في نفسي ما بقيت ، فأسعد أوقات المرء ذكرياته الجميلة ، مهما أعقبها أو خالطها مما قد يكدر صفوها، وقديماً قالوا : كل فرحة تعقبها ترحة ، وهكذا حدث لي بعد سفري من تونس بوقت قصير .

كنت في صبيحة اليوم الأول الذي وصلت تونس في ليلته قد مررت بـ (المصرف المركزي التونسي) في شارع الحبيب ابو رقيبة ، بقرب فندق افريقيا ، فقدمت للصراف فيه مئة دولار — ورقة واحدة — وطلبت منه صرف خمسين منها بعملة تونسية ، فكان أن أعطاني ٢٤ ديناراً تونسياً وكمية من النقود الصغيرة ، وورقة من فئة الخمسين دولاراً ، ولما وصلت مطار تونس نبهني أحد الأخوين لإبدال ما بقي معي من نقود تونس بغيرها . فكان أن فعلت ذلك ، وهذا يتطلب إبراز ورقة الصرف الاولى وتقديمها للمصرف الذي أبدلها لي ، وبعد النزول في مطار القاهرة في الساعة العاشرة والنصف والدخول إلى المنطقة الحرة ، أردت شراء ما أهديه لأحد إخواني في القاهرة فقدم لي المشرف على البيع بياناً بالقيمة لأدفعها للصندوق مع جواز السفر ، ويتولى تسلم النقود — في ذلك الوقت — اثنان ، لكثرة الذين يشترون حاجاتهم من القادمين في الطائرة ، لقد وقفت — بعد أن قدمت ورقة الخمسين دولاراً لاستيفاء ثمن ما أردت شراءه وإرجاع الباقي إليّ ، فأخذها أحد الجابيين مع ما أخذ من الأوراق ولكنه قدّم غيري عليّ وبعد برهة من الوقت نظر إلي ، ودقق النظر ، ثم نظر في الأوراق التي بين يديه فذكرت له اسمي وأنني دفعت له خمسين دولاراً ، ولكنه صار يقلب إحدى ورقات النقد بين يديه — ولا أدري هل هي التي دفعتها أم غيرها ، ثم رفع رأسه إليّ قائلاً — مادًّا يده وفيها ورقة : (دي يا استاذ ما تنفعش) ! فاستوضحته

عن السبب فأجاب : (أصلها مزيفة) فاندهشت من قوله فأجبته : هاتها وأعطيك غيرها ، ولكنه قال : (لا . ما يصحش نسيبك تروّج عملات مزيفة) ثم قام من مكانه وغاب وقتاً فقلت لصاحبه : يا أخي لماذا عطلني صاحبك . فأجاب : (عشان الورقة بتاعتك) !! عاد وطلب مني أن أتبعه ولقد كان الجوّ بارداً وكنت حديث العهد من النزول من الطائرة وهي دافئة ، فسار بي في ممرات شديدة البرودة ، وفي أمكنة مكشوفة حتى أوصلني إلى مكتب للتحقيق ، شاهدت فيه ثلاثة من الضباط ، فكلم أحدهم ودفع اليه جواز سفري ، وورقة من النقد وذهب ، شغل اؤلئك الضباط عني ، وبقيت على أحرّ من الجمر لا أدري ماذا يراد بي ، وكان الوقت قد قارب الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وبعد استعمال كل ما استطعت استعماله من عبارات الرجاء ، وأنا في حالة من الغضب طغت على كل مشاعري ، سمح لي في الساعة الثالثة والنصف بأن أذهب إلى القاهرة على أن أحضر في الصباح في الساعة التاسعة إلى (بناية الشؤون المالية والتجارية) ٨ ش زكي المتفرع من شارع الألفي — مكتب الأستاذ محمد حافظ توفيق ، بعد أن وقعت تعهداً بذلك وأخذ مني جواز السفر ، وضم إلى أوراق التحقيق — على ما يقولون — خرجت من ذلك المكان أسحب رجليّ سحباً من شدة ما اعتراني من التعب والبرد . ولا أريد أن أطيل في وصف ما قاسيته تلك الليلة مما كان سبباً لإصابتي بمرض ألزمني الفراش قرابة ثلاثة أشهر ، ولا تزال عقابيله ملازمة لي ولكنني لا أنهي الكلام قبل أن أوجه كلمة شكر لأخي الاستاذ أحمد المانع ، الذي كان له الفضل في إعادة جواز السفر إلي ، ولم يتطلب الأمر أكثر من ذهابه معي إلى الرجل الذي طلبَ مني الحضور عنده ، وكان ذا فهم وإدراك لما نيط به من عمل . ولعل من الطريف في الموضوع أنني في إحدى المرات التي أتحدث فيها عنه التفت أحد الإخوان إلى الأستاذ أحمد المانع سائلاً : وهل لا تزال تهمة تزوير النقود عالقة بفلان ؟ ! — يقولها جاداً — فكانت إجابة الأستاذ أحمد : نظرة استغراب فابتسامة ! ولم يعقبهما كلام ولا سلام !! .

تراثنا المبعثر في المكتبات التركية

في مدينة اصطنبول :

مكتبة السلطان أحمد الثالث

في المكتبة السليمانية

مكتبة علي أميري

مكتبة أيا صوفيا

مكتبة كوبرلي

مدينة بورصة :

عود الي اصطنبول :

في المكتبة السليمانية مرة أخرى

في مكتبة راغب باشا

(نور عثمانية كتبخانة)

إلى مدينة قونية :

مكتبة يوسف أغا

مكتبة جلال الدين الرومي

في مدينة اصْطَنْبُول

في صباح اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الثاني(*) ١٣٨٥ (٢٤/ ٨/١٩٦٥) ، كان الوصول إلى مدينة (اصطنبول) وكان النزول في فندق (تراس) في ميدان (بايزيد) وكانت الزيارة الثالثة لهذه المدينة العظيمة ، التي تشتد الرغبة في زيارتها وتتجدد بتكرر الزيارات ، ويزداد الشوق إليها بامتداد زمن الاقامة فيها ، ذلك لأنها — كما قال الشاعر :

بلاد بها ما يملأ العين بهجة ويسلي عن الأوطان كل غريب

لقد كانت دار الخلافة الاسلامية قرونا تقارب الخمسة (١٤٥٣/١٩٢٢) فحوت من تراثنا العلمي ما لم تحوه مدينة غيرها ، وبقيت آثارها خالدة تملأ العين بهجة ورواء ، لم تستطع الأحداث على شدتها أن تطمسها ، ولم تغيرها الدهور بتكرارها وطولها .

حي الآثار والمكتبات :

يتوسط ميدان (بايزيد) أهم المواضع الأثرية ، من الجوامع والمكتبات ، بحيث لا يحتاج المرء إلى أية وسيلة من وسائل النقل لزيارة المواضع الأثرية الإسلامية ، وخاصة المكتبات ، وأشهرها وأحفلها بالنفائس .

١ — المكتبة السليمانية .

٢ — المكتبة العامة (مكتبة بايزيد) .

٣ — مكتبة (نور عثمانية) .

٤ — مكتبة (طوب قبو) .

(*) مجلة العرب — المجلد الثاني — ص ٨٥ — .

٥ ـ مكتبة (ايا صوفيـا) .
٦ ـ مكتبة ملت (الفاتـح) .
٧ ـ مكتبة (كوبريـلي) .
٨ ـ مكتبة (راغب باشـا) .
٩ ـ مكتبة جامعة اصطنبـول .
١٠ ـ مكتبة البـلدية .

وفي هذه الناحية من مدينة اصطنبول تقع أفخم الجوامع وأحفل (المتاحف) بالآثار. منها: كنيسة (ايا صوفيا) التي حولها السلطان محمد الفاتح عندما استولى على القسطنطينية (اصطنبول) إلى مسجد ، والتي وصفها شوقي بقصيدته المعروفـة :

كنيسة صـارت إلى مسـجد   هدية السـيد للسـيد

وفي العهد الحاضر جعلت متحفا ، بعد أن أزيل الطلاء الذي كان يخفي الصور المنقوشة في مدخلها فبرزت للعيان ، وبقربها يقع جامع السلطان أحمد الثالث ، يتوسط الميدان بمناراته وقببه ، ذلك الجامع الذي يعتبر آية في الفن المعماري الإسلامي بجماله ، وإحكام بنائـه .

ثم ذلك المتحف الذي يضم من الذخائر والتحف والآثار قدرا كبيرا مما كان السلاطين يتفاخرون باقتنائه ، ويحرصون على الحصول عليه ، وكان المتزلفون إليهم والمتقربون منهم في جميع أنحاء الخلافة الإسلامية في شرق البلاد وغربها يسارعون الى تقديمه لهم لنيل رضاهم ، أو للحصول على رفدهم وهباتهم ، حتى اجتمع لهم من ذلك ما لم يجتمع لغيرهم ، وأصبح متحف (طوب قبو) ـ أحد قصورهم العظيمة ـ يضم البقية الباقية من ذلك ، وما هي بيسيرة . وهذا المتحف غير (المتحف التركي الإسلامي) الواقع بقرب المكتبة السليمانية والذي يضم مجموعة من العاديات ، من أحجار تتضمن كتابات من القرن الثالث الهجري فما بعده ، ومن آيات

وأحاديث وحكم وأشعار كتبت بأقلام مشاهير الخطاطين ، ومن مصاحف وكتب يرجع تاريخ نسخ بعضها إلى ما قبل عشرة قرون .

ان من بين تلك المصاحف ما كتب في القرن الأول للهجرة (٦٥٠/٧٧٠م) ومن الكتب ما تاريخ نسخه في شهر رمضان سنة ٤٠٨ – ديوان سلامة ابن جندل بخط علي بن هلال من أشهر الخطاطين في ذلك العصر ، ومن الأحجار ما يرجع تاريخها إلى ٢٠٨ و ٢٥٢ و ٢٤٥ و ٢٩٩ من السنوات الهجرية ، بل هناك حجر من حجر الأميال يحمل رقم الميل ١٠٧ من دمشق إليه ، من عهد عبد الملك بن مروان ، وحجر آخر كتب فوقه تاريخ بناء مسجد في عام ١٥٥ هـ .

وها هي صورة الحرم المكي الشريف تتوسطه الكعبة ، من الحجر الملون الزاهي المنظر (الكاشاني) بأبدع ما ترسمها يد فنان بارع في الرسم والتصوير

إلى غير ذلك من روائع الفن الإسلامي وآيات الإبداع فيه ، مما كتبت عنه المجلدات الضخمة ، وتناوله ذوو الاختصاص به بالدراسات الوافية من جميع جوانبه ، وأصبح الباحثون المعنيُّون بدراسة هذا الجانب من التراث الانساني لا يجدون في أية مدينة من مدن العالم ما يجدونه في مدينة (اصطنبول) من ذلك التراث ، حتى اصبحت هذه المدينة – بفضله – منتجع القصاد ، ووجهة الرواد .

وما أريد بهذه الكلمات – التي سأحرص على موالاة نشرها – سوى إيضاح جانب من جوانب مشاهداتي في هذه المدينة ، وانطباعاتي الخاصة المتعلقة بتراثنا العربي ، التي تزخر به مكتبات (اصطنبول) وتضم من نفائسه ما لا يوجد في غيرها .

أبرز ظاهرة يشاهدها المرء في مدينة (اصطنبول) كثرة مساجدها ، والتأنق في زخرفة تلك المساجد واتقان بنائها : وحسن هندستها ، وقلَّ أن يشاهد المرء مسجدا لا يرى بجانبه مدرسة أو مكتبة ، أو مقبرة ، أو رباطا .

ذلك ان كثيرا من رجال الخلافة الاسلامية في العهد التركي كانوا يتبارون

بانشاء الجوامع والمدارس والمكتبات ، ولم يقتصر هذا على السلاطين وحدهم بل شمل الوزراء وكبار أعيان الدولة واغنياءها من رجال ونساء .

ويترتب على إنشاء المسجد — في كثير من الأحيان — إنشاء مكتبة بجواره ، وهذا يستلزم إمداد هذه المكتبة وتزويدها بالكتب .

وكان العلماء والأدباء في جميع البلاد الاسلامية يتقربون إلى رجال الدولة بمختلف وسائل التقرب ، بما في ذلك تأليف الكتب بأسمائهم ، وإهداء نفائسها إليهم ، يضاف إلى هذا ان الدولة أصبحت مهيمنة على التراث الاسلامي في جميع البلاد الاسلامية ، من مدارس ومكتبات وآثار وغيرها ، فنقلت إلى عاصمة ملكها ما أرادت نقله من نفائس ذلك التراث .

ومما يحمد للحكومة التركية — بعد سقوط دولة الخلافة — أنها عمدت في عهدها الأخير ، وبعد ان أصبحت (علمانية) إلى جمع ما في المكتبات الكثيرة المتفرقة في انحاء المدينة من الكتب في مكتبات محصورة معروفة ، تتولى ادارتها والاشراف عليها لجنة حكومية .

ذلك أنها لو بقيت في أمكنتها القديمة لتلفت لأن (المساجد) لا تلقي من العناية بصيانتها والمحافظة على اصلاحها ما كانت تلقاه في عهد الخلافة . ولأن الاوقاف التي كانت مخصصة للمساجد والمكتبات ، وجهت مواردها إلى جهات أخرى ، والغي بعضها .

ثم توحيد جهة الاشراف على المكتبات هو من خير الوسائل للحفاظ على محتوياتها ، وايسرها للاستفادة منها .

وكان من أعظم مساجد المدينة (جامع السليمانية) ويحيط بهذا الجامع — الواقع على تل مرتفع وسط المدينة مطل على ميدان (بايزيد) المعروف باسم (ميدان الحرية) — يحيط بهذا الجامع مجموعة كبيرة من البنايات من مدارس وأربطة ، ومكتبات ، ومساكن لطلاب العلم ، وحمامات وغيرها .

فجمعت الحكومة التركية في هذا المكان ، وفي المكتبة الموجودة فيه —

محتويات عدد كبير من المكتبات وأطلقت عليها اسم (سليمانية عمومي كتبخانة سي) أي (المكتبة السليمانية العامة) .

وجعلتها مقرا للهيئة الحكومية التي تشرف على جميع المكتبات الأخرى ، التي لم تنقل إلى هذا المكان ، وهي كثيرة ، وهيأت فهارس منظمة لهذه المكتبة ، في بطاقات (فيش) بأسماء الكتب ، وفهارس أخرى بأسماء المؤلفين ، إلا أنها كتبت بالحروف اللاتينية ، ولهذا يصعب على من لا يعرف قراءتها الاهتداء إلى الكتاب الذي يريده .

وأوجدت قسما خاصا للتصوير ، سواء على أشرطة (ميكرو فلم) أو على الورق ، ويسرت الحصول على الصور لكل راغب في ذلك ، باجرة مناسبة (الورقة ٥٠ قرشا للشريط أو ١٥٠ على الورق) .

وخصصت قاعتين للمطالعة إحداهما لمطالعة المخطوطات ، والأخرى للباحثين والطلاب والمراجعين للكتب المطبوعة .

وكان إنشاء المكتبة السليمانية – في عهدها القديم يرجع الى سنة ١١٦٥ هـ (١٧٥١ م) . وكان مجموع ما فيها من الكتب ١١٠٨ (المخطوطات ١٠٣٩ والمطبوعات ٦٩) .

أما الآن فقد أصبح فيها من الكتب ما يقارب عشرين ألف كتاب من المخطوطات وحدها . ومن أشهر المكتبات التي أضيفت إليها :

١ – مكتبة (عاشر افندي) التي انشئت في سنة ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) وقد ضم إلى هذه المكتبة (مكتبة مصطفى افندي رئيس الكتاب في عام (١٧٤٩ م) ومخطوطات المكتبة (١٦٧١) يضاف اليها (٤٦٢ مخطوطا) من مكتبة حفيد عاشر افندي التابعة لمكتبة عاشر افندي .

٢ – مكتبة بشير أغـــا :

أنشئت في عام (١٧٤٠ م) وكان عدد مخطوطاتها (٦٣٩) .

٣ ــ مكتبة شلبي عبد الله افندي :

تم أنشاؤها في عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) ومخطوطاتها (٤٠٣) كتب .

٤ ــ مكتبة قرلول علي باشا :

مخطوطاتها (٣٨٥) وأنشئت في عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) .

٥ ــ مكتبة الداماد ابراهيم باشا :

أنشئت في سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ م) وبلغ عدد مخطوطاتها (١١٥٣) كتابا .

٦ ــ مكتبة اسعد افنــدي :

تاريخ إنشائها ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥) ومخطوطاتها (٣٧١٩) .

٧ ــ مكتبة كليج علي باشا :

كان انشاؤها في عام ١٢١٩ هـ (١٨٠٥ م) وبلغ مجموع ما فيها من المخطوطات وحدها (٩٩٩) .

٨ ــ مكتبة لاله لي :

من أغنى المكتبات بالمخطوطات حيث تحوي (٣٧٧٧) مخطوطا . وقد أنشئت في سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٣ م) .

٩ ــ مكتبة خالد أفنــدي :

مخطوطاتها (٣٣٢) كتابا وقد أنشئت في سنة ١٢٤٤ (هـ ١٨٢٨ م) .

١٠ ــ مكتبة نافذ باشا :

مخطوطاتها (٦١٣) كتابا وانشاؤها في سنة ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠ م) .

١١ ــ مكتبة زهدي بك رئيس ديوان المحاسبة :

مخطوطاتها (١١٨) وانشاؤها في عام ١٢٦١ هـ .

١٢ ــ مكتبة الشاذلي :

مخطوطاتها (١١٧) .

١٣ ــ مكتبة مراد بخاري :

تضم من المخطوطات (٣٠٩) .

١٤ ــ مكتبات مختلفة :

وهناك ٧٦٤ من المخطوطات جمعت من تكايا وأربطة مختلفة .

١٥ ــ ومجموعة أخرى :

تضم من المخطوطات (٢١٣٦) .

١٦ ــ مكتبة الجامع الجديد :

انشيء هذا الجامع سنة ١٢٣٧ (١٧٢٤ م) وحوت مكتبته من المخطوطات (١٢٠١) .

١٧ ــ مكتبة الشهيد علي باشا (*) :

أنشئت في سنة ١١٢٧هـ (١٧١٥ م) ومخطوطاتها تبلغ (٢٨٤٣) بعد أن ضم اليها مكتبات أخرى أحدث عهدا منها .

١٨ ــ مكتبة وهبي أفندي البغدادي :

محتوياتها من المخطوطات (١٦٣٩) وهي حديثة الإنشاء في عام ١٣٣٦هـ (١٩٢٠ م) .

١٩ ــ مكتبة محمد باشا :

أنشئت قبل عام (١٤٧٤ م) وفيها من المخطوطات (٣٣٦) .

٢٠ ــ المكتبة الحميدية :

يرجع تاريخ انشائها إلى عام ١١٩٤هـ(١٧٨٠م) وفيها من المخطوطات (١٥٠٤) .

٢١ ــ مكتبة الشيخ محمد مراد :

انشاؤها في عام ١٢٦٠ (١٨٤٤ م) ومخطوطاتها (٤٩١) .

(*) مجلة العرب ــ المجلد الثاني ــ ص ٢٥٩ ــ .

٢٢ ـ مكتبة السلطان الفاتـــح :

من أقدم المكتبات حيث أنشئت في سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) وهي غنية بالمخطوطات حيث يبلغ مجموع ما فيها منها (٥١٨٨) خمسة آلاف ومائة وثمانية وثمانين كتابـــا .

٢٣ ـ مكتبة ابراهيم افندي ناظر مكتبة الفاتح :

تضم هذه المكتبة من المخطوطات (٤٥٥) كتابـــا .

٢٤ ـ مكتبة خسرو باشـــا :

كان موقع هذه المكتبة بجوار القبر المنسوب إلى أبي أيوب الأنصاري خارج أسوار المدينة القديمة وقد أنشئت هذه المكتبة سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩ م) وفيها من المخطوطات (٧١٤) كتابـــا .

٢٥ ـ مكتبة (مهرشاه السلطان) حامل اختام السلطان :

انشاؤها في عام ١٢١٠ (١٧٩٥ م) ومخطوطاتها (٤٤٧) .

٢٦ ـ مكتبة اسماهان سلطان :

أنشئت عام ١٣٤٠ (١٩٢٤) ومخطوطاتها (٥٥٤) .

٢٧ ـ مكتبة حسن حسنو باشا :

انشئت في آخر القرن التاسع عشر الميلادي ، إذ منشؤها عاش بين سنتي (١٨٣٢/١٩٠٣) وفيها من المخطوطات (١٠٥٢) ألف واثنان وخمسون كتابـــا .

هذه من أهم المكتبات التي جمعت الآن في (المكتبة السليمانية العامة) أما مجموع المكتبات التي ضمت فيبلغ ٩٢ مكتبة .

وليست جميع المخطوطات عربية ، بل فيها كتب تركية وأخرى فارسية ، ولكن العربية أكثر من غيرها .

ولتلك المكتبات فهارس عربية مطبوعة وبعضها مخطوط ، إلا أنها ليست على درجة من الدقة بحيث يصح الاعتماد عليها ، يضاف إلى هذا

الخلط في تصنيف أسماء الكتب ، بوضع كتب تتعلق بعلم من العلوم ضمن كتب علم آخر ، كوضع بعض كتب التاريخ ضمن كتب الفقه ، ووضع كتب الأدب مع كتب التصوف ، وكتابة أسماء الكتب بصورة غير صحيحة ، ونسبة بعض الكتب إلى غير مؤلفها ، وعدم فحص المجلد من الكتب الذي قد يضم كتابين أو أكثر ، مع الاكتفاء باسم الكتاب الأول منه.

في مكتبة السلطان احمد الثالث

تقع هذه المكتبة داخل (متحف طوب قبو) أغنى المتاحف التركية ، بقرب (أيا صوفيا) .

وفي هذه المكتبة ذخيرة طيبة من نفائس الكتب ، ولا يصح الاعتماد على فهرسها المطبوع قديماً باللغة العربية، وكم أوقع الاعتماد على ذلك الفهرس وأمثاله من فهارس المكتبات الموجودة في اصطنبول الباحثين في الوهم . ومن هؤلاء المستشرق الكبير العلامة كارل بروكلمان مؤلف كتاب تاريخ الأدب العربي .

لهذا فلا بُدَّ من الاطلاع على الكتاب المطلوب بعينه ، وعدم الاكتفاء بورود اسمه في الفهرس ومثل هذا العمل يحتاج إلى وقت طويل، وصبر وجلد.

زرت هذه المكتبة ، فكان مما اطلعت عليه من نفائس مخطوطاتها :

١ — الفتوحات العثمانية ، للأقطار اليمنية وقد وضع اسمه في الفهرس : (فتوح اليمن للوزير ابراهيم سنان باشا) .

وهذا الكتاب نسخة ثانية من كتاب (البرق اليماني ، في الفتح العثماني) تأليف مؤرخ مكة قطب الدين محمد بن أحمد بن قاضي خان النهروالي المكي الحنفي توفي سنة (٩٨٨ هـ) مؤلف كتاب (الأعلام بأعلام بلد الله الحرام) وهو مطبوع و (منتخب التواريخ) وهو مخطوط ، وله مؤلفات غـيره .

وتقع هذه النسخة في ٣١٠ من الورق ، وهي مخطوطة في مستهل رمضان سنة ٩٨١ بمكة المشرفة ــ أي قبل وفاة المؤلف بسبع سنوات .

وكنت قد اطلعت على نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنية العامة في مدينة (فينا) في البلاد النمسوية ، فظننت الكتاب يغاير كتاب (البرق اليماني) فأخذت صورة له على شريط (ميكرو فلم) ورقم هذا الكتاب في فهرس مكتبة أحمد الثالث (٢٨٧٩) .

٢ ــ كتاب (البرق اليماني ، في الفتح العثماني) في منتصف القرن العاشر الهجري ، قامت الدولة العثمانية بارسال قوات بحرية لمحاربة البرتغاليين الذين استولوا على كثير من الموانيء البحرية العربية ، في اليمن وفي الخليج الشرقي خليج عمان والبصرة ، فانتصرت القوات التركية على البرتغاليين ، واستولت على أجزاء كثيرة من بلاد العرب ، كاليمن والبحرين وغيرهما . وبقيت اليمن من سنة ٩٤٥ إلى سنة ٩٧٣ خاضعة لحكم الأتراك ، حتى كان عام ٩٧٣ حينما ثار الامام المطهر بن شرف الدين على الأتراك واستولى على بلاد اليمن الا بعض السواحل ، فارسلت الحكومة التركية جيوشا عظيمة بقيادة الوزير سنان باشا فاعاد فتح اليمن في سنة ٩٧٦. ورجع منه إلى الحجاز ، فأدى فريضة الحج ، فاجتمع به الشيخ قطب الدين المكي ، وتولى تعليمه مناسك الحج (تطويفه) فأكرمه هذا الوزير ، وطلب منه أن يؤلف كتابا عن غزوته اليمن ، فألف كتابه هذا (البرق اليماني في الفتح العثماني) ولم يقتصر فيه على أخبار هذه الغزوة بل ضمنه تاريخ اليمن منذ أن استولى عليه الأتراك في المرة الأولى ، حتى عاد اليهم بغزوة سنان باشا[1] .

---

(١) هذا الكتاب من مشورات (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) سنة١٣٨٧هـ ١٩٦٧م بتحقيق حمد الجاسر .

ومن هذا الكتاب نسخ كثيرة في مكتبات تركية ، والقاهرة ، وفي مكتبة الحرم المكي ، وغيرها .

إلا أن النسخة الموجودة في مكتبة أحمد الثالث (متحف طوب قبو) تعتبر من أوثق النسخ ، إذ هي نسخة المؤلف التي أهداها للوزير سنان باشا ، وكتب في طرتها : (كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني) ثم دائرة تتوسط الصفحة ، منقوشة مذهبة ، كتب في جوفها : (أهدي لخزانة كتب الوزير المعظم فاتح إقليم اليمن ، وبلاد تونس ، وحلق الواد ، وغير ذلك من البلاد ، حضرة الوزير المعظم ، سنان باشا) ثم في أسفل الصفحة : (جمع الفقير قطب الدين بن علاء الدين الحنفي ، نزيل مكة المشرفة) .

وهذه النسخة من (البرق) أوفى من نسخة (الفتوحات العثمانية) حيث تزيد عليها بـ (الفصل الخامس ، في عودة الوزير بالعساكر المنصورة إلى الأبواب السلطانية) ورقمها في فهرس المكتبة (٢٨٧٩) .

ولا ندري لماذا وضع المؤلف لكتابه اسمين أحدهما (الفتوحات العثمانية للأقطار اليمنية) كما في ص ٣ من النسخة المرقمة بـ ٣٨٧٩ وجاء في آخرها — الورقة ٣١٠ : (تمت كتابة تاريخ فتح اليمن) والاسم الثاني (البرق اليماني)

من نفائس هذه المكتبة ثلاث نسخ خطية من تاريخ مكة للأزرقي تحمل الأرقام ٢٨٨١و٢٨٨٢ و ٢٨٨٣ — الأولى مخطوطة سنة ٨٠٦ في مكة وملحق بها . :

(١) رسالة المهدي العباسي إلى أهل مكة ، وتقع في أربع ورقات .

(٢) رسالة في افتخار الحرمين الشريفين في ورقات [1].

(٣) رسالة الحسن بن أبي الحسن البصري إلى بعض إخوانه في مكة — في أربع ورقات .

والنسخة الثانية أقدم خطا ، وأتقن ضبطا، إلا أن تاريخ نسخها ليس مدونا في آخرها ولا يبعد أن تكون من مخطوطات القرن السادس الهجري .

---

(١) نشرت في مجلة « العرب » س ١١ ص ٤٢٤/٤٣٣ .

والنسخة الثالثة كتبت برسم أحد وزراء الدولة في عهد المماليك ، إذ في طرتها : (برسم الباب العالي الخواجكي ، العبدي بدر الأشرفي حفظه الله) .

وبدر الأشرفي قتل سنة ٦٥٨ (كما جاء في كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي) ولا أدري هل هذا هو الذي كتبت النسخة له ، أم هو بدر آخر ؟ .

وفي هذه المكتبة : ثلاث نسخ خطية من كتاب (شفاء الغرام بتاريخ البلد الحرام ، لتقي الدين الفاسي) أرقمها ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ — والكتاب مطبوع وثلاث نسخ خطية من كتاب (الأعلام باعلام بلد الله الحرام) للقطبي أرقامها ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ وفيها نسخة من كتاب (الوحشيات) بخط علي بن أحمد أبي الجيش البوزايجي سنة ٦٣٧ تقع في ١٢٢ ورقة ، وخطه جميل ، متقن ، مضبوط بالشكل .

واطلعت فيها على كتاب (طبقات الحنابلة) لابن الفراء ، نسخة مخطوطة سنة ٨٢٣ تحمل الرقم ٢٨٣٧ في الفهرس ، لابن رجب ، مخطوط سنة ٨٧٥ — في أوله فهرس أسماء المترجمين فيه والنسخة بخط عبد القادر ابن عبد الوهاب بن عبد المؤمن بن عبد العزيز ابن عبد الرحمن القرشي في مكة المشرفة ، وهي في ٣١٦ ورقة ، آخرها ترجمة العلامة ابن قيم الجوزية ، وقطعة من قصيدته الميمية ، في وصف الجنة .

ومجمع الأمثال للميداني نسخة عليها تملك مؤرخ في سنة ٦١٦ — يدل على أنها قديمة الخط ورأيت كتابا يحمل في الفهرس الرقم ٣٩٣ واسمه (المختصر في علم الأنساب) . جاء في أوله بعد البسملة : (هذا مختصر في علم الأنساب . المعقبون من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خمسة : الحسن ، والحسين — وأمهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله — ومحمد — وأمه خولة بنت قيس الحنفية ، والعباس ، المشهور بالسقا — وأمه أم البنين بنت حزام (؟) العامرية وعمر الأطرق وأمه الصهباء التغلبية) .

وآخره ، الورقة ٧٤ ب : (وهذا آخر هذا المختصر في أنساب الطالبيين ، كتبت هذه النسخة من نسخة صححها الامام فخر الدين الرازي ، وكتب على ظهرها بخطه بهذه العبارة : هذا الكتاب المسمى بالشجرة المباركة قرأته على السيد . . . شرف العترة ، علي بن شرفشاه ابن أبي المعالي ، وأجزت له روايته . . وهذا خط محمد بن عمر بن الحسن الرازي ، مصنف هذا الكتاب في غرة شعبان سنة ٥٩٧ . . وكتبه الفقير وحيد بن شمس الدين سنة ٨٣٥ هـ) . وليس في هذا الكتاب كبير فائدة ، إلا من حيث نسبته للرازي .

ووقع نظري في الفهرس على اسم كتاب « أسماء البلدان » برقم ٢٧٠٠ـ ولكنني لما تصفحته وجدته الجزء الأول من معجم البلدان لياقوت .

وفي المكتبة كتاب (رسل الملوك) للحسن بنُ محمد المعروف بابن الفراء . مخطوط سنة ٧٩٥ في المجلد المرقم ب ٣٠٥٢ من الورقة الثانية والستين إلى الورقة الـ ٨٩ ــ والكتاب طبعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

ومن نفائس مخطوطات هذه المكتبة كتاب في الجغرافية ، كتب فوق طرته : (كتاب « صورة الأرض ، وصفة أشكالها ومقدارها في الطول والعرض) ثم بخط حديث : (لابن حوقل النصيبي) .

يقع هذا الكتاب في ١٣٩ ورقة من القطع الكبير . ويحتوي على صور للأقاليم ملونة ، وهو بخط علي بن الحسن بن بندار فرغ من كتابه يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة ٤٧٩ .

وقد طبع هذا الكتاب في أوربة (ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية) ثم طبع في بيروت منذ ثلاث سنوات . والطبعة الأوربية تحمل اسم : (كتاب المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك) والطبعة البيروتية تحمل اسم (كتاب صورة الأرض) . ونسب في الطبعتين إلى ابن حوقل ، ولكنني في شك من أمر هذه النسبة ، بعد أن طالعت النسخة الخطية الموجودة في مكتبة أحمد الثالث .

ونسخة نفيسة من كتاب وضع اسمه (كتاب الجغرافيا) ونسب إلى أحمد بن الحسين الخوارزمي ، مخطوط سنة ٦٨٤ ــ يحوي مصورات

جغرافية على درجة حسنة من الاتقان ورقمه في الفهرس (٣٣٤٨) .

إن الوقت الذي يمضيه المطالع في المكتبة يبتديء من الساعة التاسعة والنصف صباحا إلى الساعة الثانية عشرة ، ثم من الساعة الواحدة والنصف إلى الساعة السابعة – أي ثماني ساعات تتخللها وقت الراحة للموظفين ساعة ونصف ، فأضطر إلى العودة إلى الفندق في هذا الوقت ، ولا أستطيع العودة لحاجتي إلى الراحة ، وإلى تناول طعام الغداء ، ولو عدت بعد ذلك لوجدت الوقت قد قارب الانتهاء ، يضاف إلى ما تقدم أن الموظف المنوط به أمر إحضار الكتب للمطالعين ، لا يحضر سوى كتابين اثنين ، وبعد أن يرجعهما إلى مكانهما من المكتبة ، يحضر غيرهما ، فيذهب جزء من الوقت في هذا العمل .

من طريف ما حدث لي أثناء زيارتي وبينما أنا مستغرق في مطالعة أحد الكتب المخطوطة إذا باحدى الموظفات تقف علي وتخاطبني بإشارة فهمت منها أنها تدعوني إلى (الهاتف) فأردت أن أفهمها بأنني لست المقصود بالمكالمة ، ولكنها أصرت على أن أقوم معها إلى (المدير) الذي يحسن قليلا من اللغة العربية ، ففعلت ، فقال لي المدير : (إن المقصود هو فلان – يعني اسمي – والمتحدث مدير المتحف ، وقد يكون الأمر يتعلق بالكتب التي طلبت تصويرها) .

عصرت الذاكرة لعلي أجد كلمة غير عربية أخاطب بها هذا المدير الذي انهالت كلماته علي كالسيل بواسطة الهاتف ، فلم أجد شيئا ، وبعد حديث طويل منه ، لم أفهم منه حرفا ، نطق بكلمة الشهادتين مكررا لهما ، ففهمت أنه يستوضح عن اعراب اسم الجلالة (الله) ، فيهما ، فنطقتهما على الوجه الصحيح عدة مرات ، حتى اتقن نطقهما بمحاكاتي . . ثم علمت – فيما بعد بأن المدير طلب من خطاط كتابة الشهادتين فأراد أن يضبط له الحركات.

ولندع الحديث عن وصف المخطوطات قليلا ، لنتحدث عن بعض ما يقاسيه من لا يحسن إلا العربية ممن يعني بالبحث عن المخطوطات :

كان أستاذنا العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني قد زار (مكتبة خسرو)

باشا) التي تقع بقرب المسجد المنسوب إلى أبي أيوب الأنصاري ، في المحرم من عام ١٣٥٥ – وأشار إلى بعض مخطوطاتها في مقدمة (شعر الشَّنْفَرَي) من كتاب (الطرائف الأدبية) ص ٥٠ – فرغبت الاطلاع على ما أشار إليه الاستاذ ، فذهبت مبكرا إلى الجهة التي تقع فيها المكتبة ، وتسمى هناك (سلطان أيوب) تأثراً بكون أكثر المساجد الكبيرة في هذه المدينة منسوبة إلى السلاطين ، وقد شُيِّد جوار القبر المنسوب إلى (أبي أيوب) جامع كبير ، وزخرف القبر ، وزين بأنواع الأحجار ، الملونة المنقوشة ، حتى بدا آية في جمال مظهره – مما يتنافي مع ما جاء به الدين الإسلامي من تحريم البناء على القبور ، واتخاذ المساجد عليها .

وسائل التنقل في اصطنبول:

١ – الحافلات (السيارات الكبيرة الاتوبيس) تخترق المدينة من مختلف جهاتها في شوارعها الرئيسية ، وتبلغ ضواحيها بأجرة لا تتجاوز ٦٠ قرشا تركيا لأطول خط من خطوطها (أي ما يقابل ١١ قرشا سورياً) .

٢ – سيارات الأجرة ، وهذه تسير بدون (عدادات) والأجرة فيها بحسب الاتفاق .

٣ – سيارات الخدمة (سرفيس) وهي سيارات صغيرة تسير في خطوط معلومة ، وهي أسرع من (الحافلات) وأرفع أجرة .

بلغت المكان مبكرا ، وهو حي من أحياء المدينة ، يقع خارج أسوارها القديمة ، أما الآن فقد اتصل به العمران ، غير انه يعتبر من الأحياء الشعبية ، التي تعوزها النظافة . لقد أردت أن أتناول شيئا من الأكل في أحد المطاعم الموجودة فيه ، ولكنني لم أجد المطعم الذي تميل إليه النفس إلا بعد بحث طويل .

ذلك أن هذا المكان تكثر فيه العربات التي تجرها الدواب ، وهذه تملأ ما تمر به بأرواثها فيتكاثر الذباب في تلك الأمكنة ، بدرجة تدعو إلى الاستغراب ، ولعل لكثرة المقابر في تلك الجهة بعض الأثر أيضا ،

فهذه الناحية تعتبر مقبرة المدينة منذ دخلها الاسلام .

دخلت الجامع – بحثا عن المكتبة – فوجدت شيخا يحسن العربية ، فبعث معي صبيا أرشدني إليها ، ولكنني وجدتها مغلقة ، إذ الساعة لم تبلغ التاسعة والنصف وقت فتحها ، فلم أجد ما أقضي به الوقت سوى التجوال داخل المقابر ، مشدوها بما أشاهده فوق ألواحها الرخامية ، وفي جوانب جدران قببها من جمال الخطوط المكتوبة فوقها ، بأنواعها المختلفة من نسخي وتعليق (رقعي) وفارسي ، منها ما هو مؤرخ في القرن العاشر الهجري ، ومنها ما كتب في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، أما القبور التي حدثت بعد ذلك فإن كتاباتها بالحروف اللاتينية – بعد أن منعت الدولة التركية استعمال الحروف العربية في الكتابة – ولا تفوتني الاشارة إلى أن ديننا الحنيف لا يجيز الكتابة على القبور .

وحينما أتحدث عن هذا الموضوع أصف ما شاهدته وصفا مجردا .

عدت إلى المكتبة فوجدتها مفتوحة ، فطلبت من الموظفة الفهرس ، فأرشدتني إلى بطاقات أسماء الكتب المكتوبة بالحروف اللاتينية ، كانت غرفة المطالعة مملوءة بالطلاب – وهكذا الحال في بقية المكتبات ، قل أن يزور المرء مكتبة إلا ويجد الأمكنة المخصصة للمطالعة مزدحمة بالشبان – من فتيان وفتيات – يشاهدون منهمكين في المطالعة أو النسخ .

كان أحدهم يعرف قدرا يسيرا من الكلمات العربية ، فأعانني على إفهام الموظفة – بما قصدت ، فأخرجت إليّ من (المخزن) مجموعة من الكتب المطبوعة ، فهمت من تصفحها أنها تتعلق بتاريخ بعض البلاد العربية ، كالعراق والشام ، ولكنها مطبوعة ، وبحروف لاتينية ، وأنا أبحث عن المخطوطات العربية ، وهذه الكتب هي أجزاء من سلسلة كتب تاريخية كتبها علماء أتراك – في العهد الأخير – ونقلوها من مختلف المصادر من عربية وفارسية وتركية قديمة ، وغير ذلك من اللغات ، مما يتلاءم مع الاتجاهات الحديثة للأتراك بعد انهيار الخلافة الإسلامية .

كانت الفتاة مهذبة الأخلاق ، حريصة على أن أستفيد من زيارتي لهذه المكتبة ، ولما لم تستطع فهم ما أريد اتصلت هاتفيا بسيدة تجيد اللغة العربية من موظفات المكتبة ، ولما حضرت هذه علمت منها أن جميع المخطوطات التي كانت في (مكتبة خسرو باشا) نقلت إلى المكتبة العامة (السليمانية) كما نقلت من جميع المكتبات الأخرى التي تقع في ضواحي المدينة ، وجهاتها النائية ، وحصرت في مكتبات معروفة ، تقع وسط المدينة .

عدت مسرعا إلى (ميدان بايزيد) الذي تقع بقربه المكتبة السليمانية ، ثم ذهبت إلى هذه المكتبة ، وكنت أعرف فيها عالما عربيا من تونس ، هو الاستاذ محمد الصفائحي ، أمضى في هذه البلاد مدة طويلة ، واتجه إلى البحث والمطالعة ، وأصبح موظفا في هذه المكتبة ، وقد ألف كتابا في تراجم العلماء والأدباء والشعراء ، ممن توجد لهم آثار باقية .

جرى بيني وبين الأستاذ الصفائحي حديث طويل حول المخطوطات ، وسألته عما يعرف عن نسخ (صفة جزيرة العرب) للهمداني فذكر لي بأن في (مكتبة علي أميري) من هذا الكتاب نسختان ، وأملى علي رقم كل نسخة منهما ، وإن احداهما تقع في جزءين – وهكذا ذكر الاستاذ بروكلمان في تاريخ الأدب العربي – غير أنني وجدت إحدى النسختين حديثة الخط ، والثانية – وهي التي تقع في جزءين – ليست مخطوطة بل هي المطبوعة التي طبعها ، داود هنري ملر .

أما كتاب (بلاد العرب) للغدة الأصبهاني الذي توجد نسخته الخطية الوحيدة في بغداد ، بخط السيد نعمان الألوسي سنة ١٢٩٩ – ومنها نقل السيد محمود شكري الالوسي نسخته التي لدى صديقي العلامة الاستاذ عباس العزاوي مؤرخ العراق – هذا الكتاب الذي كان يظن أن السيد نعمان الالوسي نقله من إحدى مكتبات اصطنبول لا يعرف عنه الأستاذ الصفائحي شيئا ، ولم يضع اسم مؤلفه ضمن من ترجمهم في كتابه .

وهنا مثال آخر مما يلاقيه الباحث من المشقة :

زرت (المكتبة العامة) بقرب جامع السلطان (بايزيد) وقد اطلعت فيها على نسخة من كتاب (نقائض جرير والفرزدق) رقمها (١٠٥/٥٤٧١) قديمة ، نادرة ، جيدة الكتابة إلا أن ورقها لقدمه قد أصيبت مواضع الكتابة منه بثقوب ، وتكسر بعضه ، كما طالعت نسخة من شرح (نجديات) الأبيوردي تأليف علي بن قاسم الطبري ، وقد اتصلت بمدير المكتبة وطلبت منه أن يأذن لي بأخذ نسخة من الكتابين بطريق التصوير ، فأبى ، بدعوى أن تصويرهما قد يؤثر فيهما ، فعجبت من مدى ادراك هذا الموظف (التركي) و (عقله) إذ أخذ صورة للكتاب المخطوط هو خير وسيلة للمحافظة على بقائه ، وقد علمت ـ فيما بعد ـ أن كتاب (النقائض) قد صوره (معهد المخطوطات) في القاهرة ، أما الكتاب الثاني فليس على درجة من القيمة والندرة ، تدعو إلى الحرص عليه . وفي (مكتبة السليمانية ـ وفيها الإدارة العامة للمكتبات ـ طلبت تصوير نسخة خطية من كتاب (شرح أبيات مغني اللبيب) والنسخة في مكتبة (أيا صوفيا) ورقمها ٤٤٨٩ ـ فأخذني أحد الموظفين إلى مكتب يجلس بجواره رجل عربي يدعى محمد الصفائحي من تونس ، لكي يقوم بالترجمة بيني وبين ذلك الموظف الذي لا يعرف اللغة العربية ، فلما عرف ما أريد ، ذهب بي إلى سيدة تدعى (نجلا أرسيس) هي المعنية بشؤون ما يراد تصويره من الكتب ، ولكنها اعتذرت لي بلطف وأدب عن عدم استطاعة التصوير في الوقت الحاضر ، لأسباب تتعلق بموظفي المكتبة ، ولأن طلبات التصوير يجري الأمر فيها بطريقة مرتبة ، بحسب تواريخ تقديمها .

الأستاذ احمد آتش :

حرصت على ألا تفوتني هذه المرة زيارة الاستاذ أحمد آتش ، مدرس الآداب العربية في جامعة (اصطنبول) وأحد العلماء الأفذاذ بما تحتويه المكتبات في البلاد التركية من مخطوطات ، وقد عرفت الاستاذ ـ أول ما عرفته ـ ببحث قيّم نشره في مجلة (معهد المخطوطات) عن مكتبات (الأناضول) وكنت أتخيله شيخا كبيرا ، قد تقدمت به السنون كحال من رأيتهم يقومون

على المكتبات في اصطنبول ، ممن لا تزال لديهم بقية من معرفة اللغة العربية ، إلا أنني وجدت الاستاذ أحمد في ميعة الشباب ، وعنفوان القوة .

دخلت (جامعة اصطنبول) فوجدت بعد أن كدت أيأس من أن أجد من يفهم كلامي — شابا أردنيا يدعي (محمد شديد) من طلاب الجامعة ، فأرشدني إلى مكان الاستاذ أحمد آتش ، قائلا له : يا استاذ أحمد ، شهرتك بلغت بلاد العرب ، وها هو عربي جاء يسأل عنك ، — ثم التفت إلى الطالب الفكه قائلا : هل أعجبك كلامي ؟ — قضيناها برهة من الزمن في أحاديث المخطوطات ، والكتب وتمنى كل واحد منا أن يطول الوقت ، غير أنني كنت قد وعدت (الرفقة) بأن نلتقي في مكان في وقت محدد ، ولهذا انصرفت من عنده ، بعد أن شاهدت من كرم خلاله ، وحسن استقباله ، وعلمه وأدبه ، ما لا أنساه .

في المكتبة السليمانية

كانت زيارتي للمكتبة السليمانية العامة يوم السبت ١٩٦٥/١٠/٢ — ووقت المطالعة قد أوشك على الإنتهاء ، وكان الفهرس الذي وقع في يدي هو فهرس (كتبخانة لا له لي) المنشأة في عام ١٢١٧ هـ فتصفحته عجلا وقد وقع نظري فيه على :

١ — كتاب المقالات الجوهرية ، على المقامات الحريرية للشيخ أبو بكر بن عبد العزيز الزمزمي ، من أدباء مكة وعلمائها البارزين في آخر القرن العاشر الهجري ، ورقمه في الفهرس (١٨٥٠) .

وقد رأيت نسخة أخرى من هذا الكتاب ، في مكتبة يوسف أغا ، في مدينة (قونية) في تركية ، وقد جاء في أولها : أن مؤلفها خير الدين بن تاج الدين الياس المدني ، اطلع على شرح المقامات للزمزمي ، فوجده ناقصا ، فقام باكماله ، فأتمه في شهر رمضان سنة ١١٢٦ في مكة المكرمة . وكاتب هذه النسخة هو سليمان ابن محمد (الشهير بقره قاش زاده) الامام

والخطيب بجامع أغا ، في بلدة (حانيه) من جزيرة (كريد) وصفحاتها ٤٠٥ — سطور الصفحة ٣١ بالخط الفارسي الدقيق — وقد أشار البغدادي في (ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون) إلى هذا الشرح — ٥٣٦/٢ .

٢ — كتاب الأماكن للحازمي :

في القرن السادس الهجري ، كان من بين العلماء الذين عنوا بتحديد المواضع التي لها ذكر في الأخبار والأشعار وضبطها ، ثلاثة :

١ — نصر بن عبد الرحمن الاسكندري المتوفي بعد سنة ٥٦٠ ، وقد ألف كتابا حافلا في هذا الموضوع ، والنسخة الوحيدة المعروفة من كتابه في المتحف البريطاني — وقد وصفتها في جريدة الدعوة — التي تصدر في الرياض ، في شهر المحرم أو صفر من عام ١٣٨٥ . ثم تحدثت عنها بحديث واف في (العرب) السنة الأولى .

٢ — محمد بن عمر الأصفهاني المتوفي سنة ٥٨١ — وقد ذكر ياقوت في مقدمة (معجم البلدان) أنه اطلع على كتاب اختصره الاصفهاني هذا من كتاب نصر ابن عبد الرحمن الاسكندري .

٣ — محمد بن موسى الحازمي المتوفي سنة ٥٨٤ — قال عنه ياقوت : — في مقدمة (معجم البلدان) ص ٨ الطبعة الأولى : (أبو بكر ، محمد بن موسى الحازمي ، له كتاب ما اختلف وائتلف من أسمائها — يعني أسماء المواضع — ثم وقفني صديقنا الحافظ الامام أبو عبد الله بن محمود بن النجار — جزاه الله خيرا — على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهاني من كتاب ألفه أبو الفتح نصربن عبد الرحمن الاسكندري النحوي ، فيما اختلف وائتلف من أسماء البقاع ، فوجدته تأليف رجل ضابط ، قد أنفد في تحصيله عمرا ، وأحسن فيه عينا وأثرا ، ووجدت الحازمي — رحمه الله — قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره من علمه ، وأري أن مَرْماه يقصر عن سهمه ، إلى أن كشف الله عن خبيته ، وتمخض المحض عن زبدته ،

فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته إليه ، وأحلته عليه ، ولم أضيع نَصَبَه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه) .

وسأبين في مقال خاص عن الحازمي تحامل ياقوت . . رحمه الله — عليه ، واختلاف كتابه عن كتاب نصر [1] .

وهذه النسخة من كتاب الحازمي تعتبر فريدة ، لا من حيث القدم وجودة الكتابة ، فقد كتبت في عام (٦٢٠ هـ) بل لعدم وجود أخت لها من هذا الكتاب — فيما أعلم [2] — وقد تكون هي النسخة التي اطلع عليها ياقوت لأنها كتبت قبل وفاته بسبع سنوات .

٣ — تاريخ مكة المكرمة — تأليف شهاب الدين القليوبي (رقمه ٢٠١١ مكتبة لاله لي) لم أتمكن من مطالعة هذا الكتاب لضيق الوقت .

٤ — غلطات العـوام .

نسب هذا الكتاب في الفهرس برقم ٢٥٧٣ — إلى ابن الجوزي ، ولكن تبيَّن لي من مطالعته أنه للسيوطي .

ولقد اطلعت على مخطوطات تتعلق بهذا الموضوع ، يحسن أن أورد وصفها مجتمعاً :

١ — في مكتبة (أيا صوفيا) وتحت رقم ٤٧٣٢ كتاب (تصحيح التصحيف ، وتحرير التحريف) لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (٦٩٦ — ٧٦٤ هـ) .

بخط المؤلف ، وفي طرته إجازة منه مؤرخة في ١٠ ذي القعدة سنة ٧٥٩ — أي قبل وفاته بخمس سنوات . إلا أن مما يُؤسف له أن هذه النسخة قد سطت عليها يدٌ أثيمة ، فنزعت أكثرها — بحيث لم يبق من الكتاب إلا من حرف الألف إلى نهاية حرف الزاي ، في تسعين ورقة .

لخص الصفدي في هذا الكتاب :

---

(١) أنظر العرب (ص ٣١٢/٥٤١/٦٢١/٧٢٠) .
(٢) علمت فيما بعد بوجود نسختين في مكتبتي (توبنجن) و (باريس) وحققت الكتاب وأعددته للنشر

١ – درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ، ورمز لما نقل عنها بحرف (ح) ،

٢ – تكملة الدرة للجواليقي والرمز (ق) .

٣ – تثقيف اللسان للصقلي (ص) .

٤ – ما تلحن فيه العامة للزبيدي (ز) .

٥ – تقويم اللسان لابن الجوزي (و) .

٦ – ما صحّف فيه الكوفيون للصولي (ك) .

٧ – التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني (ث) .

(٨) تصحيف العسكري (س) .

٩ – الضياء موسى الناسخ (م) .

٢ – وفي مكتبة كوبرلي (كوبرلي زاده محمد باشا كتبخانة) مجموعة تحمل الرقم (١٢٤٠) تحتوي على :

(١) درة الغــواص .

(٢) تكملتها للجواليقي – والكتابان مطبوعان .

(٣) رسالة للسيوطي في الموضوع ، جاء في مقدمتها – بعد الخطبة : (أما بعد فإني رأيت كثيراً من المتنسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول ، جريا منهم على العادة ، وبعدا منهم عن علم العربية ، ورأيت إثبات الصواب في كلامهم مبُدَّداً في كتب اللغة ، وجمعه يثقل على المتكاسل ، عن طلب العلم ، وقد أفرد قوم ما يلحن فيه العوام ، فمنهم من قصر ، ومنهم من ذكر ما لايكاد يستعمل ، ومنهم من ردّ ما لا يصح رده ، فرأيت أن أنتخب من صالح ذلك ما تعم به البلوى ، دون ما يشذ استعماله ويندر ، وأرفض من الغلط ما لا يكاد يخفى .

اعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم ، وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون الممدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد ، وتارة يزيدون في الكلمة ،

وتارة ينقصون منها ، وتارة يضعونها في غير موضعها ، إلى غير ذلك من الأقسام . وكنت عزمت على أن أجعل لكل شيء من هذا بابا ، ثم اني رأيت أن أنظم الكل في سلك واحد ، وآتي به على حروف المعجم ، وأعول في ذلك الحرف على الصحيح فيه ، لا على الخطأ ، فذلك أسهل لكل كلمة . وكتابي هذا من كتب العلماء بالعربية كالفراء ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي حاتم ، وابن السكيت ، وابن قتيبة ، وثعلب ، وأبي هلال العسكري ، ومن تبعهم من أئمة هذا العلم ، وإنما لي في هذا الترتيب والاختصار . وإن وجد شيء مما نهيت عنه فهو بعيد ، وكان لغة مهجورة . وقد قال الفراء : وكثير مما أنهاك عنه قد سمعته ، ولو تحررت لرخصت لك أن تقول : رأيت رجلان ، ولقلت : أردت عن تقول ذلك . والله الموفق .

حرف الألف ، تقول : استهتر فلان بكذا . بضم التاء الأولى ، وكسر الثانية ، على ما لم يسم فاعله . والعامة تفتح التاءين وهو خطأ .

تقول : فلان أهل لكذا قال الله تعالى (هو أهل التقوى ، وأهل المغفرة) والعامة تقول : مستأهل لكذا وهو غلط ، إنما المستأهل متخذ الإهالة ، وهي ما يؤتدم به من السمن والودك) .

وآخر الرسالة : (والعامة تقول بعد غروب الشمس : فعلت اليوم كذا ، وهو خطأ لأن اليوم انقضى . قد انتهت هذه الرسالة الموضوعة في أغلاط العوام لجلال الدين السيوطي) .

تقع الرسالة في ٢٧ ورقة ٥٣ صفحة في الصفحة ١٩ سطرا ، مخطوطة سنة ٩٨١ هـ .

٣ ــ وفي مكتبة الفاتح (المكتبة السليمانية العامة) رسالة برقم ٣٧٥٧ اسمها (خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام) ألفها علي بن بالي الحسيني القسطنطيني في سنة ٩٧٨ ــ تقع في ٢٧ ورقة ــ من القطع الصغير ، وبالخط الفارسي الدقيق ومعها قصائد مشروحة لأبي السعود العمادي وغيره ، وآخر المجموعة (التنبيه على غلط الجاهل والنبيه) لابن كمال باشا من

صفحة ٥٤ إلى ٧٤ ــ مخطوطة سنة ٩٧٠ ــ ويظهر أنها ناقصة .

في مكتبة علي أميري

بكرت في هذا اليوم (١٩٦٥/٩/١ م) إلى مكتبة علي أميري ، المضافة إلى (ملت كتبخانة) أي المكتبة الوطنية ، بجوار جامع السلطان محمد الفاتح ، لكي أطلع على النسخة الخطية الذي ذكر لي الاستاذ محمد الصفائحي انها توجد في تلك المكتبة ، من كتاب (صفة جزيرة العرب) وانها تقع في مجلدين ، وان رقمها (٢٦٨٨) .

علي أميري ــ الذي تنسب اليه هذه المكتبة ــ كان من ولاة اليمن ، حينما كان تابعا للدولة التركية ، في عهدها الأخير ، وتحتوي مكتبته هذه ــ التي ضمت إلى (المكتبة المِلِيّة) على مجموعة كبيرة من المؤلفات اليمنية ، وأغلبها حديث الكتابة .

أما النسخة التي ذكر لي الاستاذ الصفائحي من كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني فهي النسخة المطبوعة في (ليدن) ــ وقد سبقت الإشارة اليهـــا .

وفي المكتبة نسخة أخرى تحمل رقم ٢٣٨٤ حديثة النسخ ، تنقص من أولها صفحات ، سقيمة الخط .

وفيها جزءان من كتاب (فوائد الارتحال ونتائج السفر) هما الأول والثاني ، وهذا الكتاب ألفه ابن فتح الله الحلبي ثم المكي من أهل القرن الحادي عشر ، ومن أصدقاء المحبي صاحب (خلاصة الأثر) وهو كالخلاصة في تراجم أعيان ذلك القرن ، ولكنه أوسع من الخلاصة ، وصاحب الخلاصة ينقل عنه ، وهو ينقل عن المحبي ، ومن هذا الكتاب نسخة يعتقد أنها مسودة المؤلف ، أو منقولة عنها ، في (دار الكتب المصرية) وقد نقل العلامة أحمد زكي باشا المعروف بـ (شيخ العروبة) مجلدا ضخما يتضمن تراجم المحمدين والأحمدين من الكتاب ، من تلك النسخة ، وقد آل إلي بالشراء ،

دلني عليه الأستاذ المحقق السيد أحمد صقر ، لدى الكتبي حسين حجاج — في القاهرة .

الجزءان الموجودان في مكتبة علي أميري مخطوطان سنة ١٣٢٤ في مدينة الحديدة ، — من أول الكتاب إلى ترجمة (صالح بن داود) ورقمها ٢٥٣٠ و ٢٥٣١ [١] .

ومن كتبها (جماهر الأنساب) لابن حزم مخطوط ١٠٤٠ هـ ، وهو الكتاب المطبوع باسم (جمهرة أنساب العرب) ومنها (كتاب التبيين في نسب القرشيين لابن قدامه ، مضاف إلى كتاب (جماهر الأنساب) يقع في ٦٢ ورقة (من الورقة ٩٨ إلى ١٦٠) من القطع الكبير ، في الصفحة ٣٢ سطرا ، مخطوط أيضا سنة ١٠٤٠ — تحت رقم ٢٤١٣ — .

ومن مخطوطات تلك المكتبة كتاب (نسيم الصبا ، ونديم الصبا) تأليف ابراهيم بن يوسف المهتار من شعراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري ، ترجمه المحبي في (خلاصة الأثر) وابن معصوم في (سلافة العصر) . وترجمه صاحب « دائرة المعارف » البستاني قائلا : (كان شاعرا مشهورا في الحجاز ، واسع الذاكرة ، كثير المعلومات ، مطلعا على أخبار وأمثال كثيرة إلا أنه كان بذيء اللسان ، مقذع الهجاء ، ولهذا ذمه الكثيرون ، ثم نقل كلام ابن معصوم عنه ، وانه بقي يومين في بيته ، بعد موته لا يعلم به أحد ، ووصفه لديوان شعره بأنه (ليس فيه إلا ما تمجه الأسماع ، وتحقر ألفاظه ومعانيه عن السماع ، إلا كلمات كادت تصفو من الشوائب) .

وختم البستاني كلامه عنه قائلا : (ولعل من أسباب هذه الحملة عليه ، مع بذاءة لسانه أن أباه كان مملوكا ، فنشأ ابنه في بيت ضَعَةٍ ، توفي بعد سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠ م) انتهى .

وذكر اسماعيل البغدادي في كتاب « هدية العارفين » — ج ١ ص ٣٣— ان المهتار قتل في صنعاء سنة ١٠٧١ وذكر له مؤلفات غير هذا الكتاب .

---

(١) انظر عن هذا الكتاب « العرب » س ٨ ص ٧٤٨ وس ٩ ص ١١٨

وأرخ صاحب ايضاح المكنون – ج ٢ ص ٦٤٦ وفاته بـ ١٠٧١ – وسيأتي ما يخالف هذين القولين .

وكتابه (نسيم الصبا) يتضمن أشعاراً وأخباراً وحكماً ، ونكتاً أدبية ، مجموعة جمعا بدون ترتيب أو تبويب ، من نمط كتاب (الكشكول) .

يبتديء هكذا – بعد البسملة – (يقيني بربي يقيني) :

أماطـت لثامـاً عن أقـاح الدمائـث

بمثـل أسـاريع الحقـوف العثاعـث

قال أبو محمد سهل بن أحمد الديباجي (*) : أنشدنا أبو بكر ، محمد بن الحسن بن دريد هذه القصيدة الثائيه ببغداد في أحد شهور سنة عشر وثلاثمائة – ثم أورد القصيدة كاملة في ٩١ بيتاً ، مشروحة – في سبع ورقات – وقال بعدها : (وهذه قصيدة مالك بن الريث (الصواب : الريب بالباء) وشرحها لبعض العلماء ثم ساقها مع شرحها – ٤١ بيتاً

وفي الورقة الحادية عشرة : وهذه قصيدة فرج بن سعد الطائي ، التي خاطب بها الجنّ ، ذكر فرج بن سعد الطائي أن الجن طرقته ليلاً ، فسألته عن شيء من غريب اللغة ، بشعر قالوه ، فأجاب على كل بيت بمثله ، زاد بعض أهل عصره كلاماً كالشرح لبعض ابيات القصيدة . قلت : وهذا من خزعبلات العرب :

طَرقَتْنـي تحت الظلام قواف – بعَد وَهن – محبوكة محكماتُ

طرقتني جَهاضِمُ الجنّ ، ليلاً شعراء ، عليهم الحَسَـبراتُ

حين أغفى الدثور ، واعلنكس الليل ، ومدَّتْ أطنابها الظلماتُ

ثم أورد اثنين ومائة من الأبيات ، على هذا النمط ، مشروحة .

وفي الورقة الخامسة عشرة أورد قصيدة لابن المقري الشافعي اليمني ، وأشعارا وترجمة له ولبعض علماء اليمن ، وهكذا نجد الجزءين من هذا الكتاب

(*) مجلة العرب – المجلد الثاني – ص ٣٣٣ – .

يحتويان على قصائد من الشعر قديمة وحديثة ، تراجم وأخبار ، وأمثال مسرودة سردا .

ونجد الورقة (١٦٠) من الجزء الثاني إلى الورقة (١٦٤) جزءا من شعر المؤلف : (نبذة من المختار من ديوان شعر ابراهيم بن يوسف المهتار الرومي ، المكي الحنفي) والجزءان بخط المؤلف نفسه ، جاء في الورقة ال ٢٠٩ ج ٢ : (تمّ المجموع المسمى نسيم الصبا ، ونديم الصبا (كذا) . جمع الفقير إلى عفو الكريم الغفار ، ابراهيم بن يوسف المهتار ، ثم التاريخ (ضحى يوم السبت ١٦ شعبان سنة ١٠٩٥) وفي طرة الجزء الأول : (نسيم الصبا ، ونديم الصبا ، تصنيف الفقير إلى عفو الكريم الغفار ، ابراهيم بن يوسف المهتار ، وله تصنيف آخر سماه « الروض الأرج » على هذا الأسلوب ، صنفه في سنة ١٠١٦) ويقع الجزء الأول في ٧٧ ورقة من القطع الكبير والجزء الثاني ٢٠٤ .

ورقم الكتاب في فهرس (مكتبة علي أميري) ٢٥٢٨ .

مكتبة أيا صوفيا

خزانة الكتب التي في متحف (أيا صوفيا) تضم طائفة من المخطوطات النفيسة النادرة .

وقد تحدثت عن شيء مما فيها من الكتب العربية (في رحلتي الأولى إلى اسطنبول منذ بضع سنوات .

ففيها نسخة تقع في مجلدات من كتاب (المنتظم في تاريخ الأمم للعلامة ابن الجوزي تنقص يسيرا من أثنائها وفيها نسختان من كتاب (مسالك الأبصار) احداهما تقع في عشرين مجلدا ، وتحمل الرقم (من ١٥/٣٤٣٤) في الفهرس ، والأخرى تقع في خمسة مجلدات ، ورقمها (٣٤٣٥) .

ومما ينبغي ملاحظته انني في حديثي عن المكتبات لا اتعرّض لوصف ما فيها من نسخ للكتب المشهورة المطبوعة أو المخطوطة ، التي تكثر نسخها في المكتبات الأخرى ، ولهذا تقل المخطوطات التي أشير اليها أو أصفها ، وينصب حديثي في كثير من الاحيان على المؤلفات النادرة التي لها صلة بتاريخ بلادنا (جزيرة العرب) أو أدبها ، أو جغرافيتها — في العهد القديم — مما هو غير معروف .

زرت هذه المكتبة في ١٩٦٥/٩/٢ — وكان مما طالعته من مخطوطاتها :

١ — كتاب في (فضائل مكة والمدينة) مسجل تحت رقم (٣٠٩٠) من الفهرس المطبوع . ويقع في (٤٠٤) صفحة من القطع الوسط ، مخطوطة في شهر رجب سنة ست ثلاثين وثماني مائة ، ولم أهتد الى معرفة اسم مؤلفه ولكنه من أهل القرن الثامن الهجري كما يدل على ذلك ما جاء في الورقة (١٣٤) : أخبرني الشيخ . . . الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ مجد الدين أبي العباس أحمد ابراهيم ابن القاضي المعمر المسند جمال الدين أبي أحمد

يعقوب بن أبي بكر الطبراني (كذا في النسخة والصواب الطبري) الشافعي المكي في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، بالدكة المجاورة لظهر رباط الخليفة ، داخل باب دار الندوة ، من الحرم الشريف تجاه الميزاب والكعبة ، قال : اخبرني الشيخ ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الطبري الشافعي المكي . .

وقد تكون هذه نسخة من كتاب الطبري صاحب « الرياض النظرة في مناقب العشرة » الذي طبع منذ بضع وعشرين عاما[1] ، إلا أنني لم أتمكن من مقابلة النسختين .

وفي المكتبة نسختان من كتاب (تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام) لتقي الدين الفاسي رقمهما ٣١١٢/٣١٢٣) .

وكتاب (خلاصة الاخبار) في تاريخ المدينة ، محمد عاشق الحنفي ، رقمه (٣٢٨٩) .

ونسخة قديمة جدا من كتاب (العلل ومعرفة الرجال) للامام أحمد بن حنبل رحمه الله . وقد طبع الجزء الاول من هذا الكتاب في (انقرة) في العام الماضي ، من مطبوعات (كلية الالهيات في جامعة أنقرة) .

الا أن قدم كتابة النسخة سبب للاستاذين اللذين حققا الكتاب صعوبة من أثرها وقوع كثير من التحريف في النسخة المطبوعة .

ومن هذا الكتاب قطعة صغيرة تقع في ثماني ورقات هي أحد أجزاء الكتاب – حسب تجزئته القديمة – في (دار الكتب الظاهرية) وقد بعث الي صديقي الاستاذ أحمد راتب النفاخ صورتها فبعثت بها الى الناشرين الفاضلين ليستعينا بها في تحقيق القسم الذي تحويه من الكتب .

---

(١) هو « القرى لقاصد أم القرى » لمحب الدين أحمد بن عبد الله الطبرى ثم المكي (٦١٦ / ٦٧٤هـ) وقد طبع بمطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م).

ومن كتاب (شرح النجديات) نسختان تحملان رقمي ٤١٢٥ و ٤١٢٦

و (النجديات) هي قسم من ديوان الابيوردي الأموي الشاعر المعروف، ضمنها غزلا رقيقا ، ووصفا لبلاد نجد ، وقد نقل السيد محمود شكري الألوسي — رحمه الله — في كتابه (تاريخ نجد) قطعا منها .

ولا أدري لماذا انصرف المحققون والناشرون عن ديوان الأبيوردي ، مع فحولة هذا الشاعر ، وجوده شعره ، وصلته بكثير من حوادث العالم الإسلامي في عهده ، وقد علمت من الدكتور عبد الوهاب عزام — رحمه الله حينما كان مديرا للجامعة في الرياض أنه هو وأحد أدباء القاهرة يقومان بتحقيق ذلك الديوان لنشره ، ولا أدري ماذا فعل الله به بعد وفاة الدكتور . وشرح النجديات لشرف الدين عمر بن عثمان الجندي — كما هو مكتوب في طرة إحدى النسختين — .

وفي أثناء وجودي في المكتبة رغبت في مراجعة موضوع في كتاب (الاكتفاء) في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الثلاثة للكلاعي ، وفي المكتبة نسختان من هذا الكتاب ، على ما جاء في الفهرس المطبوع ، رقمهما : (٢٩٧٢ و ٢٩٧٣) فطلبت ذات الرقم الأخير ، فوجدتها كتابا آخر يحمل اسم (الاكتفاء ، بتاريخ الخلفاء) ومكتوب في طرته : (الجزء الثالث من الاكتفاء بتاريخ الخلفاء ، جمع الشيخ الامام المحدث الرحلة ، شمس الدين محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة المصري الشافعي) . وأوله : (. . . ثم ولي الخلافة بعد الراضي بالله ، أخوه أمير المؤمنين المتقي بالله . . . مولده سنة سبع وتسعين ومائتين .. وبويع بالخلافة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة) والكتاب مؤلف سنة ٧٣٢ كما جاء في الورقة (١١٣ ثم ولده الامام أمير المؤمنين المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ، وهو الخليفة في وقتنا هذا في شهر شعبان المكرم ، سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وهو مقيم

بقلعة الجبل المحروسة، ثبت الله قواعد خلافته، وجعل الخلافة باقية في عقبه إلى يوم القيامة) .

وقد خصص المؤلف قسما من كتابه هذا لذكر (العبيديين) فقال في الورقة ١٢٢ : (ذكر الخلفاء العبيديين ، وهم يدعون أنهم فاطميون ، ومن ملك منهم بالمغرب ، ومن انتقل إلى الديار المصرية فملكها ، وملك الشام والمشرق و الحجاز واليمن وغير ذلك ، وبهذا السبب ذكرتهم في هذا المختصر ، لدخولهم الديار المصرية ، وتملكهم البلاد المذكورة وغيرها) .

وقال في الورقة ١٥١ : (إلى هنا انتهى الكلام في سير الخلفاء رضي الله عنهم ، وهذه فوائد تشتمل على أحاديث وحكايات وغير ذلك نختم بها هذا الكتاب ، وجعلتها محذوفة الأسانيد لتخف مطالعتها ، وتسهل المذاكرة بها) .

ويقع هذا الجزء في مجلد كبير تبلغ صفحاته ٣٧٧ في الصفحة إحدى وعشرون سطرا .

وتاريخ نسخه ١٢ رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة — والكاتب هو ابراهيم بن محمد بن أحمد الخليلي ، والكتابة جيدة والنسخة سليمة كاملة .

وطالعت النسخة التي تحمل اسم (ديوان النميري) فوجدتها : (ديوان شعر جران العود النميري ، صنعة أبي جعفر محمد بن حبيب ، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري) ورقمها (٣٩٧٨) وهي الأصل الذي عليه حقق شيخنا العلامة عبد العزيز الميمني الديوان ، وطبعه ، وقد لاحظت في آخر هذه النسخة الجميلة من الديوان عبثا في آخرها ، اريد به إظهار النسخة بمظهر الكمال ، مع انها ناقصة ، فقد جاء في الصفحة الأخيرة في شرح قول الشاعر :

إذا الفلاة تلقتها جواشنها   وفي الأوادي عن الأخراب تشويل

(الفلاة : القفز التي بعد ماؤها ، وإن كان فيها جبال ، كأنها فلته ، أي نحته ، وجواشنها صدورها . يقول : إذا صارت في أواسطها أسرعت ،

والأخراب : واحدتها خربة وهي) وهنا تنتهي الصفحة ولكن العابث أضاف كتابة حديثة هي : (معروفة ، والحمد لله وحده ، وسلم تسليما كثيرا أبدا) . وبهذه الفعلة بدت النسخة وكأنها كاملة . وهذه حيلة من حيل الوراقين ، وما أكثر حيلهم وعبثهم بالمخطوطات !!

مكتبة كوبرلي

ومن نفائس ما اطلعت عليه أثناء زيارتي (مكتبة كوبرلي زاده) — وهذه المكتبة من أنفس المكتبات في اصطنبول ومن أقدمها وأحفلها بالمخطوطات النادرة أنشأها الوزير الكبير محمد باشا كوبرلي — وقد زرتها في صباح اليوم الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٥ م :

١ — كتاب المبعث والمغازي تأليف أبي القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي ، القرشي ، الاصفهاني أحد كبار علماء الاسلام في الحديث واللغة والتفسير ، المولود سنة ٤٥٧ والمتوفي سنة ٥٣٥ . والذي نقل صاحب شذرات الذهب في ترجمته (ج ١٠٦/٤) وصف ابى موسى المديني له بأنه : (إمام الأئمة في وقته ، واستاذ علماء عصره ، وقدوة أهل السنة في زمانه . ونقل أيضا أن أئمة بغداد يقولون : ما رحل إلى بغداد بعد ابن حنبل أفضل، ولا احفظ منه) . وأول هذا الكتاب : (بسم الله الرحمن الرحيم : قال الحافظ قوام السنة أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي رحمه الله : الحمد لله الذي لا تحصى نعمه ، ولا يبلغ كنه شكره ، وصلى الله على محمد وآله : ثم إن جماعة من أهل العلم — وفقهم الله لطاعته — اقترحوا عليّ بعد فراغي من (كتاب السير) أن أملي عليهم كتابا مشتملا على ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان نشوه ، وتربيته ، إلى حال ارساله وبعثه ، ثم بذكر أحواله في مغازيه وذكر سراياه ، إلى وقت وفاته ، ثم اتبع ذلك بذكر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم — وما جرى من الفتوح في أيامهم ، ففعلت ذلك) .

وآخره : (قال الشيخ رحمه الله : هذا آخر ما حضرني ذكره من الزجر عن الخوض فيما يهيج الفتنة ، ويورث الشبهة ، والحث على الاقتداء بالسلف الصالح في ذلك ، عصمنا الله من الفتن والبدع ، وثبتنا على طريقة السلف وسيرة الصالحين بفضله ورحمته ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين . آخر كتاب المبعث والمغازي التي صنفها جدى الإمام الحافظ اسماعيل بن محمد بن الفضل قدس الله روحه ، ورحم من دعا لصاحبه بالخير ، ولكاتبه سبط المملي ، يحيى بن محمد بن سعد ، المكنى بأبي الفرج..)

ويقع الكتاب في مجلد تبلغ صفحاته (٤٠٠) سطور الصفحة ١٦ والخط قديم ، يظهر أنه من مخطوطات القرن السادس ، وممن طالع هذه النسخة : (أحمد بن يحيى بن محمد بن عمر السهروردي الكاتب بتاريخ ذي الحجة سنة ٧٢٥ هـ) .

ورقم الكتاب في سجل المكتبة ١١٣٨ .

والمؤلف يروي الأحاديث والأخبار مسندة ، على طريقة المحدثين ، فيقول — الورقة الا ١٠ — .

(أخبرنا والدي محمد بن الفضل رحمه الله أنبأنا سعيد بن أبي سعيد ، أنبأنا محمد بن عمر ، أنبأنا محمد بن يوسف البخاري ، أنبأنا أبو الوليد ، أنبأنا سلم بن زرير ، قال : سمعت أبا رجاء ، حدثنا عمران بن حصين رضي الله عنه) الخ .

٢ — وفي هذه المكتبة نسخة من كتاب (جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام) وليست من نوادر المخطوطات اذ الكتاب مطبوع ، إلا أن مما يلفت النظر أن اسم مؤلف الكتاب في هذه النسخة يغاير الاسم المعروف في النسخ المطبوعة ، فقد جاء في أول النسخة — بعد الخطبة — : (أما بعد فهذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، نزل القرآن على السنتهم ، واشتقت (كلمة غير واضحة) لغتهم والفاظهم ، وأخذت

الشواهد في معاني القرآن وغريب الحديث من أشعارهم ، واسندت الآداب والحكم اليهم، مما ألفه وشرحه محمد بن أيوب العزيزي ثم العمري رحمة الله عليه ، وهو على خمسة (كلمة غير واضحة) وثمانية ابواب) وآخرها : (تمّ كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، بحمد الله وعونه وتوفيقه ولطفه ، بخط أقل عبيد الله بيبرس ابن عبد الله العزيزي الوسعي تغمد الله برحمته ، وقال المفضل بن عبد الله بن محمد : فهؤلاء شعراء العرب في الجاهلية والاسلام ، أولهم امرؤ القيس بن حجر الكندي ، وآخرهم الطرماح بن حكيم الطائي ، ثم استمد الناس من الفاظهم ومعانيهم إلى هذه الغاية وهو اللسان القويم ، والطريق الواضح ، والله أعلم .

وكان الفراغ من نساخته يوم الأحد ، بعد صلاة الظهر السادس عشر من شهر رمضان المعظم أحد شهور سنة ثلاث وثمانين وستمائة) .

ويقع الكتاب في ٣٥٦ صفحة الصفحة ١٦ سطرا والخط جيد، إلا أن كلمات يسيرة أصابها ما ازال كتابتها ، فبدت غير واضحة . ورقمها (١٢٣٢) .

٣ ــ وفي المكتبة نسخة من كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني كتب في طرتها : كتاب جزيرة العرب تأليف الشيخ الأجل ، رفيع القدر والمحل ، أبي محمد ، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني العبدي البكيلي ، تولى الله مكافأته) .

والنسخة يمنية الخط ، وليست قديمة ، وقد حذفت منها ارجوزة الرداعي ، وتقع في ١٦٠ صفحة في الصفحة ٢٥ سطرا والحروف مهملة من الاعجام ، وقد خرقت الارضة الورق حتى بدا مهلهلا .

٤ ــ ولقد أشرت فيما تقدم إلى أنّ الفهارس المطبوعة لا يصح التعويل عليها ــ أعني فهارس مكتبات اصطنبول ــ وأضيف هنا إلى أنني رأيت في فهرس هذه المكتبة ــ وتحت رقم ١٤٠٦ ــ اسم كتاب (نوادر أبي زيد الأنصاري) وهذا الكتاب يعتبر من النوادر ، فسررت عند مطالعة اسم الكتاب ، ولكنني

بعد الاطلاع على النسخة التي تحمل هذا الرقم اتضح لي أنها كتاب النوادر لأبي علي القالي وهو كتاب مطبوع متداول . وفي آخر النسخة التي طالعتها نصّ صريح على ذلك ، فقد جاء في آخرها : (كمل كتاب النوادر لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي ، المعروف بالبغدادي) ثم تاريخ النسخ سنة ١٠٤٢ هـ .

ونسبة الكتب إلى غير مؤلفيها مما يكثر وقوعه في فهارس مكتبات اصطنبول فنجد – مثلاً – في فهرس (مكتبة عاشر افندي – السليمانية) : حلبة الكميت ، واسم المؤلف : (كميت بن زيد الأسدي الكوفي ١٢٦) وعندما تطالع الكتاب تجده كتاب النواجي المعروف . ومثل هذا الخلط وقع في فهرس (مكتبة نور عثمانية) حيث نسب للكميت بن زيد (أنظر رقم ٣٧٧٠) .

وتجد المفهرسين كثيرا ما يضعون أسماء مؤلفات في غير موضعها من الفهرس ، فكتاب (خلاصة الوفاء) – من حقه أن يوضع بين كتب الجغرافية – موضوع بين كتب (السِّيَر وقصص الأنبياء) في فهرس (مكتبة عاشر أفندي) وكذا كتاب (أسد الغابة) الذي ينبغي أن يجعل ضمن كتب التاريخ والتراجم .

لا أريد من هذا القول الانتقاص من عمل اولئك الذين وضعوا تلك الفهارس ، فهم جديرون بالثناء ، لأنهم فعلوا ما يستطيعون فعله ، ولكن لأوضح أن الباحث يحتاج إلى طول وقت وشدّة تَعَمّقٍ ، وهما أمران قد لا يتاحان لكل إنسان .

• • • •

إلى مدينة بورصة

مكتبة حسين شلبي في مدينة (بورصة(*))

ويوم الأحد هو يوم العطلة الرسمية في (تركية) إلا أن المكتبات تفتح في هذا اليوم ، وكان الاستاذ خليل ساحلي أوغلي المدرس في كلية الاقتصاد من (جامعة اسطنبول) قد زارني مساء يوم السبت ١٩٦٥/٩/٢ ليترجم بيني وبين موظف من (متحف طوب قبو) احضر لي شريطا مصـــورا لمخطوطات طلبت تصويرها من (مكتبة أحمد الثالث) التابعة للمتحف فجرى بيني وبين الاستاذ خليل حديث حول المخطوطات ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ العرب وآدابهم وبجغرافية بلادهم ، وتطرق الحديث إلى تاريخ اليمن ، فنصحني بزيارة (مكتبة علي اميري) التابعة لـ (ملة كتبخانة) لأن منشئها تولى حكم اليمن فترة من الزمن ، وجمع من هناك مخطوطات تتعلق بتاريخه ، فأخبرته بانني قد زرتها ، ووجدت أكثر مخطوطاتها حديثة ، فذكر مكتبة (بغدادلي وهبي) في (المكتبة السليمانية) وانه اطلع فيها على بعض المخطوطات اليمنية .

والاستاذ خليل من خير من عرفت من العلماء خلقا ولطفا ، وكرم نفس ، وله إلمام واسع بتاريخ البلاد العربية في العهود التي كانت الدولة التركية تحكم الأقطار العربية ، وخاصة جزيرة العرب ، وما يتعلق بها من الناحية الاقتصادية لأنه يُعْنى بتدريس مادة (التاريخ الاقتصادي) . أقول هذا بعد أن تكرر الاجتماع بيني وبينه ، فعرفت فيه العالم سَمْتاً وخلقاً .

بكرت في صباح الأحد إلى المكتبة السليمانية للاطلاع على مخطوطات

(*) مجلة العرب – المجلد الثاني – ص ٤٦٧ .

(بغدادلي وهبي كتبخانة) أي مكتبة وهبي البغدادي ، فنقلت من فهرسها اسماء هذه الكتب . :

١٠٢٤ ـ دليل المناهل ، ومرشد المراحل .

١٠٢٥ ـ منتخب كتاب (المشترك وضعا) .

١١٢٨ ـ الزبدة في الأنساب لأبي الحسن البحراني .

١١٣٢ ـ اللباب في معرفة الأنساب تأليف أحمد بن محمد بن ابراهيم الأشعري صاحب الاكليل (كذا ورد اسم الكتاب ونسبة كتاب الاكليل اليه في الفهرس) .

١٣١٢ ـ تاريخ اليمن ، المسمى بطيب أهل الكسا ، والفلك الذي على جودى النجاة رسى .

١٦٢٧ ـ أمثال العـــوام .

١٦٧٩ ـ المحاسن والاضداد للجاحظ .

١٩١٢ ـ كتاب الفصيح لابن قتيبة .

٢٠٨١ ـ إسعاد آل عثمان المكرم ، ببناء بيت الله المكرم .

ولكنني بعد ما كتبت بعض اسمائها فوق بطاقة الطلب ، وقدمتها للموظف ، علمت منه أن المكتبة التي تحتوي هذه الكتب مغلقة في هذا اليوم، ذلك ان المطالعين في أيام الآحاد قليلون ، فيكتفي بفتح بعض المكتبات ، في (دور الكتب) التي تضم مكتبات عديدة مثل (السليمانية) .

كانت غرفة المطالعة ضعيفة الانارة ، فلقيت مشقة في مطالعة الفهرس ، أحسست بعدها بألم في عيني ، وزاد ذلك عدم ادراك بغيتي ، فخرجت من المكتبة ، واتجهت إلى الميناء .

كنت قد عرفت اسم مكان يقصده الناس لجمال منظره ، ولوجود مياه معدنية حارة للاستحمام بها ، فعزمت على زيارة ذلك المكان .

ومن الميناء ركبت الباخرة إلى (يلوا) وهي المكان المقصود ، إلا أنني لم أر فيه ما يغري بالبقاء ، فركبت إحدى الحافلات الكثيرة التي رأيت الناس سرعان ما يتركونها ساعة نزولهم من الباخرة .

استغرقت الرحلة في الباخرة وفي السيارة ما يقرب من أربع ساعات ، وكانت النهاية بلدة (بورصة) .

لا أريد الحديث عن جمال هذه المدينة ، ولا عن حماماتها ومياهها الحارة ، ولا عن جبلها الشاهق (اولودغ) الذي يوصل اليه بمصعد كهربائي ، معلق بين السماء والأرض ، ويقصد للاستشفاء والعلاج ، فالحديث عن المكتبات .

غدوت مبكرا – في صباح يوم الاثنين إلى أكبر جامع في المدينة ، للبحث عن مكتبة ، فوجدت بقربه عددا من باعة المسابح وبعض المطبوعات ، منها ما هو عربي كالقرآن الكريم ، ومنها ما هو تركي ، فعلمت من أحدهم – وكان يحسن اللغة العربية ، وقد أدى فريضة الحج – موقع المكتبة العامة (كتبخانة) ولكنها لا تفتح قبل الساعة التاسعة والنصف .

لم يحن الوقت الا وأنا واقف بالباب ، وكنت أول داخل اليها ، وتدعى (حسين جلبي كتبخانة) وتقع في مدخل الجامع الكبير ، على اليمين ، وللمكتبة فهرس مخطوط ، وتضم مجموعة من المخطوطات ولا تخلو من النــوادر .

كان مما اطلعت عليه في هذه المكتبة :

١ – مجلد يحتوي على جزءين من (تذكرة ابن حمدون) في الأدب ، والتذكرة لا تزال مخطوطة ، ومنها نسخ كاملة في مكتبات اسطنبول –، سأتحدث عنها – ومؤلف التذكرة هو محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون الكاتب البغدادي (ولد سنة ٤٩٥ وتوفي سنة ٥٦٢) .

والجزءان هما (الجزء الخامس) ويبتدي بباب المراثي والتعازي وهو الباب التاسع عشر من كتاب (التذكرة) وينتهي حيث يبتديء الجزء السادس

الذي يحتوي على الباب السابع والعشرين وهو باب الأوصاف والنعوت ، من الكتاب .

يقع الجزء الأول في ٢١٥ ورقة (٤٣٠ صفحة ـ سطور الصفحة ١٥ سطرا) وآخره : (تمّ الجزء الخامس من التذكرة لابن حمدون الكاتب ، ويتلوه في السادس باب النعوت والصفات ، والحمد لله وحده ، كتبه الفقير إلى الله تعالى علي بن محمد المجلد من نسخة بخط ابن حمدون ، وذلك في جمادى الآخرة من شهور سنة أربعين وستمائة . . .) ويبتديء الجزء الآخر من الورقة (٢١٦) من المجلد نفسه ، وينتهي بالورقة (٣١٦) حيث تبلغ صفحاته مائتي صفحة في الصفحة ١٧ سطرا ، وآخره : (آخر باب الصفات والنعوت ، يتلوه باب الشيب وهو الباب الثامن والعشرون من كتاب التذكرة ، والحمد لله رب العالمين . . على يد العبد الضعيف . . . علي بن أبي طالب بن أبي عبد الله الحسيني الموسوي ، تم المجلد الخامس من التذكرة الحمدونية في تاسع رجب المبارك من سنة تسع وأربعين وستمائة بمدينة دمشق المحروسة بمدرسة معين الدين . . .) .

٢ ـ ومن نفائس مخطوطات هذه المكتبة نسخة من كتاب (الروض الأنف) شرح سيرة ابن هشام ، للحافظ السهيلي ـ والكتاب مطبوع ـ إلا أن هذه النسخة قيمة جدا ، لقدم نسخها ولجودة كتابتها ، فهي مقابلة على نسخة مقروءة على المؤلف ، وتاريخ المقابلة ٢٧ شوال سنة ٦٠٧ ومخطوطة في السنة نفسها بقلم حسين بن فضل بن خلف المقدسي ، وعليها خط صلاح الدين الصفدي .

تقع هذه النسخة في مجلد ، تبلغ صفحاته (٦٠٢) سطور الصفحة (١٧) .

٣ ـ ونسخة من كتاب (تحصيل المرام ، من تاريخ البلد الحرام) لتقي الدين الفاسي ، مؤرخ مكة وقاضيها ، وتقي الدين ـ كما هو معروف ـ صرف جهده لتدوين تاريخ البلد الأمين ، فألف في ذلك مؤلفات ، أوسعها (العقد الثمين) وقد ضمنه تراجم المكيين وغيرهم منذ ظهور الاسلام

حتى عهد المؤلف (توفي سنة ٨٣٢ هـ) وجعله على نمط (تاريخ بغداد) للحافظ الخطيب ، و (تاريخ دمشق) للحافظ ابن عساكر ، والكتب الثلاثة تعتبر تاريخا لأعلام المسلمين الذين دخلوا احدى المدن الثلاث، وقد يترجم الفاسي في العقد من له أثر في اصلاح شيء من المشاعر ، أو عمارة شيء من الآثار بمكة ، ولو لم يدخلها . وقد وضع لكتابه (العقد) مقدمة سماها (الجواهر المنظمة ، في تاريخ مكة المعظمة) تتعلق بالمشاعر المقدسة وما يتصل بتاريخها . وقد طبع من الكتاب (العقد) ستة مجلدات تقارب ثلثيه ، وطبعه مستمر من قبل معالي الاستاذ الشيخ محمد بن سرور الصبان .

ومن مؤلفات تقي الدين الفاسي (شفاء الغرام بتاريخ البلد الحرام) وهو تاريخ مطول لمكة ، ولكل ما يتعلق بمشاعرها وآثارها – إلى عهد المؤلف – والكتاب مطبوع في مجلدين . وكتاب (تحصيل المرام) على نمط شفاء الغرام إلا أنه مختصر منه يقارب ثلثه .

والنسخة الموجودة في (مكتبة حسين شلبي) في مدينة (بورصة) نسخة كاملة ، ومكتوبة سنة ٨١٩ على ما يظهر من آخرها .، في شهر ربيع الأول من تلك السنة ، مع أن تلك السنة هي سنة تأليفها كما نص المؤلف على ذلك في آخر الكتاب حيث قال : (كان تأليفي له على الوجه الأول بمكة ، إلا ما زدته فيه في شوال وذي القعدة من سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فبمرسى جزيرة (كمران) وفيما بينها وبين (باب المندب) من البحر الملح ، ببلاد اليمن ، وكان تأليفي للثلاثة الأبواب الأخيرة منه وهي الموجودة في هذا التأليف بالمدرسة (القصابة الوجيهية) بثغر عدن أبين ، باليمن ، عمرها الله في مدة آخرها يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وثمانمائة ، وتركت ما بين هذه الثلاثة الأبواب ، والباب الرابع عشر غير قليل منه ، متخللا ثم كملته في أول سنة تسع عشرة وثمانمائة بمكة المشرفة) . وفي مكتبة (دير الاسكوريال) في اسبانية ، نسخة أخرى من هذا الكتاب ، تحمل اسما آخر هو : (تحفة الكرام ، بأخبار البلد الحرام) للفاسي أيضا ، رقمها : (٧٦٨) .

ويظهر أن المؤلف – وهو يعيد ويبدىء في كتابه هذا بالزيادة والنقصان، سماه أولا : (تحصيل المرام) ثم غيره بـ (تحفة الكرام) فقد أكمل تأليفه بمكة سنة سبع عشرة وثماني مائة كما يفهم من آخر النسختين : (حسين شلبي : ٧٨٩) و (الاسكوريال : ٧٦٨) ثم زاده أثناء رحلته إلى اليمن – في البحر، وفي عدن ، ثم زاد فيه ونقص ، وغير وأصلح بعد تلك الرحلة بـ (عدة سنين) كما جاء في آخر نسخة الاسكوريال من قوله : (وكان الفراغ من تحريره حسب الطاقة ، وما زيد فيه حال تحريره في يوم السبت من ربيع الأول من السنة المذكورة (يعني سنة ٨١٩) ثم زدت فيه فوائد كثيرة مهمة ، وأصلحت فيه مواضع بتغيير اللفظ الأول في شوال وذي القعدة من السنة المذكورة بمرسى (جزيرة كمران) بالبحر الملح ، باليمن ، وفيما بين هذا المرسى وباب المندب ، وأنا متوجه إلى مكة المشرفة ، ثم زدت فيه بعد وصولي اليها متجددات مناسبة ، في بقية هذه السنة ، وفي عدة سنين بعدها ، وفوائد كثيرة مناسبة ، وأصلحت فيه مواضع بتغيير اللفظ الأول في أسطر كثيرة ، وانا بصدد أن الحق ما يتناسب الحاقه من المتجددات والفوائد ، وأسال الله تبارك وتعالى تيسير المطلوب . . .) .

ونسخة الاسكوريال هذه من أجود نسخ الكتاب ، ولعلها من آخرها تأليفا ، وقد جاء في آخرها : (علقه من نسخة المؤلف ، في مدة آخرها ذي القعدة الحرام عام ست وثلاثين وثماني مائة) .

وفي « دار الكتب » بمصر نسخة ثالثة ، إلا أن في أولها نقص ، وقد وصفتها في احدى مقالاتي التي نشرتها في جريدة (صوت الحجاز) منذ بضع وعشرين سنة .

تقع نسخة (مكتبة حسين شلبي) في (٣٤٣) صفحة في الصفحة (١٧) سطرا ، ونسخة مكتبة الاسكوريال في (٥٨٤) صفحة ، مسطرها (١٧) .

واطلعت في المكتبة على نسخة من كتاب (الحماسة البصرية) تحمل الرقم

(٨٨٠) وتقع في (١٥٩) ورقة ، وهي كاملة ، إلا أنها حديثة الخط . وأقدم منها وأجود نسخة اطلعت عليها في (مكتبة دير الاسكوريال) رقمها : (٣١٣) . وليس في آخرها تاريخ ، إلا أن من ملاكها : محمود بن سليمان بن فهد مؤلف كتاب (حسن التوسل ، إلى صناعة الترسل) وقد كتب في طرتها بأنها بخطه ، وممن ملكها : خليل بن أيبك الصفدي ، العالم المعروف ، و (زاهر بن أبي القاسم ابي‌حسن بن عجلان ، سنة ٨٥٩) وهذا من أهل مكة ، مما يدل على أن النسخة انتقلت من شمال بلاد العرب إلى غربها ، ثم إلى المغرب الأقصى حيث نُهِبَت فيما نُهب من الكتب المغربية في البحر الأبيض .

واستقر قرارها في اسبانية ، في هذا الدير .

ومن مميزات هذه النسخة أن تعليقات المؤلف وحواشيه أدمجت في الأصل كما يفهم من هذه الجملة التي طرتها : (الحماسة البصرية تأليف الشيخ الامام العالم العلامة لسان العرب ، صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري ، رحمه الله عليه مما له عليها من النكت والحواشي . مثبتة في الأصل ، في مواضعها) . وفي بعض الصفحات حواشٍ يسيرة أيضاً .

وتقع في (٦٢٨) صفحة من القطع المتوسط ، في الصفحة (١٧) سطراً والكتابة بخط النسخ الجميل ، والكلمات مشكلة بالشكل الكامل ، وقد كتب اسم الكتاب داخل مُرَبّع مموه بالذهب بشكل جميل .

ورأيت في الفهرس كتابا اسمه (مغازي رسول الله) صلى الله عليه وسلم ، تحت رقم (٧٧٧) ولم ينسب إلى مؤلف فطالعته فوجدته مجلدا من كتاب يبتديء بما يلي : (واستشهد من المسلمين يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً ، أربعة من المهاجرين ، وسائرهم من الأنصار ، وقتل الله من المشركين يومئذ اثنين وعشرين رجلا . وكان مما قيل من الشعر في يوم أحد قول كعب بن مالك الانصاري رحمه الله ، ورضي عنه :

ألا هل أتى غسَّان عنا ودونهم   من الأرض سَيْر خَرْقٍ مُسْتَعْسَع

وآخره : (فهذا ما تيسر لنا ذكره من مراثي الشعراء في سيد المرسلين ، وخاتم الأنبياء . . . وهنا انتهى ما يختص من هذا المجموع بمغازي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر أيامه ، وكافة أمره ، إلى حين وفاته ، ونشرع الآن في صلة ذلك بمغازي خلفائه الثلاثة الأولين ، رضي الله عنهم أجمعين ، على نحو ما عملنا في مغازية قصد التهذيب ، وبذل الجهد في حسن الترتيب) . . ويظهر أن هذا جزء من كتاب « الاكتفاء » للكلاعي ، وهو السفر الثاني ، وهو مخطوط سنة ٧٥٦ بقلم ابراهيم بن علي بن محمد الجزدي . والخط جميل وواضح والورق جيّد ، وعدده (٢٣٣) أي (٤٦٦) صفحة في الصفحة ١٩ سطرا .

* * * *

في اصطَنبُول

وكانت العودة من مدينة (بورصة) إلى اصطنبول في اليوم الثاني .

في مكتبة وهبي البغدادي :

عدت إلى مكتبة (وهبي البغدادي) في دار الكتب السليمانية في اصطنبول لمطالعة الكتب التي نقلت اسماءها من الفهرس ، يوم كانت المكتبة مغلقة ، وكان منها :

١ – كتاب دليل المناهل ، ومرشد المراحل،وهو كتاب يصف طريق الحجاج من مصر والشام والقسطنطينية إلى مكة المكرمة فيذكر كل منزلة ، ويصفها ويذكر بعدها عن المنزلة الأخرى ، ويصف ما فيها من مياه وجبال وأودية .

والكتاب فذّ في موضوعه من حيث التفصيل ، إلا أنه منظوم باللغة التركية ، نظمه الحاج مخلص مصطفى البسنوي ، قاضي (غرهور) سنة ١١٦١ هـ – كما جاء في آخره ، وهو في مجلد لطيف .

ومما يماثله في موضوعه – مما اطلعت عليه كتاب (منازل الحج) من كتب المدرسة الاحمدية في حلب التي ضمت الى مكتبة الأوقاف العامة . وهو عبارة عن رسالة تقع في ٣٦ ورقة ، كتب في أولها : (هذه منازل الحج للشيخ الامام محمد بن عبد القادر بن محمد الحنفي نفع الله تعالى به) والرسالة تصف المنازل من (بركة الحاج) قرب القاهرة إلى مكة ثم إلى المدينة وآخرها : (وكان الفراغ من تعليق هذه المقدمة في يوم الاربعاء ١٨ شوال سنة ١١٤٣) وكاتبها يدعى خليل بن ابراهيم ابن رزق الأنبابي الشافعي .

ورقم الرسالة في المكتبة الأحمدية (١٢٤٣) . وهي سقيمة الخط .

وكتاب في (المكتبة العامة والمحفوظات) في مدينة (تطوان) في المغرب يحمل الرقم ٣٢٩٢ - كتب اسمه : (منازل الحج الشريف) وكتب فوق طُرَّته : (للعلامة الدين ابي عبد الله محمد بن عبد القادر الحنفي، وبحواشيها منازل الحجاز أيضا، للعلامة شمس الدين أبي عبد الله أحمد بن ابراهيم السروجي وبآخرها منظومة في مناهل الحجاز، وجدت بخط العالم العلامة بدر الدين الزركشي، وغير ذلك من الفوائد المهمة) .

ويفهم من هذا أن الرسالة الأولى نسخة أخرى للرسالة الموجودة في (المدرسة الأحمدية) .

ويحسن أن ننتقل من الرسالة الأولى ما قد يفيد الباحث في موضوعها : أولها : قال (الشيخ الامام العالم العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الحنفي - رحمه الله - : الحمد لله الذي خلق الانسان، وعلمه البيان، وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وهداه السبيل، وشرفه بالايمان) .

ثم في الصفحة الثالثة : (استخرت الله تعالى في ذكر مناسك الحج، من كلام من تقدم من العلماء، وسبق من أعيان الفضلاء، وقدمت على ذكر ذلك ذكر المنازل والمياه، معتمدا في ذلك على أفاضل الأدلاء، وذكرت ما عاينت من العلامات، وباشرت من الاشارات، وذكر مسافة كل منزلة بالساعات، بطريق صحيحة لا يدخلها الخلل، ولا يمر بساحتها الزلل، وذلك بسير الابل المثقلة ومشي الأقدام، فجاءت بحمد الله على أحسن نظام، فنقول : من أراد الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، فأول نزوله في البركة التي تعرف ببركة الحاج، وهي منزلة متسعة، متقاطرة شمال الطريق، وفي المنزلة بساتين وآبار وسواقي، وإذا كان نزول الحاج بها والشمس في برج الشتاء فإنها مملوءة من ماء النيل، وهي حينئذ بركة عظيمة، وينصب في هذه البركة سوق عظيم) .

وقال في وصف منزلة (سلمى) بفتح السين واسكان اللام ثم ميم مفتوحة ممدودة معروفة فيما بين ظبا والوجه : (الرحيل من كفافة إلى منزلة يقال لها

(سلمى) والمنزلة عند رأس واد في جهة الشرق ، والوادي في داخله آبار ماء حلو عذب ، شبية بماء النيل ، تنسب عمارتها إلى المقر المرحوم (آل ملك) والمورد بعيد عن المنزلة ، ولم اعتبر مقداره فأذكره ، فيدخل الحاج اليه يردونه في الذهاب ، وبهذه المنزلة شجر السمر ، وهي قريبة من كفافة ، ولم اعتبر مسافتها) .

وقال عن (خليص) : (وخليص قرية بها عين ماء ، وبركة عظيمة تنسب عمارتها للمقر المرحوم (أرغون الدوادر النائب) كان — رحمه الله — وماؤها طيب حلو صاف) .

وبعد أن ذكر المنازل ، ووصف مدينة مكة وبلدة مِنى قال : (وبمِنى فنادق ، ودور ، وصهاريج ، وينصب بها سوق عظيم) .

ثم أوجز وصف (عرفة) .

ولما أورد مقدار ما بين (قلعة المقطم) وبين مكة من الساعات قال : (فحينئذ بين البركة ومكة أربعمائة ساعة ، وتسع عشرة ساعة ونصف ساعة ، وبين مكة ومِنى ساعتان ، وبين مِنى والجبل المعظم ثلاث ساعات ، فيكون بين مكة والجبل بالتقريب مقدار ما بين القاهرة وبين البركة ، فيسقط أحدهما من الآخر ، ويقسم ما بين البركة ومكة المشرفة ، فيكون ذلك مائتي ساعة وتسع ساعات ونصف وربع ساعة ، وهو منتصف المسافة بين مكة المشرفة ، وبين البركة ، وقد تبين أن بين البركة والعقبة مائة ساعة وسبع ساعات ، وان بين العقبة و (الأزلم) تسع وتسعون وجملة ذلك مائتا ساعة وثمان ساعات ، فيكون نصف طريق مكة بعد الرحيل من (الأزلم) بساعة واحدة ونصف ساعة ، وربع ساعة) .

ثم ذكر الطريق بين مكة والمدينة ، وختم الكتاب بقوله :

(ثم الرحيل من المدينة ، إلى مدينة ينبع ، وهي رحلة متسعة ، مسافتها

ثمان ساعات ، والمرعى في الطريق كثير ، وشجر السمر قليل ، والطريق كلها مرحلة ، والله سبحانه وتعالى اعلم ، تمت منازل [الحجاز] الشريف بحمد الله وعونه) .

هذه القصيدة تجمع منازل الحجاز الشريف ، وجدت بخط البدر الزركشي :

عليك بجدّ السير ، عشّ بُويبه
وغد بروض الكبش واستقبل القفرا

سقى الله ارجاء المصانع كم سقت
عطاشا ، وروي السهل والبدو والحضرا

مراكع موسى ، والسويس ، وبعدهم (!)
قباب بدت ، والتيه مع نخله الغرا (!)

٢٩ ـ بيتا على هذا النمط ـ آخرها :

فحيّ ، وقل : لبيك ، لبيك ، سيدي
اليك قطعت الأرض والبر ، والبحرا

سلام على الأصحاب والأهل كلهم
سلام على السبطين ، مع فاطمة الزهرا (!)

تقع هذه الرسالة في (٥١) صفحة صغيرة في الصفحة إحدى عشر سطراً ، مكتوبة بالخط النسخي الواضح ، ولعلها من مخطوطات القرن الحادي عشر ، سوى ما كتب في طرتها فهو حديث الكتابة ـ فيما يظهر .

وفي هامش الصفحات (٤/٥/٦) وصف موجز لمنازل طريق الحج من البركة إلى مكة ، مكتوب بخط دقيق جدا ، بحيث تصعب قراءته بالعين المجردة ، وآخره : (هكذا ذكره بتمامه من أول ذكر المنازل المصرية إلى هنا في منسكه قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الشيخ برهان الدين ابراهيم ابن عبد الغني السروجي الحنفي) .

وهذه الرسائل التي الفت عن (منازل طرق الحج فيها مباحث وتحقيقات جغرافية ، ولا توجد في كثير من الكتب التي الفت لتحديد المواضع ، كمعجم البلدان وأمثاله ، والكتب التي الفت عن (المسالك) وان تضمنت معلومات في هذا الموضوع ، إلا أن المؤلفات المخصصة له تكون أوفى ، ومن هذا تظهر قيمة هذه الرسائل وحبذا لو تصدى أحد الباحثين لدراستها ودراسة ما يتصل بها ، على نمط ما فعل المستشرق التشيكوسلوفاكي (موزل) في كتابته : (شمال الحجاز) و (شمال نجد) .

انها لجديرة بالدراسة ، لا لصلتها بالمشاعر المقدسة فحسب ، بل لتعلقها بجغرافية بلادنا ، وبتاريخها ، ولأن ما جاء في المؤلفات القديمة عن هذه الناحية من معلومات بحاجة إلى التصحيح والتحقيق .

في المكتبة السليمانية مرة أخرى

لم أجد في (مكتبة وهبي البغدادي) مما طالعته من كتبها التي نقلت اسماءها من الفهرس ، كتابا ذا قيمة ، من حيث قدمه ، أو طرافة موضوعه أو صلته بالناحية التي أعنى بالبحث عنها ، ولم أتمكن — لضيق وقتي — من مطالعة كل الكتب التي نقلت اسماءها ، مثل : الفصيح لابن قتيبة ، والمحاسن والأضداد للجاحظ وطيب أهل الكساء (في تاريخ اليمن) .

كان مما طالعته كتاب (الزبدة ، فيما عليه من ذراري السبطين العمدة) — وهو مشجر في الانساب ، مؤلفه يدعي شيخ الشرف ، نقيب البحرين ، علي بن السيد ماجد بن محمد نقيب البحرين المدني ، العبدلي الحسيني ، ويقع الكتاب في (١٧٠) صفحة من القطع الكامل .

وكتاب (الباب) في علم النسب ، .وفي النسخة التي طالعتها كتاب (اللباب) ولكن المؤلف نص في المقدمة على أنه جعله بابا يدخل منه إلى علم النسب . ومؤلفه هو ابو الحسن أحمد بن محمد بن ابراهيم الأشعري اليمني ، من أهل القرن الخامس الهجري ، وهو عالم نسابة له مؤلفات منها

كتاب مطول في الأنساب لا يزال مفقودا ، وكتاب في علم المساحة مخطوط في مكتبة (الامبروزيانا) في ايطاليه وكتاب (لب اللباب) في الأدب ، يشتمل على عشرة ابواب ، كل باب يتضمن عشر حكايات في فنون مختلفة منه نسخة مخطوطة في سنة ٩٩٦ هـ وكانت لأحد أثرياء المكيين ويدعي الشيخ محمد ابن الشيخ عبد اللطيف المكي ، كان في (بندر سورة) في الهند . وتوجد هذه النسخة الآن في (مكتبة دير الاسكوريال) وهي أول المجموع ذي الرقم (١٧٠٢) . وتقع في ٢١٨ صفحة في الصفحة (٢٣) سطرا .

وكتاب (الباب) مختصر في موضوعه ، إلا أنه يحوي معلومات عن أنساب بعض القبائل اليمنية ، نقلها من كتاب (الإكليل) للهمداني ، ومن هذا جاء الغلط في اضافة الاكليل اليه ، في فهرس مكتبة وهبي البغدادي (بغدادلي وهبي كتبخانة) .

وطالعت دفترا يقع في (٦٣) ورقة تحتوي على مجموعة من الأمثال المرتبة على حرف الهجاء ، منها ما هو حديث باللغة العامية اللبنانية ، ويظهر أن مؤلفها لبناني مسيحي ، وهي مؤرخة في ٩ شباط سنة ١٧٦٩ م .

وفي المكتبة رسالة (اسعاد آل عثمان المكرم ، ببناء بيت الله المكرم) وهكذا جاءت السجعة ، وهي تقع في ست ورقات ، مخطوطة سنة ١١٠٥ ومؤلفها (الشرنبلالي) من المكثرين في تأليف الرسائل ، موضوع هذه بناء الكعبة في عهد السلطان مراد العثماني سنة ١٠٣٩ هـ .

وطالعت من كتب (مكتبة أسعد أفندي) في (السليمانية) كتاب (اسماء البلدان على حروف التهجي) ورقمه (٢٠٣٧) فوجدته كتابا مختصرا يقع في ١٣٧ صفحة ، وليس له خطبة وليس فيه اسم المؤلف ، ولا تاريخ النسخ ، وعليه (تملك) مؤرخ في سنة ١٠٥٧ ــ وأكثر ما فيه نقول من كتب معروفة مثل (المشترك) لياقوت وغيره .

وفي فهرس هذه المكتبة تحت رقم (٢٠٤٤) كتاب في التاريخ والجغرافية ــ وأشير أمامه بحرف (ع) أي عربي ــ لأن فهارس المكتبات في اصطنبول

تضم العربية والتركية والفارسية ، فطلبت الكتاب ، ومكثت برهة من الوقت انتظر احضاره إلي ، فلما أُحضر وجدته باللغة التركية ، وغلطة المفهرس أضاعت جزءا من وقتي كنت شديد الحاجة إلى صرفه فيما يفيد .

في المكتبة نسخة من كتاب (البرق اليماني) للقطبي تقع في ٤٤٦ صفحة ، وتحوي (الفصل الخامس عن عودة الوزير سنان باشا إلى اصطنبول ، وهو ما تخلو منه بعض النسخ وليست هذه النسخة مؤرخة الكتابة ورقمها (٢٠٧٨) .

وتحت رقم (٢٣٥٨) من فهرس هذه المكتبة : اشتقاق الأسماء ، والمؤلف : أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، ولكنني بعد تصفحي للكتاب وجدته كتاب (الاشتقاق) لابن دريد ، وفي الورقة اا (٢٤٠) نص صريح على ذلك ، والنسخة مبتور أولها ، ومخطوطة سنة ٩٢٢ هـ .

ومن كتب (مكتبة اسعد افندي) أيضا رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز) تقع في مجلد واحد ، وتاريخ كتابتها ١١٨١هـ ورقمها »(٢٣٧٦) .

وفي (مكتبة الفاتح) في السليمانية أيضا : نسخة جيدة من تاريخ مكة للازرقي ، تقع في ٥٣٦ صفحة ، رقمها (٤١٨٤) . وآخرها : (كتبه الفقير إلى الله تعالى علي بن أحمد بن محمد الشيرازي ، بمكة المشرفة ، تجاه البيت الشريف ، وكان الفراغ من نسخه ليلة تُسْفر عن يوم الخميس سابع عشر شوال سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة من الهجرة المطهرة . .) .

وفيها نسخة من كتاب (التبيين في نسب القرشيين) لموفق الدين ابن قدامة الحنبلي ، وتقع في (٣٨٠) صفحة وهي قديمة الخط ، إلا أنها ليست مؤرخة ، وفي أحد هوامشها كتابة مؤرخة في (٨٥٦) .

ونسخة من كتاب (مثير العزم الساكن ، إلى أشرف الأماكن) لابن الجوزي ، يقع في (١٤٠) ورقة وهو في فضائل مكة والمدينة ، وليس الكتاب مؤرخا . ورقمه (٤٤٦٩) .

ولابن الجوزي في هذه المكتبة عشر رسائل تحت رقم (٥٢٩٥) .

والرقمان (٤٤٠٥ و ٤٤٠٦) في الفهرس أشير بهما إلى نسختين من سيرة ابن اسحاق — وهي من الكتب التي لا تزال مفقودة باستثناء قطعة في في مكتبة (الرباط) في المغرب ، سأتحدث عنها ان شاء الله — ولما طلبت احضار النسختين من الموظف المكلف بذلك قال لي إنهما لا توجدان في المكتبة .

وفي المكتبة برقم (٣٧٥٧) كتاب (خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام) سبق الحديث عنه .

وفي (مكتبة الحاج محمود أفندي) المضافة إلى (السليمانية) .

— تاريخ الواقدي رقمه (٤٧٦٤) .

— ترجمة كتاب (الاعلام) تاريخ مكة للقطبي إلى اللغة التركية برقم (٤٨٣٣) .

— رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز) برقم (٥٣٩٥) — ولكني لم أطالع شيئا من هذه الكتب ، فلقد كانت غرفة المطالعة ضعيفة النور ، بدرجة جعلتني آخر الوقت لا أتمكن من القراءة ، وقراءة المخطوطات تحتاج إلى قوة في النظر ، وطول في الوقت ، ولكن الوقت يمضي أكثره في انتظار احضار الكتب ، التي تحضر متفرقة بحيث لا تزيد في المرة الواحدة على ثلاثة ، والمخازن ليست كلها متصلة بغرفة المطالعة ، ثم كتابة بطاقة الاستعارة تستلزم أن تكون بأرقام معروفة لدى الموظف وهي التي نسميها (الافرنجية).

مكتبة عاشر افندي (في السليمانية[*]) :

ومن نفائس الكتب التي اطلعت عليها في (مكتبة عاشر افندي) حينما زرتها في ١٩٦٥/١٠/٤ م .

١ — كتاب وضع رقمه في الفهرس (٥٩٤) وكتب اسمه « الأنساب مختصر كتاب الرشاطي » .

(*) مجلة العرب — المجلد الثاني — ص ٥٦١ — .

غير انني لما تصفحته ظهر لي أنه كتاب « الجمع بين كتابي الأنساب للرشاطي واللباب لابن الأثير » . ولكن المفهرس رأى في أوله جملة : (لما اختصرت كتاب أبي محمد الرشاطي) فظنه هذا .

أول الكتاب بعد البسملة : (الحمد لله المحيط علمه بمتفرق الأنساب ، الفارق في كتابه بين القبائل والشعاب — إلى أن قال : وبعد فإني لما اختصرت كتاب أبي محمد الرّشاطي ، واستعنت على بعض الأسماء وأكثر الأنساب بكتاب « اللباب »لأبي الحسن ابن الأثير الجزري — رحمه الله — وجدتّهما قد اجتمعا على تراجم ، وانفرد كل منهما بأخر ، وإذا اجتمعا على ترجمة تارة يتفقان على من سمي فيها ، وتارة يختلفان ، فيذكر هذا واحداً فأكثر ، ويذكر هذا رجلا آخر ، أو يزيد هذا أو ينقص هذا وكلّ من الكتابين محتاج إليه ، مُعَوَّلٌ في هذا الفن عليه ، فأحببت أن أجمع بينهما ، ليستغني الناظر في هذا الكتاب عن النظر في كتابين كبير حجمهما) .

غير أن هذا ليس الكتاب كاملا ، بل هو جزء ينتهي بانتهاء (حرف الجيم مع الحاء) فقد جاء في آخره : (هذا الجزء الأول ، وفرغ منه مؤلفه تعليقا . . . اسماعيل الحنفي . . . يتلوه في الجزء الثاني ان شاء الله باب الحاء والدال) .

وهذا المجلد يقع في ٣٣٤ ورقة وهو مسودة المؤلف ، وحواشيه مملوءة بالكتابة ، وملحق به جزازات صغيرة من الورق أضيف بها بعض التراجم ، وبعض الزيادات .

وفي أول المجلد ورقة فيها ترجمة المؤلف أحدث خطا من الكتاب نفسه ، والمؤلف هو اسماعيل ابن ابراهيم الكناني البلبيسي القاهري الحنفي ، ولد سنة ٧٢٨ وتوفي سنة ٨١٢ — والترجمة مختصرة من كتاب (الضوء اللامع) وفيها أن المقريزي قد ترجم المؤلف في (عقوده) ترجمة مطولة .

٢ — كتاب «الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج ، وطريق مكة المعظمة» رقمه في المكتبة ٦٤٨ .

وكتاب الدرر طبع عن نسخة ناقصة ، ذلك أن المؤلف بعد أن كتبه أول الأمر في المسودة ، انتشر الكتاب بعد أن نقلت من المسودة نسخ ، ثم بعد سنين نقله من المسودة إلى المبيضة ، وزاد فيه فصولا وزيادات كثيرة .

ومسودة المؤلف الأولى توجد في (مكتبة الأزهر) في القاهرة وهذه النسخة الموجودة في (مكتبة عاشر افندي) منقولة عن المسودة فقد جاء في آخرها ــ الورقة ٢١١ ــ : (وكان الفراغ من تسويده ، ولا أقول من تحريره وتبييضه ، يوم الأحد السادس من شهر رمضان المعظم سنة احدى وستين وتسعمائة . . وكتبه من نسخة بخط مؤلفه . . . إبراهيم بن المبارك الشافعي في خامس شوال سنة (إحدى وستين وتسعمائة) وفي طرة هذه النسخة اشارة إلى ما بين مؤلف الكتاب عبد القادر الجزيري الانصاري الحنبلي وبين قطب الدين المكي الحنفي المعروف بالنهروالي مؤرخ مكة ، من الصحبة وما جرى بينهما من الاجماع ، والمكاتبة ، وأن الجزيري كان يكتب إلى القطب فمما كتب اليه قوله :

يقبل أرضا أشرقت شمس علمها وقد شرفت أصلا وفرعا ومحتدا

ثم ذكر أبياتا ، أورد بعدها : (فأجابه على غير الرويّ :

إذا كتبت كــفي كتابا إليــكم محته دموع طول أوقاتها تجري

واسم الكتاب ــ كما جاء في الورقة الثانية من هذه النسخة (وسميته الدرر الفرائد المنظمة الخ . .) .

وقد كتب في طرة النسخة : (هذه النسخة نقلت من المسودة قبل تحريرها وترتيبها . . . كتبه مؤلفه) .

ولكن عابثا كشط كلمة (قبل) كشطا خفيفا وكتب مكانها (بعد) وليست هذه الفعلة بكثيرة من حيل الوراقين ، في سبيل محاولة ابراز كتبهم بصورة الكمال والندرة !

أما النسخ الكاملة من هذا الكتاب ، فمنها نسخة في (المكتبة التيمورية) المضافة إلى (دار الكتب) في القاهرة ، وقد تحدثت عنها في مقال نشر لي

منذ بضع وعشرين سنة عن (مصادر تاريخ الحجاز) في جريدة (البلاد) .

ونسخة كاملة أخرى في (خزانة القرويين) في مدينة (فاس) في المغرب ، رقمها (٥٥٤/٤٠) وأولها : (قال الشيخ الامام العلامة ، عمدة أهل الأدب المتبحرين ، كنز الافادة للطالبين ، زين الدين عبد القادر بن البدري محمد بن ابرهيم الانصاري الجزيري الحنبلي، ختم الله له بالحسنى ، وحشره مع العلماء العاملين ، في المقـــام الأسعد الاسنى : إن أول ما يتوج بذكره رؤوس الكتب والدفاتر) .

ثم في الصفحة (٥٤١) : انتهى السفر الأول بحمد الله وحسن عونه ،.. ويتلوه في الثاني : الباب الرابع فيما يشتمل عليه ديوان امرة الحاج) .

ثم في الصفحة (٥٤٦) : قال الفقير إلى الله تعالى الشيخ العلامة زين الدين عبد القادر ابن البدر محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري الحنبلي كان الله في عونه ، وختم له بالحسنى وحشره مع العلماء العاملين بالمحل الاسنى : الباب (الرابع الخ) وآخره صفحة ٩١١ : (قال مؤلفه قد انقضى تسويده ولا أقول تحريره وتبييضه يوم الأحد لست ليال خلت من شهر رمضان المعظم من شهور سنة احدى وستين وتسعمائة . . . ثم بعد مدة أعوام وقدمنّ الله تعالى_ وله الحمد بفسحة من الأجل، ويسر جمع ما في المؤلف من الأزل ، شمرت عن ساعد الاجتهاد ، ونقحت تلك المسودة ، ورتبتها وزدت عليها ما به حصول النفع لمن استزاد ، فجاء بحمد الله وعونه وافيا بالمراد ، حسن الاختصار والاقتصاد ، مع اني لم أحذ في تأليفه على مثال سبق ، ولا على نمط تقدمني فيه غيري فأقول : قد حاز قصب السبق واستحق ، وانما جمعته حسب البديهة من منح العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، كمل الكتاب بحمد الله وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكان الفراغ منه ضحى يوم الأحد الميمون ، الرابع لشهر رمضان المعظم من شهور سنة تسعة (!) وسبعين وتسعمائة) .

تقع هذه النسخة في (٩١١) من الصفحات في الصفحة (٢٨) سطراً ، والخط مغربي ، وقد أفسدت الرطوبة جل صفحات القسم الأخير من الكتاب بحيث لا تمكن قرائتها بسهولة ، وعبثت العثة بورق الكتاب ، فأصبح مهلهلا ثم رقع جميع الورق بورق شفاف .

وفي مكتبة عاشر أفندي نسخة من كتاب (التبيين في نسب القرشيين) لابن قدامة ، رقمها (٥٩٣) . [١] .

في مكتبة راغب باشا

وتقع مكتبة راغب باشا بقرب (ميدان بايزيد) على يسار الذاهب منه إلى (آق سراي) ومؤسسها هو الوزير العالم (محمد راغب باشا) في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، وقد كان واليا لمدينة « حلب » في الشام ، فجمع اثناء ولايته كتبا مخطوطة كثيرة فيها كثير من النوادر ، التي كان حريصا على جمعها .

كنت زرتها في ١٩٦٥/٩/٦ – ومن نوادر مخطوطاتها التي طالعتها :

١ – مختصر « جمهرة النسب » والمختصر بكسر الصاد غير معروف ، والأصل لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (٢٠٤ هـ) وقد وضع اسمه في في الفهرس « التبيين » برقم (٩٩٩) اذ في طرة الكتاب بيان يتضمن اسماء الكتب التي نقل عنها المختصر في الهوامش ، ومنها كتاب التبيين لابن قدامة ، وقد كتب اسم الكتاب بصورة ابرز من اسماء الكتب الأخرى ، وأضيف إلى اسم مؤلفه ثناء واوصافا فبدا اسم الكتاب بارزا فتوهم واضع الفهرس أنه الاسم الحقيقي لذلك المختصر ، ويقع في مجلد ضخم ، وخطه من اتقن الخطوط واوضحها وأدقها ، وقياس الصفحة ٢٧ × ٣٧ سنتيمترا .

---

(١) كتب هذا البحث في مدينة مجريط – مدريد – في (١٢ /١٢/ ١٩٦٥ م) .

(*) مجلة العرب – المجلد الثاني – ص ٧٤١ .

وقد وصفت هذه النسخة في مقال نشرته مجلة « المجمع العلمي العربي » منذ بضع عشرة سنة .

٢ - كتاب « أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك » ، تأليف محمد بن علي الشهير بسباهي زادة ، المتوفي سنة ٩٩٧ - من ادباء الأتراك ، ذكر صاحب« كشف الظنون » في الكلام على كتاب « تقويم البلدان» لصاحب حماة ، أن ابن سباهي زاده ، رتبه على الحروف ، وأضاف اليه ما التقطه من المصنفات ليكون اخذه يسيرا ، ونفعه كثيرا ، وسماه « أوضح المسالك » وأهداه إلى السلطان (مراد خان الثالث) ، وفرغ منه في رجب سنة ٩٨٠ هـ ثم نقله إلى التركية باختصار ، واهداه للوزير محمد باشا .

والنسخة الموجودة في مكتبة راغب باشا مخطوطة سنة ١٠٩٥ وتقع في ١٨٥ ورقة (٢٧٠ صفحة في الصفحة ٢١ سطرا) .

وفي مكتبة « نور عثمانية » نسخة أخرى رقمها « ١٦٩٣ » .

ومما نقلته من هذا الكتـــاب :

قال في الورقة « ١٨٥ » عن اليمامة . . واخبرني من رآها في زماننا هذا أن بها أناسا قليل ونخيل (؟) واخبرني حديثة بن عيسى - وهو ممن أقام باليمامة عدة سنين - قال : اليمامة لها واد يسمى الخرج وهو أسفل الوادي ، وبقرب اليمامة عين ماء متسعة ، وماؤها يسرح . وقال في الكلام على « الأحساء » الورقة ٣٨ : « وليس للأحساء سور ، وبين الأحساء واليمامة مسيرة اربعة أيام وأهل الأحساء والقطيف يجلبون التمر إلى الخرج وادي اليمامة ، ويشترون بكل راحلة من التمر راحلة من الحنطة » .

وقال عن « جرش » الورقة ٨٦ : « جرش بفتح الجيم والراء . . وفي العزيزي : وجرش بلدة صالحة ، وحولها من شجر القرظ ما لا يحصى ، وبها مدابغ كثيرة » . وهو يقصد جرش الذي بقرب «بيشة» في اعلى واديها . ويقصد بالعزيزي كتاب « المسالك والممالك » الذي ألفه الحسن بن أحمد المهلبي ، للعزيز الفاطمي صاحب مصر ، ونسبه اليه .

٣ - كتاب« التذكرة الحمدونية » من رقم ١٠٨١ إلى ١٠٨٥ ورقم ١٠٧٩ المجلد الأول من اول الكتاب إلى الباب الخامس عشر منه نسخة قديمة الخط جدا تقع في ٢٥٥ ورقة .

المجلد الثاني من الباب الخامس عشر إلى الباب الثلاثين (وهذا المجلد يتضمن الربع الثاني من التذكرة) ويقع في ٣٤٢ ورقة من القطع الكبير .

المجلد الثالث - من الباب الثلاثين إلى الخامس والأربعين ، ويقع هذا في ١٩٩ ورقة وخطه قديم .

المجلد الرابع - من الباب الخامس والأربعين إلى الباب الخمسين (وهو آخر كتاب) ويقع في ٢٦٧ ورقة ، وهو قديم الخط ايضا .

٤ - وفي المكتبة مجلد من كتاب (العقل والنقل) لشيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - رقمه (٧٢٧) والمجلد ناقص ، وقد كتب في أوله : (هذا الكتاب لابن تيمية من أعلم علماء الحنابلة - وبعد كلام يتعلق بترجمة الشيخ - هذه النسخة قد ملكناها ساقطة منها كراستان من آخرها ومن الأول ، أوان ولايتنا بحلب الشهباء سنة ١١٦٩ هـ فلعل الله يوفقنا للاتمام . . . كتبه الفقير إلى آلاء ربه ذي المواهب ، محمد المدعو بين الوزراء بالراغب). وكاتب هذا هو محمد راغب باشا مؤسس المكتبة ، والنسخة تقع في ٣٣٨ ورقة ، لها حواشي كتبت بوريقات الصقت في أماكنها من الكتاب ، والحواشي اكمال لنقص في الأصل ، وتدل على أنه قوبل بنسخة أخرى أو ان المؤلف استدرك هذه الزيادات ، فزادها ، والخط قديم .

٥ - ومن معجم أبي عبيد البكري « معجم ما استعجم من أسماء المواضع » نسخة جيدة تقع في مجلد واحد يحوي ٢٩٤ ورقة من القطع الكبير ، بخط متقن واضح ، وكاتبها هو (أحمد بن اقش الحراني ، في ثالث ربيع الآخر من سنة تسع وعشرين وسبعمائة) وفي مكتبة (نورعثمانية) كتاب وضع اسمه في الفهرس « المعجم في لغات الأماكن » ورقمه (٤٨١٤) وحينما طالعته ظهر لي أنه معجم ابي عبيد هذا ، وتلك النسخة خطها مغربي ،

منقولة عن نسخة مخطوطة في سنة ٥٩٧ وتقع في (٤٣٩) ورقة .

والكتاب مطبوع مرتين : مرة في اوربة بتحقيق المستشرق المعروف (فردناند وستنفيلد) والأخرى في القاهرة بتحقيق الاستاذ (مصطفى السقاء) وقد كتبت استدراكات حول الطبعة الأخيرة في مجلة (الفتح) التي كان يصدرها في القاهرة الأستاذ محب الدين الخطيب وفي صحف أخرى [١] .

في (نور عثمانية كتبخانة)

تقع هذه المكتبة في نهاية امتداد (سوق الحميدية) الذي يبتديء من (ميدان بايزيد) المسمي بعد اسقاط حكومة مندريس بـ (ميدان الحرية) فالباب الثاني لهذا السوق العظيم يخرج على الجامع العظيم ، المسمي بذلك الاسم ، وبجواره المكتبة ، وهي من أحفل المكتبات بالمخطوطات .

كانت زيارتي الأخيرة لها في ١٩٦٥/٩/٢٧ . ولها فهرس مطبوع ، غير أنه لا يصح الاعتماد عليه ، وكثيرا ما تتفق فهارس مكتبات اصطنبول على الغلط ، فكتاب النواجي المعروف « حلبة الكميت » نجده في هذه المكتبة برقم (٣٧٧٠) منسوبا إلى كميت بن زيد الأسدي الكوفي ، كما رأيناه في المكتبات الأخرى ، ونسخة « الحلبة » هذه مخطوطة سنة (٨٦٣) . ووضع الكتب من الفهرس في غير موضعها موجود أيضا ، فمثلا كتاب « محاسن المساعي ، في مناقب الاوزاعي » ذو الرقم (٢٥٧٦) — وهو في ترجمة الامام الاوزاعي ، موضوع مع « كتب التصوف » .

طالعت في هذه المكتبة عددا من المخطوطات الفها علماء من مكة المكرمة ، منهـــا : —

١ — كتاب « البرق اليماني في الفتح العثماني » وقد مضى الحديث عنه ،

---

(١) كتب هذا في مجريط ٢١ شعبان سنة ١٣٨٥ — ١٤ /١٢/ ١٩٦٥ م .

ورقم النسخة في (مكتبة نور عثمانية) هو (٣٨٠٥٨) وقد نقل إلى اللغة التركية ، والنسخة التركية هي في المجموع ذي الرقم (٤٩٢٨) . والنسخة العربية مخطوطة سنة ١٠٠٣ هـ وهي كاملة حيث اختتمت : (الفصل الخامس في عودة حضرة الوزير المعظم ، والقابودان المفخم ، بالعساكر المنصورة السلطانية إلى الأبواب العلية الخاقانية) وذكر في مقدمته أنه(رافق سنان باشا في زمن الحج ، وقضي معه مناسك العج والثج) وانه هو الذي أمره بتدوين هذا الكتاب ، ولكنه في هذه النسخة أهدى الكتاب إلى السلطان سليم خان بن سليمان .

ورأيت من مؤلفات قطب الدين الحنفي النهروالي المكي ، مؤلف هذا الكتاب « البرق » كتابا آخر هو « دستور الاعلام » ورقمه في (مكتبة نور عثمانية) هو (٣٤١٤) . ومن هذا الكتاب نسخة في (مكتبة الحرم المكي الشريف) وأوله – في النسخة الموجودة في (مكتبة نور عثمانية) – : (الحمد لله الذي تفرد بما ليس لغيره من العزة والغنى – إلى أن قال – وبعد فهذا مجموع مختصر ، في فن التاريخ . .. جعلته تأليفا مستقلا في معناه ، ومدخلا لغيره من الكتب المطولات . . . فان الباحث عن معرفة ترجمة شخص من أعيان هذه الامة كالجنيد ، وأبي طالب ، والجوهري ، وابن الحاجب ، من أرباب التصانيف ، والرشيد ، والمهدي ، والواثق من الخلفاء ، وسائر الاعيان على اختلاف طبقاتهم وتغاير أجناسهم ، فما لم يكن عنده معرفة باسم ذلك المطلوب واسم أبيه واسم جده ، ليتطلبه في كتب التراجم المرتبة على حروف المعجم، أو معرفة بوفاته ليتطلبه في التواريخ المرتبةعلى السنين ، وإلا فيتحير في تحصيله ، فرتبت معارفه على حروف المعجم ، وقسمت كل حرف على خمسة أقسام ، القسم الأول : في من اشتهر باسم كمالك ، والجنيد ، والعجاج . والثاني : في من اشتهر بكنية كابي الأسود ، وأبي داود ، وأبي تمام . والثالث : في من اشتهر بنسب ، أو سبب ، أولقب ، كالجوهري والحريري ، وقطرب ، وكراع النمل ، وذوالنون ، وذو الرمة ، والرابع : في من اشتهر بابن ، كابن العربي ، وابن الاكفاني ، وابن دريد . والخامس :

في من اشتهر بصاحب ، كصاحب الكتاب الفلاني ، أو البلد الفلانية وسميته (بدستور الأعلام بمعارف الأعلام) .

ثم بعد هذا النص ما هذا نصه : (يقول كاتب هذه الأحرف : ابراهيم ابن سليمان بن محمد ابن عبد العزيز الحنفي ، الجنيني الأصل الدمشقي الدار : هذا آخر خطبة الكتاب ، وقد رأيت على أول الكتاب بخط العلامة الملا قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني (كذا) المكي ما صورته : استخرجه من مسودة المؤلف وزاد عليه أشياء بحسب الاتفاق : احقر عباد الله تعالى قطب الدين محمد ابن علاء الدين الحنفي.انتهى.فما كان من الأصل تركته على حاله ، وما كان من خط القطب كتبت تجاهه في الحاشية حرف (ق) فان أصل النسخة ليس بخط القطب . . . وما زدت عليهما كتبت تجاهه (ه) وما زاد السيد السند ... ابراهيم بن السيد محمد الحسني نقيب الأشراف الشهير بابن حمزة الدمشقي جعلت له صورة (هب) وقد زاد صاحبنا الفاضل الشيخ زين الدين ابن محمد البصري الدمشقي بعض شيء جزئي ، جعلت تجاهه حرف (ز) وقد كتبت كثيرا من المبيض له في نفس الترجمة ، وزدت التاريخ في كثير من التراجم ، لم يكن مكتوبا ، وكذلك زدت مكان (كذا) لتكميل السطر والفائدة) .

ان كتاب « دستور الأعلام » كما يفهم من مخطوطة (مكتبة الحرم المكي) الفه ابن عزم التونسي ، ثم زاد عليه زيادات القطب الحنفي . وجاءت زيادات الآخرين بعد ذلك .

ونسخة (مكتبة نور عثمانية) مخطوطة سنة (١١٤١ ه) بالخط الفاسي الجميل وأوائل التراجم مكتوبة بالحمرة ، وتقع في ٤٢٨ صفحة من القطع الصغير وسطور الصفحة ١٩ .

٢ ــ كتاب « تمثال الأمثال » تأليف جمال الدين ابي المحاسن محمد بن علي الشيبي المكي الشافعي ، وهو كتاب يحوي مجموعة من الأمثال العربية ، مرتبة على حروف المعجم مشروحة شرحا واضحا منقولا عن متقدمي علماء

اللغة والأدب ويضم كثيرا من الشواهد الشعرية ، أول الكتاب بعد البسملة (الحمد لله المنزه عن المثل ، وله المثل الأعلى ، العلي الذي ما شاء صنع ، وما أراد فعل . . . وأحمده أن جعل (أحمد) من جميع الخلائق أحمد ، وأشكره الذي اختاره من بين عباده لحفظ ملة (أحمد) وأشهد أنه (خليفة) الله في ارضه (الناصر) لدينه ، ويلزم الشاهد أن يقول (أشهد) خلد الله ملكه الشريف — إلى أن قال : —

(ناصر) الملك و (الخليفة) أحمد قدره في الملوك أعلى وأحمد

وبعد : فهذه أمثال ليس لها مثال ، وفوائد كالجواهر ، فريدة كاللآل أشار بجمعها من جميع السعادة مجموعة في إشارته) .

وجاء في الورقة (٢ : الهمزة مع الألف : آمن من حمام الحرم ، هو في (المستقصى) و (ومجمع الأمثال) . وأنشد الزمخشري عليه ابياتا ، وقد ذكر السهيلي في (الروض) أن في مسند البزار : أن الله تعالى لما أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأن ذلك مما صد المشركين عنه ، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين . انتهي وقال كثير لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية : —

ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف ، خيف المحارم
بحيث الحمام آمن الرّوع ساكن وحيث العدوّ كالصديق المسالم

الهمزة مع الباء الموحدة : ابدأهم بالصراخ يفرّوا) ثم شرح هذا المثل . واستمر يورد الأمثال على حروف المعجم ويشرحها .

وآخر الكتاب : (الواو : يوم بيوم الحفص المجور ، شرح المثل ثم قال : (وقال أبو علي القالي في الأمالي : سألت أبا بكر بن دريد عن المثل الذي تضرب العرب لمن جازى صاحبه بمثل فعله ، وهو قولهم : يوم بيوم

الحفص المجور . فقال : أصل هذا المثل أن أخوين كان لأحدهما بنون ، ولم يكن للآخر ولد ، فوثبوا على عمهم فجوروا بيته ، أي القوه بالأرض ، فنشأ للآخر بنون ، فوثبوا على عمهم فجوروا بيته ، فشكا ذلك إلى أخيه فقال : يوم بيوم الحفص المجور . ومثل : ضرب بضرب ، وتجرار بتجرار تم كتاب « تمثال الأمثال » ، تأليف الإمام العلامة ، الأديب الأوحد ، قاضي القضاة جمال الدين أبي المحاسن محمد بن ابي بكر القرشي ، العبدري الشيبي المكي الشافعي رحمة الله عليه) .

ويقع الكتاب في ٣٦٤ صفحة ، سطور الصفحة ــ ١٩ ــ والكتابة حديثة وليس فيها تاريخ .

ولمؤلف هذا الكتاب مؤلفات أخرى سأصف بعضها (١) .

ومن مؤلفات جمال الدين الشيبي المكي :

واطلعت في (مكتبة يوسف آغا) في مدينة (قونية) في تركية ــ وسيأتي الحديث عنها ــ على ثلاث رسائل في اللغة ، للعلامة جمال الدين الشيبي المكي ، في المجموع المرقم بـ (٢٥٩) .

١ ــ رسالة « المنهل المأهول ، بالبناء للمجهول » تبتديء من صفحة (٣٦٤) وتنتهي في ص (٣٨٦) وآخرها : هذا آخر ما تيسر جمعه من الأفعال المسموعة بالبناء المجهول . . . انتهى نقلها عن النسخة المنقولة مما وجد من خط مؤلفه . . المعلقة بخط مولانا الشيخ محمد بن أحمد الغيطي .

٢ ــ رسالة « تلذذ المحب بلذاته ، في من لقب بشيء متصل بذاته » ابتداؤها في المجموع من حيث انتهاء الرسالة المتقدمة ، وأولها ــ بعد البسملة (قال الشيخ . . . جمال الدين أبو المحاسن محمد بن علي أبي بكر القرشي العبدري الشيبي المكي الشافعي تغمده الله برحمته : الحمد لله الذي

(١) كتب هذا في (جنوى) ايطالية ــ .

خلقنا في أحسن تقويم ، وجعلنا – وان كنا متأخرين – أفضل من كثير من أولى التقديم – إلى أن قال – وبعد فهذه أوراق ذكرت فيها من لقب بشيء متصل بذاته ، غير منفصل عنه ، كذي اللحية ، وذي الرقبة ، ونحوهما . وقد صنف العلماء في الأذواء كتبا حسنة ، لم أقف على شيء منها ، والمراد بالاذواء ما كان في أول لقبه (ذو) كما سبق ، والله الهادي) .

وتقع هذه الرسالة في ست صفحات .

٣ – رسالة « راحة المُعنَّي ، في محاسن الكلام المثنّى » .

تبتديء من ص (٣٩٢) حيث انتهت الرسالة التي قبلها وتنتهي ص (٣٩٧) . أولها : (قال العلامة . . جمال الدين . . الشيبي رحمه الله : الحمد لله المنزه عن التثنية والتثليث : الأبيضان اللبن والماء ، ثم يسترسل في الحديث عن الأسماء المثناة – بدون خطبة .

وآخر الرسالة ، ص : ٣٩٧: الفهدتان ، تثنية فهدة لحمتان في زور الفرس ، ناتئتان ، مثل الفهدين . آخره والله أعلم ، وكان الفراغ من نسخته في يوم الأربعاء خامس شعبان سنة ٩٩٦ على يد . . . محمد بن علي البختري نزيل مكة . .) .

والكتابة بالخط الفارسي الدقيق ، وسطور الصفحة ١٩ سطرا .

ومن مؤلفات ابن مرشد العمري المكي :

ورأيت في مكتبة (نور عثمانية) نسخة من كتاب « براعة الاستهلال ، فيما يتعلق بالهلال » وكتب اسمه في الفهرس (اسماء الشهور والأيام) ورقمه (٣٦٧٤) ويحسن ايراد نبذة موجزة عن حياة المؤلف المحزنة ، لقد ولد الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد العمري الحنفي بمكة المكرمة سنة ٩٧٥ وبلغت به الأحوال إلى أن أصبح عالم الحجاز وقاضي مكة واعمالها ، وتولي كثيرا من الأعمال ، وكان منها أن تولى (ديوان الانشاء) لشريف مكة محسن بن الحسين سنة ١٠٣٤ فلما توفي هذا وتولى بعده أحمد بن عبد المطلب قبض على الشيخ في آخر شهر رمضان سنة ١٠٣٧

ونهب داره وأخذ ما فيها من كتب وغيرها ، وسجنه . وفي أحد الأيام أحضره يوما إلى مجلسه فعاتبه أشد عتاب ، فأجابه المرشدي أحسن جواب (كما يقول صاحب الخلاصة) ثم أعاده إلى السجن . وقال للحاضرين : والله اني أعلم وأعتقد أنه من أفضل علماء زمانه ، وأتقى أهل عصره . ولكنه مع هذا القسم العظيم ومع هذه الشهادة بفضله وعلمه ابقاه في السجن بل استعمل معه من الوحشية ما لا يليق بالمجرم ، فلما كان يوم عيد النحر أمر بخنقه وهو في السجن وكان ذلك في سنة ١٠٣٧ هـ .

وللمرشدي مؤلفات في الحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم .

ومن سرد مباحث كتاب « براعة الاستهلال » يتبين موضوعه ، قال في مقدمته (. . . أجعل طريقة يستخرج منها غرة الهلال ، ويعرف بها أول الشهر الماضي والمستقبل والحال ، من أول سني الهجرة إلى آخر الزمان — إلى أن قال — وأضم إلى ذلك ما يتعلق بالشهر والهلال من مباحث ومقال ، وما يناسب ذلك من فوائد لها بهذا الميدان مجال . . . مفصلا ذلك إلى ثلاثة أبواب وخاتمة :

الباب الاول — في الشهر والهلال ، وما يتعلق بهما من مبحث ومقال .

الباب الثاني — في أسماء الشهور العربية ، وما يتعلق بالتاريخ من النكت الأدبية .

الباب الثالث — في أسماء أيام الأسبوع المعدودة ، وما في السنة من أيام وليال مشهورة مشهودة .

الخاتمة — في كيفية استخراج غرة الشهر من الدائرة ، وبيان طريقته الواضحة الظاهرة .

ويقع الكتاب في (١٥٠) صفحة سطور الصفحة ١٩ . وقد ألف سنة ١٠٠٢ ثم بيضه مؤلفه سنة ١٠٠٥ في تاسع شعبان ، ويظهر أن هذه النسخة هي نسخة المؤلف .

وفي الكتاب – بالاضافة إلى مباحثه الفلكية وما يتصل بها – نقول أدبية تتعلق بمنازل القمر مما ورد في كتب الانواء عن متقدمي علماء اللغة والادب .

ابن الشيخ المرشدي :

وللمرشدي ابن عالم يدعي (حنيف الدين نجل الشيخ عبد الرحمن المرشدي العمري) اطلعت له على (تذكرة) في المكتبة الكتانية مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني (التي أضيفت إلى الخزانة العامة) في الرباط . و (التذكرة) – كما هو معروف – كتاب يضم مباحث وفوائد مختلفة ، فهو كالمفكرة يدون فيها المرء ما يستحسن تدوينه للاستفادة والرجوع عند الحاجة ، وتذكرة ابن المرشدي من هذا القبيل ، تضم ابحاثا متفرقة من العلوم والمعارف لا يربط بينها رابط ، فنجد مثلا الورقة ٢٩ : (نقلت من شرح المنظومة التصريفية لسيدي الوالد اطال الله عمره) مما يدل على أنه بدأ في تدوين (تذكرته) في حياة والده .

ونجد في الورقة : ١١٤ : (لجامعها لغز ، وكان نظمه في سنة ١٠٣٧ : –

أيا فضلاء العصر لازال فضلكم يفوق ضياء البدر ، في منزل الغفر

– ثم أورد قصيدة في ٤٩ بيتا – وقال : فأجابني عليها صاحبنا الفاضل . الملا علي بن الملا قاسم الشيرازي – واورد له قصيدة في ٢٩ بيتا – وفي الورقة ١٨٨ : قال شيخنا العلامة الشيخ عبد الملك العصامي) مما يدل على أنه من تلاميذ المؤرخ العصامي .

وينقل كثيرا عن (تذكرة) صلاح الدين الصفدي – وفي أثناء نقله عنه في الورقة (٢٩ : قال : وسألت شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية – رحمه الله – سنة ثمان عشرة أو سبع عشرة وسبعمائة ، بدمشق المحروسة عن قوله تعالى : (وَأُخَرُ متشابهات) فقلت : المعروف بين النحاة ان الجمع لا يوصف إلا بما يوصف المفرد من الجمع بالمفرد من الوصف . فقال : كذا هو . فقلت : ما مفرد (متشابهات) ؟ قال : (متشابهة) فقلت : كيف تكون الآية الواحدة في نفسها متشابهة ؟ وإنما يقع التشابه بين

الآيتين ، وكذا قوله تعالى : (فوجدا فيها رجلين يقتتلان) وكيف يكون الرجل يقتتل مع نفسه ؟ فعدل بي من الجواب إلى الشكر ، وقال : هذا ذهن جيد ، ولو لازمني سنة انتفعت ـ انتهى) .

وتقع (تذكرة) ابن المرشدي في ١٩٩ ورقة (٣٩٨ صفحة في الصفحة من السطور ٢٦ بخط دقيق ، تعليق [1]) .

في مكتبة (نور عثمانية) :

وطالعت في مكتبة (نور عثمانية) في اصطنبول ، كتاب « فوائد النيل » بفضائل الخيل » تأليف علي بن عبد القادر الطبري – من بيت الطبري المعروف بالعلم في مكة ، ولذا كان يطلق اسمه على سوق من أسواقها في أعلي المدعى ، يعرف الآن باسم (زقاق ملائكة) .

والكتاب برقم (٤١٣١) وهي نسخة المؤلف التي أهداها لأحد أمراء مكة ، وقد كتب في طرتها ، داخل دائرة منقوشة : (خدمت به جناب السيد الذي حاز صفتي الكرم والبسالة ، وحوى صفات المجد الاثيل بطريق الوراثة والاصالة ، الملاحظ بعين العناية في السر والعلن ، مولانا وسيدنا الشريف ثقبة بن عبد الله بن الحسن . أطال الله عمره وكفاه شر ما أهمه) .

وذكر المؤلف في المقدمة أنه لخصه من صدور كتب الحديث الصحيحة ، وقال : (ورتبته على ثمانية مقاصد) :

المقصد الأول : الخيل قيل جمع ، مفرده خال . . .

المقصد الثاني : وصف الله ملائكته بكونهم (مسومين) .

المقصد الثالث : في الأحاديث والآثار الدالة على فضلها . . .

المقصد الرابع : في بيان ما يحتاج اليه من معاني بعض هذه الأحاديث .

المقصد الخامس : في المسابقة على الخيل .

---

(١) كتب هذا في مدينة ميلان (ميلانو – ايطالية) .

المقصد السادس : في المناضلة وهي الرمي بالسهام .

المقصد السابع : في خيل النبي صلى الله عليه وسلم .

المقصد الثامن : فيما أشار اليه الشعراء في أشعارهم من أوصاف الخيل .

وأوله — بعد البسلمة — (الحمد لله الذي أصعد صهوة العلياء من ذب عن حمى حرم دينه) .

ويقع في مجلد صغير الحجم ، تبلغ صفحاتة (٦٤) سطور الصفحة (١٥) والخط مقروء وان كان غير جيد ، وقد ملك النسخة (الشيخ أبو بكر بن الشيخ عبد الوهاب بن ظهيرة ، وآل ظهيرة من علماء مكة المعروفين .

وطالعت كتابا في خواص الأحجار ، وضع اسمه تحت رقم (٣٧٠٧) — في كتب الادب (تحفة العجائب) ولم يذكر اسم مؤلفه ، وظهر لي من مطالعته أنه ليس كتاب (تحفة العجائب) لأنه ينقل عن هذا الكتاب في الورقة الخامسة ، والورقة الرابعة عشرة ، ثم رأيت الاستاذ محمد الصفائحي نبه على هذا الغلط في ملاحظة كتبها في أوله .

وأول هذا الكتاب : (الحمد لله العزيز الغفار ، الواحد القهار — إلى أن قال المؤلف — أما بعد فهذا كتاب وضعته في خواص الأحجار ، يحتاجه كل ذي لب ، من ذوى المقدار ، ليعرف ما فيمها من النفع وما فيها من الاضرار ، وذكرت فيه ستين حجرا في ثلاثين بابا ، ومنها ثلاثون حجرا في باب واحد ، وهو خاتمة الكتاب) .

ثم قال (الباب الاول في الياقوت) — الورقة الثانية — .

وقال : (البلخش : يؤتى به من بلاد العجم ، ويسمى بلخشان ، وأما الياقوت فإنه يؤتى به من جزيرة خلف سرنديب ، بأربعين فرسخا ، من جبل يسمى الراهون ، تنزله الرياح والسيول والبلخش يخرج من معدن من بلخشان ، — الورقة الرابعة — .

(والعقيق حجر يؤتي به من معدن بقرية تسمى ملص ، بين ذمار وصنعاء

واليمن) ووضع الكاتب فوقّ ميمم (ملص) ضمة وفتحة فوق اللام — الورقة التاسعة — .

(الدهنج : حجر أخضر كالزبرجد ، يتولد من بخار النحاس ، وكذلك اللازورد ، والشادية ، وجميع الاحجار النحاسية) — الورقة ١٤ . —

(الجماهان : وهو حجر أسود حديدي ، يضرب إلى حمرة ، ويسمى حجر الصرف ، واليشم ، ويسمى اليشب ، واليضب أيضا ، وهما حجران يتكونان من معدن الفضة) وقال في الورقة الـ ٢١ : (حجر التنكار : جنس من الملح ، يعين على سبك الذهب ويلينه) .

وختم الكتاب بجملة خرافية — وهكذا كتب الخواص يكثر التخريف فيها ، فقال (باب حجر فيلقوس : هو كثير التلون ، ويلمع بالليل كالمرآة ، ما كان بموضع الا هرب منه الجن والوحش ، وسائر الهوام ، باذن الله تعالى . ثم الكتاب بعون الله تعالى ، فله الحمد على ذلك والثناء الجميل) .

تقع النسخة في ٤٥ صفحة من القطع الصغير ، وسطور الصفحة (١٣) والخط مشكل الحروف ولكنه ليس بقديم ، ويظهر أن الناسخ يمني ، فهو يعنى بضبط بعض أسماء البلدان اليمنية .

ان المؤلفات التي تتعلق بالمعادن قليلة بين مؤلفاتنا العربية ، والموجود منها كثيرا ما حشي بالخرافات باستثناء مؤلف البيروني ، وكتاب (الجوهرتين) للهمداني ، وكتاب (ابن ساعد الانصاري) .

وهذا الكتيب تحسن اضافته إلى هذه الكتب ، وهذا ما دعا إلى نقل جمل منه ، قد تعين على معرفة مؤلفه ، وتبين مقدار فائدته .

ورأيت في (مكتبة نور عثمانية) نسخة (خزائنية) من كتاب (الممالك والمسالك) لابي عبيد البكري ، ويقصد واصفو المخطوطات بـ (الخزائنية) المكتوبة برسم خزانة ملك أو أمير ، فتزين طرتها وتزوق ويكتب فيها اسم من كتبت النسخة له . وتلك النسخة من (الممالك والمسالك) كتبت : (برسم

الجناب العالي السيفي جانم داودار المقر الاشرف الكريم العالي الاميري تمرباش ، رأس‌نوبة النوب الملكي الظاهري) وهذا أحد امراء المماليك في مصر ، والنسخة مخطوطة سنة ٨٥١ بالخط النسخي المشكل الحروف ، في ٤٩٢ صفحة .

وقد طبع قسم من هذا الكتاب ، وفيه مباحث مفيدة عن بلاد العرب ، ففي الورقة (٢١١) نجد فصلا عنوانه : ذكر ما خصت به جزيرة العرب :— ذكر اللؤلؤ ثم قال : والزبرجد يوجد في جزيرة بين العوينند والحوراء ، وتسمى تلك الجزيرة زبرجدة . والعقيق يكون ببلاد العرب . والشب لا يعدل باليماني منه شيء) وقال عن (صنعاء) الورقة ٢١٢ : (وصنعاء لا تمطر في حزيران وتموز وآب وبعض أيلول ، ولا يمطرون الا بعد الزوال في أغلب الأمر ، يلقى الرُّجُلَ في نصف النهار والسماء مصحية ليس فيها طخوية ، فيقول : أعجل قبل أن تصيبنا السماء لانهم قد علموا أنه لابد من المطر في ذلك الوقت . انتهى ومثل هذا الكلام أورده ابن خرداذبة — وهو قبل البكري بقرن ونصف — في كتابه (المسالك) .

وقد ذكر البكري في كتابه هذا مدن اليمن الشهيرة ، وبلاد عمان ، وأورد فصلا عن بلاد البحرين وعن القرامطة — ذا فائدة كبيرة — وتحدث باسهاب عن مكة وعن المدينة . ويحسن أن نورد بعض ما جاء في هذا الكتاب في وصف طريق الحج من المدينة إلى مصر ، لأن جل من وصف ذلك الطريق من المتأخرين استقى من كتاب البكري هذا — قال في الورقة ال ٢٤٣ : (من مدينة النبي عليه السلام إلى مصر على الجادة : من المدينة إلى وادي خشب ، إلى السويداء ، إلى المروة ، إلى سقي يزيد إلى بدا يعقوب ، إلى ضبا ، إلى الشبك والصلا ، إلى عينونة ، إلى مدين ، إلى اشراف البعل ، إلى وادي الغراب ، إلى حقل ، إلى المدينة اغله؟ ، إلى بطن نجد ، إلى قبر ابي حميد ، وهو القبـاب وهو القلزم ، إلى جب عميرة ، إلى مصر . وضبا : مرسى للسفن وفيه آبار عذبة ، وشجر المقل فيه كثير ، وبين ضبا وبين مدين جبال شامخة متكاثرة ، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى

عليه السلام ، قد بني عليها بيت من صخر ، فيه قناديل معلقة ، وبها كهف يسمى كهف شعيب ، وهو الذي يؤوي اليه غنمه فيما ذكروا – وفي الجبل الذي بين ضبا وهو الكهف ، بيوت منقورة في صخر ، قد حفر في البيوت قبور ، وفي تلك القبور عظام نخرة ، كأمثال عظام الأبل كبرا ، مقدار كل بيت عشرون ذراعا ونحوها ، ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها أو يمسك بأنفه ، من شدة النتن ، يقال انه لما أخذهم عذاب يوم الظلة دخلوا فيها فهلكوا . وبقرب هذه البيوت وما يليها تلال تراب عظيمة ، قيل انها كانت مواضع عامرة ، فخسف بها . ومع يهود مدين كتاب يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كتبه لهم ، وهم يظهرونه للناس حتى الآن ، وهو في قطعة من أدم ، قد اسودت لطول الزمان ، إلا أن خطها بيّن ، وفي آخرها : (وكتب علي بن أبي طالب) غير .. وقيل انه بخط معاوية أبي سفيان . وتستمر من مدين في جبال شاهقة حتى تفضي إلى جهل شامخ يمين عن الطريق ، فيه كوّة ، وفي دره في الصخر حيث لا يصل واصل ، ولا يرق راق ، ويزعم اعراب تلك الناحية انه كان بيتا لساحرة كانت تأوى اليه – فلا تزال تسير والجبال عن يمينك ، والبحر عن يسارك ، حتى تفضي إلى فرجة كالباب ، تسير إلى أيلة ، وهي قرية كبيرة) انتهى[1] .

* * * *

(١) كتبت هذا في مدينة رومية (روما) غرة رمضان المبارك سنة ١٣٨٥ (٢٣/١٢/١٩٦٥م).

إلى مدينة قُونِيَة

في هذه المدينة مكتبتان تحويان مخطوطات كثيرة ، رغبت في الاطلاع على ما يتيسر لي الاطلاع عليه منها .

فتوجهت في صباح يوم الثلاثاء (١٩٦٥/١٠/٥ م) من (اصطنبول) إلى (أنقرة) في حافلة ،والأجرة عشرون ليرة تركية ، فبلغتها الساعة السادسة مساء ، والمسافة (٤٥٠) كيلا ومنها واصلت السير إلى (قونية) فكان الوصول إليها الساعة العاشرة والنصف ــ أي بعد سير أربع ساعات في حافلة ، والأجرة عشر ليرات ، والسكن في فندق يدعى (بَشْكَابَاس) .

ومدينة (قونية) من أجمل المدن التركية ، وأبهجها في النفس ، غير أنني أحسست حين حللتها بالوحدة ، لأنها كما يقول المتنبي :

ولكنّ الفتى العربيَّ فيها　　　غريبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ

فإلى ما أتيت هنا من أجله !

مكتبة يوسف أغا

ومن المخطوطات التي اطلعت عليها في (مكتبة يوسف أغا) في مدينة (قونية) وقد زرتها يوم الاربعاء (١٩٦٥/١٠/٦ م) ومجموع مخطوطاتها (٥٧٠٣) :

١ ــ كتاب « المقصور والممدود » ورقمه في المكتبة ٢٥٤ (٤٣٦٥) وهو مجموع يحوي :

المقصور والممدود ــ لابن ولاّد المتوفي سنة ٣٣٢ ﻫ ، ويقع في ١٨٩ ورقة في ٤٧٨ صفحة في الصفحة ١٦ سطرا ــ جاء في الصفحة الأولى:

(على حروف المعجم ، ليقرب وجود الحرف على طالبه ويسهل (تقطيع في الورقة) من موضعه ، وابتدأته في هذا الكتاب بما كان متفرقا منثورا مما لا حـَد له يحصره) .

وفي الورقة ١٨٩ : (هذا آخر الكتاب ، وفرغ منه الحسن بن علي السعلي (؟) في شعبان ست وثمانين وثلاثمائة ، وتمت المقابلة ، والحمد لله كثيرا) .

الورقة ١٩٠ : (وفرغت من قراءتي هذا الكتاب على أبي الحسن علي بن أحمد بن جعفر بن محمد المهلبي في رجب من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

قال أبو الحسين المهلبي : إن أبا العباس بن ولاّد – رحمه الله – صنف هذا الكتاب في سنة ثلاث وثلاثمائة ، وهو قبل مولد أبي الحسن بسنة) .

٢ – كتاب المذكر والمؤنث :

تأليف أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني .

في (١٩١) : (قال أبو حاتم : الفصاحة زِينَة ٌ ومروءة ، ترفع الخامل ، وتزيد النَّبِيهَ نباهة ، ويقال : المرء مَخْبُوءٌ تحت لسانه ، يعنى إذا نطق فأحسن وأفصح عَظُمَ في العين ، وإن كان رثَّ الهيئة ، تقتحم العينُ مَرْءَاتَه ، وإن أنّثَ المذكّر وذكّر المؤنث وجعل الضاد ظاءً ، والظاء ضاداً اقتحمته العين ، وإن كان بَهِيَّ المنظر والملبس ، ويقال أيضا : المرءُ بأصغرَيْه ِ لسانِه ِ وفؤادِه ِ .

وقال الأعور الشنيُّ :

لسانُ الْفَتَى نصفٌ ونصفٌ فُؤادُهُ
فلم يَبْقَ إلا صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

[١٩٢]. وكائِن ترى من مُعْجِبٍ لكَ شَخْصُهُ
زيَادَتُه أوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

وأول الفصاحة معرفة التأنيث والتذكير في الأسماء والأفعال والنعت ، قياسا وحكاية .

ومعرفة التذكير والتأنيث ألزمُ من معرفة الإعراب ، وكلتاهما لازمة ، غير أنَّ العربَ اجتمعت على ترك كثير من الإعراب ، في مثل بنات التاء والواو ، في الأسماء ، والأفعال المضارعة للأسماء ، استثقالا ، وعلى ترك الإعراب في السَّكْت على الاسم المرفوع والمجرور المنوّنين ، وعلى المنصوب غير المنوّن ، حين لم يمكن الوقف على الحركات وجَفَا اللسان عنه .

ثم بعد ذلك أطبق على ترك أكثر الإعراب (٢ ب) أهلُ القرى والأمصار وذلك تضييع وتقصير ، ألا ترى أنَّ القرآن لا يُقْرأُ إلا بالإعراب ، لأنه نزل بالإعراب .

ويقال : اللحن يقطع الصلاة . وحدثونا أنه قيل للحسن البصريّ : لنا إمام يلحن . قال : أخّـروه .

وكانت لغة الرسول — صلوات الله عليه — وأصحابه الفصاحةَ طبعاً لا تعليما .

وأما تأنيث المذكر وتذكير المؤنث فمن العجمة عند من يُعْرِب وعند من لا يعرب .

كما أنّ من العُجْمة أن تجعل الضاد ظاء ، والظاء ضادا ، والحاء هاء ، والخاء هاء ، وإن لم يستطع الرجل أن يتكلم بها ولم يكن ذلك في فطرة لسانه .

وأمّا اللَّثَعُ فمعيبٌ ، وصاحبه معذور لأنه ممنوع من الراء ، فمن اللثغ من يجعل الراء غينا ، فيقول في سَرير (سَغَيْغ) .

ومنهم من يجعلها لاما فيقول . (سَلِيل) .

ومنهم من يجعلها ياء ويجعل اللام أيضا ياء .

وقد رأيت من يهمز كل راءٍ ولا يقدر على غير ذلك .

وأمّا أنا فلا أحِب الصلاة خلف القبيح اللثع لأنه يقول : (أيَّة) وهو

يريد (الله) عز وجل .

ويقول : (اليلّياء) وهو يريد (الرّيّاء) .

ويقول في سُرُر : (سُغُغ) أو (سُلُل) أو (سُيُيْ) .

وإن صليت رجوت أن تكون صلاة جائزة – إن شاء الله – لأنّ اللّثَغ في ألسنة الفصحاء ، ومولدي البادية ، وليس جعل الخاء هاء والحاء هاء في ألسنتهم ، وإنما هي في ألسنة الأعاجم) .

(٣٩٩) : (تمّ كتاب المذكر والمؤنث عن أبي حاتم السجستاني . . . وتمت المقابلة في شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلاثمائة) .

والنسخة جيدة ، والخط متقن ، قريب من القاعدة الكوفية .

٢ – كتاب « جامع التعريب » :

ومما اطلعت عليه في (مكتبة يوسف أغا) في مدينة (قونية) كتاب « جامع التعريب » ورقمه (٢٥٩) .

وأوله بعد البسملة والخطبة : (أما بعد فإني بعد أن وقفت على كتاب « الـمُعْرَب » إبداع الاستاذ أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي ،شكر الله مسعاه، وجعل الجنة مقره ومثواه ، كان محتاجا إلى تتمة في الترتيب ، وزيادات فائقة في آثار التعريب ، ظفرت بكتاب « التذييل والتكميل لما استعمل في اللفظ الدخيل » الذي جمعه الفاضل المتتبع جمال الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن أبي بكر بن موسى العذري الرثوي ، الشهير والده بالبشيشي – بخطه ، فوجدته – والله – قد أفرغ الوسع في التتّبع والاستشهاد ، بهمة تقارب رتبة الاجتهاد ، بل أحسن فيه الجمع وحسن الترتيب ، معونة للطالب والأديب ، غير أنه فيه تكرار وإطالة ، ربما يفضي إلى الكسل والملالة ، فأحببت أن أختصر عن الأصل ما زاد ، جريا على المألوف المعتاد ، مع رعاية الاختصار والايجاز ، وتبيين ما يتحقق به الإحاطة والامتياز ، مع زيادات وحسن تلخيص ، تباعد عن

الاسهاب والتحميص ، وسميته « جامع التعريب بالطريق القريب » والله أسأل المعونة والتوفـــيق .

باب الهمزة : الهمزة مع الألف : آب : أبو الحسن صاحب « المحكم » هو من أسماء الشهور ، أعجمي معرب . عن ابن الأعرابي : هو من شهور الروم ، سرياني الأصل) .

(ص ٣٦٢) : (هذا آخر ما تيسّر من تلخيص الترتيب ، والتذييل على معرب الاستاذ أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي للفاضل المطلع جمال الدين عبد الله بن محمد بن أحمد العذري الشهير بالبشيشي — جعله الله خالصا لوجهه الكريم ، وعند وحدتي أنيسي كتبه الفقير ابراهيم بزمي سنة ١٠٨٣) .

٣ — رسائل ابن الحنبلي :

ست رسائل لرضي الدين محمد بن ابراهيم بن الحنبلي الحلبي . رقمها (٦٢٦) كلها بخط الحصفكي الآتي ذكره — وهي :

(١) ذُبالة السِراج ، على رسالة السَّرَّاج — في الفرايض من ص ١ إلى إلى ٢٢٢ مخطوطة في أواسط رمضان سنة ٩٦٢ ، وفيها إجازة المؤلف لأحمد بن الملا محمد الحصفكي الأصل ، الحلبي الشافعي ناسخ الرسالة ، والإجازة مؤرخة في سنة ٩٦٥ .

(٢) قَفْوُ الأثر ، في صَفْوِ علوم الأثر — في مطلح الحديث .

(٣) الفرع الأثيث ، في أصول الحديث — شرح للرسالة التي قبلها من ص ٢٢٣ إلى ٢٥٨ — بخط الحصفكي المذكور في رجب ٩٦٤ وإجازة المؤلف له .

(٤) ظِلُّ العَرِيش ، في منع حلّ البنج والحشيش . من ص ٣٦١ إلى ٣٨٥ — مخطوطة في ربيع الآخر سنة ٩٥٣ .

(٥) تأهيلُ من خطب ، في ترتيب الصحابة في الخطب . مخطوطة في رمضان سنة ٩٦٥ — من ص ٣٨٩ إلى ٤٠٠ .

(٦) إخبار المستفيد ، بأخبار خالد بن الوليد .

من ص ٤٠١ إلى ص ٤١١ .

(سبب تأليفها مرور الشيخ محمد بن أحمد الخالدي الكشي ثم السمرقندي المشهور بمولانا شاه) في جمادى الآخرة سنة ٩٦٤ .

٤ ــ أبيات كتاب سيبويه :

وطالعت في مجموع رقمه (٦٦٧) رسالة تحوي « أبيات كتاب سيبوية » من ص ٢٢١ إلى ص ٢٥٦ ، أولها بعد البسملة : (جملة أبيات كتاب سيبويه ، أبي بشر عمرو بن عثمان ــ رحمه الله ــ ألف وخمسون بيتا ، منها خمسون غير معروفة ، رتبته بالحروف ، مفهرسا :

ألــف

الحمد لله العلي الأجلل .

وفي ص ٢٥٦ :

يضحي على جذم الجذول كأنه ــ البيت ــ

تم الترتيب بالحروف ، تاريخه جامشقه ابن المستقيم ١١٧٩) جعل ما بعد (جا) تاريخا باعتبار حساب الجمّل (أبجد) .

ورتّب الشواهد بحسب الحرف الأول من الشاهِد .

٥ ــ ديوان هارون ن صالح التنوخي الشيزري :

واطلعت على (جزء من ديوان أبي الخير هارون بن صالح التنوخي الشيزري . . . كان مقامه بالموصل ، وولي ديوان عرض الجيش بها ، في عهد جمال الدين ابن الوزير) كذا جاء في طرة الكتاب رقم (٤٩٠٦) وجاء فيه : (قافية الدال : ومما علمته في ذوي الأمجاد من الأمجاد ، فقلت مادحا الأجل . . . عزيز الدين ، صفي الاسلام ، أبي المحاسن ابن أبي الفتح ، ومهنئا له بعيد الفطر سنة ثمان وخمسين وخمس مئة ، وفي آخر جمادى الآخرة من هذه السنة عُزِل الوزيرُ جمال الدين محمد بن أبي

منصور ، وقبض عليه ، وتولى عز الدين ديوان الاستيفاء ، وتوفي جمال الدين في الحبس ، في السنة المذكورة ، والجماعة مع المولى المالك ، في مساعدة أخيه .

حَـمَائِمَ أيْـكٍ في الغصـون تُغَـرِّدُ
تُقَرِّبُ مِنّي مَنْ لَـهُ الْبَيْنُ يُبْعِـدُ

ويقع الديوان في ٥١٨ صفحة في الصفحة ٩ سطور ، وبعض الصفحات فيها ما ليس من الديوان . وفي هامش الصفحة الأولى ما يشير إلى أن هذه النسخة بخط الشاعر : (تولى جمع ديوانه . . . له ، وإحياء لذكره الراجي رحمة ربه ، صفوان بن أبي سالم . . . وعملت به نسخة ثانية ، وحفظ هذه بخط المذكور) ويظهر أنها مسودة المؤلف ، لأن كثيرا من القصائد مكتوب في ظهور رسائل ، وقد ألْحِق بين الصفحات جذاذات فيها هوامش .

وفي هامش الصفحة الأولى : (وقف هذا الكتاب الشيخ صدر الدين محمد بن اسحاق رضي الله عنه ، على الزاوية المنيَّة عند قبره ، وشرط لا يخرج إلا برهن) .

وصدر الدين هذا القونوي الصوفي ، عالم مشهور توفي سنة ٦٧٢ وهو من أهل قونية ، وفي هذه المكتبة كتب قديمة من كتبه التي أوقفها .

٦ ــ كتاب « الفصيح » :

وفي هذه المكتبة نسخة نفيسة لقدمها ، مكتوبة بالخط الكوفي ، من كتاب « الفصيح » لثعلب العالم اللغوي المعروف . رقمها (٥٠٠٨) وهي من كتب الشيخ صدر الدين محمد بن اسحاق بن محمد القونوي التي أوقفها .

جاء في الورقة الأولى منها : (كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى ، ثعلب النحوي ــ لأبي يحيى عبد الله بن الحسين بن عثمان ، جبره الله وعلمه خيرا ــ لخزانة الأجل موئيد الدين معد بن أحمد بن مهدي ــ من كتب الفقير إلى رحمة الله تعالى نجيب الدين بن أبي بكر بن المظفر التبريزي ، ابن أخ الفقيه كمال الدين المظفر) وكل هؤلاء ملكوها قبل محمدبن اسحاق الذي أوقفها.

وأول النسخة : (بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم ، فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها فأخبر بكتاب ذلك (؟) ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا ، فلم تكن إحداهما اكثر من الأخرى ، فأخبرنا بهما ، وألفّناه أبوابا .

فمن ذلك : باب فعلت ــ بفتح العين) .

وفي الصفحة الـ (٨٥) ما نصه : (تمّ كتاب الفصيح ، والحمد لله كثيرا ، وصلى الله على محمد وآله وسلم) .

تقع النسخة في ٨٥ صفحة مقاس ١٦ × ١٦ سم وفي الصفحة ١٣ سطرا .

ولا أستبعد أن تكون النسخة من مخطوطات القرن الرابع الهجري .

٧ ــ ديوان التهامي :

وفي المكتبة تحت رقم (٤٩٠٥) شعر أبي الحسن بن علي بن محمد التهامي ــ نسخة قديمة الخط ، وهي من كتب صدر الدين محمد بن اسحاق القونوي التي أوقفها ــ وقد تحدثت عنها في موضع آخر ــ .

تقع في ١٨٩ ورقة مكتوبة سنة ٥٨٩ ، وهي وإن كان ما فيها من الشعر أقل مما في طبعة دمشق سنة ١٣٨٤ ــ ففيها ما ليس في تلك المطبوعة .

وفي (مكتبة دير الاسكوريال) نسخة من هذا الديوان تقع في ٨٣ ورقة ، فيها تملك مؤرخ في ٩٩٧ .

٨ ــ كتاب « الفسر » :

وفي المكتبة نسخة كاملة من كتاب « الفسر » وهو شرح ابن جنّي لشعر المتنبي في مجلدات ثلاثة ، رقمها (٥٤٩٠/٤٩٢) .

وقد طبع الكتاب في العراق ، طباعة نقدها بعض الباحثين (انظر « العرب » س ١٤ ص ٤١٤) .

وفي (المكتبة الأحمدية) في حلب : « شرح ديوان المتنبي لابن جني » ، رقم ١١٥٧ ، مجلد بالقطع الكامل بخط هبة الله بن عبد الله القرشي سنة

٥٨١ أوله بعد البسملة : (هذا ديوان أبي الطيب المتنبي ، ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي بالكوفة ، سنة ثلاث وثلاث مئة ، ونشأ بها وبالبادية ، وقال الشعر صَبيًّا . قال يمدح الحسين بن اسحاق التنوخي ؛ وكان قوم هجوه ونحلوه إلى أبي الطيب ، فكتب إليه يعاتبه :

أتُنكِرُ يا ابن إســحاقٍ إخائي

وآخــره :

ومن جهلت نفسُهُقَدْرَهُ رأى غيره منه مالا يـــرى

ح : هذا البيت بقصائد ، بجودة لفظه ، واستقامة نسجه ، وصحة معناه .

تمت الأبيات اليائية ، بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . كمل الجزء الثاني ، وبتمامه تم جميع الديوان والحمد لله رب العالمين ، كمل شعر أبي الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي ، وقوبل من أوله إلى آخره ، حسب الجهد والطاقة ، نفع الله به صاحبه - كتبه العبد الفقير إلى الله أبو المكارم هبة الله بن أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن علي القرشي ، تجاوز الله عنه . . . وكان الفراغ منه في سلخ ذي الحجة سنة احدى وثمانين وخمس مئة . طالع في هذا الديوان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى خليل بن يونس بن سليمان . . . في سنة ٧٤١) .

ويقع في ٧٦٥ صفحة ، والنسخة جيدة ، والخط جميل متقن .

وفي طرة الكتاب بخط حديث : (ليس هذا شرح المتنبي ، لأن المقدمة تقول : هذا ديوان أبي الطيب ، ولأن الخط مخالف للأصل ، وإن شرح ابن جني هو في ثلاث مجلدات ضخام موجودة في قونية ، ولعل هذا تقريرات عن ابن جني - كحال) وكحال هذا هو الأستاذ محمد علي الكحال ، مدير تلك المكتبة . ولكن تلك التقريرات تبتديء بحرف (ح) مهملة . و انظر « العرب » س ١٤ ص ٤٢١ فقد ذكر الدكتور ابراهيم السامرائي ما يفهم منه أنها تعني ناقداً قديماً كان معاصرا للمتنبي هو سعد بن محمد الأزدي ، وقد رمز اليه بحرف (ح) ولهذا الناقد أقوال كثيرة نقد

فيها المتنبي تارات ، كما نقد ابن جني تارات اخرى . انتهي وفي مكتبة (دير الاسكوريال) برقم (٣٠٩) مجلد من كتاب « الفسر » أوله : (الدفتر الثاني من كتاب « الفسر » لابن جني في شرح ديوان المتنبي — وبعد البسملة — قافية الدال : كان قوم في صباه . قد وشوا به إلى السلطان ، وتكذبوا عليه ، وقالوا له : قد انقاد له خلق كثير من العرب . وقد عزم على أخذ بلدك ، حتى أوحشوه منه فاعتقله وضيق عليه فكتب إليه يمدحه :

أيــا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخــدود (البيت)

وآخره : (تمّ الجزء الثاني من فسر أبي الطيب المتنبي تصنيف أبي الفتح ابن جني رحمه الله ، ويتلوه في الجزء الثالث بعون الله ومنه : وقال وقد ضربت له خيمة كبيرة بِمَيَّا فارِقِيْنَ ، وأشاع الناس أن المقام يتصل وهبّتْ ريح شديدة ، وسقطت الخيمة فتكلم الناس في ذلك :

أينفــع في الخيمــة العُــذَّلُ وتَشْمُلُ من دَهْرَهَا يَشْمُلُ ؟

وفي الهامش : (الكراسات المعدودة في هذا المجلد وقعت كتابتها على يد العبد الضعيف أمين كاسب بن أمين عمر المدعو بقدام الفارابي الأفغاني سنة ٧٣٩) — والمجلد في٢٥٢ ورقة (٥٠٣ صفحة) والخط قديم الا من الورقة ١٨٩ وما بعدها فهي الكراسات المذكورة .

وفي (المكتبة الكتانية) في (الخزانة العامة) بمدينة الرباط ، تحت رقم ١٧٦٨ قطعة من شرح المتنبي المطول لابن جني في ٢٣٨ صفحة إلى البيت :

يَفْنَى الكلامُ ولا يُحيط بوصفها أيُحِيْطُ ما يَفْنَى بما لاينفد ؟!

— حرف الدال — بخط مغربي .

٩ — كتاب في التاريخ :

وفي المكتبة ، تحت رقم (٥٤٨٨) قطعة من كتاب كتب بطرتها بخط حديث (من تاريخ الطبري) تبحث في حوادث سنة ١٣٣ وما بعدها إلى سنة ١٥٨ — يظهر أنها من مخطوطات القرن السادس أو أوائل السابع ،

ومؤلفُ الكتاب يروي عن الأصمعي وغيره ، وتتكرر كلمة (قال عمر) وفيه معلومات عن عهد المنصور .

ويقع في ٣٦٢ صفحة .

١٠ – تاريخ ابن خلكان :

وفي المكتبة نسخة من تاريخ ابن خلكان رقمها ٥٢٨٥ – تقع في ٣٩٥ ورقة وتحوي ٧٨٣ ترجمة – كما في فهرسها ، وهي كاملة وغير مؤرخة .

وفي آخرها يذكر ابن خلكان انه انتهى من كتابه في جمادى الآخرة سنة ٥٧٢ في القاهرة ، وأنه خرج من القاهرة مع السلطان بيبرس سنة ٦٥٠ فأقام بدمشق عشر سنين ، وعاد للقاهرة .

وقال : إنه عازم على تأليف الكتاب الذي وعد به .

وأضيفُ : لقد اطلعني الشيخ محمد بن عبد القادر قاضي المُبَرَّز – رحمه الله – على مجلد كبير من تاريخ ابن خلكان في التراجم ، وقال لي : إنه من تاريخ ابن خلكان المطول ، وذلك المجلد من مخطوطات مكتبة الشيخ .

وفي ظهر نسخة مكتبة يوسف أغا : تملك لعبد الكريم بن محب الدين القطبي : (استكتبه بمكة سنة ٩٩٣) .

وعبد الكريم هذا من علماء مكة وله كتاب في تاريخها مطبوع ، ملخص من كتاب عمه قطب الدين المكي النهروالي العالم المعروف .

مكتبة جلال الدين الرومي : وفي مدينة (قونية) مكتبة أخرى أكبر من الأولى ، قال لي قيمها : إنها تضم نحو ثلاثين الف كتاب باللغة الفارسية وعشرة آلاف كتاب باللغة العربية عدا الكتب التركية) ، كان في المدينة ١٢٧ مكتبة ضمت كتبها إلى هذه المكتبة وتعرف باسم (مكتبة جلال الدين) وهذا صوفي معروف ، واسمه محمد بن محمد بن الحسين (٦٠٤/٦٧٢) مترجم في « الاعلام » للزركلي ، – ج ٧ ص ٢٥٨ الطبعة الثانية – .

لم أجد في فهرس هذه المكتبة ما حفزني للمطالعة سوى اسم كتاب « بدائع

السحر ، في ضائع [1] الشعر » كذا واسم المؤلف جمال الدين محمد المطري ، وهذا — كما هو معروف — من مؤرخي المدينة — إلا أنني لما اطلعت على هذا الكتاب وجدته باللغتين العربية والفارسية ، ومؤلفه أحمد بن هاجي (؟) محمود الآقسراي ، وهو مخطوط سنة ٨٣٥ ، وهذه المكتبة حافلة بكتب التّصوّف ، وتعتبر مدينة قونية من أهم مراكزه في العالم الاسلامي في خلال القرن السابع الهجري .

وينبغي أن يلاحظ كل من يزور إحدى المكتبات في البلاد التركية عدم الاعتماد على الفهارس ، فهي كثيرة الأخطاء .

إلى مدينة أذَنَة : سرت من قونية ظهرا ، وفي الساعة الرابعة كان الوصول إلى قرية جميلة حقّا برغم بشاعة اسمها (موت) في واد كثير الأشجار ، غزير المياه ، يطل على القرية جبل عال فوقه قلعة .

ومن تلك القرية انحدرنا في جبال (طوروس) إلى مدينة (مرسين) بعد أن اجتزنا نهرا جاريا ، سألت عن اسمه فقال لي أحدهم اسمه (سُوْ) وسُوْ اسم الماء باللغة التركية .

ولما بلغنا ساحل البحر سرنا نحو ٨٠ كيلا فبلغنا (مرسين) فكان فيها المبيت .

وفي صباح الجمعة ذهبت إلى مدينة (طرسوس) والمسافة بينها وبين (مرسين) قطعتها السيارة بنصف ساعة ، كان في مساجد هذه البلدة مخطوطات ، فجمعت ووضع بعضُها في (مكتبة البلدية) وبعضها في (مدرسة الليسيه) .

لم أر في (مكتبة البلدية) سوى مخطوط واحد هو « خريدة العجائب » وقيل لي : انه لا يوجد في (مدرسة الليسيه) مخطوطات .

عدت إلى (مرسين) فصليت فيها الجمعة ثم سرت إلى (أذنة) ومع

---

(١) لعله يقصد (ذائع) ولكنه أعجمي ظن أن الذال هنا محرفة عن الضاد .

جمال هذه المدينة ، وسعة ميادينها وكثرة حدائقها ، أحسست بانقباضٍ فيها ، بحيث واصلت السير منها مساء الساعة السابعة إلى (الاسكندرونة) فوصلتها الساعة التاسعة والنصف وفي صباح اليوم الثاني سرت منها إلى حلب (السبت ٩/١٠/١٩٦٥ م) الساعة السابعة صباحا .

وكان المرور بسهل واسع من الأرض ، تكسوه خضرة أشجار القطن وغيرها من النباتات التي تدل على الخصب ووفرة المياه ، وهو العمق الذي يقول فيه المتنبي :

ومثل العمــق مملوءٌ دمـــاء مشت بك في مجاريه السيولُ

إذا اعتاد الفتى خوض المنايـا فأهونُ ما يَمُرُّ بــه الوُحُولُ

وهم يسمونه (عُمُق جَلّ) .

وقبله اجتزنا نُهَيْرًا يدعى (عفرين) من روافد نهر العاصي يجتمع به بقرب انطاكية .

ثم وصلنا قرية الريحاني (الريحانلي) الساعة التاسعة ، وهنا الحدود التركية ، وكانت المعاملة بمنتهى اللطف ، بحيث لم تفتح الحقائب ، وكنا أربعة في سيارة صغيرة ، والأجرة من (الاسكندرونة) إلى هذا المكان عشرون ليرة تركية .

* * *

في الحواضر الأوروبيّة

في هولنــــدا :

إلى ليــدن
مكتبة بريــل

في عاصمة الانجليز :

من هولندا إلى لنــدن
في المتحف البريــطاني
في حديقة (هايد بــرك)
إلى المتحــف مرة أخــرى
الطلاب الســـعوديون

في لندن مرة أخرى :

بين جنيف وبــون :

من لندن إلى جنيــف
في الطريــق إلى بــون
في (بادقد ســبرج)
بــون وكولــون

برلـــين :

البحث عن المخطوطــات
في برلــين الشرقية
في مكتبــة الفــكر الاوربيــة
متحف الأمة في برلــين

رومـــا :

المعهـــد الشرقي
حديث مع شيخ المستشرقين
في مكتبـة الفاتيـكان
قليـــلا من الضـحك !!
في دار الســفارة

بــاريس :

على هامــش مؤتمر المستشرقين
بواعـث الســفر
في باريــس
إلى جامعة السربــون
في ســفارة بلادنــا
لحضور المؤتمــر
حديث عن اللحيــة
جولة في المدينــة
مقابــلات في مقر المؤتمر

في أسبانيــا :

بين مجريط (مدريد) ودير الاســكوريال

في هولندا

[قمت بزيارة للولايات المتحدة أمضيت فيها شهراً كاملاً[1] ، ثم مررت بأوربة فزرت هولندا ولندن وبعض مدن سويسرا والمانيا وايطاليا ، وقضيت هناك شهرا آخر ، وقد رغب بعض الاخوان ان اتحدث عن مشاهداتي هناك ، وها أنا تحقيقا لتلك الرغبة أورد بعض لمحات خاطفة عن رحلتي في أوربة وهي لمحات سوف لا يجد فيها القارىء ما يتطلع اليه من الجدة والطرافة التي اعتاد أن يجدها في أحاديث الرحالة إلى تلك البلاد ، اذ الغاية من رحلتي تكاد تكون محصورة في البحث عن المخطوطات العربية ، ورحلة هذه غايتها قل أن تكون مدعاة للإطراف والتشويق] .

من نيويورك إلى هولندا[*] :

وفي يوم الاربعاء (١٥ ربيع الثاني ١٣٨٠ ، ٥ اكتوبر ١٩٦٠ م) في الساعة الثالثة بعد الظهر بتوقيت نيويورك ، أقلعت بنا الطائرة من (أمستردام) فهبطنا مطار (جاندر) في كندا الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين بتوقيت (جندر) ومدة الطيران اربع ساعات الا ربعا ، وبعد ساعة غادرنا هذه البلدة فوصلنا مطار امستردام في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحا حسب توقيتها — أي بعد أن قضينا في الجوبين (جاندر) وهذه المدينة ما يقرب من تسع ساعات . وكانت الساعة ساعة وصولنا (امستردام) في نيويورك الثالثة والدقيقة الخامسة والعشرين (فالفرق خمس ساعات وخمس وعشرون دقيقة) .

كانت المعاملة في المطار (امستردام) سهلة لم تتجاوز كتابة اشارة على الحقائب من موظفي الجمارك ، لاننا قدمنا على طائرة (ارامكو) وهؤلاء يعاملون معاملة خاصة . وكان النزول في (فندق أوربا) في مدينة لاهاي التي تبعد ٥٠ كيلا عن المطار ولقد ذهبنا إلى هذه المدينة ووصلناها ولم نعرف

(١) انظر عن هذه الرحلة « أيام في بلاد العم سام » .

(*) اليمامة العدد ٢٥٢ الاحد ٢٢ جمادي الاخرة سنة ١٣٨٠ (١١ ديسمبر سنة ١٩٦٠) السنة الثامنة.

اسمها رغم ما بذلناه من محاولة لكي نفهم ذلك من سائق السيارة فهو ينطق الاسم (ذي هغ) والاسم مكتوب في اللافتات التي على الطريق (دن هيج) .

استقبلنا — وأنا اعبر عني وعن رفيقي في الرحلة الاستاذ حسن قزاز — السيد جان فان أس — مندوب (أرامكو) عند باب الفندق ، فلم نستطع التفاهم معه بجهلنا اللغة الانجليزية ، وكان ممن عرفنا اثناء مرورنا شاب اردني فلسطيني يدعي السيد هاشم عقيل يتولى الاشراف على القسم العربي في الاذاعة فطلبنا من السيد جان الاتصال به هاتفيا لكي يكون واسطة تخاطب فيما بيننا غير أنه اعتذر باشتغاله باعداد محاضرة عن (الموسيقى العربية) يريد القاءها في معهد الدراسات الاجتماعية في لاهاي غدا — باللغة الانجليزية— وذكر لصاحبنا اسم شاب فلسطيني اردني هو (منذر فائق عنبتاوي) من نابلس وقد حضر سريعا وذهبنا إلى مطعم اندونيسي تناولنا فيه طعام الغذاء . الاستاذ منذر يدرس القانون الدولى ، وهو الآن يحضر لنيل (الدكتوراه) رسالة موضوعها : (القومية العربية وأثرها من ناحية القانون الدولي) .

وفي مدينة (**لاهاي**) حيث تقع (محكمة العدل الدولية) توجد مكتبة تابعة للمحكمة ، تضم — على ما يقول السيد منذر — أهم مصادر الدراسات القانونية الدولية ، وتحتوي على ما يقرب من نصف مليون مجلد ، وقد زرت المكتبة فوجدت فيها استاذا مصريا يدعى محمود حافظ ابو الشهود يدرس القانون منذ سنتين ، وهو ابن أخ لسفير الجمهورية العربية في جدة الاستاذ حافظ ابو الشهود ، زرت المكتبة الساعة الرابعة من هذا اليوم — يوم الوصول إلى بلدة لاهاي — ثم بعد أن جلت مع صاحبي الهولندي والعربي في ابهاء القصر الفخم (قصر السلام) وفي حديقته الكبيرة الجميلة حضرنا احدى جلسات المحكمة ، وهذا القصر قد قام بانشائه على أفخم طراز غربي السيد (كا ينجي) احد الاثرياء الأمريكيين ، وقد ازدانت أبهاؤه بتماثيل منحوتة لبعض الرجال الذين لهم أثر في الدعوة لأن تسود روح المحبة والسلام بين الشعوب ، ولم نشاهد فيه من تماثيل رجال الشرق سوى تمثال (غانــدي) .

كانت الجلسة في موضوع خلاف بين دولتي (اندراوس) و (ارجواي) حول الحدود وقد حضر القضاة الستة عشر ، وقبل ان يدخلوا قاعة المحكمة من الباب المفضي الى مكان اجتماعهم للتداول فيما بينهم ، أعلن بدء الجلسة فقام الحاضرون وهم مندوبو الدولتين ومحاموهم وثلاثة من الصحفيين وأربعة زوارانا أحدهم ورفيقاي والاستاذ أبو الشهود .

توسط رئيس القضاة المنضدة الكبيرة في صدر القاعة وجلس عن يمينه نائبه السيد ظفر الله خان ثم أحد القضاة ، ثم الدكتور بهجت بدوي ، وجلس الباقون عن يمين الرئيس وعن شماله ، وبعد أن أعلن الرئيس افتتاح الجلسة قام احد محامي (ارجواي) فتقدم الى المنصة المعدة للترافع فقرأ قسما من دفاعه ، والقضاة بين مستمع الى كلامه ، وبين مطالع في اوراق أمامه قد تكون ترجمة ما يقول المحامي ، ومن هؤلاء السيد ظفر الله فقد كان غارقا في مطالعة ما بين يديه من اوراق ، أما الدكتور بدوي فقد وضع يده تحت خده متكئا عليها وانصت باهتمام إلى ما يقوله المتحدث ، ومن بين القضاة من شغله اصلاح شارة المحكمة المعلقة فوق صدره زمنا ليس بالقصير ، بحيث كان بين آونة وأخرى لا يفتأ أن ينظر اليها ثم يصلح نشرها فوق صدره .

لم أفهم ما قال المحامي ، ولم أحاول أن أفهم شيئا منه ، اذ كنت بحاجة إلى الراحة ، ولهذا فعندما شرع احد المترجمين بنقل كلامه إلى اللغة الفرنسية خرجت مع صاحبي .

وفي الساعة الثامنة — بعد الظهر — زرت بيت الطلبة لكي اجتمع ببعض الطلاب العرب وبيت الطلبة يضم ما يقرب من مئتي طالب ، وفيه من العرب عشرة طلاب ، وهذا البيت مخصص لطلاب (معهد الدراسات الاجتماعية) وقد اجتمعت فيه بتسعة طلاب يدرسون دراسات مختلفة اجتماعية وهندسية ، هم زيادة عبد الهادي ومحمود الحمصي وناهده ابراهيم حلمي — من العراق — ومنذر عنبتاوي واحمد خليفة وخير الدين المعاني — من الاردن ، فلسطين —

وابو بكر الصديق من مصر وعاصم عطا الله من لبنان ، وقد أمضيت مع هؤلاء ما يقارب الساعتين وكان الحديث عاما عن الشؤون العربية ومن بين الحاضرين سيدة هولندية تتولى ادارة منزل الطلبة ، وقد سألتني عن السيد حمزه غوث قائلة ان ابنه خالدا كان هنا ، سألتني قائلة ــ حسبما فهمت من المترجم ــ انها تعرف بأن للسيد سبعة عشر ولدا فعسى أن يكون اكتفى بذلك ، فأجبتها بأنه لا علم لي بهذا ولكن الذي اعلمه ان السيد حمزة غوث يتمتع بصحة جيدة .

* * *

إلى ليدن

تعتبر مدينة (ليدن) مَن أهم مراكز (الاستشراق) في بلاد اوربة ، وفيها في مطبعة (بريل) التي هي اقدم مطبعة عربية وشرقية في الغرب طبع كثير من المؤلفات العربية ، ولا تزال هذه المطبعة تقوم بطبع كثير من مؤلفات المستشرقين كالمعجم المفهرس لالفاظ الحديث ودائرة المعارف الاسلامية وغيرها .

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ١٧ ربيع الثاني ١٣٨٠ ـ ٧ اكتوبر ١٩٦٠ ـ ذهبنا إلى مدينة ليدن ، من لاهاي وتقطع السيارة المسافة بين المدينتين في عشرين دقيقة ، وكان صاحبنا الهولندي السيد جان فان أس قد اتصل ببعض المعنيين بالدراسات العربية والشرقية ، فلما وصلنا المدينة كان أول مكان زرناه هو بيت المستشرق (سنوك هر غرونيه) المستشرق الهولندي المعروف الذي أتى إلى مكة متنكراً في زي حاج وتسمى باسم (عبد الغفار) منذ ٧٦ عاما واقام فيها خمسة اشهر ونصفا والف عن تاريخها وعادات اهلها وجغرافيتها كتابا له شهرة كبيرة عند المستشرقين .

وقد اضيف منزل (سنوك هر غرونيه) إلى الجامعة بحيث أصبح تابعا لقسم الدراسات الشرقية ، وهو على ما كان عليه في عهد (سنوك) وفيه مكتبته الكبيرة التي تضم كثيرا من الكتب العربية والشرقية ، وكتب على مدخل الباب اسمه .

وجدنا في داخل البيت خمسة من العلماء المستشرقين الهولنديين ، منهم

(*) اليمامة العدد ٢٥٣ الأحد ٢٩ جمادى الاخرة سنة ١٣٨٠ (١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٠) السنة الثامنة .

مدير مكتبة الجامعة ، ومن بينهم مستشرق يجيد اللغة العربية يدعى (بروخمن) يتولى الآن وظيفة (رئيس قسم افريقية) في وزارة الخارجية الهولندية ، والاستاذ بروخمن هذا شاب قد اقام في مصر مدة إحدى عشرة سنة — من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٩ — وألف كتابا عن (الشريعة الاسلامية في مصر الحاضرة) وقد درس اللغة العربية أول مادرس في (جامعة ليدن) على الاستاذ المستشرق (كرامرس) .

مكتبة السيدة سلمى :

وقد شاهدنا في منزل (سنوك) قسما من المكتبة في غرفة خاصة هي غرفة الاستقبال مكتوب فوقها (السيدة سلمى) بحروف لاتينية ، ورأينا في الغرفة صورة رجل عربي في زيّ سكان اهل جنوب الجزيرة ، وقد قال لنا الاستاذ (بروخمن) إن سلمى هذه هي احدى بنات أحد امراء (زنجبار) وقد زار تلك البلاد أحد الالمان فتزوج سَلْمى — بعد أن أسلم — واتى بها الى بلاده ، ولما توفيت اهدى كتبها إلى الاستاذ سنوك ، وقد سميت هذه السيدة باسم (اميلي روت) وكتب الاسمان فوق مكتبتها .

مكتبة جامعة ليدن :

ذهبنا إلى هذه المكتبة بعد ان استرحنا قليلا من الوقت في منزل (سنوك) وتحدثت مع الاستاذ (بروخمن) عن العرب وآثارهم وعن الاستشراق والمستشرقين في هولندا ، وهذه المكتبة تضم ما يقارب المليون ونصفه من المجلدات ، وفيها قسم شرقي يضم من المخطوطات وحدها حوالي سبعة آلاف كتاب ، يقارب عدد الكتب العربية فيها (المخطوطة) ثلاثة آلاف كتاب .

اظهرت للاستاذ (بروخمن) ان الوقت قصير لا يتسع للاطلاع عليها ، ولهذا فيحسن الاكتفاء بالاطلاع على بعض الكتب النادرة فطلب من أمين المخطوطات احضار كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم — والكتاب مطبوع — الا أن الاستاذ (بروخمن) قال لي : ان هذه النسخة لا ثانية لها

في العالم تعرف الآن ، (وهي جيدة الخط ، من مخطوطات القرن الثامن الهجري ، ان لم تخنّي الذاكرة) .

واطلعنا على كتاب (منائح الكرم) في تاريخ مكة للسنجاري والنسخة حديثه (مخطوطة سنة ١٣٠٧) الا أنها جيدة الخط ، تقع في ٥٩٥ صفحة ، في الصفحة ٢٣ سطرا .

وحدثت الاستاذ (بروخمن) عن الشيخ أمين بن حسن الحلواني [1] وعن الكتب التي باعها على (مكتبة بريل) فاحضر لي فهرس تلك الكتب ويقع في ١٨٣ صفحة مطبوع في ليدن ، وضعه المستشرق (كارلولندبرخ) سنة ١٨٨٣ باللغة الفرنسية واسماء الكتب مكتوبة باللغة العربية ، ويتضمن

---

(١) الشيخ أمين بن حسن الحلواني ، ويعرف بالشيخ المدني من علماء المدينة المعروفين ، وله ترجمة موجزة في دائرة المعارف الإسلامية التي وضعها المستشرقون ، وقد كتبت عنه في احد اعداد جريدة البلاد السعودية ، وأضيف الآن بأن المذكور كان ينزل في المدينة في دار مطلة على (الحديقة العينية) كما يدل على ذلك ما جاء في طرة المخطوطة رقم ٢٢ ش (تاريخ) من من كتاب (عمودالنسب) المخطوطة بدار الكتب المصرية،وهو بخط الشيخ الحلواني وهذا نصه:

قرأت هذا الكتاب عمود النسب للفهامة أحمد البدوي قراءة ضبط وتحرير دراية ورواية فأوضحت مشكله واعربت مغفله وبينت مبهمه وفصلت مجمله على شيخنا واستاذنا علامة فن اللغة والانساب وفهامة علم سيرة النبي والاصحاب إمام الحرمين بلا مدافع ، سيدنا النسابة الشيخ محمد محمود الشنجيطي العبشمي امتع الله بحياته في مجالس منها في روضة النبي صلى الله عليه وسلم (ومنها في داري المطلة على الحديقة العينية) وآخر مجلس وبه تم الكتاب في بيته حرسه الله مطموس ما بين الفاصلتين ،حرسه الله في حارة الاغوات بقرب منهل العين الزرقاء) وفي ظني ان هذه النسخة غدت من الشيخ التي يعول عليها ويرجع في المعضلات اليها وكتبه الفقير اليه تعالى أمين بن حسن الحلواني المدني خادم العلم بالروضة المطهرة في غرة رجب الاصب سنة تسع وتسعين بعد المائتين والالف من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

ثم ختم المدني (أمين المدني ١٢٩٠) وفي هامش هذا بخط الشيخ الشنقيطي ما نصه :

الحمد لله وحده : ما ذكره الندب الاغر ولدنا الابر الفرد القائم مقام الجمع ، المنقاد إلى الحق بزمام الطاعة والسمع من قراءة هذا الكتاب وروايته ودرايته صحيح والله اسأل أن يهبنا جميعا الرضا وقاله وكتبه محمد محمود ابن التلاميد التركزي المدني ثم المكي غرة رجب سنة تسع وتسعين بعد المائتين والالف) . ثم ختم الشنقيطي (لله الامر من قبل ومن بعد) .

وانظر «العرب» س ١ ص ٣٠١ و ١١٥٣ .

وصف ٦٦٤ من الكتب والرسائل المخطوطة .

واطلعت في المكتبة على رسالة مطبوعة ، مصدرة بصورة جميلة للشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني ، قال لي الاستاذ (بروخمن) حينما قرأ عنوان الرسالة ان اسمها (مشاهدات عن مؤتمر المستشرقين في ليدن ، من مستشرق عربي) وأن الشيخ الحلواني وضعها بالعربية ولكن المستشرق سنوك نقلها إلى اللغة الهولندية ، وطبعت بهذه اللغة وتقع في ٥٤ صفحة .

الامثال في مكة :

ومما اطلعنا عليه رسالة في (أمثال أهل مكة) وضعها المستشرق (سنوك) وتقع هذه الرسالة في أول الجزء الخامس من مؤلفاته ، في ١١٢ صفحة ، أورد فيها ٧٧ مثلا بدأها بمثل أورده بهذه الصيغة (كثرة الامثال ، ليس من فحول الرجال) وختمها بهذه الجملة : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ان كان عندك شيء هاته) وقد أورد الامثال بنصها العربي وشرحها ، باللغة الالمانية ، والحقها بفهرس للالفاظ ، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة الدراسات الشرقية في سنة ١٨٨٦ م في الجزء الـ ٣٥ من صفحة ٤٣٣ إلى صفحة ٥٧٦ .

وقد كرم الدكتور فورهوفن مدير القسم الشرقي في مكتبة جامعة ليدن فأهدى إليّ نسخة من هذا الجزء المحتوي على تلك الرسالة وقد نشرتها معربة في «اليمامة».

في مكتبة بريل :

لعل هذه المكتبة هي احفل المكتبات التي تقوم ببيع الكتب — في اوربا — بالكتب العربية ، فمطبعتها اقدم مطبعة عربية ، وجامعة ليدن التي تقع هذه المكتبة بقربها هي من أعظم الجامعات التي عنيت بالدراسات الشرقية ، ولا يزال هناك نوادر من المؤلفات العربية التي قامت هذه المكتبة بطبعها ، لم تطبع بعد في البلاد العربية .

زرنا هذه المكتبة بعد أن تناولنا الغداء في احد مطاعم مدينة ليدن ، وكنا على عجل في زيارتها ، ولعل في ذلك خير لنا ، فقد أخرجت من بين رفوف هذه المكتبة المملوءة بالمطبوعات العربية مما طبع في الشرق ومما طبع في الغرب ثمانية من الكتب لا يتجاوز الكبير منها الـ ٥٠٠ صفحة ولا تبلغ صفحات كثير منها الـ ١٠٠ ، أخرجتها ثم نقدت فيها واحدا وثلاثين ومائة دولار فقط (أي مبلغ تسعة وثمانين وخمسمائة ريال) .

الناس هم الناس !

ظننت ان اصحاب هذه المكتبة على درجة من الامانة والصدق تتناسب مع ما لهذه المكتبة من شهرة عظيمة في الشرق وفي الغرب ، فنقدتهم ثمن الكتب التي اخترتها بدون ان أماكسهم في ذلك ، أو اتحقق من قائمة الاثمان التي قدموها لي صحتها ، ولكنني حينما عدت إلى الفندق ، وتصفحت القائمة وجدت فيها أن ثمن واحد من تلك الكتب هو كتاب الخيل لابن الكلبي ، ومعه كتاب خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابي وجدت الثمن ثمانية فلدرات ، (أي أقل من دولارين) والمبلغ الذي أخذوه مني ثمنا لنسختين من هذا الكتاب هو ثلاثون دولارا وهو ١٣٥ فلدرا أي بزيادة ١٢٠ فلدرا في ثمن نسختين من كتاب لا تبلغ صفحاته الـ ٢٠٠! ولما اتصلت بهم — هاتفيا — أجابوا بأن الثمن الموجود في القائمة غير صحيح ، لانه جاء مغلوطا من الطبع ، فصدقت هذا ، غير انني بعد أن سافرت من هولندا وجدت الثمن مكررا مرتين ، مما جعلني اعتقد بانهم خدعوني ، وكذبوا علي فكتبت لهم كتابا — بواسطة ممثل ارامكو — فما كان منهم الا أن اعتذروا له وسلموه مبلغ ٢٥ دولارا قالوا له انها اخذت سهوا زيادة في ثمن (كتاب الخيل) .

قارنت — وأنا في المانيا — الثمن الذي أخذوه مني لجميع الكتب ، بما جاء في قائمة مطبوعاتهم ، فوجدتهم اخذوا زيادة على ما جاء في تلك القائمة

(*) اليمامة العدد ٢٥٤ الأحد ٧ رجب سنة ١٣٨٠ (٢٥ديسمبر سنة١٩٦٠)السنةالثامنة.

تزيد على الثلاثة الارباع ، ولكنهم حينما كتبت لهم مرة ثانية عن ذلك أجابوا بانني أنا الذي أخرجت الكتب من رفوفها وأخذتها ولهذا فلا حق لي في المراجعة .

هذا مثال من أمثلة الغربيين ومثال آخر : ركبت من مطار (فرانكفورت) إلى المدينة ركبت الحافلة ، وقدمت لجابي الاجرة (الكمساري) عشرة ماركات ليصرفها ويأخذ منها الاجرة ، وهي أربعة ماركات ، فما كان منه بعد ان علم انني لا اعرف انواع العملة الا ان ملأ يدي بنقود تكاثرتها ، ولكنني لما عددتها في الفندق وجدتها تنقص عن حقي النصف فقط !! مع تأكيده لي بأنه اعطاني حقي كاملا .. !

في عاصمة الإنجليز

من هولندا الى لندن *

في الساعة السادسة بعد ظهر يوم الجمعة – ١٧ ربيع الثاني – غادرت (فندق أوربا) في مدينة (لاهاي) إلى مطار (امستردام) فوصلت المطار الساعة السابعة ، والمسافة خمسون كيلا (٣٥ ميلا) .

وفي الساعة السابعة والدقيقة العشرين امتطيت متن احدى طائرات شركة (K. L. M.) بعد ان نقدتها الاجرة وقدرها ٣٣/٨٠ من الدولارات الامريكية وبعد ساعة واحدة هبطت مطار لندن ، (أي الساعة ٨٫٢٠ بتوقيت هولندا او الساعة ٧٫٢٠ بتوقيت لندن ، فالفرق ساعة) .

ولقد كانت المعاملة في مطار لندن ، أيضا ، سهلة لم تتجاوز مجرد فتح الحقائب ، بدون جس أو لمس لما في داخلها ، وان كنت من بين المسافرين الوحيد الذي لا يكترث بشيء من ذلك لفراغ حقيبتي – والحمد لله ! – و (فاز المخفون) !

ليلة ليـــــلاء !

قيل لي وأنا في (هولندا) : لا بد من حجز غرفة في أحد الفنادق في لندن لكي تسكنها ، ساعة وصولك تلك اذ من الصعب الحصول على مسكن في المدينة ، فاتصلت من (لاهاي) هاتفيا بمكتب الدكتور حامد حسن – وسأتحدث عنه – ولكنه كان غير موجود في مكتبه حينما حاولت الاتصال به ، وكنت قد حددت موعد السفر ، فعزمت عليه ، وتركت أمر الفندق

(*) اليمامة العدد ٢٥٥ الأحد ١٤ رجب سنة ١٣٨٠ (١ يناير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

حتى أصل (مدينةلندن) وهنالك ــ على ما يقولون : (يحل المشكلة حلالها) .

ولما وصلت المدينة قلت لسائق السيارة ــ سيارة الاجرة ــ : إلى الفندق ! فاستوضح مني عن اسم الفندق الذي اريده فقلت : أي فندق كان ! وكان التخاطب بيني وبينه بالاشارات فهو يرطن ويهذر باللغة الانجليزية وأنا لا أفهم شيئا مما يقول ، ولا أجيبه الا بالاشارة . مررنا بعدد من الفنادق بين صغير وكبير ومتوسط ، نقف عندها ويتحدث مع أصحابها ، ثم يأتي إلي مقطب الوجه وهو يشير بيده قائلا : (نو . نو) ومردفا ذلك بكلام كثير لا أفهمه .

وبعد أن أخذ الغضب من السائق كل مأخذ ، من كثرة ما مررنا عليه من الفنادق ، تذكرت أن أحد الاخوان في مطار الرياض قد كتب لي عناوين بعض الاصدقاء في لندن ، فاخرجت « المفكرة » من الحقيبة وأريت السائق تلك العناوين ، ومنها رقم هاتف الدكتور حامد حسن ، فوقف عند باب أحد الفنادق ثم عاد إلى تكرار اشارته الاولى التي تدل على (الخيبة) ولكنني ذكرت عنوان مسكن الاخ عبد العزيز المنقور ، وانه (ايجل هاوس كرافن رود) فنطقت بهذه الكلمات للسائق نطقاً فهمه بعد لأي ، فسار بي منطلقاً كالسهم ، يخترق الشوارع والاسواق الكثيرة ، حتى وقف عند باب ذلك المكان ، وهب مسرعا لينزل الحقيبة ، فاشرت اليه ليبقيها فأشار إلي لكي ادخل المكان لأبحث عن صاحبي ولكنني خشيت ــ من طول ما لاقاه من عناء ــ ان يهرب وأنا لم احفظ رقم السيارة فأشرت اليه لكي يدخل معي المنزل ، فكان ذلك ، وقام هو بالبحث بعد ان كررت له اسمه حتى حفظه ، ولكننا بوئنا بالفشل ، فلم نجد في المنزل من يخبرنا عنه ، وقد بلغ الغضب من السائق مبلغه ، وحاول أن ينزل حقيبتي من سيارته ، ولكنني حاولت تهدئته ، وأمرته بابقائها في السيارة ، واخذت بيده مشيرا إلى لافتات لعدد من الفنادق ، فسار معي ، وبعد أن اوشك اليأس يستولى على نفسي مررنا بفندق صغير يحمل اسم (رونالد هوتيل) وهو مقابل للمكان الذي بحثنا عن الاخ المنقور فيه ، فدخلناه ، ولكن السائق بعد أن اطال الكلام مع

صاحب الفندق ، أشار الي بأنه لا يوجد فيه مكان ، واسرع خارجا منه ، فأشرت اليه بالرجوع ووقفت أحدث صاحب الفندق بالعربية مستعينا ببضع كلمات انجليزية حفظتها خلال الرحلة ، وما أشد سروري حينما نطق الرجل ببعض الكلمات العربية التي فهمت منها انه لا يوجد لديه سوى غرفة صغيرة في أعلى طابق في الفندق ، والفندق ليس فيه مصعد ، والبرد شديد ، والمطر يهطل بغزارة ، فما كان مني سوى أن ذهبت مسرعا الى السيارة وتناولت حقيبتي ، واشرت إلى السائق لكي يدخل معي الفندق لادفع له أجرته ، بعد أن أطمئن بوجود مكان ، ولكي يتولى صاحب الفندق دفع الاجرة التي يستحقها .

اخذ صاحب الفندق حقيبتي ووضعها في الغرفة التي هو فيها ولما حاول أن نصعد إلى المكان طلبت احضار الحقيبة ، ولكنه أجاب ــ اشارة ونطقا غير واضح ــ بأن الغرفة ضيقة ، لا تتسع الا لجسمي ، فقفزنا درج خمسة أدوار مسرعين ، ثم دخلنا غرفة ــ وكلمة غرفة كبيرة هنا ــ فيها سرير صغير ، ومنضدة صغيرة ، لم تتسع لكتاب كبير كنت احمله بيدي ، فأسندته على الجـــدار .

كان التعب من المشي ومن البرد ، ومن هطول المطر ، قد أخذ مني كل مأخذ ، وكان الليل قد أوشك ان ينصرم ، فرميت بجسمي فوق ذلك السرير القصير ، وتقرفصت فيه ــ مع قصري ــ فاستغرقت في نوم عميق حتى الساعة السابعة .

في المتحف البريطاني (١)

خرجت من الفندق مبكرا ، ولعل من أسباب ذلك انني خشيت أن تكون تلك الغرفة (أو الكِنُّ) قد حجزت لغيري فيطلب مني صاحب الفندق الخروج منها ، قبل أن أقضى أربي من لندن ، وما لي فيها من أرب سوى

(١) اليمامة ــ العدد ٢٥٦ تاريخ ٢١ /٧ /١٣٨٠ هـ .

زيارة بعض المكتبات ولهذا كان أول ما قصدت فيها (المتحف البريطاني) الذي وصلت اليه الساعة الثامنة والنصف ، وكان لا يفتح الا بعد تمام الساعة العاشرة ، ولما دخلت بابه الخارجي محاولا أن أجلس داخل الأروقة اتقاء للمطر حتى يفتح منعني الحاجب ، فخرجت وأمضيت الوقت متجولا في الشارع .

لم أحتج إلى دليل داخل المتحف مع سعته وكثرة أقسامه إذ حينما دخلت الباب الداخلي شاهدت مصورا – (خارطة) يوضح أقسام المتحف ، فاتجهت إلى القسم الشرقي من مكتبة المتحف ، وأفهمت مدير هذا القسم بأنني لا أعرف اللغة العربية ، فاتصل هاتفيا بأحد الاقسام ، وبعد بضع دقائق ، كنت خلالها أطالع اسماء الكتب العربية المطبوعة الموجودة في غرفة مدير القسم الشرقي ، ما شعرت الا ورجل أشقر اللون ، ذو عينين حادتي النظر ، ووجه نحيل ، ولحية معفاة ، وان لم تكن كثة ، يقف بجانبي قائلا : (السلام عليكم) ، فرددت عليه السلام ، فقال لي : أنا موظف هنا ، وأتيت لمساعدتك فيما تريد ، فاخبرته بأنني أحب الاطلاع على بعض المخطوطات العربية ، التي تتعلق بتاريخ العرب أو جغرافية بلادهم ، فأحضر لي فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف ، في ثلاثة مجلدات وقدم لي ورقة وقال لي : ان هذه تمكنك الدخول إلى هذا القسم في خلال اسبوع . واذا احتجت إلى شيء من الكتب المخطوطة فاكتب رقم الكتاب على ورقة من أوراق الاستعارة – وقدم لي شيئا منها – وانا أحضر لك ما تطلبه من كتب ، ثم ذهب وعاد إليّ بعد برهة من الزمن وقد كتبت اسماء عدد من الكتب التي أريد ، فاحضرها .

لقد عرفت عن هذا الرجل أنه انجليزي من قرية قريبة من (مانشستر) وهو يدعى الدكتور (مارتين لنجز) ويعرف بهذا الاسم ، وهو يشغل وظيفة مساعد حافظ في القسم الشرقي من مكتبة المتحف البريطاني ، وقد أسلم وحج عام ١٩٤٨ – وأقام في مصر من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٢ م واشتغل فيها في التدريس في كلية الآداب في الجامعة – وألف مؤلفات في التصوف –

باللغة الانجليزية — وهو يتكلم العربية بطلاقة ، واسمه بعد ما اسلم (الحاج أبو بكر سراج الدين) ولكنه لا يعرف في المتحف البريطاني الا باسم (لينجز) الاسم الانجليزي الأول .

ويقوم الآن بتأليف كتاب عن (الشيخ أحمد العلوي المستغانمي الجزائري) سينشر في أول العام القادم (١٩٦١ م) .

حـــول الكتب :

طالعت بعض الكتب الخطية النادرة مثل كتاب « الامكنة والمياه والجبال والآثار » لأبي الفتح نصر الاسكندري ، وهو من مصادر ياقوت في « معجم البلدان » و « ديوان الجراح بن شاجر » وهو شاعر من جازان ، كتب عنه صديقي الاستاذ الشاعر المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي ، و « ديوان ابن المقرب الاحسائي » وغير ذلك من الكتب .

من أخطاء المستشرقين(*) :

ومما لاحظت اثناء مطالعتي : ان بعض المعنيين بشؤون المخطوطات العربية ، في البلاد العربية ، قد يعتمدون ما يكتبه المستشرقون عن تلك المخطوطات ولو كان خطأ ولا يتسع المقام لايراد اكثر من مثالين على ذلك :

١ — في فهرس دار الكتب المصرية نسب كتاب « تاريخ ابن المجاور » الى ابن المجاور الدمشقي المتوفي سنة ٦٩٠ — اعتمادا على ما جاء في فهرس مكتبة المتحف البريطاني ولان نسخة المتحف — وهي احدث خطا من نسخة دار الكتب المصورة من اسطنبول — كتب في طرتها انها تأليف ابن المجاور الشيباني ، ونقل الناسخ ترجمة هذا من كتاب العبر للذهبي ، مع أن مؤلف (تاريخ ابن المجاور) عجمي نيسابوري قدم من الهند إلى جدة سنة ٦١٨ وقد اشار الامير جعفر الحسني في أحد اعداد مجلة (المجمع العلمي العربي) الى خطأ نسبة هذا الكتاب لابن المجاور الدمشقي الشيباني وكنت قد اشرت

(*) اليمامة العدد ٢٥٧ الأحد ٢٨ رجب سنة ١٣٨٠ (١٥ يناير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة

الى ذلك في احد اعداد جريدة (البلاد السعودية) قبل ان ينشر الكتاب ، وقبل ان ينشر الامير الحسني مقاله عنه في مجلة المجمع .

٢ ــ في فهرس قسم التاريخ من كتب (معهد) المخطوطات ــ في الجامعة العربية) سمى كتاب (النسب الكبير) باسم (جمهرة النسب) وكذا في فهرس مكتبة المتحف البريطاني وهما كتابان متغايران ، يعرف هذا من يطالع الكتابين وقد كتبت بحثا عن الكتابين نشر في مجلة «العرب».

العودة إلى الفنــدق :

اطمأنت النفس بعد ان امضيت برهة من الزمن في مكتبة المتحف ، وبعد ان علمت بأن فنادق كثيرة بقرب المتحف فيها أماكن خالية للسكن ، ولكنني وجدت صاحبه يقابلني بكثير من البشاشة ، ويشير بأنه كلم الدكتور حامد حسن ،وان الدكتورسيتصل بي ،فاظهرت عدم اهتمامي بالامر ،واستوضحت منه عما اذا كان سيجد لي غرفة خيرا من التي انا فيها ، فأبدي استعداده ، وفعلا اخذ بيدي إلى غرفة واسعة ، في مكان مناسب .

في حديقة (هـايدبرك)

وفي اليوم الـ ــ ١٨ من الشهر ــ وهو يوم أحد ــ ويوم الاحد يوم عطلة . والمكتبات مغلقة ، فكيف أقضي هذا اليوم ؟ أذهب الى حديقة الحيوان ؟ ولكن اليوم مطير فكيف أتقي المطر ؟ ذكرت ما قرأته عن « حديقة هايدبرك » وما حدثت عنها فركبت احدى الحافلات اليها ، ولكنني نزلت بعيدا عن مدخلها الرئيسي ، وهي غير مسورة وجميع جهاتها مداخل وطرق ، وكان المطر يهطل غزيرا ، وليس في تلك الحديقة الكبيرة ما يستظل به انها عبارة عن أرض واسعة ذات تلال ومنحدرات ، ولكنها جميعها مكسوة بالنبات الاخضر القصير (الثيل) وجوانبها محاطة باشجار باسقة .

كنت أريد المكان الذي يجتمع فيه الناس ليستمعوا إلى الخطباء والمتحدثين الذين يخطبون ويتحدثون عن كل شيء وبكل صراحة وحرية تامة ، فكيف

اعرف هذا المكان ؟ شاهدت رجلا يسير في الحديقة مسرعا اتقاء المطر ، ومعه طفل رضيع وضعه داخل عربة يجرها ، فقربت من الرجل ، ثم نطقت بكلمة انجليزية ملحونة وارفقت النطق باشارات من يدي كلتيهما ، ففهم ما اردت ، وأشار إلي لأسير معه ، وترك اتجاهه الاول ، واتجه ناحية أخرى ، وسرنا في الحديقة حتى أشرفنا على اناس مجتمعين في احد جوانبها ، فعرفت ان ذلك هو مكان الاجتماع ، فشكرته واشرت اليه ليرجع إلى قصده . علمت من هذا الرجل انه من (سيلان) وانه موظف كبير في سفارة هذه البلاد . وصلت مكان الاجتماع وكان المطر قد وقف ، فوجدت الناس يتحدثون فيما بينهم وهم وقوف ، حديثا لم استغرب منه الا ارتفاع الاصوات ، ولم افهم مما يقولون شيئا ، وفي هذا الركن من الحديقة كراسي صغيرة منتشرة كثيرة ، وعدد قليل من الكراسي الكبيرة المنتشرة في جميع انحاء الحديقة ، وكنت قد أحسست بشيء من التعب من كثرة المشي ، فجلست على أحد الكراسي الكبيرة ، جوار رجل أدركت من سحنته انه افريقي ، فقلت له باللغة العربية : هل الاخ من السودان ؟ فأجاب : نعم أنا من بلاد السودان ، فسررت بالتقائي بانسان استطيع الحديث معه لولا ان المطر عاد مرة أخرى ففرق بيننا قال لي هذا الرجل ، وهو رئيس شركة تجارية في الخرطوم للاستيراد والتصدير ، يدعى (صالح عثمان صالح) — : ان الاجتماع في هذا المكان يبدأ بعد الساعة الثالثة مساء ، وهؤلاء المجتمعون يخوضون في شتى الاحاديث ، وجل ما يتحدثون عنه من الاشياء التافهة ، ولكن هذا المكان يشاهد المرء فيه العجب من صراحة بعض الخطباء والمتحدثين ، ولا يتعرض لهم أحد . كان السيد السوداني (صالح عثمان صالح) عائدا من « فنزويلا » وله ثمانية أيام في «لندن» لأمر يتعلق بتجارته ، ولكنه يشكو مر الشكوى من كسل التجار هنا ويقول بأن الوقت يمضي ولا يستطيع المرء أن ينهي عمله معهم ، فالواحد لا يعمل في اليوم الا ساعات قليلة ، لا يحضر إلى مكتبه الا متأخرا ويذهب منه متقدما .

دعاني السيد السوداني للغداء ، وأشار الى الفندق الذي هو ساكن فيه ،

وقال لي : إن بجواره فندقاً كبيرا - سمّاه لي جوار حديقة (هايدْ بَرْكْ) - رأى فيه عربا يلبسون الملابس العربية ، فشكرته على دعوته ، وقلت له : لا حاجة لِي إلى الاجتماع بأحَد . ثم اشتد نزول المطر ففرّق بيننا ، وكنت أدركت أن المسافة بين الفندق الذي اسكن فيه وبين الحديقة ليست طويلة ، فعزمت على الذهاب إلى الفندق ماشياً ، وكان وقتُ الغداء قد أزِفَ ، فاتّجهت صوب الفندق ، وكلما قطعت شارعا ، أو انحرفتَ بانحراف أحد الأزِقّة ، أخرجت البطاقة التي فيها عنوان الفندق وسألت أحدَ المارة ، وقد أضطر إلى قطع مسافة طويلة في غير الاتجاه ، لقلة المارة في الطرقات ، والدكاكين والمحلات التجارية مع كونها مغلقة في يوم الاحد الا القليل ، فإن كثيرا من الاسواق والمحلات لا يوجد فيها دكاكين ، وفي بعض جهات المدينة تنحصر الدكاكين والمحلات التجارية في الشوارع الرئيسة .

وصلت إلى الشارع الذي يقع فيه الفندق ، ويسمى (ويست : بوردن ، تراس) فشاهدت في أحد منعطفات الأزقة المتصلة به لافتةَ مطعم ، دخلته فتقدم إليّ النَّدْل بقائمة الطعام ، وقبل ان انظر فيها قلت له : (سوب) أي اني أريد حساءً لأنني أحِسُّ بالبرد ، فقال : (عَدَس) باللغة العربية ، والظاهر أنه أدرك من عدم إجادتي نطق الكلمة الانجليزية ، ومن لهجتي ونطقي ببعض الكلمات العربية أنني عربِيٌّ ، لقد كان الرجل يعرف كلمات من اللغة العربية ، وهو هنديٌّ مسلم يدعى (أحمد) والمطعم يسمى (المطعم الشرقي ، الهندي الباكستاني) . وكان الغداء غداءً شرقياً لذيذاً ، وأصبح المطعمُ المطعمَ المفضَّلَ اثناء إقامتي في لندن .

الى المتحف مرة أخرى

ويوم الاثنين كان يوما غزير المطر ، والظاهر أنّ الناس هنا اعتادوا هطول المطر في كثير من أيام السنة ، فأنت تشاهدهم في الاسواق والشوارع غادين ورائحين ، وتشاهد بعضهم في الحدائق يمشون الهُوَيْنَا على ظهور

الخيل ، أو على ارجلهم ، غير متأثرين بهطول الامطار او جريان السيول في الشوارع والاسواق .

ذهبتُ مُتَّجِهاً صوب الجهة التي يقع فيها (المتحف) وما كنت أعرف مقدار المسافة بيني وبينه لأنني ذهبت إليه وعدت في سيارة ، ولكنني بعد ان قضيت ساعة كاملة في المشي ، خشيت ان يحين وقت إغلاقه قبل الوصول اليه ، فَعَرَّجْتُ على دكان جِزَارة ، توسمت من سحنة رجلين واقفين داخله أنهما شرقيَّانِ ، لكي استعين بهما على معرفة الطريق ، فأشارا اليه ولكنني فهمت من إشاراتهما أنه بعيد ، ولما لم أجِدْ سيارةَ أجرة تلك الساعة نزلتُ إلى إحدى محطات السكك الحديدية ومدينة (لندن) مثل مدينة (نيويورك) تكثر في جوفها خطوط السكك الحديدية التي تصل بين شوارعها ومحلاتها ، ومن الفوارق بين خطوط المدينتين وهي كثيرة أنَّكَ في (نيويورك) بعد أن تدفع الاجرة للموظف يعطيك قطعة من الحديد ، لتطرحها داخل ثقب لدى الباب الداخلِيّ للمحطة ، فينفتح البابُ بطريقة آلِيَّةٍ ، وتذهب إلى أيّ قطار تريد ، وتبقى أيَّ وقت تشاء ، متنقلا كما تشاء ، أما في لندن فالموظف يعطيك بطاقة صغيرة مكتوب فوقها الجهة التي تقصدها والأجرة التي دفعتها ، ولا تدخل باب المحطة حتى تعرضها على البواب وعندما تخرج من الباب الآخر تقدمها للبواب .

نزلت (*) الى محطة القطار ، وهي في جوف الارض تحت بنايات المدينة ، فشاهدت شابا نازلا يريد ركوب القطار ، فطلبت منه ارشادي إلى القطار إلى الجهة التي يقع فيها المتحف ، فاشار إلي بان أرافقه إلى قطار وقف لحظة وصولنا . ركبنا القطار ، ومررنا بمحطات كثيرة فاظهرت له الاستغراب من الطريق فرسم لي فوق صحيفة كان يقرأها نصف دائرة ، مشيرا بذلك الى اننا سندور في سيرنا حتى نعود إلى قرب المكان . علم الشاب أنني عربي ، فأراني في الصحيفة التي يقرأها خبر وفاة ملك زنجبار السيد خليفة بن حروب

(*) اليمامة العدد ٢٥٩ الأحد ١٢ شعبان سنة ١٣٨٠ (٢٩ يناير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

وأراني صورته كانت الصحيفة هي (المانشستر قارديان) وكان اليوم هو العاشر من اكتوبر . نزلنا من القطار ، ثم نزلنا إلى محطة أخرى بدرج كهربائي طويل ، فأشار إليّ بأن أركب قطارا مقبلا ، وأن أنزل في المحطة الخامسة ، فشكرته بعد ان عرفني باسمه وأنه من لندن ويدعى (ادمون قرانت) .

المسافة بين المحطة التي نزلت فيها وبين المتحف قصيرة ، ولكن الوقت الذي أمضيته في السير على القدم ، وفي ركوب القطار كان قريبا من ساعتين ، وكنت على موعد مع الدكتور الحاج أبو بكر سراج الدين (أو مارتين لينجز — كما يعرف لدى الانجليز) ولكن الوقت فات ، فلم أجد الرجل في غرفة المطالعة في القسم الشرقي من مكتبة المتحف .

طلبت الكتب التي أريد مطالعتها بعد ان كتبت ارقامها في (الاستمارات) فاحضرت إليّ ، وبعد مطالعتها أتيت بها الى الموظف القائم بشؤون الكتب واظهرت له رغبتي بتصوير بعضها ، وأشرت الى الكتب التي أريد تصويرها فلم يفهم ما أريد ، وكان في أول الامر ، عندما طلبت الكتب أظهر شيئا من عدم الاكتراث ، ولعله استكثرها — ثم بعد ان أحضرت وجلست للمطالعة وقف يرمقني باهتمام ، ولما بدأت اقلب صفحات احد المخطوطات بسرعة أشار إليّ بأن لا افعل ، ولما أراد أن يعود الى مكانه تكلم مع رجل كان يجلس مقابلا لي بكلام لا أدري ما هو ، ولعله يوصيه بمراقبتي ، لأنني في احد المرات عندما وضعت الكتاب فوق كرسي مخصص لوضعه لم أحسن الوضع ، فسقط على المنضدة ، فنظر إليّ الرجل شزرا وتكلم بكلام فهمت منه عدم الرضا . لم يفهم مني هذا الرجل ما أريد فطلبت منه أن يدعو الدكتور (مارتن لينجز) فأوما برأسه ولكنه أخذ الهاتف وبعد لحظات حضر رجل أسمر اللون ، وقف بجانبي وقال بصوت هادىء بلسان عربي فصيح : ماذا يريد الأخ ؟ فقلت له : احتاج صورا من هذه الكتب على شريط (ميكرو فلم) وقد كتبت طلب التصوير وهو هذا ، وكان الدكتور الحاج أبو بكر سراج الدين قد احضر لي فيما احضر من الاوراق ورقة مطبوعة باللغة الانجليزية لطلب ما أريد تصويره من المخطوطات . كلم الرجـــل الموظف المسؤول عن

شؤون الكتب ثم قال لي : إنه يقول بعد غد يحضر الموظف المسؤول عن التصوير فتقدم له هذا الطلب ، فأخبرتهما انني سأسافر غدا ، وتوسلت إلى الرجل باسم العلم ومساعدة طلابه أن ييسر لي بغيتي وان يعجلها ، ولكن هذا لم يُجْدِ فقال لي: انه يقول ليس من المستطاع هذا ، وفي هذه اللحظة دخل علينا الدكتور أبو بكر سراج الدين — أو مارتين لينجز كما يعرفونه في المتحف — فقال لي : لماذا تأخرت لقد انتظرتك طويلا . فأخبرته بالسبب ، ورجوته المساعدة بتصوير ما أريد تصويره ، وأفهمته — كما افهمت الموظف — أن غاية ما أريد الآن أن اعرف الاجرة لكي أدفعها فأطمئنّ على الحصول على صورة من تلك الكتب فيما بعد ، وأنني قد عزمت على السفر غدا. فأخذ الدكتور الكتب وذهب مسرعا وبعد وقت قصير عاد إليّ قائلا: تعال ادفع الاجرة ، وتصل اليك الصورة بعد ثلاثة أشهر ، فشكرته وذهبت إلى قسم التصوير في المتحف معه ودفعت ما طلب مِنّي من نقود .

وهذا (*) الرجل الذي تولى الترجمة بيني وبين موظف المكتبة هو الاستاذ سالم الرَّشيدي ، وهو من الحضارمة المقيمين في جزائر الهند الشرقية (جاوة) وقد جاء إلى مصر ، فاقام فيها اكثر من عشرين سنة لطلب العلم ، فتخرج في الأزهر ، وألف رسالة لشهادة (الماجستير) عن (السلطان محمد الفاتح) العثماني ، مطبوعة ، ثم جاء إلى انجلترا منذ ثلاث سنوات لتقديم رسالة لنيل اجازة (الدكتوراه) وموضوع هذه الرسالة (التصوف في جنوب الجزيرة) . وقد ذكرت له بعض المصادر ، ومنها تاريخ وُطيْوِط — لقب صوفي من تهامة معروف .

كان هذا الأستاذ كريمَ النفس كريم اليد ، فقد دعاني إلى الغداء ، فاعتذرت ، وألحّ علي قائلا : تعالَ نتغدّى لتشاهد جوّ الطلاب في الجامعة فشكرته وقلت له : أنا بحاجة إلى زيارة المكتبات التي تُعْنَى بالكتب المتعلقة ببلادنا ، فأرشدني إلى مكتبتين قريبتين من (المتحف البريطاني) لم أجد

(*) اليمامة العدد ٢٦٠ الاحد ١٩ شعبان سنة ١٣٨٠ (٥ فبراير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

فيهما من الكتب العربية التي أريد سوى ثلاثة أجزاء من (تاريخ ابن الفُرات) المطبوع في بيروت ، وكنت قد بحثت عنه هناك فلم اعثر عليه ، فاشتريته من (لندن) وهكذا (بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا) !! وقد دفعني حُبِيّ للكتب الى أن اشتريَ ايضا مجموعة من الكتب الانجليزية ، من كتب الرّحْلات في بلاد العرب ومن الكتب الاخرى المتعلقة بها ومنها ما هو قديم الطبع ، مما كلفني ثمنا غاليا و (مَنْهُومانِ لا يشبعانِ ، طالبُ عِلْمٍ وطالبُ مال) .

* * * *

أبناؤنا في لندن

مع الدكتور حامد حسن :

الدكتور حامد حسن من اقدم الأطباء الذين مارسوا مِهْنَة الطب في بلادنا ، ومن ذوي السمعة الحسنة الذين قاموا بعملهم قياما أورث لهم حميدَ الذكر في هذه البلاد ، فقد أقام في الرياض سنوات ، ثم في جدّة ، وتزوج سيدةً فاضلةً من أهل هذه المدينة ، ثم إنه ترك العمل هناك ، واستقر في لندن ، وفتح مكتبا للاشتغال بالتجارة بطريقة السمسرة (الكومسيون) فأصبحت صلاته قوية حسنة بتجار بلادنا في الرياض وفي جدة .

كان الأخ الشيخ محمد المشعل قد كتب لي عنوانه قائلا : رُبَمَا تحتاجُ إلى أحد في لندن ، والدكتور من خير من يُرْكَن اليه ، وقد حاولت الاتصال به من (هولندا) فلم أتمكن ، فرأيت ألاّ أغادِرَ (لندن) قبل معرفة هذا الرجل ، فاتصلت به ـــ هاتفيا ـــ من الفندق ، فعلمت أنه موجود في مكتبه ، فحضرت اليه . وجدت عنده رَجُلاً من إخواننا أهل جدة بخاريّاً ، يريد الحاق ابنه بالجامعة ، ويريد من الدكتور حامد حسن مساعدته في ذلك ، ورأيت عنده طالبا آخر من طلاب (معهد العلوم السياسية التابع لجامعة لندن) هو ابنٌ للسيد شهاب صلاح الدين ، وسمعت منه كثيرا من اخبار القادمين إلى لندن كالشيخ محمد نور رحيمي ـــ مُدير الجمارك ـــ وغيره .

والدكتور رجل لطيف الْمَعْشَر ، كثير البشاشة ، يستقبل المرءَ اسْتقبالا حسنا ، بِمُحَيّاً طَلْقٍ ، بحيث يحسُّ الإنسان بأن هناك صلات وروابط قوية قديمة بينه وبينه .

عن الطلاب السعوديين

كان الدكتور حامد حسن ، وهو يتحدث عن ابنائنا الطلاب في مدينة (لندن) ـ يكاد ينفجر من التأثر ، فهو غير راض عن سلوك كثير منهم ، وهو غير راض عن دفع المصروفات المقررة لهم بدون رقابة على بعضهم ، وهو كثير الثناء على الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر ، ويتمنى أنّ طلابنا على شاكلته في السلوك الحسن ، والاخلاق الفاضلة .

ويقول الدكتور : بأنه قد أبدى كثيرا من ملاحظاته ـ كتابة ونطقا ـ لبعض الرجالْ المسؤولين في وزارة المعارف ، ومنهم من زاره في مكتبة هذا وفي بيته .

ويقول ايضا : إنّ بعض الطلاب الذين يرسبون في الاختيار يعللون رسوبهم بأسباب واهية ، والسبب الحقيقي انصرافهم عن الدراسة . وضرب لي مثلا بابنيه الّلذَيْنِ في الجامعة ، وانه لا صعوبة في الدراسة ، ولا سبَبَ للرسوب سوى عدم الاهتمام ، والانصراف الى اللهو والعبث .

* * * *

في (لندن) مرة أخرى

كنت [1] في حاجة شديدة إلى الراحة فقد اشتدت عليّ آلام ظهري فأصبحت لا أستطيع إطالة الجلوس للمطالعة أو الكتابة ، وأنا سيّءُ الظن بالأطبّاء لكثرة ما حدث لي من كثير منهم ، فرأيت أن أمضي أطول وقت استطيع إمضاءَهُ في التنقل في أجواء بعيدة عن الاجواء التي ألفت البقاء فيها ، وقد سئمت البقاء في باريس بعد أن مضى لي فيها أربعة عشر يوماً (من ١٣٩٣/٦/١٤ إلى ٢٨ منه) ورأيت السفر إلى لندن لا يكلف كثيراً من النفقة لمن هو في باريس ، فأجرة الذهاب اليها والإياب منها في الطائرة مئتا فرنك (٥٠ دولاراً) وأنا وإن كنتُ زرتها في اكتوبر سنة ١٩٦٠ ومكثت فيها أياما إلا أنني لم اشاهد من معالمها سوى المتحف وحديقتها الكبيرة ، فأنا لا أحسن إلا اللغة العربية ، وكنت وحدي ، أما هذه المرة فمعي ابنتاي سَلْوَا ومُنَا [2] وهنَّ يحسنَّ التخاطب بالانجليزية والفرنسية .

ومع ان المرء يتخذ من تجارب الماضي ما قد يحول بينه وبين الوقوع فيما قد يمرُّ به من المتاعب إلا أنه كثيراً ما ينسى تجاربه ، أو تفوته العبرة منها ، كما قال المعري :

وقد يُخطيءُ الرأيَ امرؤٌ وهو حازمٌ
كما اختلَّ في نظم القريض عبيدُ

وسأشير إلى بعض ما حدث لي بما لم اتخذ من الماضي عبرة في عدم الوقوع

---

(١) مجلة « العرب » — المجلد الثامن — ص ٩٠٧ — .

(٢) القاعدة أن يكتب الاسمان (سلوى ومنى) ولكنني آثرت كتابتهما كما ينطقان ، رفعاً للخطأ في قراءتهما ، وفي نصوص العلماء المتقدمين ما يدل على كتابة الكلمة كما تقرأ ، إذ القواعد الاملائية وسيلة لصحة القراءة ، وليست غاية .

فيه . وسأوجز الحديث وأحصره فيما اعتدت الحديث عنه من وصف مخطوط أو ذكر خاطرة عابرة ، أو التقاء بصديـــق .

ليلة الأحد : (١٣٩٣/٦/٢٨ — ١٩٧٣/٧/٢٨) في الساعة العاشرة كان اقلاع الطائرة من أحد مطارات باريس . وفي الساعة الحادية عشرة كان الوصول إلى مطار لندن ، ثم في القطار إلى محطة فكتوريا .

لقد قالوا : إن المسافر لا يلاقي كثيراً من التعب في البلاد الأوربية ، لتهيئة جميع الوسائل التي قد يحتاج إليها ، غير أن هذا القول مبالغ فيه ، فبعد خروجنا من القطار وقفنا ساعتين مع جمّ غفير من أمثالنا ، عند موقف سيارات الأجرة بقرب المحطة ، في صف طويل من الساعة الثانية عشرة حتى قاربت الساعة الثانية أن تنتهي وقد حار الدم في أرجلنا وأعيانا ما قاسيناه من زحزحة أمتعتنا — على قلتها — أثناء التقدم إلى موقف السيارة ، ولقد أحسنّا صُنْعاً حينما حجزنا مكاناً للسكن عند وصولنا إلى المطار ، إذ لو لم نفعل لجرى لنا أشدّ مما جرى لي أول مرة قدمت فيها إلى لندن ، في عام ١٩٦٠ .

كنت قد عرفت — في زيارتي الأولى — مدينة لندن في المتحف البريطاني عالماً فاضلاً هو الدكتور مارتين لنجز — الحاج أبو بكر سراج الدين — فقد أسلم وحج وتسمى بهذا الاسم عرفته اتفاقاً عن غير قصد ، فكان لي نعم المساعد في كل ما احتجت إليه عندما زرت المتحف ، حتى تمكنت من الحصول على صور المخطوطات التي رغبت الحصول على صورها ، فكنت — فيما بعد — أبعث إلى المتحف بعض مؤلفاتي وأواصل بعث مجلة «العرب» منذ صدورها حتى الآن ، بدون مقابل . وفي صباح يوم الاثنين (١٣٩٣/٦/٣٠ — ١٩٧٣/٧/٣٠) بكرت إلى المتحف ، ففتح الساعة التاسعة ، ولكن الحراس أوقفوني عند الباب الداخلي وطلبوا مني إبراز البطاقة (تيكت) TICKET . وأخيراً فهمت أنه لا يسمح بالدخول في هذا الوقت الا لمن يحمل بطاقة ، وفي الساعة العاشرة يسمح لكل الزائرين .

صرت أسير حول المتحف حتى رأيت في واجهة إحدى المكتبات كتبا

عرفت منها أن المكتبة تعني بالكتب الشرقية فدخلتها ، فإذا هي المكتبة التي اشتريت منها قبل ١٣ عاماً مجموعة من مؤلفات فلبي وغيره من الكتب المتعلقة ببلادنا فسألت عن رحلتي (دوتي) DOUGHTY و (بركهارت) PURKHARDT .

ومع أنني لا أحسن الانجليزية ولم أجد أحداً يحسن العربية إلا أنني فهمت أن المكتبة ستبعثهما لي [١] ، بعد أن كتبت لصاحبتها اسمي كاملاً .

كنت من أول الداخلين في المتحف واتجهت إلى المكتبة الشرقية فيه ، فقد عرفت موقعها . فوجدت في غرفة الاستقبال امرأة شَهْرَبَةً خَبَّةً عابسة الوجه ، ومع أنني قدمت لها ثلاثة كتب من مؤلفاتي هدية للمكتبة وطلبت منها الاتصال بالدكتور (لنجز) ويظهر أنها اتصلت هاتفياً فصارت تكرر كلمة (هوليداي هوليداي) !! وانصرفت عني وحسناً فعلتْ ، فقد تناولتُ فهرس المخطوطات . وكتبت أرقام ثلاثة كتب هي للوزير المغربي « الايناس » و « ديوان التهامي » و « رسالة في منازل الحج » فلما عرضت الأرقام عليها اشارت إلى القلم الذي كان في يدي بأن أدخله في جيبي ورفعت بيدها قلم رصاص ، ففهمت منها أنّ استعمال قلم الحبر ممنوع ، فاضطررت للخروج من المتحف واحضار القلم المطلوب وكتابة أرقام المخطوطات على قسائم مخصصة لذلك أرشدتني إلى موضعها ، وبعد ثلث ساعة أحْضِرت لي الكتب التي طلبها :

١ ـ أما كتاب « الإيناس » فقد تقدم وصفه [٢] .

٢ ـ وديوان التهامي رقمه (RO.378) وفي الصفحة الأولى من البسملة : (اخبرنا الفقيه الفاضل محمد بن علي الأسلمي قال : سمعت القاضي الأديب علامة اليمن نشوان بن سعيد الحميري يقول ـ وقد جرى ذكر

---

(١) تلقيت من المكتبة كتابا ـ فيما بعد ـ بأن الرحلتين طبعتا قديما ، ويحسن طلبهما من مكتبة تعنى ببيع الكتب القديمة ورد ذكرها في الكتاب .

(٢) « العرب » ص ٧٨٤ س ٧ .

ديوان التهامي فقال : اسمه صفد الحلاوي [1] ، قال : وأنا اؤمل – إن مدّ الله في العمر – أن أجمع جمهرة من أشعار العرب أجعل أولها ديوان التهامي هـذا .

والتهامي شريف من أهل مكة من بني علي بن أبي طالب – رضوان الله عليه – واسمه علي بن محمد التهامي انتهي . قلت : قال ابن خلكان في ترجمته ما نصه) ثم لم ينقل شيئاً وفي الصفحة الثانية قصيدة في رثاء ابن له مات في الرملة .

وآخر الديوان قصيدة في مدح مفرّج بن دغفل بن جرّاح مطلعها :

خليليّ هل من رقدة أستعيرها ... لعلي بأحلام الكرى أستزيرها

تقع في ٦٥ بيتاً ، آخرها (الورقة ٢٥ ب) .

أرى المجد إنساناً وقحطان قلبه ... وسوداوه طيٌّ ،وأنت ضميرها

انتهى الموجود من ديوان التهامي آخر الثلث الباقي من الليلة المسفرة عن الربوع لعله ٤ من ذي القعدة سنة ١١٧٣) .

وكاتبه يمنيٌّ ألحق به أشعاراً كثيرة لغير التهامي لمحمد بن اسحاق من متأخري أهل اليمن وللكاتب نفسه ولغيره . ومن أطرف ما فيه قصيدة لزوجة أحد ملوك اليمن حج زوجها ، فقبض طاز أمير الحج المصري عليه وهو في مسجد الخيف ، والقصيدة زائية القافية والبيت ذو أشطار أربعة ، وهي بالعاميَّة اليمنية . وفي آخر الديوان إجازة من كاتبه لوالده ومقطوعات وقصائد يمنية .

وقد طبع ديوان التهامي طبعتين لا يحويان كل شعره ، الأولى في مطبعة الاهرام في الاسكندرية سنة ١٨٩٣ والثانية في دمشق سنة ١٣٨٤ (١٩٦٤) نشرة المكتب الاسلامي بنفقة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حاكم قطر ، عن مطبوعة الاسكندرية . والشاعر التهامي مكيٌّ ، والعناية بشعره عناية

---

(١) فوق كلمة صفد (كذا) مما يدل على شك الكاتب فيها .

بجزء من تراثنا ، وهو ممن انضم إلى الوزير ابن المغربي حينما دعا إلى بيعة أمير مكة بدل الحاكم العبيدي [١] ، وقد ذهب لاستثارة عرب ليبية ضده ، فأمسك وحبس ثم قتل في حبسه سنة ٤١٦ هـ [١] ، ولديوانه مخطوطات كثيرة في بعضها زيادات عما في المطبوعة ، كما في « الخريدة » من شعره ما ليس فيها ، ومن أجرد النسخ التي اطلعت عليها نسخة (الاسكوريال) .

وفي مكتبة يوسف أغا في قونية في تركية نسخة مخطوطة سنة ٥٨٩ رقمها ٤٩٠٥ تختلف عن المطبوعة وعن نسخة المتحف البريطاني أولها — بعد البسملة : (ثقتي بالله . قال أبو الحسن علي بن محمد التهامي يمدح حسّان بن المفرّج بن دغفل بن الجراح :

على الوجد إلاّ أن تلوح خيامُها ؟

وآخره — صفحة ١٧٦/١٨٧ : (وقال يرثي قِطّاً :

ولما طواكَ البينُ واجتاحك الرَّدَى
بكيناك ما لم نبكِ يوماً على قِطٍّ
لقد كنتَ أنسي في الفراش لوحدتي
إذا بَعُدَتْ ذاتُ الوشاحينِ والقرطِ
وقد كنت تحمي ما يدبُّ من الأذَى
إليَّ بقرب منك أو كان ذا اشحْطِ
وتحرسني كالليث يحرس شبله
وتقتل من ناواك بالخطم والَّلبْطِ
ولو كنتُ أدري أنَّ بشراً تغولني
بمثواك فيها لا حتَسَبْتُكَ بالرَّبْطِ

(٢) انظر « العرب » س ٨ ص ٤١٦ .

(٣) انظر ابن خلكان ٣ /٣٧٨ —٣٨١ تحقيق الدكتور احسان عباس والخريدة ٣ /٢٠ « العقد الثمين » ٣ /٤٢٨ .

ولكنَّ أيدي الحادثاتِ بِمَرْصَدِ
إذا أرسلتْ سَهْمَ المنيَّة لم تُخْطِ

فماذا الذي أنعاه منك وما الذي
أعَدِّدُهُ من كفك الباطشِ السبطِ

ومنْ حسن لون في قميصك زانه
قلائد كالدُّرِّ المنظم في السمطِ

فهلْ نافعي أني رثيتك بعد ما
رأيتك تُوْفي لي ، وتحكم بالقسط

فما أنت إلا مثل حظي الذي نأى
وتصحيفه باقٍ يصور في الخط

(ص ١٨٩) تم شعر أبي الحسن علي بن محمد التهامي رحمه الله وغفر له وكان الفراغ من نسخه في الخامس عشر من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وخمسمائة بمدينة قوص ، حرسها الله) .

هذا وفي « الخريدة » [1] مما ليس في المطبوعة قصيدة مطلعها :

أما لظلام ليلي من صباح ؟ أما للنجم فيه من براح ؟

ـ ثمانية أبيات ، ومقطوعة لامية في أربعة أبيات ، مطلعها :

مالي بما جرَّ طرفي من جَنى قِبَلُ
كانتْ غراماً لقلبي نظرةٌ قُبُلُ

والتهامي هو صاحب القصيدة المشهورة :

حكم المنية في البريَّة جاري ما هذه الدنيا بِدَارِ قرَارِ

(١) ٣/ ٢٠ (قسم الشام) .

٣ – رسالة في منـازل الحج : تقع هـذه الرسالة في مجموع رقمه OR.1034. يحوي :

(١) الطرق الواضحات في عمل المناسخات – من الورقة الأولى إلى التاسعة – ومؤلفه محمد بن أبي بكر بن الصارم ، سبط الحسن بن محمد بن نبهان السوحي (؟) الرحيجي (؟) مخطوطة سنة ٩٣٥ هـ .

(٢) مختصر الموعدة في صناعة الغبار ، لابن السبط أيضاً – من ٩ إلى ٢٥ .

(٣) رسالة في معرفة منازل طريق مكة من ٢٥ إلى ٣٩

(٤) حاشية في الفرائض من ٤٠ إلى ٨٨ .

وتواريخ نسخ تلك الرسائل مختلفة ، والذي يعنيني منها هي المتعلقة بمنازل طريق مكة . وقد كتب في طرتها : (كتاب يشتمل على معرفة المنازل والمياه المشهورة بدرب مكة المشرفة ، غفر الله تعالى لمؤلفها وللمسلمين اجمعين) وكتابات باسماء من ملكوا الكتاب منها : (برز المرسوم الكريم العالي المولوي الأعظمي السيفي حاخم ناظر الحرم الشريف المكي نفعه الله . . .) وفي آخر الرسالة : (في ملك العبد العقير إلى الله تعالى الراجي عفو ربه القدير محمد بن محمد ناصر الدين العسقي (١) في شهر شعبان المكرم سنة خمس وسبعين وثماني مائة) .

وأول الرسالة: (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . قال الشيخ الامام العلامة محمد بن عبد القادر الحنفي عفى الله عنه وعن جميع المسلمين : الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان) إلى أن قال : (وبعد فإنه لما كان الحج إلى بيت الله الحرام فرض من فروض الاسلام على كل فرد من أهل الاسـلام ، بشروط مـذكورة في كتاب الملك العـلام ، استخرت لله تعالى في ذكر في مناسكه من كلام من تقدم من العلماء وسبق من اعيان الفضلاء ، وقدمت على ذلك ذكر المنازل المشهورة ، تعمد (؟) في ذلك على افاضل الادلاء، وذكرت ما عاينت من العلامات ، وباشرت من الاشارات

(١) لعله (الدمشقي) .

وذكر مسافة كل منزلة بالساعات ، بطريق صحيحة لا يدخلها الخلل ، ولا يمر باحتها الزلل ، وذلك بسير الابل المثقلة ، ومشي الأقدام ، فجاء بحمد الله على أحسن نظام) ثم بدأ بوصف بركة الحجاج المنزلة الأولى لحجاج القاهرة ومن يقوم من الحجاج على طريقها . وآخر الرسالة في الورقة الـ ٣٩ب : (ومسافة هذه المرحلة ست ساعات ، ثم الرحيل من العديبية [١] إلى مدينة الينبع (؟) وهي رحلة متسعة مسافتها ثمان ساعات ، والمراعي في الطريق كثير ، وشجر السمر قليل . والطريق كلها رمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، تمّ الجزء والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم) . وتقع الرسالة في ١٥ ورقة صغيرة المكتوب منها ٣٠ صفحة الاولى اسم الكتاب والاخيرة فيها ٤ سطور وفي كل صفحة ١٧ سطراً .

رغبت في تصوير كتاب « الايناس » والرسالة المتعلقة بوصف منازل الحج ، فتناولت ورقة أعِدّتْ لتقديم طلب التصوير ، كتبت فيها رقم الكتابين ، وعنواني الكامل ولما قدمتها للسيدة التي تسجل الكتب وتطابها للمطالعين لم أستطع التفاهم معها ، فدعت شاباً يجيد اللغة العربية فحيّاني وشكرني على ما قدمت للمكتبة من هدية، وقدم لي كتاباً بهذا المعنى وقعه أمامي ، وقال لي : إنه المسؤول في هذه المكتبة ، وأنه على استعداد لمساعدتي فأظهرت له رغبتي بتصوير الكتابين ،وقدمت له الطلب فقال : إن تصويرهما على الورق يكلف مبلغاً كبيراً فلما استوضحت منه عن مقداره قال بالحرف : الورقة الواحدة عشرون ليرة – كان قد تعلم في بيروت – فاستغربت هذا وأخرجت من جيبي قطعة من النقد ذات العشرة بنسات وقلت : عشرة من مثل هذه ؟! فقال : لا أكثر فاخرجت له جنيها فقال : عشرون من هذا !؟ فحاولت أن أوضح له خطأ رأيه ، ولكنه أصرّ ، فتناولت إحدى الأوراق التي حددت فيها الأجرة من الأوراق المطبوعة فقال : إنه لا يعرف شيئاً عن هذا المكتوب ويعتقد أن ما قاله عن تحديد الأجرة صحيح ، فطلبت منه أن

---

(١) كذا وصوابها (العذيبة) .

يرشدني إلى القسم المختص بهذا الأمر فقال : إن المكتبة فصلت منذ أسبوع عن المتحف ، والأموز المتعلقة بتصوير الكتب لم تنتظم بعد ، فأظهرت له رغبتي في الاتصال بالدكتور مارتين لنجز ، فقال : إنه أصبح الآن مديراً . فقلت : وليكن ما يكون ، أذكر له اسمي فقد يذكرني . فتكلم في الهاتف . وقال : انه يعتذر لأنه مشغول ، ويمكنني العودة الساعة السادسة ، فأخبرته بأنني لا استطيع المجيء في ذلك الوقت . فقال : إن الدكتور لنجز في إجازة وسوف لا يحضر إلا بعد اسبوع . فقلت : ألم يكن هو الذى تحدثت معه ؟! فقال : تحدثت مع سكرتيرته . ولما أوضحت له أنني سبق أن صورت مخطوطات من المكتبة ، وأنني دفعت المبلغ المطلوب مني وقدمت الطلب ، فأرسلت إليّ بعد ثلاثة أشهر . قال هذا الأمر الآن ليس ممكناً بعد أن فصلت المكتبة عن المتحف ، ولا يمكن أن نتسلم الأجرة مقدمة . ومن الممكن أن تقدم الاجرة تحويلاً (شيكاً) على أحد المصارف في لندن ، ولكنني لا اعرف مقدارها . فسئمت من معالجة الأمر معه ، ورأيت أنه لا فائدة من ذلك ، ويظهر أنه أراد أن يقلل من تأثري فسار معي وأنا خارج يحادثني ، ويخبرني بأنهم أعدوا فهرساً جديداً للكتب التي وصلت المكتبة مما لم يذكر في الفهارس المطبوعة ، ومن ذلك ما بعثت به ، وعرض عليّ اطلاعي على ذلك الفهرس ولكنني أظهرت له عدم رغبتي في الاطلاع عليه . وفي مساء هذا اليوم كرم الأستاذ عبد الله بن علي النعيم فزارني ، ولما حدثته بما جرى حول تصوير ما رغبت تصويره أبدى – زاده الله فضلاً ونبلاً – استعداده لتصوير كل ما ارغب تصويره ، واوضح أن هذا الأمر ليس بالمستعصي أو الصعب ، وان الأجرة لا تزيد عما هو موضح في تلك الورقة المعدّة من قبل المتحف لإيضاح أجرة تصوير المخطوطات أو المصورات . وقد كان وفياً كريماً فكان لي خير عون فيما كنت أحتاج اليه من كتب مصورة من المتحف .

لم (*) تَطِبْ نفسي بَعْدُ من زيارة المكتبة مع ما صُدِمْتُ به من عدم

(*) مجلة « العرب » – المجلد التاسع – ص ٨٢ – .

تحقيق رغبتي في تصوير ما رغبت تصويره ، فذهبت إليها ومعي ابنتاي ليساعداني على الترجمة ، ولكنني قبل أن أدخل وذلك في صباح يوم الثلاثاء ، غرة رجب سنة ١٣٩٣ (١٩٧٣/٧/٢١) قال لي حارس واقف في الممر اليها كلاماً فهمت أنه يطالبني بتذكرة الدخول ، فافهمته انني أمس كنت في المكتبة فتركنا كلنا ، ولكننا عندما أردنا الجلوس جاءت تلك السيدة الشهْربَة فأمرت ابنتيّ بالخروج ولما أظهرت لها الحاجة إلى بقائهما قالت : (انهن صغيرات ولا يسمح بدخول مثلهن) فخرجن ، ثم كتبت أسماء ثلاثة كتب رغبت الاطلاع عليهما على الورقتين المعدتين لذلك ، وعندما قدمتهما — كالعادة — لتلك السيدة أمطرتني بوابل من الكلام الذي لا أفهم معناه ، فاكتفيت أن عدت إلى المكان الذي وضعت رقمه فوق الورقتين ، ومكثت وقتا أطول من الوقت المعتاد لإحضار المطلوب من الكتب ، فما شعرت إلا برجل سمح الوجه حسن اللحية فصيح الكلام ينحني علي هامساً قائلاً : أنا الشخص المسؤول هنا هل استطيع مساعدتك ؟ فقلت : طلبت احضار كتب ثلاثة أرغب الاطلاع عليها ، فقال : أين البطاقة التي تخوِّل لك الدخول هنا ؟! — وهذه هي الكلمة التي قيلت لي قبل ثلاثة عشر عاماً عندما دخلت هذا المكان ، فلم استفد من التجربة الأولى — فأجبت الرجل بأنني أجهل ضرورة احضار تلك البطاقة كما أجهل طريقة الحصول عليها ثم اخبرته بأنني سبق أن وجدت في هذه المكتبة رجلاً طيباً كان لي خير عَوْنٍ فيما احتجتُ اليه هنا وذكرت له اسمه فأثنى عليه ثم رأيت منه فتوراً أو تباطؤاً في مساعدتي في احضار ما طلبت ، فاوضحت له أنني — اثر مساعدة ذلك الرجل الطيب لي — صرت أبعث إلى هذه المكتبة كل كتاب أقوم بطبعه ، مع المجلة التي أصدرها منذ سبع سنوات وعلى أقل تقدير فأنا ارغب الاطلاع على الكتب التي كتبت أسماءها ، وأعدك بأنني لن أعود إلا ببطاقة ، فاظهر الرجل استعداده لمساعدتي بعبارة مهذبة ، وقال لي : يحسن تسجيل اسمك في دفتر مخصص لذلك . ولما استوضحت منه عن الغاية من التسجيل كان مهذباً فقال :— وقد يكون قوله قريباً من الصواب : إنه

مخصص لعظماء الزوار (؟!) لتسجيل تواقيعهم في هذه المكتبة . ومهما يكن فقد اطلعني على ما طلبت ،وقد رأيت الرجل عامل فضيلة الشيخ عبد الله بن عمر بن دهيش – رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة سابقاً – بنفس المعاملة والرجل يدعى ياسين الصفدي وهو مهذب حقاً . وكان من الكتب التي طالعتها هذا اليوم :

١ – « النفحة المسكية في الرحلة المكية » : من هذا الكتاب في المتحف نسختان أحدهما رقمها (ADD 23385) وتقع في ٢٢٢ورقة مخطوطةسنة ١١٥٩ بخط نسخي جميل ، وصفحتاها الاوليان مزوقتان ، ويظهر أنها النسخة التي قدمها المؤلف لوالي بغداد أحمد باشا الذي استأذن منه في سنة ١١٥٧ للحج ، وعيب هذه النسخة :

(٢) تخرق من ورقها من أثر أرضة ١٣ ورقة فذهب ما في الخروق من الكتابة . أما النسخة الثانية فرقمها (ADD 18518) وتقع في ١٤٩ ورقة . والنسخة كاملة وكتابتها مقروءة بالخط النسخي ، وان كان الحبر باهتاً . وفي هامش الورقة الأخيرة : (أجرى مؤلفها نظرة عليها فصحح ما كان فيها من الغلط والتحريف . إلا ما زاغ عنه البصر ، كتب ذلك مؤلفها الفقير أبو البركات عبد الله المعروف بالسويدي) ثم ختم مكتوب فيه (ثقة بالله عبد الله بن حسين) وهو المؤلف .

وفي الصفحة الاولى (قد صار هذا الكتاب بعد موت مالكته رقية بنت الشيخ عبدالله السويدي من حصة المفقود (؟) ابراهيم السويدي ، وكتب علي السويدي عفى الله عنه) ثم أسماء بعض السويديين . وفي هامش الورقة (١٣٨) حاشية نحوية بتوقيع (محمود الألوسي) .

أول الرحلة بعد البسملة : (أحمدك اللهم يا من سهلت لمن أمّ بيتك صعوبة المسالك) إلى أن قال : (وسميته بالنفحة المسكية ، في الرحلة المكية ، وأحببت أن أقدم قبل الشروع فصلين . . . أحدهما في ترجمتي . . . الفصل الثاني كان السبب في توجهي إلى مكة المكرمة نجاتي من يد الظالم الغشوم ، نادر شاه) .

وذكر ان من عادة من يتولى التدريس أو القضاء أو غيرهما من الاعمال الاستئذان للحج ، وأنه استأذن من الوزير أحمد باشا يوم السبت ١٨/٣/١١٥٧ . وذكر في الفصل الاول اسمه عبد الله بن حسين بن مرعي بن ناصر الدوري ، وأنه عرف بالسويدي نسبة إلى سويد أبي عمه من الأم (!) والدوري نسبة إلى الدور قرية شرقي دجلة على شاطئها ، فوق سُرَّ من رآى عن بغداد أربع ساعات ، وذكر انه ولد سنة ١١٠٤ وأنه الف الرحلة سنة ١١٥٧ ، وعمره ٥٣ سنة وأطال في ترجمته في ذكر شيوخه وأبنائه (من الورقة الاولى إلى الورقة العاشرة) .

وخصص الفصل الثاني في ذكر مناظرته لعلماء الشيعة (من ٢٠ ــ ٢٥) وهذا القسم مطبوع .

ثم وصف ارتحاله من مغادرته بغداد إلى الموصل فالرها فحلب منزلة منزلة (من ٢٥ إلى ٣٩) .

وأطال الحديث عن حلب (من ٣٩ إلى ٧٨) .

وذكر ما مر به منها إلى دمشق من القرى (٧٨/٨٨) .

ثم تحدث عن دمشق (٨٨/١١٤) ومن لقيه من العلماء . ووصف الطريق منها إلى معان (١١٤/١١٧) .

ثم من معان إلى المدينة (١١٧/١٢٢) .

وتحدث عن المدينة (١٢٣/١٢٥) ووصف الطريق منها إلى مكة (١٢٦/١٢٨) وتحدث عن مكة (١٢٩/١٣١) ووصف الطريق منها إلى المدينة بإيجاز (١٣١/١٣٣) وذكر المدينة ثم سفره منها إلى الشام وأنه وصل الشام في ٥ صفر سنة ١١٥٨ ، ثم سفره من دمشق إلى حلب (١٣٩/١٤٩) .

وختم الرحلة بقوله : (إلى هنا أحببنا ختم الرحلة إذ لم يبق إلى بغداد إلا طريق البر ، ولا فيه قرية ولا أرض مشهورة ، موصوفة . نسأل الله أن يختم بالصالحات اعمالنا).

تمت هذه الرحلة على يد الحقير الفقير اضعف العباد الراجي عفو ربه ورحمة الله ، المنلا علي بن عبد الله ، في سنة ١١٦٠ ربيع الآخر) . ومن هذه الرحلة نسخ — في مختلف دور الكتب .

٢ — زهر الرياض : واطلعت على المجلد الثالث من « زهر الرياض وزلال الحياض » تأليف الحسن بن عليبن شدقم رقمه(ADD 7349)، في التراجم وأولها (مالك إمام المالكية) وآخرها : (مهيار بن مرزويه الشاعر) ويقع في ٣١٧ ورقة من القطع الكبير في الصفحة ١٩ سطراً ، مكتوب بخط النسخ الواضحسنة٩٩٥ في حياة مؤلفه، ويدعىكاتبه يحيى بن شمس بن أحمد بن شمس البحراني البلادي . ويعني بتراجم رجال الشيعة ، ويظهر أن مؤلفه خصصه لهم وقد يضيف إليهم بعض مشاهير الحجاز ، كما يدل على ذلك إيراده ترجمة الإمام مالك . وهو يطيل بعض التراجم أحياناً ، كما فعل في ترجمة (أبي نمي) فهيمن ٢٣ إلى١٥١في١٢٥ ورقة وقد ترك ورقات ثلاثاً خالية من الكتابة وقد يوجز بحيث لاتكمل الترجمة صفحة واحدة . ويورد استطراداً كثيراً من أشعاره ورسائله ، وأشعار غيره ، ولهذا ففيه نصوص أدبية تهم دارسي الأدب في الحجاز في القرن العاشر الهجري ، ويورد بعض معلومات لا صلة لها بموضوع الكتاب ، ولكنها مفيدة فقد أورد (ق ٤٠) ما هذا ملخصه : (هذه صورة إقطاع الرحضية ، وعليها خط الشريف المرحوم أبو نمي : الحمد لله العلي مجده ، العظيم سلطانه الغالب جنده . . اقطع مولانا السيد الشريف . . ملك الحرمين وسلطانها . . . أبو نمي بن بركات بن محمد بن بركات . . . الأشراف الأجلاء آل شدقم ، وهو (؟) حسن بن علي بن شدقم وأحمد بن سعد الحمزيان الحسينيان (؟) جميع القرية الخربة ، الكائنة بالحرَّة (؟) إلى أنصار الرسول، على ما نصّ عليه مؤرخو المدينة الفحول، المعروفة قديماً بالأرحضية، وحديثاً بالرحضية ، الواقعة في جهتها الشرقية ، يحدها من القبلة (الحجرية) ومن الشام (تعار) ومن المشرق (القبيبة) [1] ومن الغرب (غراب)

---

(١) كذا والصواب : (تعار) و (القنينة) كما في رسالة عرام .

و (الزورة) بجميع حدودها وما يتعلق بها من آبار ومزارع وأودية وحصون ومشارب وتوابع) ــ انتهى ملخصا ــ .

وفي الخزانة التيمورية المضافة إلى (دار الكتب المصرية) برقم (٦٣٧ تاريخ) جزء لا أشك أنه من هذا الكتاب ، وقد نقلت منه طرفا من ترجمة علي بن مقرب ، وبيان ولاة الاحساء من العيونيين ، فيما أضفته إلى كتاب « تاريخ الاحساء » [١] للشيخ محمد بن عبد القادر رحمه الله ، وكتبت في وصف ذلك الجزء : (هذا المخطوط في التراجم ، وجلُّ من ترجموا فيه من الشيعة ويظهر أن مؤلفه شيعي إذ أورد فيه من شعره قوله :

قل للمطايا إذا أبلغتني حسناً ... أجارك الله من شدٍّ وترحالِ
ترْعين سوماً ونفشاً في حمى حَسَن ... رعيَ الجوازي وآرامٍ بذي ضال

ووالد المؤلف كان رحالة فقد جاء إلى المدينة قادماً من الهند (الورقة ٤٠١) والمؤلف من أهل القرن العاشر الهجري وكان في سنة ٩٧٨ في مدينة (أحمد نكر) في الهند (الورقة ٤٣٩) ثم نقلت موجز ترجمة ابن مقرب وقد ادخل فيها تفصيلاً عن العيونيين حكام الأحساء ، وأضيف الآن بأن تلك المخطوطة فيها نقص في أولها وآخرها ، وأنها تشبه إلى حد كبير مخطوطة المتحف البريطاني في الكتابة ونوع الورق ، ويظهر أنها الجزء الثاني من الكتاب .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن شدقم الحسيني المدني [٢] ولد في المدينة سنة ٩٤٢ وتوفي في الدكن سنة ٩٩٩ ، ومن مؤلفاته :

١ ــ الجواهر النظامية من حديث خير البرية .

٢ ــ زهر الرياض وزلال الحياض ــ اربعة مجلدات .

---

(١) ج ١ ص ٣٥٠ / ٣٥٤ ط مطابع الرياض سنة ١٣٧٩ / ١٩٦٠ .

(٢) « اعيان الشيعة » ٢٢ / ٢٦٩ ومقدمة « زهرة المقول » لعلي بن الحسن بن شدقم ، وكاتب المقدمة الاستاذ محمد حسن الطالقاني صاحب مجلة المعارف سنة ١٣٨٠ (١٩٦١ م) .

٣ — رسالة في أخبار الفضائل .

٤ — المسائل الشدقمية .

٥ — المستطابة في نسب سادات طابة .

وله شعر أورد صاحب « السلافة » مقتطفات منه .

وكنت حدثت مؤرخ طيبة الطيبة السيد الجليل عبيد مدني عن هذا الكتاب ، فوعدني بأن يبعث إليّ بما يعرفه عنه ، وها هو ملخص ما أتحفني به حوله قـــال :

أما كتاب « زهر الرياض وزلال الحياض » فأني اقتطف بعض ما كتبته في التعريف به في مسودات « تواريخ المدينة المنورة ومؤرخوها » :

يقع في ثلاثة اجزاء أو أكثر أوله : (الحمد لله على جزيل نواله . . .) وهو في (التواريخ والسير وأخبار الخلفاء والأئمة وما يتعلق بالمدينة) .

وسماه كل من تعرض للكلام عنه « زهر الرياض . . . » إلا السيد محمد صادق آل بحر العلوم فقد دعاه « زهرة الرياض » ولعل ذلك سبق قلم أو خطأ مطبعي. قرأت قديماً في « الجواهر الثمينة في محاسن المدينة » للسيد كبريت المدني نقولاً عزاها لِكتاب اسمه « زهر الرياض » ولا أذكر أنه سمى مؤلفه ولكن ني كلامه عنه ما يشفّ انه من أهل المدينة فقد قال مرة بمناسبة تمر المدينة وأنواعه : قال في « زهر الرياض » وصاحب الدار أدرى ص ١٦٩ حسب نسختي المخطوطة . كما قرأت في « عمدة الأخبار في مدينة المختار » عدة نقول تتعلق بتاريخ المدينة ، نسبها للشريف حسن بن علي بن شدقم منها : عن بعض الآطام ص ٢٧ الطبعة الثانية وعن موضع بستان النواعم ص ٢٨ وعن بئر السقياص ٢١٤ وصرح باسمه هنا وعن حديقة السرارة ص ٢٧٣ وعن قلعة باب الشامي وسوق المدينة ص ١٧٠ — ١٧١ وهنا قال :

— قال أحمد بن عبد الحميد العباسي : إذا أنا أطلقت في هذا الكتاب . (قال السيد) فالمراد منه السيد السمهودي مؤرخ المدينة ، وإذا أنا قلت : (قال الشريف) فالمراد منه الشريف حسن بن علي بن شدقم المدني مؤرخ المدينة.

ولكن لا أذكر ايضا أنه سمى الكتاب فانطبق عليه وعلى السيد كبريت قول الشاعر :

فماءٌ بـــلا مــرعى ومــــرعى بغــير مــاء

فهذا ذكر المؤلف ولم يذكر الكتاب ، وذاك ذكر الكتاب ولم يذكر المؤلف على ما ظهر لي منهما .

وكدت اقتنع أنهما كتابان وبعد يسير من الجهد وشيء من الوقت أسفر التتبع والمراجعة عن أن الكتاب الذي دعاه السيد كبريت بزهر الرياض هو تأليف الشريف حسن الشدقمي . وإن صحّ ما أخذت به فإنّ النبذ التي ذكرتها عن هذا الكتاب ومما يرجح وجوده فيه مما لم ينقل تدل على عظم أهميته بالنسبة لتأريخ المدينــة .

أين يوجد ؟ الجزء الثالث منه في المتحف البريطاني بلندن كما جاء في ايضاح المكنون ٦١٨/١ وفي هدية العارفين ٢٩٠/١ إلا انه هنا لم يعين أي الأجزاء ، وجرجي زيدان ٣٣٧/٣ في تأريخ آداب اللغة العربية (ثم وصف نسخة المتحف البريطاني وقال) :

واخبرني الصديق الاستاذ السيد مصطفى عطار ان الجزء الثاني من هذا الكتاب موجود في مكتبة السيد محمد حسين آل كاشف الغطاء على ما أخبره به بعض علماء النجف .

وانقل اليكم ما نقلته من مجلة « المكتبة » التي يصدرها قاسم الرجب في بغداد ــ ٥ العدد ٦٩ السنة العاشرة شباط سنة ١٩٧٠ .

زهرة الرياض وزلال الحيــاض :

كتب الاستاذ السيد صالح الشهرستاني في العدد ٦٧ من (المكتبة) تعريفا موجزا ودراسة مختصرة عن هذا الكتاب والمجلد الثالث منه الموجود في مكتبة الامام الرضا (ع) بخراسان برقم ٤٢٤٢ مع ذكر ترجمة بسيطة لمؤلفه وقد لفت نظري فيه وقوع نقص وهفوات فرأيت اتماما للفائدة المرجوة من نشر هذه البحوث القيمة أن أنبه إلى تصحيح تلك الاشتباهات :

إن الكتاب يقع في مجلدات على التواريخ والسير وأخبار العلماء والأئمة وما يتعلق بالمدينة وهو للسيد أبي المكارم بدر الدين الحسن ـ لا الحسين ـ ابن علي بن الحسن بن علي بن شدقم بن خامن [1] بن محمد الحسيني المدني المعروف بابن شدقم المتوفي سنة ٩٩٩ لا انه ولد سنة ١٠٢٦ وتوفي سنة ١٠٩٠ تقريبا كما جاء في المقال . ذلك ان المؤلف له اجازة تأريخها سنة ٩٨٣ من الشيخ نعمة الله بن أحمد بن محمد بن علي خاتون وله مؤلفات أخرى منها « الجواهر النظامية من حديث خير البرية » فرغ من تأليفه سنة ٩٩٢ وقد وضعه لنظام شاه سلطان حيدر آباد ويشتمل على أخبار كثيرة ومحاسن اخلاق ورسالة في اخبار الفضائل وديوان شعر كبير . والمؤلف ولد بالمدينة سنة ٩٤٢ وبها نشأ ثم رحل إلى الهند وتوفي بالدكن من بلادها في ١٤ صفر ودفن هناك ثم نقل إلى المدينة فدفن بالبقيع .

أما نسخ الكتاب فقد رأى الأول والثاني منه صاحب الذريعة كما في ج ١٢ ص ٧٠ ورأيت المجلد الثالث الذي وصفه الاستاذ الشهرستاني في مخطوطات مكتبة مدرسة الفاضل الشرياني في النجف وذكرته في مقالي عن الآثار المخطوطة في النجف المنشور في مجلة العدل بعددها ٤٣ و ٥٠ من السنة الثالثة والنسخة بخط نور الدين ابن أحمد الوفائي الأزهري وقد كتبها سنة ١٠٥١ وهي بقطع الوزيري كبير . وتوجد منها نسخة في مكتبة جامعة طهران كما في فهرسها ١٩٢٢/٣ .

وقد ورد ذكر المؤلف غير ما ذكره الاستاذ من المصادر وكتب الرجال : في كتاب هداية العارفين ٢٩٠/١ وتأريخ آداب اللغة العربية ٣١٥/٣ وايضاح المكنون ٦١٨/١ ورياض العلماء ٣٤/٢ ومعجم المؤلفين ٢٥١/٣ والذريعة ٧٠/١٢ .

هذا ما أردت بيانه ولعل الوقت يسمح لي بالكتابة عن هذا المؤلف فقد جمعت عنه من المعلومات الشيء الكثير . وللاستاذ مني الاحترامات والشكر المتواصـــل .

---

(١) لعله (ضامن)

وكان مما طالعت كتاب [1] « نشر العلم في شرح لامية العجم » تأليف محمد بن عمر بحرق الحضرمي (٩٣٠ هـ) ورقمه في المتحف البريطاني OR 3165 دفعني إلى مطالعته أنني رأيت في وصف مخطوطته أن كاتبها عثمان بن أحمد النجدي وكان فراغه منها في جمادى الأخيرة من شهور سنة ١٠٩٢ ، وعثمان هذا عالم طموح ذو همة عالية ، أورد له ابن حميد في « السحب الوابلة » [2] ترجمة موجزة ، فقال عنه : (عثمان بن أحمد بن سعيد بن عثمان بن قائد — بالقاف — النجدي مولداً ، الدمشقي رحلة ، القاهري سكناً ومدفناً) . وذكر انه ولد في بلدة العُيَيْنة ، ولم يحدد سنة ولادته ، وأنه قرأ على علامة الديار النجدية في ذلك العهد الشيخ عبد الله بن محمد بن ذهلان المتوفى سنة ١٠٩٩هـ ، وبه انتفع ، وذكر أنه ابن عمته ؛ وأن الشيخ ابن ذهلان من آل سحوب من بني خالد ، ولكنه لم يذكر إلى من ينتسب ابن قائد، وذكر انه ارتحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها الفقه والأصول والنحو وغيرها ،وحضر دروس شيخ الحنابلة بها ومفتيهم محمد أبي المواهب، فوقع بينه وبينه نزاع في مسألة : إذا تساوى الحرير وغيره في الظهور ، أو زاد الحرير إذا كان مسدى بالحرير ،ملحما بغيره، وأخرجته الصناعة فظهر السَّدَى وخفيت اللحمة ،فقال أبو المواهب بالحلّ ،وقال ابن قائد بالحرمة، وطالت بينهما المنازعة ،وكان احتداد الشيخ أبي المواهب سبباً دفع ابن قائد إلى مغادرة دمشق إلى مصر ، وهناك اتصل بالعلامة الشيخ محمد بن أحمد الخلوتي قال ابن حميد : (فأخذ عنه دقائق الفقه وعدة فنون ، وزاد انتفاعه به جداً حتى بهر وحقق ودقق ، واشتهر في مصر ونواحيها ، وقصد بالأسئلة والاستفتاء سنين). وتوفي الشيخ ابن قائد في مصر يوم الاثنين ١٤ جمادى الأولى سنة ١٠٩٧ هـ ومن مؤلفاته :

١ — حاشية على كتاب « المنتهى » في الفقه الحنبلي قال عنها ابن حُميد : (نفيسة مفيدة جرّدها من هوامش نسخته تلميذه ابن عوض النابلسي فجاءت في مجلد ضخم) .

---

(١) مجلة « العرب » — المجلد التاسع — ص ٢١٦ — .

(٢) ما في « عنوان المجد » و « الاعلام » لا يزيد على ما في هذا الكتاب ، وقد أوردته

٢ — رسالة في الكلام على أيّ المشدّدة ، مرتبة على ثلاثة فصول وخاتمة الفصل الأول في أقسامها ، والفصل الثاني فيما يلزمها من الإضافة ، الفصل الثالث في أي الموصولة ، والخاتمة في فهم ما يتعلق بأي الموصولة ، وتقع هذه الرسالة في سبع ورقات مقياس ٢٠×٣٠س م وهي في الخزانة التيمورية في (دار الكتب المصرية) في المجموع رقم ١٠٥ ، والأصل الذي بخط المؤلف موجود في الدار المذكورة ضمن مجموعة في النحو من كتب مصطفى باشا برقم ٧٠ (نحو) .

٣ — رسالة في أحكام الرضاع .

٤ — شرح البسملة .

٥ — مختصر « درة الغواص في أوهام الخواص » في اللغة مع تعقبات يسيرة .

٦ — « نجاة الخلف في اعتقاد السلف » رسالة في بيان أنواع التوحيد ، مطبوعة في « مجموعة الرسائل المنيرية » في القاهرة .

٧ — « هداية الراغب ، شرح عمدة الطالب » في الفقه الحنبلي ، والعمدة للشيخ منصور البهوتي (المتوفي سنة ١٠٥١) . وقد طبع هذا أيضاً ضمن مطبوعات آل ثاني حكام قطر .

وقد أطلت النفس حول الشيخ ابن قائد لأنه يستشف من أخباره وأحواله أنه من أفذاذ العلماء في عصره ، فقد بلغ به طموحه إلى مغادرة وطنه لطلب العلم ، ثم بلغ من أنفته وعزة نفسه ، بل ومن ثباته على رأيه أن غاضب شيخه ، وهجر بلدته ولم يعد إلى وطنه ، ولم يخُر عزمه ، بل استمر في سبيل طلب العلم وواصل التغرب ، ثم بعد ذلك رأيناه لا يقف عند ناحية واحدة من نواحي العلم ، فقد كان علماء عصره في بلاده يكتفي أحدهم بما يناله من علم الفقه مما يهيء له منصباً في القضاء أو الإفتاء ، أما الشيخ ابن قائد فها هو يؤلف في اللغة وفي النحو ، ويشغل نفسه بنسخ كتب الأدب وهو في آخر حياته . وجانب مهم من جوانب حياة هذا الشيخ هو أننا

نجده في كتابه « نجاة الخلف » يطرق موضوعات لم نعهد أحدا من علماء ذلك العصر طرقها ، كتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، والاقتداء بالسلف الصالح في أمور العبادة والاعتقاد ، وكلها أمور لا يجرؤ على الجهر بها في ذلك العصر إلا من اتصف بالشجاعة والصراحة ، وسمو الغايـــة .

وأعود للحديث عن خط الشيخ قال ابن حميد : (وكان خطه فائقاً مضبوطاً إلى الغاية) وأقول : لقد اطلعت على نماذج من خط الشيخ ، فرأيت قبل عشرين عاما نسخة من كتاب « عمدة الطالب » بخطه لدى كتبي دمشقي يدعى يعقوب ، ثم رأيت « نشر العلم » وقد كتبه قبل وفاته بخمس سنوات ، فرأيت خطاً متقناً ، ولكن ليس جميلاً .

السبت ١٩٧٣/٨/٤ ــ مع ما سرت عليه ــ اثناء رحلاتي ــ من محاولة التخفيف على أصدقائي وإخواني بدرجة دفعتني إلى عدم الرغبة في مقابلة كثير منهم في البلدة التي أقدم اليها وهم يقيمون فيها ، إلا أنني مع الصديق الاستاذ الشيخ عبد العزيز المنصور التركي الملحق الثقافي في هذه البلاد خرجت عن طريقتي المعهودة ، ذلك أن أبا خالد ــ ادام الله له الخير ــ ليس (عمدة للمعارف) في لندن كما يدعوه بعض الظرفاء ، بل كان عمدة لكل السعوديين على اختلاف طبقاتهم قل أن يقدم أحد مدينة لندن ثم يغادرها دون أن يرى الاستاذ ، وقلّ أن زارها أحد ممن هو بحاجة إلى عون أو مساعدة ثم لا يجد منه من ذلك ما هو بحاجة إليه . ولقد لازمته يوماً كاملاً فلم أره استقر في منزله غير ساعات من بعد منتصف الليل ، فهذا قادم لا بُد من استقباله في المطار ، وهذا مسافر يحتاج إلى توديع ، وهذا زائر يجب أن يزار في هذا الصباح ، وذلك آخر زيارته في المساء ، وهذا أمير يتصل هاتفيا من تونس ــ مثلا ــ ليوصي بإدخال أحد مرافقيه في المستشفى ، وهذا تاجر يرجو الاستاذ أن يتصل بطبيب عالجهُ يوما ما ليستوضح منه عن أمر ذي صلة بعلاجه ، وهذا مريض بحاجة إلى الاسراع في الرحيل به إلى بلاده ، بل قد يحتاج إلى رحلة أطول ، ولا يدري القائم بأموره ماذا

يفعل فيتصل بالاستاذ عبد العزيز . كل هذا وأكثر منه مضافا إلى عمله يدفع من يعرفه إلى أن يستعمل معه من الرأفة به ما هو بحاجة إليه ولهذا فلم أتصل به إلا قبل السفر من لندن بيومين أمضيت آخرهما في ضيافته في بيته ، فازددت رحمة به من كثرة أعماله ومعرفتي بالشيخ عبد العزيز تمتد إلى ما قبل ٣٥ عاما ، وكنت قبل ذلك قد عرفت والده الشيخ منصورا اثناء تردده على ينبع في سنة ١٣٥٥ وكان مقيما في المدينة وتولى ابنه الاستاذ عبد العزيز وظيفة (معتمد المعارف في الأحساء) بعد الشيخ عبد الله الخيال ، ومنها نقل ملحقا ثقافيا في لندن .

الأحد ١٣ رجب ١٣٩٣هـ (١٩٧٣/٨/٥م) : يغلب على طبعي الانقباض ، وعدم الرغبة في مخالطة الناس ، ولهذا تمضي الشهور لا أكلف نفسي عناء زيارة أحد مبتدئا ، ولكنني في يوم السبت (١٩٧٣/٧/٤) قابلت في (المتحف) الشيخ عبد الله بن عمر بن دهيش ، وكنت قد عرفته خلال إقامتي في الأحساء سنة ١٣٥٨ ، وهو يعنى بالمخطوطات وقد كرم بدعوتي لزيارته ، وقد جاء للعلاج ، وأخبرني بموقع مسكنه ، فكان أن ذهبت اليه في صباح هذا اليوم — الأحد — وقد وجدت عنده ثلاثة من أبنائه أحدهم الاستاذ عبد اللطيف ، وهو شاب مهذب الأخلاق ، قد أكمل دراسته في إحدى الجامعات الانجليزية ، ويعدُّ الآن دراسة لنيل درجة (الدكتوراه) عن التاريخ الثقافي لبلادنا خلال القرنين الأخيرين . ومما يبعث على التفاؤل ويدعو إلى الاعجاب اتجاه شبابنا إلى التخصص في كل جانب من جوانب العلم ، فبينما تتجه طائفة للدراسات العلمية الحديثة ، يتجه آخرون لدراسة كل ما له صلة بحضارتنا القديمة وتاريخ بلادنا وجغرافيتها . فهذا يعنى بدراسة الامثال الشعبية ، وآخر يتناول أحد الشعراء المغمورين القدماء ، وثالث يرتاد طرق الحج القديمة ليطبق معلوماته على مشاهدته ، وغيره يتناول مؤلفا قديما بالدراسة والتحقيق ، أو فترة من فترات تاريخ أحد مناطق بلادنا .

من لندن إلى جنيف

في الساعة السادسة الا عشر دقائق بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ ربيع الثاني ١٣٨٠ الموافق ١١ اكتوبر ١٩٦٠ ــ غادرت مطار لندن على متن احدى طائرات شركة الخطـــوط السويسرية إلى مدينـــة جنيـــف ، والمسافة بين المدينتين ٧٩٠ كيلا قطعتها الطائرة في ساعتين ــ أي كان وصولي إلى جنيف في الساعة الثامنة الا عشر دقائق بتوقيت لندن ــ الساعة الثالثة الا عشر دقائق بتوقيت جنيف ــ في مطار لندن لم تفتح حقائب المسافرين وكذا في جميع مطارات المدن التي مررنا بها . وفي مطار جنيف اردت فتح حقيبتي للموظف في الجمرك حينما رأيته يأمر بفتح بعض حقائب المسافرين ولكنه اشار إليّ بعدم فتحها . وأمر باخراجها .

وصلت محطة الخطوط السويسرية وخشيت من ليلة كليلة (لندن) فطلبت من أحد الموظفين في المحطة ان يرشدني إلى فندق مناسب . فاتصل هاتفيا بأحـــد الفنادق . واملى على من اتصل به اسمي . وكتب اسم الفندق في بطاقة بعد ان أراني موقعه في المدينة في مصور للمدينة ــ خارطة ــ فشكرته وذهبت إلى ذلك الفندق .

وخرجت صباح يوم الاربعاء من الفندق لأشاهد بعض معالم مدينة جنيف وبعد جولة قصيرة في شوارعها ومشاهدة جانب من بحيرتها ــ عدت فمررت بمحطة سكة حديد فركبت القطار إلى (برن) وكانت

(*) اليمامة العدد ٢٦١ الأحد ٢٦ شعبان سنة ١٣٨٠ (١٢ فبراير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

الساعة قد بلغت الثانية عشر الا ربعا . فبلغت المدينة الساعة الواحدة والنصف بعد ان مر القطار بعدد من القرى والمدن من أشهرها (لوزان) و(فريبورج.)

كانت الغاية من المجيء إلى (برن) الاتصال بالمفوضية للحصول على سمة دخول بعض البلدان الاوربية . وكنت أجهل عنوانها . فاتصلت ساعة وصلت بها هاتفيا . بعد ان اهتديت إلى رقم الهاتف من الدليل . ولكن لم يجبني أحد مع تكرار الطلب مرات كثيرة حتى بلغت الساعة الثالثة . لم اشعر اصحاب الفندق الذي تركت فيه ملابسي بأنني سأبيت خارجه . حينما خرجت في الصباح . ففكرت في العودة إلى جنيف ولكن مهمتي لم تنته . واذن فالمبيت في (برن) والمسافة بينها وبين جنيف وإن كانت قصيرة يقطعها القطار في ساعتين . وإن كانت الاجرة لم تتجاوز الـ ١٨ فرنكا سويسريا ــ وهو يماثل الريال في القيمة ويزيد قليلا ــ الا انني احتاج إلى الراحة . فقد مشيت كثيراً في داخل مدينة (برن) واستهواني ما شاهدته من جمال المعروضات في شوارعها بحيث قطعت مسافات طويلة ماشيا .

بحثت في ثلاثة فنادق تقع في وجه المدينة عن مكان أبيت فيه . ولكنني وجدت الثلاثة مملوءة فخشيت ان الاقي شيئا من الصعوبة للحصول على المكان فخطرت لي فكرة الذهاب إلى (المانيا) فقد علمت من أحد الذين كانوا معي في القطار ان المسافة بين (برن) و (بون) يقطعها القطار في ساعتين . ولتكن المسافة ما تكون . ففي القطار سأجد مكانا ابيت فيه واذن فالى المحطة . نقدت الاجرة ــ ١٦٩ ــ فرنكا سويسريا . وركبت القطار الساعة الخامسة وخمس دقائق ــ بعد الظهر ــ .

في الطريق الى بون

في الساعة السابعة وخمس دقائق وقف القطار في آخر محطة في البلاد السويسرية وهي بلدة تدعى (باسل) وكان محدثي الذي قال لي في القطار ان المسافة هي ساعتان . كان صادقا فهو يقصد الوصول إلى حدود البلاد الالمانية . وان كنت ظننته يقصد المسافة بين بِرْنَ و بُنَّ .

اشار لي أحد المسافرين إلى الناحية الاخرى من المحطة حين علم أنَّنِي اقصد مدينــة (برن) فشاهدت قطاراً يوشــك ان يتحرك للمشي . فعدوت مسرعا اليه . وجلست داخله ثم سار القطار .

طلب (*) مني الموظف التذكرة فلما طالعها نظر إلي بدهشة واستغراب لم اعرف سببهما وصار يتكلم بصوت مرتفع . ويشير بيديه بعنف . فقابلته بابتسام . واظهرت له انني لا افهمما يقول . وحقا هذا ، وحاول ان يتكلم معي بعدت لغات واتى باثنين آخرين وصاروا يكلمونني فاجيبهم بأنني لا اعرف الا اللغة العربية . وانا متوجه الى (بون) واشير الى اسمها المكتوب فوق البطاقة التي اخذتها من محطة (برن) .

اتوني بمصور جغرافي – خارطة – واشاروا الى المحطات التي سيقف فيها القطار . وليس من بينها (بن) واشاروا في الورقة التي تقدم للمسافرين تحدد المسافات بين المحطات ، وتبين اوقات الوصول إلى كل محطة والى اسم مدينة (منهايم) ففهمت بأنهم يريدون مني النزول فيها . والسفر إلى (بن) منها في قطار آخر . وهذه المدينة هي الثامنة من (باسل) التي ركبت منها هذا القطار الذي سيبلغها بعد ثلاث ساعات وخمس واربعين دقيقة .

نزلت في محطة (منهايم) الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق . وقد علمت من الورقة التي معي بأن القطار يمر بها في تمام الساعة الثانية عشرة ، وكان الجو غائما فما سرت بضع دقائق باحثا عن مطعم حتى هطل المطر بغزارة فاضطررت إلى الدخول في اول فندق شاهدته ، وفي مطعمه سألني صاحبه هل أنا تركي او جاوي فأفهمته انني عربي ، فأتى لي بمجلة مصورة . مصدرة بصورة ملونة كبيرة للملك حسين ، فأشرت له بأنني لا اعرف قراءتها ، وطلبت منه الاسراع بالطعام الذي طلبته وبعد أن انتهيت من الاكل سألته هل يوجد في الفندق غرفة لأبيت فيها الليلة . ففهمت منه أن

(*) اليمامة العدد ٢٦٢ الأحد ٤ رمضان سنة ١٣٨٠ (١٩ فبراير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

هذا الفندق وغيره من الفنادق في مثل هذا الوقت — وهو الساعة الحادية عشر والنصف — تكون مملوءة فقلت في نفسي : إلى القطار . وما احلى الرجوع اليه !! .

وصلت المحطة فاذا بالقطار يقف فيها فصعدت اليه بعد أن تحققت من موظف المحطة انه يمر بمدينة (بن) وفي الساعة الثالثة — بعد منتصف ليلة الخميس — وصل القطار إلى مدينة (بن) وكان المقرر ان يصل اليها في الساعة الثانية والدقيقة الرابعة والثلاثين ولكنه وقف اثناء الطريق في غير محطة . وهو القطار السريع الذي يمر بأثينا . ويخترق (أوربة) كلها .

في المحطة طلبت من الموظف الذي يفتش بطاقات ركوب المسافرين في القطار ان يرشدني إلى فندق . فاتصل بواسطة الهاتف بأحد الفنادق . ثم كتب لي اسمه في ورقة فاظهرت له انني لا استطيع معرفة ما كتب — وهذا صحيح — وطلبت منه أن يريني مكانه . فخرج من مكانه الى خارج المحطة واراني لافتة مضيئة . ذهبت مسرعا اليها تحت وابل غزير وبعد لأي واطالة دق للجرس فتح لي الباب .

في (بادقد سبرج)

علمت في الصباح بأن — السفارة — ليست في مدينة (بن) نفسها . ولكنها تقع في بلدة تابعة لها تدعى (باد قدس برج) فاتصلت بها هاتفيا لأعرف عنوانها وطريق الوصول اليها . ثم ركبت القطار إلى تلك البلدة فوصلتها بعد خمس دقائق تقريبا . والمسافة بينهما ثمانية اكيال .

وفي هذه البلدة تقع السفارات العربية سوى سفارتي العراق والسودان . ويقولون بأن شهرة هذه البلدة بدأت حينما عقد هتلر وتشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا اجتماعهما المشهور قبل الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٧ فيها . ويقدر عدد سكانها بـ ٥٥ ألفا . وتقع على ضفة نهر الرين، ويطل عليها من وراء النهر سلسلة من الجبال . يقع على أعلى قمة جبل منها فندق يدعى

(فندق بترس برج) ولا يصدر فيها شيء من الصحف سوى مج
أسبوعية تدعى (اسبوع قدس برج) لا تنشر سوى أخبار البلدة الخاصة

في سفارتنا في المانيا(*) :

قابلت الاستاذ محمد الطبيشي – وهو القائم بأعمال السفارة – لغياب السفير . واظهرت له رغبتي في زيارة (برلين) والغرض من هذه الزيار المنحصرة في الاطلاع على بعض مخطوطات (مكتبة متحف الامة) فاظه لي من العون والمساعدة ما سهل لي تحقيق تلك الرغبة . فقد أمر الاستاذ – صبحي خنشت – الملحق الصحفي في السفارة بالاتصال بقسم الصحاف والاعلام في الحكومة الالمانية لمعرفة موقع تلك المكتبة من المدينة . ولتيسير زيارتها فاتصل الاستاذ صبحي بموظف يدعى الدكتور (فايس) يحسن اللغة العربية ويشغل منصبا كبيرا في ذلك القسم في وزارة الخارجية . فأخبر هذا بأن المكتبة تقع في القسم الشرقي ولكن الوصول اليها ميسور . ووعد بأن يتصل بموظفي قسم الصحافة والاعلان في (برلين) بعد تحديد موعد وصولي اليها ليسهلوا لي بغيتي .

أردت العودة إلى جنيف – في سويسرا غير انني علمت أن المسافة بعيدة . ويحسن أن أعود بالطائرة . وهذا يستلزم الذهاب إلى مدينة (كولن) أو مدينة (فرانكفرت) والاولى تبعد عن (بادقدس برج) ٣٥ كيلا والثانية تبعد أربعة أمثال هذه المسافة . وبعد الاتصال باحدى شركات الطيران تبين أنه ليس من الممكن السفر إلى جنيف هذا اليوم .

دعاني الاستاذ الطبيشي للغداء معه في بيته فحاولت الاعتذار . وقلت له : ان اخواننا من الصحفيين الذين زاروكم يتحدثون ويكثرون الحديث عن السليق – والوقت الآن لا يتسع لمعرفة اذا كانت أحاديثهم غير مبالغ فيها –. غير ان كرمه أبى عليه الا أن يحملني على الذهاب معه ولم يقف هذا الكرم

(*) اليمامة العدد ٢٦٣ الأحد ١١ رمضان سنة ١٣٨٠ (٢٦ فبراير سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

عند حد تقديم نوع من أنواع الاطعمة مع الغداء كان تقديمه مفاجأة بالنسبة لي ، وغريبا بالنسبة لهذه البلد ، ذلك النوع هو (المرقوق) لم يقف كرم الاستاذ عند هذا الحد . بل تجاوزه إلى اشياء كثيرة . بحيث امضيتها ليلة راحة وانشراح بال في — بادقدس برج — بعد أن أمضيت جزءا من الليل في مشاهدة معالم مدينتي (بن) و — كولن — .

بـون وكولـون

مدينـــة (بُنّ) :

ومدينة (بُنّ) كما هو معروف هي عاصمة المانيا الاتحادية . وهي من أصغر مدن المانيا . ولا يزيد عدد سكانها على ٢٥٠ الفا . ويقال بأن من أسباب اختيارها لتكون مقر الحكومة انها بلدة المستشار (اديناور) وقت زيارتي — ودَرْءًا للتنافس بين المدن الكبيرة ، اتخذ مقر الحكومة في بلدة صغيرة .

يصدر في مدينة (بن) صحيفتان يوميتان هما (جرنال اندسايكر) و (بونيرغنت شو) وعدد من المجلات الاسبوعية .

مدينـــة (كُوْلُنْ) :

ومدينة (كولون) وينطقونها — كولن — كما ينطقون (بون : بن) من أشهر مدن المانيا غير ان القنابل هدمت جزءا كبيرا منها ولكنها الآن اعيدت على طراز جميل من حيث سعة شوارعها وتنظيمها . وبقي جزء كبير من المدينة القديمة على حالته الاولى .

امضيت ليلة الجمعة ٢٣ — ٤ — ١٣٨٠ في مدينة بادقدس برج — في فندق (دين هوتيل دريسن) على ضفاف الرين . ولهذا الفندق شهرة كبيرة . وما كنت ارغب ، ولا استطيع السكن في امثال هذا الفندق . لولا أن الاستاذ الطبيشي قال لي : إننا لم نجد محلا الا فيه . وطمأنني بأن الاجرة سوف لا تكون بنسبة ما له من شهرة . وهكذا كان فهي لم تتجاوز ١٧ ماركا لغرفة واسعة ، وصالة . وحمام تبلغ سعته خمسة امثال سعة الغرفة التي

بت فيها أول ليلة في (رولاند هوتيل) في لندن والتي دفعت عنها اكثر مما دفعت هنا ـ ولست مبالغا في التقدير ، بل أنا مقصر فيه .

بين فرانكفرت وجنيف :

قطعت المسافة من (بادقدسبرج) إلى مطار (فرانكفرت) بالسيارة بالسيارة في خلال ثلاث ساعات بعد اجتياز نهر الرين على نقالة خاصة لحمل السيارات بمن فيها من ضفة النهر إلى الضفة الثانية .

ومرت الثلاث الساعات كلمح البصر . فقد كان الجو صافيا . والبصر يمتد الى نهايته متنقلا بين غابات كثيفة بالاشجار الباسقة وتلال مكسوة بالنباتات المختلفة الالوان . وأودية تزدان بانسياب المياه في اغوارها . وحقول منسقة . وقرى صغيرة وكبيرة منتشرة بمبانيها الجميلة في سفوح التلال وفي اعاليهـــا .

وفي الساعة الواحدة اقلعت الطائرة إلى جنيف وفي خلال ساعة وبضع دقائق هبطت في مطارها .

أمضيت ثلاثة أيام في جنيف ثم عدت يوم الاثنين إلى (فرانكفرت) وبقيت فيها يومي الاثنين والثلاثاء .

أبرز مظهر لفت نظري في هذه المدينة محطة سكة الحديد التي يتفرع منها عشرات الخطوط الحديدية ، والحركة الهائلة في تلك المحطة .

* * * *

في بَادْقُدِ سْبِرْجْ (*) :

عدت إلى (بادقد سبرج) من (فرانكفورت) بالقطار في يوم الاربعاء واضطررت إلى البقاء فيها ذلك اليوم ويوم الخميس. وقد نزلت هذه المرة في نُزُلٍ (بنسيون) يدعي (فنست هاوس ويمر) لأن فنادق هذه البلدة قليلة ، ولم أجد مكانا خاليا فيهـــا . وبعد ان طفت على سيارة اجرة بتلك الفنادق ، واوشكت ان اذهب إلى (بن) اتصل سائق السيارة ، بهاتف لاسلكي من سيارته إلى مكتب الشركة التي يعمل فيها ، فارشدنا المكتب إلى هذا النزل بعد ان علم بوجود مكان خال فيه وحقا ما يقال : (رب صدفة خير من ميعاد) .

فقد كان هذا النزل على درجة ممتازة من الاناقة والجمال ، وكان اصحابه على حالة عالية من الرقة واللطف وحسن المعاملة وكان موقعه في مكان هادىء قريب من البلدة ، يضاف إلى كل هذا ـــ وهذا مهم جدا ـــ ان اجرة السكن فيه في خلال ثلاث ليال لم تتجاوز الـ ٤٤ ماركا .

زارني في النزل الاستاذ محمد عبد الهادي ـــ من بلدة جنين التابعة لقضاء نابلس في فلسطين ، وعمه السيد عوني عبد الهادي ، وهو موظف في قسم الصحافة والاعلام بوزارة الخارجية يشرف على الصحيفة التي يصدرها هذا القسم باللغة العربية وتدعى (الرسالة) .

(*) اليمامة العدد ٢٦٤ الاحد ١٨ رمضان سنة ١٣٨٠ (٥ مارس سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

وكان الاستاذ صبحي خنشت ــ الملحق الصحفي في سفارتنا قد قال لي : ان الدكتور فايس احد كبار موظفي ذلك القسم (رئيس القسم الشرقي) في وزارة الخارجية الألمانية يريد حديثا ــ أو كلمة ــ للنشر في تلك الصحيفة ، وانه سيبعث مندوبها اذا وافقت . فقلت: وما المانع؟ ليحضر متى شاء . فأتى السيد عبد الهادي لهذه الغاية ، وقد وجه إلي اسئلة أجبت عليها اجابة نشر بعضها في العدد ٤٤ المجلد ٢ الصادر بتاريخ ١٩٦٠/١٠/٢٨ واهمل ما يتعلق بإسرائيل وبالتعويضات الالمانيــة .

وفي يوم الجمعة ذهبت إلى مطار (كولن) وكان موعد السفر المحدد لقيام الطائرة منه إلى برلين الساعة الثامنة والنصف ، وقبل الموعد بخمس دقائق كنت في المطار ، وحينما دعي المسافرون كنت حاضرا اسمع غير ان الموظفة قالت : ان الحقائب قد اودعت الطائرة وقد تأخرت ولهذا فقد فاتك السفر . فاضطررت إلى الحجز في طائرة تسافر بعد الساعة التاسعة والثلث ، إلى (فرانكفورت) ومنها انتقلت إلى طائرة اخرى بعد ان انتظرت في المطار ساعة كاملة كما يلي :

من كولن إلى فرانكفرت ٩/٢٠
الوصول إلى فرانكفرت ١٠/١٥
من فرانكفرت إلى برلين ١١/١٥
من فرانكفرت إلى برلين ١١/١٥
الوصول إلى برلين ١٢/٣٠

في برلـــين :

كنت علمت وانا في (بادقدس برج) بأنني حين اصل مطار برلين وذلك في تمام الساعة العاشرة (حسب موعد السفر الذي تأخرت عنه) سأجد شخصا عربيا يدعى (الدجموني) في انتظاري في المطار ، وقد طلبت من السيد مصطفى صادق محمد ــ وهو شاب مصـــري موظف في السفارة ــ أن يتصل بأحد قسم الصحافة والاعلام لكي يخبروا (الدجموني)

بتأخر وصولي إلى برلين . ولا بد من كلمة ثناء وشكر يوجهان إلى السيد مصطفى صادق ، ذلك الشاب الهادىء الخلق ، الذي وكل اليه الاستاذ الطبيشي ترتيب سفري الى (برلين) من (بادقدس برج) .

وفي مطار « برلين » رأيت شابا عربيا واقفا يستعرض الداخلين إلى المطار ، وحينما مررت به دعاني باسمي ، فعرفت انه السيد « الدبلحموني » .

خرجنا (*) من المطار وسرنا إلى المدينة في سيارة اجرة إلى فندق يدعى (هوتيل أم زوو) وهي من الفنادق الحسنة الا ان اجرة الغرفة فيه تقارب الـ ٣٠ ماركا .

وضعت حقيبتي في الغرفة التي كانت قد حجزت لي ، ثم قلت للشاب عمر الدبلحموني : أنا أريد الآن زيارة (مكتبة متحف الامة) اذ غدا سبت لا تفتح الا وقتا قصيرا ، وبعد غد تكون مقفلة . فقال : انها تقع في القسم الشرقي من برلين ، وليس امامنا من الوقت ما يكفي لزيارة تلك المكتبة . فاظهرت له بأنه لابد من زيارتها . وأنا لم اتاخر في بلدة « بادقدسبرج » يومين الا بناء على رغبة الدكتور « فايس » ليتمكن من الاتصال بقسم الصحافة والاعلام هنا في برلين . فقال لي ذلك الشاب : ان الامر لا يحتاج إلى اتخاذ شيء من الترتيب ، ففي خلال بضع دقائق تكون في المكتبة .

* * *

(*) اليمامة العدد ٢٦٥ الأحد ٢٥ رمضان سنة ١٣٨٠ (١٢ مارس سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

في برلين الشرقية

في احد مطاعم برلين الشرقية (*) :

كان الجوع قد أخذ مني كل مأخذ ، فدخلنا احد المطاعم ، في القسم الشرقي ، فقدم لنا الندل قائمة الطعام ، فطلبنا منه نوعا من اللحم المشوي ، وشيئا من الخضروات ، وقبل ان يحضرها طلب ابراز وثيقة الجنسية ، فأريته جواز السفر ، ولكنه لم يحاول النظر فيما اذا كان ذا سمة تسمح لي بأن أعامل في هذا المكان كواحد من المقيمين في هذا القسم من المدينة ، وعلل صاحبي — الذي لم يطلب منه بيان جنسيته — ذلك بأنه يريد منا أن نجزل له الهبة (البخشيش) وسيقبل منا ثمنا للاكل من العملة المستعملة هنا ، والتي لا تقبل الا من سكان هذا القسم ، أو ممن سمح لهم بالاقامة فيه ، وقد دفعنا ثمن غدائنا ثمانية من الماركات (وهي تقابل ماركين المانيين غربيين) ولولا رغبة الندل وطمعه في منحتنا (البخشيش) لما قبل سوى ثمانية ماركات غربية (وهي تقابل ٣٢ ماركا شرقيا) .

العملة في القسم الشرقي :

حالة العملة في القطاعين حالة فيها كثير من الغرابة ، عندما يريد المرء ان يذهب إلى القسم الشرقي فانه يستبدل نقودا شرقية ، فيدفع ماركا المانيا غربيا ويأخذ عنه أربعة ماركات شرقية ، وعندما يكون في القسم الشرقي فان المارك الغربي لا يقبل الا عن مارك واحد شرقي والدولار الامريكي (وهو يساوي ٤/١٧ ماركا غربيا) لا يساوي في القسم الشرقي سوى ماركين شرقيين ، واذا لم يحصل زائر القسم الشرقي على سمة تخوله حق الاقامة فانه لا يقبل منه التعامل الا بالعملة الغربية او الدولار ، أو غيره من العملات الاخرى غير الشرقية ولكن بقيمة منخفضة جدا .

(*) اليمامة العدد ٢٦٧ الأحد ٩ شوال سنة ١٣٨٠ (٢٦ مارس سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

ذهبنا في القطار إلى القسم الشرقي – بعد ان استبدلنا نقودا شرقية بنقود غربية،عن المارك الغربي اربعة ماركات شرقية – ثم نزلنا في احدى المحطات الواقعة بقرب المكتبة ، وذهبنا اليها ، ولما اردنا الدخول قالت لنا الموظفة : اين بطاقتا الدخول ؟ فذهب صاحبي إلى مكان اشارت اليه واتى ببطاقتين بعد دفع ثمنهما نصف مارك . كان هذا أول شيء استرعى انتباهي عند دخول هذه المكتبة ، فهذه اول مرة ادفع رسما لدخول مكتبة ، اما عدم العناية بمظهر البناية وضعف الانارة في طرقاتها ومداخلها ، فهو أمر غير مستغرب في القسم الشرقي من برلين ، هذا القسم الذي يتبادر إلى ذهن الواصل اليه من القسم الغربي انه في مدينة اخرى تختلف عما شاهده في القسم الغربي من جميع مظاهر المدينة .

البحث عن المخطوطات

تقع الكتب الشرقية (عربية وتركية وفارسية وغيرها) في قسم من المكتبة العامة ، وضع بعضها في غرفة مستطيلة فيها مناضد وكراسي قليلة للمطالعين وحينما دخلنا هذه الغرفة التي تقع في الدور الاول من البناية لم نشاهد فيه احدا سوى الموظفة التي اخبرها الرفيق بأنني اريد الاطلاع على فهرس المخطوطات العربية كلها ، وقال انها سوف تحضره . وبعد برهة من الزمن جاءت تحمل مجلدات ضخمة وتسجلها في دفتر أمامها ، فقربت منها ونظرت اليها فاذا هي مصاحف وكتب دينية مخطوطة ، فأفهمت صاحبي بأن احدا كما لم يفهم ما أريد . فكلمها مرة أخرى ،ثم قال لي: إنه لا يوجد هنا فهارس للمخطوطات العربية . فأفهمته بأن لهذه المكتبة فهرس مطبوع يقع في احد عشر مجلدا ، وضعه مستشرق الماني يدعى (اهلورد) . فعاد اليها مرة أخرى وكلمها فأخذتنا إلى غرفة مجاورة ضيقة فيها صوانات لبطاقات فهارس الكتب ، وفي احد الصوانات الكبيرة المملوءة بالفهارس اشارت إلى (فهرس المخطوطات) ثم اتت باضبارة مملوءة بالبطاقات وفتحتها وأشارت إلى قسم منها . وقال صاحبي : انها تقول : الكتب التي

في هذا الفهرس ليست موجودة ، الموجود هنا ٨٣ كتابا عربيا مخطوطا ! فقلت لصاحبي بعد هذه الصدمة العنيفة التي صدمتنا : سلها : اين بقية الكتب التي هي ١٠٣٦٥ في هذا الفهرس ؟ فقالت : لا أدري ، ربما يكون بعضها ضاع او نهب ، أو موجود في سراديب المكتبة داخل خزانات .

أردت ان أعرف أسماء هذه الـ ٨٣ كتابا من الاضبارات فلم أستطع ، فاستعنت بصاحبي فلم يكن بأسعد حظا مني في الفهم . لا بد اذن من مطالعة الجزء المختص بالتاريخ وهو المجلد العاشر من فهرس (أهلورد) كاملا ، في هذا المكان المظلم القاتم ، ولا بد من مطالعة القسم المختص بكتب الجغرافيا . وبعد ثلاث ساعات اجهدت فيها بصري ، وجسمي ، حتى أحسست كان الغرفة تدور بي ، قدمت لصاحبي ورقة كتبت فيها اسماء ٢٣ كتابا تتعلق بتاريخ الحجاز وجغرافيته ، وأنساب العرب وتاريخهم ، وطلبت منه ان يسأل الموظفة: هل يوجد شيء من هذه الكتب في المكتبة، فصار يملي عليها ارقامها واحدا واحدا وهي تجيب بالنفي ، حتى عدها كلها ، فقلت له : سلها أين توجد ؟ فأجابت في مكتبة جامعة (توبنجن) في المانيا الغربيـــة .

وأسفاه !! ها هي الساعة الان قد قاربت السادسة — ثلاث ساعات في هذا المكان المظلم ، وبعد هذا التعب ، سأعود من هذه المكتبة بدون فائدة ؟ قال صاحبي : غدا في الصباح سنزور اكبر مكتبة في القسم الغربي ، وقد تجد فيها بغيتك .

جولة بين القسمين :

قلت لصاحبي : اغد إليّ مبكرا صباح السبت لكي نذهب إلى المكتبة ، ففعل ، غير اننا وجدناها لم تفتح بعد ، حينما وصلنا اليها في الساعة الثامنة والنصف ، وامامنا من الوقت قبل فتحها ساعة ونصف فقال صاحبي :الا تود ان تشاهد كيف يعامل جنود القسمين المتنقلين بينهما ؟ فسرنا في شارع يدعى (شارع فردريك) متجهين صوب القسم الشرقي ، وهذا الشارع —

على ما قال صاحبي : كان من احفل شوارع برلين قبل الحرب بالمباني التجارية الكبيرة من معارض ودكاكين ، لم يبق منها الآن سوى اطلالها ، ورأيت على جوانبه امكنة واسعة كانت بنايات فتهدمت ، وازيلت انقاضها فنبتت فيها الاعشاب والاشجار . فقلت لصاحبي : لماذا لم تبن هذه الامكنة وهي واقعة في قلب المدينة ، وفي قسمها الغربي الذي تقوم الحركة العمرانية في كثير من انحائه على قدم وساق ؟ فقال : انها كانت محلات تجارية لليهود الذين خرجوا من برلين قبل الحرب ، وقد هدمت إبَّانَ الغارات على برلين ، فازيلت الانقاض ، ولم يجرؤ احد على البناء فيها ، لان اصحابها مجهولين . والحكومة لا تمانع في بيعها على من يريد بناءها ولكن المشتري عُرْضَة في أي وقت من الاوقات لأن يأتي احد اليهود فيدعى بأنها ملك له ، فتصادر من صاحبها ، وتدفع إلى ذلك اليهودي ، بدون أن يعوض بانيها . ثم تمادينا سيرا في الشارع حتى وصلنا إلى شارع آخر يتقاطع معه ، فرأينا عددا من الجنود ، واقفين في نقطتي التقاطع . ورأينا السيارات القادمة من القسم الشرقي ، لا تجوز سيارة حتى يوقفها الجنود ، ويطلعون على ورقة يعرضها عليهم سائقها ، ثم يدخلون جوف السيارة ويفتشونها . ثم لا يكتفون بذلك ، بل يرفعون غطاء محركها ، ويفتحون مكان ما يحمل فيها ، ورأينا بعض السيارات يأمر الجنود برجوعها إلى الجهة الشرقية . أما السيارات القادمه من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية فهم لا يتعرضون لها ، ولم نر الجنود الواقفين في نقطة التقاطع الغربية يفعلون شيئا مما يفعله الجنود الاخرون ، بل لم نرهم تعرضوا لسيارة قادمة أو ذاهبة ، وتابعنا سيرنا حتى شاهدنا بعض المعارض التجارية في القسم الغربي ، ولما أظهرت استغرابي لصاحبي من رخص اثمان المعروضات ، بالنسبة لما اعلمه من انخفاض قيمة المارك الشرقي قال صاحبي : انك لو أردت شراء شيء منها لما استطعت الا اذا دفعت القيمة بعملة غربية مماثلة للقيمة المحددة بالمارك الشرقي ، وعلى هذا فهي غالية جدا .

متحف الأمة في برلين الشرقية

قلت لصاحبي – حينما عرض على الاتصال بمكتب الصحافة والاعلام ليبعثوا الينا سيارة نتجول فيها في المدينة – لا حاجة لي بذلك ، وليس امامنا متسع من الوقت ، وها هي حديقة الحيوانات قريبة منا ، فلنذهب اليها سعيا على الاقدام ، فأجاب : ولكن المطر لا يمكننا من التجول داخلها . فقلت : اذن إلى اعظم متحف في برلين . فقال : ذاك متحف الامة وهو في القسم الشرقي .

ذهبنا إلى المتحف بالقطار الذي يسير جوف الارض ، وفي برلين ، كغيرها من المدن الكبيرة قطار يخترقها ، ويمر بشوارعها الرئيسة ، ويصل بين قسميها ، منه ما يسير فوق الأرض ، وهو تابع لالمانيا الشرقية ، والآخر يسير جوف الارض ، لالمانيا الغربية . أما سيارات الاجرة فانها من القسم الغربي لا توصل إلى القسم الشرقي ، وفي القسم الشرقي قد يجد المرء بعض السيارات التي تأتي به إلى القسم الغربي ، وقد حاولت إدراك السبب في هذا الاختلاف ، فلم يكن صاحبي لبقا حينما استوضح من سائق السيارة التي عادت بنا من القسم الشرقي ، والتي اكتفى الجند حينما مررنا بهم بالنظر إلى السائق ، والاشارة بالتحية وهي علامة الاذن بمواصلة السير ، فقد قال ذلك السائق : هذه امور خاصة . فقلت له : سله لماذا كثير من اصحابه امتنعوا عن ايصالنا . فلما سأله اجاب : لأنهم لا يسمح لهم ان ينقلوا في سياراتهم أحدا من سكان القسم الشرقي إلى الغربي ، ولا العكس ، ولا يسمح الا بنقل الاجنبي ، فهم يقولون : اذا لم يسمح لنا بنقل مواطنينا فلا نريد نقل الاخرين . قلت : هذا الجواب غير معقول ، اذن لماذا خرج هو عن رأي اصحابه ؟ فكانت اجابته : هذه امور خاصة . والظاهر ان بعض اصحاب سيارات الاجرة لهم صلات بالجنود في القسم الشرقي ، فهم يسهلون لهم المرور ، وأما غيرهم ممن لا صلة له باؤلئك ، فهو وان سمح له بنقل احد إلى القسم الغربي ، الا انه معرض لاجراءات قد تضره ، من حيث التحقيق

معه لمعرفة اولئك الذين نقلهم إلى القسم الغربي . وما هي صلته بهم .

نزلنا في أقرب محطة إلى المتحف ، ولكن كثرة المشي في الصباح دفعتنا إلى ركوب سيارة للوصول اليه ، وان كان على مرأى منا .

يقع المتحف في بنايات ضخمة واسعة يخترقها نهر (اشبريه) ويقسمها قسمين ، وقد اثرت القنابل ، ورصاص البنادق في اسواره ، وتهدمت بعض اجزاء منه اعيد اصلاحها .

ما كان الوقت متسعا لزيارة جميع الاقسام ، فمررنا بقاعتين من قاعاته الكثيرة ، ولكن واحدة منهما مدخل خاص ، احداهما تحتوي على آثار شرقية (اسلامية وفارسية ، وبابلية ، واشورية) ويسمى هذا القسم : (متحف آمون) وفي هذا القسم بعض الاثار الرومانية ، التي نقلت من الشام . وتدعى الصالة الاخرى (المتحف المصري) وفيها كثير من الاثار المصرية القديمة ، والاثار الرومانية ، أو اليونانية ، وغيرها مما عثر عليه عليه في مصر . لم نشاهد في الصالتين شيئا من الاثار النفيسة ، وجل ما شاهدناه تماثيل من الحجر ، او النحاس او الخشب ، وبعض جدران مبان قديمة ، كقطعة من سور (قصر المشتى) في الاردن ، وغيرها . ورأينا بعض الرسوم الفنية الفارسية ، والكتابات العربية الكوفية ، بعضها على الحجارة (شواهد قبور منقولة من مصر) وبعضها على الورق .

* * * *

في برلين الغربية .

لم يطب لصاحبي غداء الامس ، فخرجنا من المتحف لكي نعود إلى المكان الذين نسكن فيه ، وفضلت ان تكون العودة على سيارة ، ولكن سيارات الاجرة الكثيرة التي عرضت لنا ، والتي مررنا بها واقفة في امكنتها ، لم نكد نعثر من بينها على السيارة التي وافق صاحبها على العودة بنا ، الا بعد لأي .

في مكتبة الفكر الاروبية

كنت(*) على احر من الجمر ، خوفا من أن يفوت الوقت قبل زيارة هذه المكتبة التي بالغ صاحبي في وصفها ، والتي قال عنها : ان الحكومة الامريكية بنت هذه المكتبة هذا البناء الرائع الحديث ، وجمعت فيها من الكتب ما قل ان يوجد مجتمعاً في مكتبة حديثة في اوروبة ، واضافت إلى ذلك بعض الكتب القديمة التي جمعت من المكتبات التي بعثرتها الحرب ، ومن يدري فقد نجد شيئا من بغيتك في هذه المكتبة فما فتحت ابوابها للزائرين الا بعد ان كنا قد وقفنا في مقدمتهم .

انشئت هذه المكتبة في عام ١٩٥٤ ، وبلغ عدد الكتب في نهاية عام ١٩٥٩م ٨١١٫٠٠٠ كتابا ، وبلغ عدد المطالعين للكتب في ذلك العام ٤٢٢٤٦ منهم ٢٤٥٣ اطفال . أما الذين راجعوا قسم الاسطوانات فعددهم ٨٩٨٧ عرض عليهم منها ١٤١٨٣ اسطوانة .

والمطالع يدخل المكتبة ، ويجلس في أي مكان من امكنتها ويتناول الكتاب الذي يريد مطالعته من مكانه ، وبعد انتهائه يعيده كما كان . وفي المكتبة قسم للاعارة الخارجية ، وقد أعير من الكتب في عام ١٩٥٩ : ٧٤٨٧٠٦ للافراد

(*) اليمامة العدد ٢٦٨ الاحد ١٦ شوال سنة ١٣٨٠ (٢ ابريل سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

و ١٠٠٦٣ للمكتبات و ٣٠٤٨ للافراد خارج المدينة وبعد هذا أتدري ماذا في المكتبة من الكتب العربية ؟ إنه نصف كتاب ، ليس كتابا واحدا كاملا ، نعم نصف كتاب ، هو قاموس لغوي ، الماني ، عربي !! هذا هو الكتاب الذي قالت لنا السيدة التي تتولى قسم الفهارس انه موجود في المكتبة من الكتب العربية ، ثم ارتنا اياه وقالت : قد تجدون في مكتبة (كلية الطب) التابعة لجامعة برلين شيئا من المخطوطات العربية ، وها هو رقم الهاتف ، ولكن صاحبي ، فيما يظهر خشي جلسة كجلسة امس ، في مكتبة متحف الامة ، ولهذا لم يكلف نفسه عناء الاتصال بقسم الصحافة والاعلام لكي ييسر لنا الاطلاع على تلك المكتبة ، بل اكتفى بان قال بعد ان اتصل هاتفيا بادارتها : وعدونا يوم الاثنين وهو يعلم بانني سأغادر برلين الساعة الثامنة والربع من يوم الاحد . فاكتفيت منه بأن ابتسمت ، ولو كنت واثقا بقول السيدة لأرجأت السفر .

* * *

إلى مدينة (روما)

الطائرات (*) التي تنقل المسافرين إلى برلين ومنها لا تتجاوز احدى المدون الالمانية ، ولهذا كان لابد لي وأنا اريد السفر إلى (روما) من المرور بمطار (فرانكفورت) .

غدا صاحبي إلي مبكرا ، ولكنه وجدني قد غادرت الفندق ووصلت إلى المطار ، قبل الوقت المحدد لقيام الطائرة بساعة كاملة ، فأتى إلي .

وعندما بدأ موظف مكتب الطيران في تسجيل المسافرين وتسلم حقائبهم . تركت الامر لصاحبي ، وجلست قريبا منه ولما آن وقت قيام الطائرة أرشدني إلى باب الخروج اليها وأشار إلى أناس واقفين متهيئين للخروج قائلا : هؤلاء هم المسافرون معك . فودعته ووقفت بينهم ، ولم اطمئن حتى سألت احدهم : هل انت ذاهب إلى (فرانكفرت) فأجاب بالايجاب . فتح الباب ، فأسرعوا إلى الطائرة وأنا من بينهم ، ولما أغلق باب الطائرة قامت اثنتان من المضيفات يتتبعن الركاب واحدا واحدا ، ويسألنه عن وجهة سفره ، ثم يطلعن على تذكرة السفر ، حتى وصلتني احداهن ، فلما طالعت التذكرة نادت صاحبتها فأخذت احداهن حقيبتي واشارتا لي بأن أنزل وافهمتاني بأن هذه الطائرة تابعة لشركة (بان امريكان) والطائرة التي حجز لي فيها من طائرات شركة أخرى. وكانت تلك الطائرة على وشك القيام ، الا أن المضيفة التي حملت حقيبتي أشارت اليها ، وأمرت العمال الذين بدأوا بجر السلم باعادته ، حتى ركبت .

بعد ساعة هبطت الطائرة في مطار (فرانكفرت) ولم يزد وقت الانتظار

(*) اليمامة العدد ٢٦٩ الأحد ٢٣ شوال سنة ١٣٨٠ (٩ ابريل سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

فيه على تسجيل أسماء المسافرين إلى روما ، من القادمين من برلين وبعد ساعتين اثنتين كنا في مطار روما — أي الساعة الواحدة والنصف .

تكاد المناظر التي يشاهدها راكب الطائرة وهو يجول في غرب أوربا وشمالها تكون متشابهة . أراض منبسطة ممتدة امتداد النظر ، مكسوة بالنبات وجبال قليلة الارتفاع وتلال مستطيلة ، وانهار ، وبحيرات ، واودية ،. ولكن المرء عندما يقبل على (ايطاليا) قادما من غرب أوربة تتغير تلك المناظر — أو هكذا بدا لي وأنا في الطائرة — لقد ابصرت جبالا شاهقة ، قد كست الثلوج قممها فبدت بيضـــاء ، ناصعـــة البياض ، ثم بدات الجبال تظهر لي قليلة النبات ، حينما أوشكت الطائرة أن تصل روما .

نزلنا في المطار وقد بدا الجو يصحي بعد ان كان ممطرا ولم يطل مكثنا ، وبينما أنا سائر إلى موظف الجوازات التفت إلي احد القادمين معي من فرانكفرت قائلا : أنت مصري ؟ فقلت لا ولكن عربي وأين تسكن في هذه المدينة ؟ فقال : أنا أعرف منزلا مناسبا فلنذهب اليه جميعا . وصاحبي هذا مصري يدعى السيد وصفي يواكيم ، رئيس شركة سياحية في القاهرة .

نزلنا في نزل وسط المدينة يدعى (بنسيون رتشي) وهو كما قال لي صاحبي : — كويس ورخيص .

ما كان المرء في هذه الايام في بلاد أوربة يستطيع الخروج ما لم يثقل جسمه بالملابس ، وقد خرجت في الملابس التي اعتدت لبسها هناك ، وجلست في احدى المقاهي فوق أحد الكراسي الكثيرة الموضوعة على جانب الشارع خارج القهوة ، ولم ألبث سوى وقت قصير حتى صار العرق يتصبب من جسمي ، ان الجو في هذه المدينة يعتبر حارا بالنسبة الى شمال اوربة ووسطها ، وهو معتدل بالنسبة الى بلادنا . وهذا يشمل جميع البلاد الواقعة في حوض البحر الابيض المتوسط .

المعهد الشرقي

ذهبت في مساء يوم الاثنين — ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٨٠ — ٢٣ اكتوبر

سنة ١٩٦٠ – لزيارة المعهد الشرقي ، بعد أن مهد لي الأستاذ سمير الشهابي ، القائم بأعمال سفارتنا في روما طريق زيارته والاجتماع فيه ببعض العلماء الايطاليين المعنيين بالدراسات الشرقية .

يدعى هذا المعهد (معهد الشرق للدراسات الاسلامية والعربية) وهناك معهد آخر يدعى (معهد الشرق الاوسط والشرق الاقصى) فيهما عدد من العلماء الذين يقومون بدراسات ثقافية عامة عن احوال الشرق ، ومختلف شؤونه ، ومن مشاهير المستشرقين في ايطاليا المستشرق الكبير الاستاذ ليفي دلافيدا والاستاذ غبريللي، والاستاذة ماريا نِلِّيْنُو والاستاذ جوفانو (هؤلاء من المهتمين بالدراسات العربية ولهم آثار معروفة ، ومؤلفات باللغة العربية). وقد اخبرتني الاستاذة ماريا نِلِّيْنُو بأنها زارت جدة . عام ١٩٣٧ وعرفت الشيخ محمد نصيف ، واثنت على مكتبة فضيلته .

والاستاذة ماريا هي ابنة المستشرق المعروف نلِّيّنُو ، وهو من مشاهير الاساتذة الغربيين الذين درسوا في الجامعة المصرية أول انشائها ، ومحاضراته عن (علم الفلك عند العرب) تعتبر من أهم المصادر في موضوعها ، وقد طبعت باللغة العربية في (روما) في أربعة أجزاء . وقد قامت الاستاذة ماريا بجمع شعر النابغة الجعدي ، ونشرت ذلك مع دراسات في اللغة الايطالية .

مع شيخ المستشرقين

اما الاستاذ (*) دِلاَّفيدا فهو يعتبر شيخ المستشرقين في ايطاليا ، وقد ولد في مدينة (البندقية) سنة ١٨٨٦ (فعمره الان يقارب الثمانين عاما بحساب السنين القمرية) وهو من مؤلفي (دائرة المعارف الاسلامية) التي وضعها المستشرقون ، فقد كتب فيها عن أنساب العرب .

(*) اليمامة العدد ٢٧٠ الأحد ١ ذي القعدة سنة ١٣٨٠ (١٦ ابريل سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

اخبرني الاستاذ دِلاَّفيدا عن تاريخ مولده ، واردف قائلا: حينما قمت بوضع فهرس (مكتبة الفاتيكان) كنت أجد في تراجم العلماء انهم من أطول الناس اعمارا . وقرأت كتاب (المعمرين) للسجستاني فوجدت الاعمار فيه تبلغ المئات من السنين .

وأنا لا أريد المئات ــ قالها مازحا ــ ولكنني أريد عمرا طويلا وصحة جيـــدة [1] .

وسألته عن (جمهرة النسب) لابن الكلبي وماذا عمل فيه ؟ ، فقد نشر الاستاذ بروفنسال في مقدمة كتاب(جمهرة انساب العرب) لابن حزم، انه يقوم بتحقيقه، لنشره ، فقال: قمت بدراسة الكتاب ، ورتبت من مواده اربعين الف مادة ، وضعت لها فهارس ، ولكنني الآن تركته لكبر سني . وسيقوم الاستاذ (كاسِكِل) بنشره ، والاستاذ (ورنر كا سكل[2]) عالم الماني ، في جامعة (كولن) وهو يعد الجداول التي وضعها الاستاذ (وِستِنفِيلْد) عن انساب العرب ، يعدها للنشر مرة ثانية مضيفا اليها كل ما ورد في (جمهرة النسب) .

قلت له : وهل يوجد للكتاب اصول غير القطعة الموجودة في المتحف البريطاني ، والجزء المعنون ب (كتاب النسب الكبير) الموجود في مكتبة « الاسكوريال » فقال: لا ثم سالته بعد ان سمعته يكرر بأن نسخة الاسكوريال هي جزء من الجمهرة : الا يكون كتاب النسب الكبير من تأليف محمد بن السائب وليس من مؤلفات ابنه ؟ فقال : الابن هو راوية أبيه ، والاب لا يعرف عنه الا انه مفسر ، فقلت : المترجمون يقولون عن الاب : (صاحب التفسير والنسب) وذكروا له اسماء كتب في النسب فقال : لا أعرف هذا . ثم حدثني عما لديه من كتب النسب المخطوطة . فذكر كتاب (المقتضب) لياقوت ، وأثنى عليه . فقلت : الا تعتقدون ان النسخة الموجودة من المقتضب

---

(١) توفي سنة ١٣٧٨ (١٩٦٨ م) وانظر مجلة « العرب » ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٢) توفي (كاسكل) في سنة ١٣٩٠ (١٩٧٠ م) وانظر « العرب » س ٥ ص ٩٦١ .

ناقصة ، اذ في أحد المواضع منها في الكلام على نسب احدى قبائل ربيعة وردت جملة : (ذكرت في مكان آخر من الجزء) او كلام هذا معناه . فقال : لعل لياقوت كتابا اخر في النسب ، فقد ذكر صاحب كتاب (اقليد الخزانة) ان لياقوت مختصرا آخر . فقلت له : لعل منشأ هذا ان عبدالقادر البغدادي صاحب الخزانة نقل أنساب بعض المشاهير ونسب النقل إلى (المقتضب) ومنه ما لا يوجد فيه ،وكان عبد القادر.. يملك مختصراً للجمهرة ، وهذا المختصر يوجد في (مكتبة راغب باشا) في (اسطنبول) فقال : صحيح ، وأنا عندي نسخة مصورة منه ، قلت له : إن ذلك المختصر ليس لياقوت لأن مؤلفه اشار إلى أنه اعتمد على ثلاث نسخ خطية . نسخة بخط ابن يزداد . واخرى بخط ياقوت وثالثة اشار اليها في احد الهوامش وأنا استعارها من رضي الدين الصاغاني عندما قدم بغداد . ثم سألته : الا تعرفون صاحب هذا المختصر . فقال : لا . واذكر ان احد الكتاب نشر عنه مقالا في مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق . فقلت له : انا صاحب ذلك المقال ، ولكنني لم أجد بعد من يهديني إلى اسم المؤلف .

وذكر لي (*) الاستاذ (دِلاَّفيدا) بأنَّ لديه نسخة من كتاب «النسب» لابي عُبَيْدٍ القاسم بن سلاَّم . فذكرت له بأن الأستاذ أحمد آتش (١) نشر في « مجلة معهد المخطوطات الغربية » في القاهرة منذ سنتين مقالا عن بعض المكتبات الموجودة في الاناضول ، وذكر ان في احداها هذا الكتاب ونشر صورة صفحتين منه . فقال : نسختي هي مصورة من تلك النسخة من مكتبة (مانيزيا) وهو كتاب مختصر جدا .

ثم طلب الاستاذ دِلاَّفيدا «مجلة المجمع العربي» من مكتبة المعهد فاحضروا له اعداد السنوات الاخيرة من سنة ١٩٥٦ ــ وقال : أنا سأقرأ المقال عن

(*) اليمامة العدد ٢٧١ الأحد ٨ ذي القعدة سنة ١٣٨٠ (٢٣ ابريل سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

(١) عالم تركي كان مدرسا في كلية الآداب والفنون في اصطنبول ، وقد توفي كهلا بسكتة قلبية سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨) انظر « العرب » ج ٢ ص ٣٨٤ .

« مختصر الجمهرة » ، مرة ثانية في البيت هذا التاريخ – يعني مقالي عن مختصر الجمهرة .

ومما قال الاستاذ د لا ًفيدا عندما سالته عن نوادر المخطوطات في (مكتبة الفاتيكان) : يوجد الجزء الثاني من كتاب « قصص الانبياء » تأليف عمارة بن وثيمة . فقلت : ولكن كتب قصص الانبياء – كما يعرف الاستاذ – فأجاب : صحيح ، صحيح ، ولكن شهرة وثيمة – وهو صاحب كتاب الردة – تجعل لمؤلف ابنه قيمة ، من حيث القدم ، وكيفية نشوء تدوين كتب القصص .

في معهد الشرق :

ومن المستشرقين الذين اجتمعت بهم في المعهد الاستاذ – جيوفياني أومان – الاستاذ المساعد في جامعة نابلي .

وقد قال لي : لاشك أنه يسرك أن تعلم بأن كتاب الادريسي في الجغرافيا يقوم معهد الشرق الاوسط الاقصىٰ باعداده للنشر ، وأنا أقوم بتحقيق الكتاب ، وقد حصل المعهد له أصولاً جيدة ، أقدمها من مخطوطات القرن الثالث عشر الميلادى، لدينا الآن تسع نسخ :

١ – نسخة من – المكتب الهندي في وزارة الخارجية البريطانية .

٢ – نسختان من لنـــدن .

٢ – نسختان من باريـــس .

٢ – نسختان من اسطنبول .

١ – نسخة من صوفيا – وهي جيدة .

١ – نسخة من القاهرة وهي ناقصة الا أنها جيدة الخط .

وفي مكتبة لينينغراد نسخة طلبنا صورة لها ، ونأمل أن تصل الينا .

وقال لي الاستاذ جيوفاني بأنه سيبعث إليَّ القسم المتعلق بجزيرة العرب من

ذلك الكتاب ويقع في بضع ورقات ، لكي اطالعه ، وأبدي ملاحظتي عليه وقد بينت له أن أسماء مواضع جزيرة العرب في الخريطة التي نقلها الاستاذ الالماني الذي نشر الخريطة . وفي الخريطة التي طبعها (المجمع العلمي العراقي) عن نسخة الاستاذ الالماني ، وقع في كثير من تلك الاسماء تحريف ، فقال : نأمل بأن نتدارك هذا بالنسخ الجيدة التي نجدها ، وبمساعدة العلماء المختصين .

في مكتبة الفاتيكان

هيأ لي الاستاذ سمير الشهابي زيارة هذه المكتبة ، فبعث معي الاستاذ الحسيني — من موظفي السفارة — في صباح يوم الثلاثاء — ٤ جمادى الاولى سنة ١٣٨٠ .

طالعت الفهرس الذي وضعه الاستاذ دلاّفيدا للمخطوطات العربية في سنة ١٩٣٥ اذ لم اجد فهرسا آخر باللغة العربية وقد نقلت منه اسماء الكتب التي رغبت الاطلاع عليها ، فنقل الاستاذ الحسيني ارقامها اللاتينية على الاستمارات الخاصة بطلبها . ولكن الموظف المكلف باحضار الكتب للمطالعين أفهمني بأن نظام المكتبة لا يسمح باحضار اكثر من ثلاثة كتب مخطوطة أو ستة كتب مطبوعة في اليوم ، فلم يحضر لنا سوى ثلاثة كتب مما طلبنا ، وكانت :

١ — تعريف من أسرار الحكمة :

وكنت ظننته كتاب سرائر الحكمة للهمداني ، فوجدته « مختصر التلويح إلى أسرار التنقيح » في شرح القانون لابن سيناء .

٢ — كتاب المعـــادن :

وقد ظننت أنه سيفيدني في تحقيق كتاب « الجوهرتين » في التعدين ، فوجدت الكتاب باللغة السريانية ، ولم أفهم منه شيئا .

٣ — القصيدة الدامغـــة ، ودامغة الدامغـــة .

والقصيدة الدامغة – على ماهو معروف ردّ بها الهمداني على الكميت بن زيد الاسدي رد في هجوه للقحطانيين ، الا ان الدامغة هذه ودامغتها قصيدتان أخريان تتفقان مع قصيدة الهمداني في الموضوع والقافية وتخالفانها في الوزن ، فهما من بحر البسيط ، والأولى كتب في أولها :

– هذه القصيدة لمحيا بن العليف في الافتخار على قحطان لانه من نزار :–
ما انبعث مذ كنت للاخبار مضمونا ولا بثثت من الاسرار مكنونا .

ثم بعدها : – وهذا جوابها للفقيه جمال الدين علي بن الاسلمي نسبا ، والزيدي مذهبا وسماها دامغة الدامغة وهي هذه :

فخارنا بسيوف الهند يكفيـــنا عن فخركم آل عدنان ويغنينا

وهي ١٦٧ بيتا ، وهاتان في المجموع رقم ١١٢٠ وفي المجموع رقم ١١٣١ .

وفي المجموع من بحر البسيط أيضا قصيدة أخرى نونية من بحر البسيط في الافتخار بالقحطانيين ، الا ان أولها غير موجود ، ويليها جواب السيد العلامة صفي الدين الهادي بن ابراهيم بن الوزير ، ردا على الفقيه علي بن سليم الفضلي، وهو أبلغ جواب، وسماها الشيعة دامغة الدامغة :

فخارنا برسول الله يكفيـــــنا عن كل فخر وأن الانبيا فينا

وتقارب هذه القصيدة خمسمائة بيت .

وفي هذين المجموعين قصائد لشعراء يمنيين ، متقدمين ومتأخرين ، وبعض رسائل في موضوعات مختلفة وهما حديثا النسخ ، من مخطوطات القرن الثاني عشر الهجري وكاتبهما يمني ، وليس فيهما شيء ذو أهمية .

في مكتبة الفاتيكان مرة أخرى (*) :

وفي صباح يوم الاربعاء غدوت مبكرا إلى مكتبة الفاتيكان لأكمل

(*) اليمامة العدد ٢٧٢ الاحد ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٨٠ (٣٠ ابريل سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

الاطلاع على الكتب التي أريد الاطلاع عليها . وكانت :

١ — ديوان علي بن المقرب في المجموع رقم ١١٥٠ يبتديء من الورقة ١٠٥ وينتهي بالورقة ١١٣ أي ١٨ ورقة . ومقدمة الديوان هذا نصها :
(ديوان علي بن المقرب رحمه الله) :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وصلى الله على محمد وآله ، إن الامير الكبير الاديب نور الدين علي بن المقرب كان أميرا جليلا مقدما في قومه ، فاضلا نبيلا متمسكا بالدين والعفاف متصفا بحسن السيرة والعدل والانصاف، ثم جار على قومه صرف الزمان ونزل بهم ريب الحدثان، فدخل بلادهم من نازعهم في الامر واستولى على اشرافهم بالغلبة والقهر فانتصر بقومه على القوم ولامهم ايما لوم ، فعدلوا عن رأيه الصواب ولم يُفد فيهم اللوم والعتاب ، فأنف من القهر والذل وان سفك دمه أهون عليه ولو طل فعزم وفارق من بغي عليه من أهله واخوانه وامتدح من رجا عنده نجاح قصده ونجاز وعده لامتكسباً بذلك مالا ولا طالب احسانا واوصالا وكان رحمه الله قد اعطى من البلاغة النصيب الجزل، وخص بخصائص من الفضل من الفضل يعرف ذلك العلماء بهذا الشأن ويشهد له شعره بالتميز على الاقران والسبق في ميدان الرهان فالله يتولاه بالعفو والغفران ويشهده غرفات الجنان وكان وفاته في حدود الثلاثين بعد ستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام فمن قوله رحمه الله :

كم ارجع الزفرات في أحشائي .

وكاتبه يدعى محمد بن سعيد بن صالح القلقيلي ، من (شهارة) في اليمن ، من أهل القرن الحادي عشر الهجري ، يدل على ذلك ما جاء في احد الهوامش وهذا نصه في الورقة (١٢٢) : فرغ زبر هذه القصائد لنفسه . . . محمد سعيد بن محمد ابن صالح القلقيلي السمحي سامحه الله ، وذكر يوم الانتهاء من النسخ وشهره ،ولم يذكر السنة، الا انه اورد في موضع آخر من المجموع قوله : (وللكاتب في السد الذي امر مولانا ايده الله باصلاحه في محروس ضوران سنة ١٠٢٣ :

لقد جعل المولى الخليفة بيننا   وبين الظما سداً وأردفه سدا

والديوان لا يتضمن الا بعض شعر الشاعر ، فالقصيدة اللامية التي مطلعها :

حطوا الرحال فقد اودت بها الرحل .

غير مذكورة والميمية الطويلة لم يذكر منها سوى ٦٣ بيتا . وهناك قصائد اخرى موجودة في الديوان المطبوع ، لم ترد هنا .

وفي هذا المجموع دواوين شعرية للمعري وللآنسي ، وللحاجري ، وقصائد ومقطوعات شعرية كثيرة لشعراء يمنيين ، وفي آخره كتاب « خلاصة السيرة الجامعة ، لاخبار الملوك التبابعة » تبتديء من الورقة ١٣٠ إلى آخر المجموع اي ٦٤ ورقة — وهذا ما جاء في طرة الورقة ال ١٣٠ :

(كتاب خلاصة السيرة الجامعة لاخبار الملوك التبابعة تأليف القاضي العلامة ابي الحسن علامة اليمن نشوان بن سعيد الحميري أصل القصائد وشرحها لنشوان رحمه الله .

منقول من سيرة الامام عبد الله بن حمزة عايه السلام في ذكر نشوان : وله اشعار كثيرة ويروي انه كان لا يرجع إلى قول اهل البيت ولا يقوم بحقهم القيام الذي يجب على مثله لمثلهم وروي انه تاب عن ذلك كله رحمه الله ، ذكر ذلك كله في الترجمان لابي مظفر رحمه الله وله اولاد علماء ، ومما يدل على عقيدة نشوان واعتقاده عل غير اهل البيت وكان اعتماده في كتبه على ما يقوله علماء الامة ما خلا اقوال الائمة فقال في المعنى شعرا :

إذا جادلت بالقرآن خصمـــي   أجاب مجادلا بكلام يَحْيَا[1]

فقلت كلام ربي منه وحـــي   اتجعل قول يحيا عنه وحيـــا

وله التصانيف البديعة كشمس العلوم وغيرها .

وروي ان الامام الهادي عز الدين بن الحسن رضي الله عنه زار قبر نشوان بن سعيد وولديه محمد وعلي قال ارتجالا .

---

(١) القاعدة (يحيى) ولكنني كتبت الاسم بالألف دفعاً للخطأ .

يا قـــبر نشوان اولا النصب فقت على
من كان من علمـــــاء العرب والعجم
يا قـــبر نشوان ما ضمنت من حِكَمٍ
ومن عـــلوم له تربي عـــلى الدّيَـــمِ

ولعل الرواية في توبته عن النصب غير صحيحة ولو صح ذلك وصحت توبته لم يقل الامام عز الدين ما قاله على قبره أو كانت توبته لم يعلم بها الامام . الله اعلم .

واما الامام القاسم بن محمد فقد كفره في قوله مفتخرا بقحطان :

والناس من صدف وهم من جوهر

وقوله :

لم تسمع الاذان صوت مكر .

وهي في هذا الكتاب وفي الورقة : ١٩٤ : اخرها : (وكان الفراغ من رقمها يوم الخميس سادس جمادى الآخر سنة ثمان وثمانين والف سنة من الهجرة) .

. . . وبين الورق ثلاث حواش مكتوبة بورقات صغيرة وملصقة في مواضعها من الكتاب ، منقولة من شرح الدامغة . ولم يرد في هذه النسخة في الكلام على نسب الرائش نقل عن شرح الدامغة – كما في أغلب النسخ – بل اكتفى بالنقل من الاكليل .

وفي المكتبة نسخة اخرى مختصرة جاء في مقدمتها (اختصار شرحها من شرح مصنفها ، اختصره محمد بن أحمد ابن موسى الرعيني) والنسخة مخطوطة سنة ١١٢٩ وكاتبها يدعى عبد الفتاح بن أحمد بن يحيي ابن ابراهيم ، من اليمن .

٢ – قصص الانبياء ، أردت أن اطالع النسخة التي ذكر لي الاستاذ

(*) اليمامة العدد ٢٧٣ الاحد ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٨٠ (٨ مايو سنة ١٩٦١) السنة الثامنة

دلافيدا انها موجودة في المكتبة من تأليف عمارة بن وثيمة . غير ان الفهرس الذي بين يدي لا يذكر فيه اسم المؤلف بل يكتفي باسم الكتاب ورقمه ،، والكتب التي عن قصص الانبياء في الفهرس تحمل أربعة أرقام (١٦١/ ١٢٥/١٣٦٢/١٧٢) وقد احضر لي الموظف منها كتابين ، وجدت أحدهما من الكتب المسيحية ، والثاني مجموعة من الاوراق الملفقة . فأعدتهما اليه ، وطلبت احضار الباقي . فرفض لأنّ نظام المكتبة لا يسمح إلا باحضار ثلاث نسخ مخطوطة ، وقد احضرها لي . فقلت له — بالاشارة لانه لا يفهم العربية وأنا لا أفهم الايطالية —: انني سأسافر غدا ، واظهرت له الاستعطاف ، فأتى إلي وأخذ بيدي ، وذهب بي إلى قسيس كان غارقا بين الكتب ينقل ويطالع ، ويصحح أوراقا مطبوعة فوقف عنده حتى رفع رأسه فكلمه ، وعرض عليه بطاقات الكتب التي طلبت احضارها ، فأخذها منه وكتب فيها ثم ارجعها . . فأمرني بالجلوس في مكاني الذي اعتدت الجلوس فيه ، وبعد برهة وجيزة أحضر لي كتابين ، رأيت أحدهما غير جدير بالمطالعة . لانه ورقات ملفقة ، ومختلفة المواضيع . أما الثاني ويحمل رقم ١٢٥ فيحتوي على كتابين ، الاول (كتاب الانوار) لابي الحسن عبد الله البكري ، أوله : (قال أبو الحسن عبد الله البكري رحمة الله عليه : قال ابو محمد العباس بن عبد الله قال حدثنا الفضل بن جعفر بن عبد الله قال حدثنا أبو محمد البلخي ، واسمه السدي بن عثمان ، عن أبي بكر بن سعد بن عمر الانصاري عن أبيه قال : سألنا كعب الاحبار وهو يصف الاسلام فلم أجد رجلا انصفا منه للاخبار سألته عن بدو رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثني عن بدو امره في سابق علم الله سبحانه وما شرفه به وفضله ومحله ومولده . . .) والكتاب جله عن كعب ووهب وأمثالهما . والكتاب الثاني يبتديء من الورقة ٤٧ — وهذا نص ما جاء فيها :

المجموع رقم ١٢٥ من الورقة ٤٧ سفر فيه قصص الانبياء صلوات الله عليهم في ذكر اخبارهم وانسابهم وانبائهم من مبدإ خلق آدم عليه السلام ، من تأليف الشيخ المقريء أبي عبد الله أحمد بن مطرف الكناني الكرجي

رحمه الله وعفا عنه ، للامام الشيخ المعلم لكتاب الله العزيز الفقيه ابي عمران موسى بن مفرج الانصاري رحمه الله وعفا عنه .

من ٤٧ إلى ١٣٣ (١١٤ ورقة كبيرة في الصفحة ٢٤ سطرا) بخط مغربي وبعض الكلمات مشكل ، وقد اصابه بلل الا أن الكتابة فيه مقروؤة .

وفي الورقة ١٣٣ ما هذا نصه : —

(تمت قصص الانبياء بحمد الله وحسن عونه والصلاة على سيدنا محمد وآله في العشر الاخر من صفر موافق ست وعشرين يوم من شهر يونيه عام سبع وسبعين وستمائة .

أخذت من المسلمين مدينة واشقه سنة ستة وخمس مائه ثم اخذت بعدها سرقصطة سنة اثنا عشر وخمس مائة ثم أخذت بعدها لارده في سنة ثمانية عشر وخمس مائة) .

كانت (*) بغيتي من مطالعة هذه الكتب الاطلاع على كتاب عُمارة بن وثيمة ، ولكنني لم أجده . لم اجد في هذه المكتبة من الكتب شيئا مما ابتغيه .

قليل من الضحك !!

خرجت متجولا في داخل (قصر الفاتيكان) وما يحيط به من مباني ، ولما أعياني السير ذهبت إلى المكان الذي أسكنه .

ومررت بطريقي إلى المنزل ببائع فاكهة ، فرأيت عنده نوعا من الفاكهة ، ظننته نوعا من الطماطم ، الا أنه أصفر اللون ، كبير الحجم ، فصار يغريني بالشراء ، حينما رآني أطيل النظر إلى ذلك النوع فأخذت منه حبة ونقدته ثمنها ١٠٠ ليرة واحدة (والليرة في هذه البلاد كبيرة الاسم قليلة النفع ، ومئة الليرة هذه تقارب ثلث ريال) ولما وصلت المنزل وأحضر

(*) اليمامة العدد ٢٧٤ الاحد ٢٩ ذي القعدة سنة ١٩٨٠ (١٤ مايو سنة ١٩٦١) السنة الثامنة .

لي الغداء ، وكان أحد الاطباق (مكرونة) أزلت قشرة تلك الحبة ، وقطعتها فوق الطبق ، ولكنني ما كدت اذوقها حتى صرت أجافي جنبي محاولا اخفاء الطبق ، لئلا ينظر أحد من الجالسين على الموائد حولي إلى ما فعلته فيضحك ويهزأ بفعلي . ولكن الفتاة التي كانت تحضر الطعام أدركت ذلك ، فاستغربت ، واشارت إلى طبق الفاكهة ، لتعلمني بأن هذا فاكهة يؤكل بعد الانتهاء من الغداء ، ولكنني تجاهلت ذلك واظهرت لها أنني فعلته متعمدا ، وأنني أحِبُّ أن أضع على (المكرونة) شيئا حلوا . ودرأت عن نفسي وصمة الجهل ، وان كنت من أجهل الجاهلين في فعلي هذا ، مكررا جملة : (فِرِي نايِسْ) !!

وهذا النوع من الفاكهة يدعى (كاكي) في مصر

في دار السفارة

أبي كرم الاستاذ سمير الشهابي القائم بأعمال السفارة السعودية في روما الا ان اقيم إلى يوم الخميس ، لكي يدعو بعض العلماء الذين يعنون بالدراسات العربية ، إلى حفلة غداء في دار السفارة ، وما كنت راغبا في ذلك ، الا ان ما شاهدته من كرم خلال الاستاذ الشهابي أبي علي الا ان اقابل دعوته الكريمة بالشكر والقبول .

كان من بين المدعوين – وهم قليلون – المستشرق المعروف الأستاذ « غبْرِيلّي » استاذ الادب العربي في جامعة روما ، ومعاونه وهو شاب مستشرق زل عني اسمه ، والاستاذة (ماريا نيلّينُو) .

وقد أمضيناها سويعات قصرها لطف الداعي وكرمه ، وما افضينا في الحديث عنه ، من أخبار الكتب والمكتبات ، وآثار المعنيين بالمخطوطات .

في مكتبة المجمع العلمي الإيطالي :

حدثني الأستاذ (غبْرِيلّي) وهو شيخ في الخامسة والستين ويتحدث العربية بطلاقة ، وهو عضو مراسل للمجمع العلمي العربي بدمشق ، ولمجمع اللغة العربية في القاهرة حدثني عن مؤسسة الامير المستشرق الايطالي (كايتاني) التي هي الان قسم من مكتبة (المجمع العلمي الايطالي) وذكر ان فيها بعض

مخطوطات عربية ، وفيها قسم كبير من المخطوطات العربية المصورة ، ورغبني في زيارتها وكنت قد عزمت على السفر غدا (في يوم الجمعة) ولكنني قررت أن لا اغادر روما قبل زيارة تلك المكتبة ، وفي صباح يوم الجمعة اتصلت هاتفيا بالاستاذ (غبْرِيلّي) واخبرته برغبتي في زيارة تلك المكتبة ، وكان قد قال لي : إذا قررت زيارتها فأنا أحب أن أكون معك ، لأرشدك إلى مخطوطاتها .

اجمل ما شاهدته في المكتبات التي زرتها : قاعة الفهارس والمطالعة في « المتحف البريطاني » وحسن ترتيب الكتب وتجليدها في المجمع (العلمي الايطـــالي) التي تضم على ما يقول الاستاذ (غِبْرِيلّي) مايقارب نصف مليون مجلد .

قابلت (*) الاستاذ غِبْرِيلّي داخل المكتبة ، فذهب بي إلى القسم الذي تقع فيه (مؤسسة كَايْتَانِي للأبحاث عن تاريخ الاسلام وحضارته) وتقع هذه المؤسسة في حجرتين واسعتين ، إحداهما تُعْقَدُ فيها الاحتفالات السنوية للمجمع العلمي الايطالي ، عندما يريد المجمع أن يمنح أحداً شهادة علمية ، ويحضر هذه الاحتفالات كبار رجال الدولة ، ويحضرها الملك أو رئيس الجمهورية ، وفي هذه القاعة قسم من الكتب . والقاعة الثانية تحتوي على عدد من الكتب العربية ، تبلغ الـ ١٥ الف مجلد أكثرها مصور عن نسخ مخطوطة (١)

(*) اليمامة – العدد ٢٧٥ – تاريخ ٦/١٢/١٣٨٠ – السنة الثامنة .

(١) هذه المؤسسة منسوبة إلى الامير ليون كايتاني (١٢٨٦/١٣٤٥ هـ) وهو كما جاء في «الاعلام » للاستاذ الزركلي أمير ايطالي من أسرة عريقة معروفة في روما منذ عشرة قرون . وقد درس هذا الامير اللغات حتى اتقن العربية والفارسية وتخرج في جامعة روما وقام برحلات إلى الهند وايران ومصر والشام ، وألف بالايطالية كتاب (حوليات الإسلام) في التاريخ طبع منه ثمانية مجلدات ، محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة ، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل تاريخ القرن الاول للإسلام في ٢٥ مجلدا ، وجمع جذاذات لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وادبائهم في الاندلس ، ونشر باللغة العربية كتاب (تجارب الأمم) تأليف مسكويه ، مصدرا بمقدمات مفيدة ،ومذيلا بفهارس ضافية ، وجمع مكتبة عربية عظيمة أضيفت إلى (المجمع العلمي الايطالي) في حجرتين متصلتين به ، يطلق عليهما اسم (مؤسسة كايتاني للدراسات الاسلامية) وقد وضع الاستاذ غبريلي فهرسا لهذه المكتبة في مجلد لطيف .

لم أجدْ في هذه القاعة ، وهي المكان المخصص للمطالعين سوى سيدتين استقبلتني احداهما بالسلام باللغة العربية ، ثم قدمها إلى الاستاذ غِبْرِيَلّي قائلا : هذه الاستاذة (وِتْشا وِلّي ريري) استاذة الادب العربي في (جامعة نابلي) فقلت لها بعد أن رددت التحية عليها : أنا لم استطع معرفة اسمك ، لغرابة الكلمات الايطالية على سمعي ، فقالت : يعرفني العلماء العرب باسم (لورا) وانا لست مسلمة ، ولكنني ألَّفْتُ كتاب « محاسن الاسلام » وألَّفْتُ كتاب « النحو العربي » وكانت تتكلم اللغة العربية الفصحى بطلاقة وسرعة ووضوح [1] .

أشار الاستاذ غِبْرِيَلّي إلى كتب مصفوفة في ثلاثة رفوف في أحد الصوّانَاتِ (الدواليب) قائلا : هذه اشتريت من اليمن بواسطة أحد التجار الايطاليين ، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع ، — وهو فهرس يقع في كراسة لطيفة ، وضعه الاستاذ غِبْرِيَلّي بالايطالية .

بدأت انبش تلك الكتب واحداً واحداً ، والاستاذة (لورا) تُساعدني بتقديم الكتاب عندما تراني أريد إعادة ما بيدي إلى مكانه ، بعد أن تسألني : هل هذا الكتاب غريب ، أو نادر ؟! وعندما أذكر لها اسم المؤلف تفتح كتاب (بروكلمان) وتقرأ ما كتب عنه . وقد أظْهِرُ لها جهلي عندما أطالع بعض المخطوطات — بالمؤلف او عصره ، فتوضح لِي ما أجهله من ذلك .

أمضيت ثلاث ساعات ، في تصفح تلك الكتب ، التي طال العهد بإهمالها ، حتى صار من يطالعها يتأذّى من كثرة غبارها ، ووجد الدود مرتعا في بعضها ، دفعني إلى ان الفت نظري الاستاذ غِبْرِيَلّي إلى ذلك ، قائلا : يحسن أن توضع مادة الـ « د . د . ت » لتصون الكتب من هذه الحشرات . فقال : نعم نعم . ماذا تسمون تلك المادة باللغة العربية فقلت : مبيد الحشرات .

---

(١) هي الدكتورة لورافيشيا فاغليري استاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابلي . نشر كتابها باللغة الايطالية المرة الأولى سنة ١٩٢٥ في رومة ، ونشر باللغة الانجليزية في نيويورك سنة ١٩٥٧ .

وقد طبع باللغة العربية في بيروت سنة ١٩٦٠ باسم (دفاع عن الإسلام) .

في تلك المجموعة من الكتب طائفة كبيرة من كتب الفقه على المذهب الزيدي ، وفيها مؤلفات في تاريخ اليمن ، من اقدمها تاريخ صَنْعاء للرازي ، ومن الكتب التي تصفحتها :

١ ـ كتاب « مآثر الأبرار في تفصيل مجملات الأخبار » لمحمد بن علي بن يونس بن الزحيف الفه سنة ٩١٦ ، مخطوط سنة ١٠٧٠ ويقع في ١٥٩ ورقة من القطع الكبير . رقمه (٢١٢) .

٢ ـ المجموع رقم ١١٦ ـ يحتوي على الجزء الاول من كتاب« الترجمان ، المفتح كمائم البستان » لمحمد بن أحمد بن مظفر ، في الادب والتاريخ ويبتديء من الورقة الا ٢٣

وفي الورقة ٦٦ شرح قصيدة الهادي بن ابراهيم بن محمد :

الدهر ذو غير عظمى وذو عبر وصرفه شامل للبَدْو والحضر

إلى الورقة ١٢٢ ـ اخرها : (نجز الجزء الاول من الترجمان بحمد الله وحسن توفيقه) .

وفي الورقة ١٢٣ : « طوق الحمامة ، شرح القصيدة البسامة » والقصيدة لابن عبدون ، والشرح لعبد الملك الحضرمي الشِلّي من الورقة ١٢٣ إلى الورقة١٢٣ إلى ٢٠٣ ، مخطوط سنة ١٠٦١ .

٣ ـ وفي المجموع رقم ٢٣٩ : كتاب « المنتخب من رأس مال النديم » للشيخ ابي عبد الله محمد بن حبيب البغدادي ، في التآريخ العجيبة ، والنكت الغريبة . وقالت لي الاستاذه (لورا) كتاب « رأس مال النديم » ليس لابن حبيب ، بل هو لمؤلف من اهل القرن السادس الهجري ، ذكره بروكلمان .

ويقع هذا الكتاب من الورقة ٨٤ إلى الورقة الا ١٤٠ مخطوط سنة ١٠٦٩ .

٤ ـ وفي المجموع رقم ٢٣١ قطعة من « ديوان القاضي أحمد بن محمد بن فُليتة » من الورقة الا ٢١٤ إلى الورقة الا ٢٣٢ ـ تتضمن مقدمة عن الشاعر ثم الشعر من قافية الالف إلى قصائد من حرف الدال .

٥ ـ الكتاب رقم ١٩٨ : « خلاص الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك » تأليف سبط ـ ثم كلمة غير واضحة ـ الاربلي . مخطوط في ٧ ذي الحجة سنة ٧٠٢ ، يقع في ٣٤٠ ورقة ، يبتديء بذكر خلافة الوليد بن عبد الملك . وينتهي بذكر خلافة المستعصم العباسي سنة ٦٥٦ ، والنسخة جيدة ، وفي اخرها : (أنهاه مطالعة وجعل له فهرست في نحو كراستين كاتبه عبد الباسط ابن العملويّ سنة ٨٥٨) . وعبد الباسط هذا من الذين ملكوا النسخة وطالعوها .

وتقول الاستاذه (لورا) : إن بروكلمان ذكر هذا الكتاب باسم (خلاصة) ونسبة إلى (عبد الرحمن الاربلي) وذكر ان منه نسخة في المكتبة اليسوعية في بيروت ، وذكر أن الاصل الذي هو (سير الملك) لابن الجوزي ، وانه طبع في بيروت سنة ١٨٨٥ م .

٦ ـ الكتاب رقم ١٩٩ : « صفة جزيرة العرب » للهمداني مخطوطة حديثة تاريخ نسخها ١٣٣٢ هـ .

* * * *

أيامٌ في باريس

بواعث السفر

كان الفضل في عزمي على السفر لحضور هذا المؤتمر يرجع لأستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر، فقد كتب إليّ محبذاً ومُرَغباً، وأتبع ذلك بأن اتصل بالمشرفين على إقامته فوجهوا إليّ الدعوة للحضور، وجاءني كتاب من الاستاذ شارل بلاّ (رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة باريس) بدون سابق معرفة عن رؤية أو مكاتبة يقول فيه : (لأن أكبر فائدة المؤتمرات ليست إلقاء الاحاديث والاستماع اليها، بل ما يتهيأ للأعضاء من الفرص السانحة لتعارف البعض والمذاكرة والتفاهم وغير ذلك من الفوائد والمنافع فلذلك أرجو منك ان تحضر هذا المؤتمر) الخ .

والحق أن جُل ما يستفيده المرء من حضور المؤتمرات هو التعارف — كما ذكر الأستاذ — وقد سبق أن دعيت إلى المهرجان الذي أقيم في مدينة بغداد بمناسبة مرور الف عام على إنشائها، وعلى مرور الف عام على وفاة الكندي وكان ذلك في عهد الزعيم قاسم أمين، وكانت المدة المقررة لإقامة المهرجان — كما دعوه — احدى عشر يوماً، ولكنني لم أطقْ إكمالها، ولما طلبت من المشرفين على تنظيمه تهيئة وسائل عودتي اتصل بي وزير الثقافة مبديا رغبته في بقائي حتى انتهاء أيام المهرجان، ولما أظهرت له أنني لم أتمكن من مقابلة من كنت عرفته من العلماء والباحثين من أهل العراق . سألني عمن لم أره منهم قائلاً : إن المهرجان قد ضم العلماء والشعراء، فكان ممن

(*) مجلة « العرب » — المجلد الثامن — ص ٤٦٠ — .

ذكرت الشيخ محمد رضا الشبيبي ، فقال : إنه مريض لا يخرج من بيته ، فأخبرته بأنه ليس مريضاً ، وقد كرم فزارني في الفندق ثم . ذكرت له الاستاذ عباس العزاوي فزعم أنه خارج العراق للعلاج ، ولكنني أكدت له بأنه في بغداد ، وأني زرته في بيته ، وذكرت اسم الدكتور جواد علي فقال : إنه في لندن يلقي محاضرات في احدى جامعاتها ، غير انني أخبرته انه يقيم في بغداد ، وسميت له الفندق الذي كان يسكنه تلك الايام ، فما كان منه إلا أن قال لي : أرجو أن ترى عندما تأتي إلى بغداد مرة أخرى جميع من تحب رؤيتهم . ومع أن ذلك الوزير كان عسكرياً إلا أنه كان لطيفا حقاً وفي غاية الرقة المحمودة والتواضع ، وهو الاستاذ اسماعيل العارف .

لقد تم العزم على السفر لحضور المؤتمر ، وبدأت في الاستعداد لذلك وكنت اسمع عن كثرة المسافرين إلى باريس فخشيت أن يحدث لي فيها مثل ماحدث لي حينما وصلت إلى لندن في شهر اكتوبر سنة ١٩٦٠ ، ذلك أنني عندما أردت السفر اليها من هولندا قال لي أحد معارفي : يحسن الاتصال في لندن بمن يحجز لك مكاناً تسكنه ، فلم أصغ إلى قوله وأجبته : مدينة تتسع لما يقارب ثمانية ملايين من البشر لن تضيق بي . وكان أن سافرت إليها فبلغتها حوالي الساعة العاشرة ليلاً . فركبت من مقر شركة الخطوط الجوية الهولندية في إحدى سيارات الأجرة . وقلت لسائقها : (هوتيل) وهي ما أحسن من الكلمات الانجليزية التي ينبغي أن أخاطبه بها ، فاغتنمها فرصة . فصار يدور بي حول الفنادق الكبيرة التي تزدحم عادة بالسكان ، حول حديقة لندن الكبيرة (هايدبرك) ولكن الوقت طال ، حتى أتقنت منه قوله : (نو روم . كمبليت) والظاهر أنه أحس أيضاً بشيء من الضيق المشوب بالاستغراب من هذا الراكب الذي لم يُبْدِ أيَّ تذمُّر من طول السير ، فكان يلتفت إليَّ ويمطرني بوابل من الكلمات التي لا أفهم منها سوى ما ذكرته ، ويقف أحياناً كأنه يرغب مني النزول ، ولكنني كنت أثناء ذلك أكرر قوله (نو روم) ثم أتبع ذلك بإشارة تدل على النوم في سيارته . فيقهقه

ضاحكاً ويستمر في سيره . حتى خطر ببالي ذكر أحد الإخوان المقيمين في لندن للدراسة ، وكنت أبعث إليه بجريدة « اليمامة » التي كنت أنشأتها مجلة حولتها إلى جريدة ، وكنت أحفظ عنوانه على هذا النحو : (إجلْ هَاوُسْ ، كرافِنْ رُوْد ، تَمْبَرْ ثري) وسرعان ما انطلق سائراً عندما سمع مني هذه الكلمات ، متوغلاً في داخل المدينة ، فوقف عند باب مغلق ، وأراد مني النزول ، ولكنني أشرت بأن يتقدمني لفتح الباب وبعد نزوله تبعته ، ولما فُتِح لنا الباب وسألنا عن صاحبنا وكان الاستاذ عبد العزيز المنقور أشار محدثنا إلى لوحات تحوي أسماء كثيرة مكتوبة بحروف دقيقة ، فلم نستطع الاهتداء إلى مسكنه في هذه الدار ، وتضايق الرجل فأشار لنا بالخروج ، وأغلق دوننا الباب وقبل الرجوع إلى السيارة أبصرت لافتة قريبة منا كتب فيها : (رونالد هوتيل) فأشرت له بأن يذهب إليها وبقيت في السيارة حتى رأيته داخلاً فتبعته ، فوجدت البهو (المدخل) يتسع لوضع سرير فيه ،وبعد أن انتهى من الحديث مع صاحب الفندق أقبل نحوي – كالغاضب أو المتظاهر بالغضب – يكرر كلماته المعروفة ، ولما اتجه نحو الباب ناديته قائلاً : (تَعَالْ تعال !!) واكملت الكلام بالاشارة بوضع سرير لي في هذا البهو ، ولكن صاحب الفندق قبل أن أكمل إشاراتي خاطبني قائلاً : (أنت عربي) ؟ فانحلت المشكلة كما يقولون ، ولا داعي للاطالة ، فقدهيأ لي مكاناً لا يصح أن يطلق عليه اسم غرفة، في السطح الواقع في الدور الخامس ، ولا مصعد للفندق ، وكان سطح المكان مسقّفاً بالحديد الرقيق (الشينكو) والمطر قوياً ، والودق عندما يتساقط فوق سقف ذلك المكان يحدث صوتاً مزعجاً ، ولضيق ذلك المكان وضع حقيبتي في مكان آخر ، ولكنني مع كل ذلك استغرقت في نوم عميق حتى الساعة السابعة – قرابة ست ساعات .

كنت رغبت من صغري بناتي أن تسافر معي ، ورأيت ضرورة تهيئة مسكن في باريس ، فكان أن اتصلت بمكتب (كوك) الذي تولى مستلزمات

السفر ، ومنهـا اختيـار السكن ، وكان اختياراً موفقـاً في فندق يدعى Hotel De L'abbaye في شـارع يدعى (كاسيت) متفرع من شارع سان جرمان في قلب المدينة في الحي اللاتيني ، بقرب (السوربون) حيث يقام المؤتمر .

من بيروت إلى باريس : كان السفر في يوم السبت ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٣ (١٤ يوليو سنة ١٩٧٣ م) في احدى طائرات الشرق الأوسط ، المسافة تبلغ ٣٣٨٨ كيلاً قطعتها الطائرة في اربع ساعات ونصف ، إذ أقلعت من مطار بيروت الساعة الواحدة إلا ربعاً ظهراً ، وحطت في مطار باريس في الساعة الخامسة والربع (أي الثالثة والربع بحسب توقيت باريس) .

لم أر في مطار من المطارات التي مررت بها معاملة أسهل مما رأيته في هذا المطار ، فقد كان المرور بدائرتي الصحة والجوازات لا يستغرق من الوقت أكثر مما يستلزم ختم الجوازات والنظر فيها للتحقق من سمة الدخول وإجراء التطعيم ثم الخروج إلى الساحة التي تبرز فيها الحقائب ، فيناول كل مسافر حقيبته ويخرج بها من باب وقف فيه موظف يكتفي بنظرة عابرة يلقيها على المسافر وهو يحمل حقيبته أو يَجرُّها ، كما فعلت ، فقد أحضرت معي لفافة ثقيلة تحوي عدداً من الكتب التي طبعتها لأقدمها لبعض من أعرف ، وما كنت أعتقد أنني أجد أي مطار من مطارات العالم خالياً من الحمالين كما رأيت في هذا المطار. لقد حملت ابنتي حقيبتها ، وسرت خلفها اجرُّ تلك اللفافة على الأرض وهي من ورق ، والمطر يهطل بغزارة ، وسرعان ما وقف بجواري شابٌّ وقال : أتريد أن أساعدك ؟ ثم تناول طرف ما أجرُّ حتى اوصلني إلى سيارة أجرة تسوقها سيدة ، ابلغتنا مكاننا الذي نقصد ، ونقدناها ما طلبت من أجرة بلغت ٣٣ فرنكاً ولم يكن أحدنا بحالة تمكنه من النظر إلى مسجل الأجرة (العدّاد) ليتحقق من صحة ما طلبت ، مع ملاحظة أن الحقائب لها أجرة وأن السائق لا يكتفي بالأجرة المسجلة ، ومهما يكن فقد دفعنا ذلك مرتاحين ، ولو طلبت أكثر لما ترددنا في دفعه ، فقد كنا في حالة لا تمكننا من المماكسة ، وهي لا تفيد في مثل هذه الحال .

أتانا الشاب العربي في الفندق في المساء وكان مغربيا ويدعي — كما قال لنا — : (علوي مولاي إدريس) من الدار البيضاء من عين ذياب ، من أسرة علوية النسب ، يدرس الطب في هذه المدينة ، ثم لازمنا — أكرمه الله — ملازمة الظل ، وصار يرشدنا إلى ما نريد وما لا نريد ، حتى أظهرنا له عدم الحاجة اليه فودعنا بعد ثلاثة أيام وقال إنه مسافر إلى بلده .

بعد استراحة في الفندق إلى الساعة السابعة والنصف قمت بجولة في أكبر شارع بقربه حتى الساعة التاسعة ، وكان الجوُّ بارداً ، والسماء مكسوة سحابا يساقط رذاذاً فألجأني البرد إلى العودة إلى الفندق والبقاء فيه حتى الصباح .

يقول المثل النجدي : (يا داخل مصر غيرك ألوفْ) ولهذا فلن أتحدث عن مشاهدتي في هذه المدينة إلا من جانب نظرتي الخاصة ، لن أتحدث عن شيء من مظاهر الحياة فيها ، ولا عن ما اعتاد زوارها ان يشاهدوه من معالم تاريخها أو مباهجها وأماكن اللهو والمرح فيها ، ولا أتحدث عما اعتدت الحديث عنه عند زيارتي المدن الأخرى من وصف ما اطلعت عليه في مكتباتها من نوادر المخطوطات ، ذلك أنني صُدمْتُ من هذه الناحية عندما أردت الخروج من بيتي في بيروت إلى المطار صدمة جعلتني عندما أفكر في أي كتاب مخطوط أشعر بالألم والأسى ، كنت أعددت كتاب « أدب الخواص » لابن الوزير المغربي (٣٨٠/٤١٨ هـ) للنشر في « العرب » فجمعت ترجمة المؤلف من كثير من المصادر مخطوطها ومطبوعها ، وصورت الجزء الموجود من الكتاب ، ونسخت قسما كبيراً منه ، وهيأت كل ذلك لكي آخذه معي ، ولكنني فقدته في الوقت الذي أردت وضعه في حقيبة السفر ، وأدركت أنني نسيته في سيارة الأجرة التي ركبتها من مكتبي إلى البيت ، ولا وسيلة للحصول عليه ، فندمت لما بذلته في سبيل النسخ وجمع أصول الترجمة ، وكتابة أكثرها ، وكان لا بُدّ لي من أن أسلي النفس وأعللها بأنني قصدت من سفري هذا الراحة ، ولعل الله أراد لي خيراً بضياع تلك المخطوطة التي

او كانت معي لحرمتني ما قصدته من استجمام ،مع أن راحتي لا تكمل بدون المطالعة والقراءة ، وليست مطالعة أي كتاب تستهويني ، ولكن المرء كثيراً ما يحاول أن يخادع نفسه وأن يغالطها .

كانت الغرفة التي نسكنها في الفندق في الدور الثالث منه وتطل على حديقة صغيرة في داخله ، وعند إطفاء النور للنوم الساعة التاسعة شاهدت النور من النافذة بدرجة مكنتني من رؤية السماء مكسوة بالغيوم ، وأنوار الشوارع ليست بدرجة من القوة بحيث يكون ما شاهدته من أثرها ، فالفندق في شارع صغير ، داخل محلة سكنية ، أنوارها خافتة ، فعللت قوة النور في السماء وآفاقها من ضوء القمر ، ولكنني راقبت هذا الأمر في الأيام التي أقمتها في هذه المدينة فرأيت أن ظلام الليل لا يشتد إلا بعد مضي الهزيع الأول منه بحيث أن مغيب الشفق الأحمر الذي حدده الفقهاء لدخول وقت صلاة العشاء يتأخر بعد غروب الشمس زمناً طويلاً . أما تعليل هذا فلن يعجز علماء الفلك ، ومعروف أن الشمس في هذا الوقت قد انحرفت نحو القطب الشمالي ولهذا فإن قرص الشمس ولو اختفي عن النظر فنورها يبقي فيما بين الساعة الخامسة صباحاً حتى التاسعة مساء . ويلاحظ ان الشمس في برج السرطان (شهر يوليو) .

يوم الأحد : (١٥/٦/١٣٩٣ – ١٥/٧/١٩٧٣ م) اعتدت القيام مبكراً ، والمشي فيما بين الساعة السادسة والثامنة ، فكان أن صرت أتردد في الشارع القريب من الفندق لئلا أضلّ ، وأتخذ من بناية بقربه – هي أطول بناية في هذه المدينة تقارب ٧٠ دوراً – أتخذ منها علامة للاهتداء ، حتى عرفت موقع الفندق معرفة حملتني على التمادي في السير مسافات طويلة ، والشوارع تكاد تكون خالية في مثل هذا اليوم حتى يرتفع النهار ، ولكنها ليست نظيفة وخاصة الكبيرة منها . لقد اعتاد كثير من الناس ولا سيّما الشيوخ والعجائز قضاء الهزيع الأول من الليل في التجوال فيها، وكما قيل(لا بُدّ للقناص من رفقة الكلب) فقلّ أن ترى واحداً من أولئك لا يقود كلباً ، أو يتبعه كلب ، وهو يطلق لكلبه العنان ليفعل فوق طول الشارع ما شاء ، ولا يتم

تنظيف الشوارع قبل الساعة الثامنة صباحاً . وحتى بعد التنظيف فالشوارع لا تخلو من الحفر والبقـــع الخالية من التبليط المملوءة بالـــتراب أو الاوساخ .

مرّ بنا أخونا العربي المغربي ، ورغبنا في القيام بجولة فيما حولنا سيراً على الأقدام ، فخرجنا في الساعة العاشرة ، فمرّ بنا على حديقة تقع بقرب الفندق تدعى (حديقة لكسمبرج) وهي من أجمل الحدائق ، ثم رغبت منه أن يمرّ بنا على جامعة (السربون) إذ سيعقد المؤتمر فيها ، فإذا هي على مقربة من هذه الحديقة ، ثم سار بنا في شارع يغصُّ بالناس يدعى (شارع سان ميشيل) وما أكثر الشوارع التي تحمل اسماء القدّيسين في هذه المدينة العابثة اللاهية ، الجامعة بين المتناقضات .

اعترضنا نهر السين ، الذي يخترق المدينة متعرجا متفرعا ، فاشار صاحبنا في جهة اليمين إلى كنيسة (نوتردام) تلك التي اتخذ الكاتب ف . هيجو (V. Higo) من أحدبها بطلاً لروايته (أحدب نوتردام) واتخذنا سيرنا ذات اليسار ، على ضفاف النهر ، المحاط بسياج من البناء ، فوق صناديق من الحديد اتخذها باعة الكتب والصور مما ذكرني بسور (حديقة الأزبكية) في القاهرة .

ثم اجتزنا أحد الجسور إلى (متحف اللوفر) فلم نشأ دخوله لضيق الوقت واتجهنا إلى الحديقة الجميلة الواقعة بعده على مقربة منه ، ولكننا ما أخذنا مقاعدنا حول نافورتها الجميلة حتى اسودّ الغيم ، ثم بدأ المطر رذاذاً فحاولنا تحمله ، ولكن سرعان ما هطل الودق بغزارة مما دفع كل من في الحديقة إلى الخروج ركضاً بحثاً لما يقي من المطر ، حتى تجمعوا تحت البناء الذي أقيم في الساحة الواقعة بين الحديقة وبين قصر اللوفر ، ليخلد ذكرى احدى الوقعات التي انتصرت فيها الجيوش الفرنساوية . استمر هطول المطر فكان لا بدّ لنا من العودة إلى الفنـــدق ، فركضنا وراء صاحبنا إلى داخل قصـــر

اللوفر ، ثم نزلنا إلى محطة (المترو) الذي أبلغنا قريباً من منزلنا . وكان الغداء في مطعم صغير وعلى قلته فقد كلّف غداؤنا الثلاثة ٧٢ فرنكاً (٢٠ دولاراً صرف الدولار ٣٫٩ من المارك) في هذا اليوم ، أما الفاكهة فقد أخذنا من إحدى البقالات نصف كيل من البرتقال المغربي ومثله من الخوخ الجيِّد بمبلغ ٧٫٥ فرنكات وأجود ما رأيته من الفاكهة نوع من الخوخ شبيه بالبرقوق أملس القشرة لذيذ الطعم ، والظاهر أن أحدهما مطعمٌ بالآخر ، ومن المطاعم نوع يتناول المرء فيه ما يريده من الأكل بنفسه (Self Service) والأكل فيه رخيص الثمن مع جودته فقد تغدينا ثلاثة في مطعم من هذا النوع ، يقع في شارع من أعظم شوارع المدينة وهو الشارع الذي يقع فيه القصر الجمهوري والسفارتان الامريكية والانكليزية فلم يزد ثمن ما تناولناه من أكل جيد على ٣٥ فرنكاً .

يوم الاثنين : (١٣٩٣/٦/١٦ - ١٩٧٣/٧/١٦ م) كانت الجولة في الصباح ممتعة ، فقد اتجهت صوب (حديقة لكسمبرج) فوجدت أبوابها مغلقة فاكتفيت بالاستدارة حولها حتى أعياني المشي ، وكنت أدورها في ٢٥ دقيقة ، ورأيت شاباً ليس على جسمه من اللباس ما يستره سوى تُبّان يطوف حولها جَرْياً والعرق يسيل من وجهه ، مع برودة الجوّ : وسقوطَ رذاذاً خفيف المطر .

الى جامعة السربون

عدت إلى الفندق للاستعداد للذهاب إلى جامعة (السربون) لحضور افتتاح المؤتمر ، فاستبدلت بالحلة التي كنت ألبسها حُلة أخرى ، لكونها قد أصابها وسخ ، وتكمشت بفعل المطر ، وكانت أم محمد قد هيأت لي بعض الملابس ، مع أنني أظهرت لها رغبتي في التخفف في كل شيء ، وكان منها معنقة (كرافتة) جميلة مما لم أعتد لبسها ، ولكن ابنتي مُنا ألحت عليّ حتى لبستها ، أما الحذاء فقد كنت اشتريته من القاهرة في شهر رمضان ، ومكثت ألبسه خلال التسعة الشهور الماضية ، حتى كلح لونه ، وبدا كمجلد

الأجرب ، ولم أحاول تغييره لارتياح قدمي أثناء المشي فيه ، وان كنت أعاقب بينه وبين حذاء آخر في بعض الأحيان . فبدا منظره — بالنسبة للحلة الكاملة الجديدة — بصورة في غاية التناقض ، أو كهذا تصورت ، وهذا ما دفع ابنتي إلى ان تطلب مني شراء حذاء جديد، وأيدها أخونا المغربي . فخرجنا نذرع الشوارع فيما بين الساعة الثامنة والنصف والتاسعة والنصف ، ولكن المحلات التي تباع فيها الأحذية مغلقة ، ولا تفتح قبل العاشرة . وقد أزف وقت افتتاح المؤتمر ، فذهبنا اليه ، وكنت من تأثير ما أحسست به من عدم التناسق في لباسي أنْ صِرْتُ اركز نظري في أحذية من اشاهده في الطريق لعلي أرى من يماثلني ، وكنت أتصور أن كلَّ إنسان يقابلني يفعل فعلي . بلغنا مكان الاجتماع ولحسن الحظ لم أجد واحدا ينظر إلى وجهي فضلاً عن قدمي ، ومع مشاهدتي عدداً ممن أعرفهم إلا أن كل واحد منهم مشغول بشأنه ، وكما قيل : (وِش أنتِ يا بعوضة) !!

وجدنا قاعة المؤتمر قد غَصَّت بالناس ، فذهبنا نبحث عن مكان في المدرجات التي فوقها فلم نجد مكاناً إلا في الدور الرابع في احدى الشرفات المطلة على القاعة .

كانت الخطب التي ألقيت باللغة الفرنسية ، وابنتي التي حضرت معي لتترجم لي لا تعرف إلا اللغة الانجليزية ، فلم نستطع البقاء حتى ينتهي الاجتماع فخرجنا ووجدنا صاحبنا ينتظرنا في المكان الذي طلبنا منه البقاء فيه ، وذهبنا في سيارة أجرة إلى السفارة ، وكان الغرض تسجيل جوازي السفر ، ومقابلة بعض الإخوان ممن نعرفهم .

في سفارة بلادنا

سألنا أول من قابلناه داخل السفارة عما نريد فأخبرناه فأرشدنا إلى مكتب القنصل وهو الأخ سعد عثمان ناظر — من جدة — فاحسن الاستقبال وسجل الجوازين ، ولما أخبرته أننا سنسافر إلى اسبانيا قال : لا بُدَّ من كتاب من

السفارة إلى أية سفارة لأي بلد تريدون الذهاب اليه في أوربا ، وكنت في رحلاتي السابقة في سنة ١٩٦٠ و ١٩٦٣ و ١٩٦٤ م لا أجد عناءً في الحصول على سمة الدخول في كل البلاد التي زرتها . وكان ذلك يتم في المطارات أو عند الحدود .

تركنا جوازينا عند الاستاذ ، وسألته عن مكتب الملحق الثقافي وكان أحد موظفي ذلك المكتب قد سلم علي وجلس في مكتب الأخ الناظر ولم أكن اعرفه فقال لي : المكتب فوقنا ، وهذا الأخ أحمد الصالح يعمل فيه فقام وسار بنا إلى المكتب حيث وجدنا الأستاذ عبد الله الطويل . أنا أدرك ما يحمله لي كثير من ابنائي وعارفيَّ من المحبة والتقدير ، ولهذا أتحاشى في كثير من الأحيان زيارة كثير منهم ، لأنني أضنُّ بأوقاتهم أن يصرفوا جزءاً منها للتعبير لي عن شيء أدركه وأعلم به ،من تقديرهم وإكرامهم، بل أتضايق في كثير من الأوقات مما يضفونه عليَّ من كرم وعطف ، ولهذا فقد حاولت — وعبثا حاولت — من الاستاذ الطويل الاحتفاظ بوقته ، والحفاظ على صحته فقد كان يشكو من نزلة صدرية حادة (انفلونزا) ونصحته بالاستراحة والاخلاد إلى الهدوء والبقاء في البيت حتى تزول حدتُها ، ومن يعرف الاستاذ الطويل حق المعرفة يدرك أنني بنصحي له وبرغبتي منه أن يتركني وشأني ، أضرب في حديد بارد !! لقد أضفى عليَّ — أكرمه الله — من كرمه ، وهيأ لي ولابنتي من الوسائل ما جعل إقامتنا في هذه المدينة مريحة ، وبينما كانت ابنتي مُنا تقول : باريس ثقيلة الظل فلنسرع بالرحيل عنها . إذا هي تستبطيء الموعد الذي يحدده الاستاذ لمرور ابنائه عليها في الفندق للذهاب بها لمشاهدة بعض معالم المدينة ، ولقضاء جزء من الوقت معهم في البيت ، كما عرفت فتاتين صغيرتين ايطاليتين تدرسان في احدى المدارس الداخلية فكانتا تأتيانها مساء ، فتقضي معهما جزءاً من الوقت . لا أطيل فقد خرجنا من السفارة على وعد بأن نتلاقى في الساعة السادسة ، وكان ممن قابلته فيها الأخ الأستاذ محمد العلاقي فلم أعرفه في المقابلة الأولى ، فرجعت اليه معتذراً ، وقد رأيت في مكتبه سمو الأمير عبد العزيز بن ثنيان آل

سعود أمين مدينة الرياض ، وهي أول مرة أراه ، ولقد رغبت في الجلوس مع سموه حينما عرض عليّ ذلك غير أن إحساسي بقليل من الألم في عيني واضطراري لاستعمال دواء في الفندق حال دون رغبتي تلك .

كثير من سفارات بلادنا تكون القنصلية في دار غير دار السفارة ويكون المكتب الثقافي في دار ثالثة ، وهذا فضلاً عن كونه لا ييسر لكل راغب زيارة الجهات الثلاث في وقت قصير ، وخاصة من لا تمكنه ظروفه من الإقامة زمناً طويلاً في المدينة التي تقع فيها، ففي تفرقها من إضاعة المال وعدم المحافظة على الوقت ، وعدم الاختلاط ، والاتصال بين موظفين يجب أن يكونوا دائما على اتصال وثيق وغير ذلك من الأمور التي أشرت إلى جانب منها في الحديث عن زيارة إحدى سفارات بلادنا [1] ، مما لا يحتاج إلى بيان ، ولهذا فقد كان سروري عظيما حينما رأيت السفارة والقنصلية والمكتب الثقافي ومنزل السفير في بناء واحد ، يتلاءم مع ما لحكومتنا من مكانة كريمة ، وهذا البناء ليس مستأجراً بل ملكاً من أملاك الدولة .

قمنا في المساء – بل قام بنا أخونا وابننا الاستاذ الطويل – بجولة شاهدنا في خلالها ما لم نشاهده من أبرز معالم المدينة ، فهذا برج ايفل (Tour Eiffel) وهذا قصر رئيس الجمهورية ، وهذا شارع (الشانزيلزيه) وهذا قبر نابليون يبدو مشمخراً بارزاً ، وتلك مسلة مصرية نقلت على عظمها وطولها من ضفاف نهر النيل لتبدو على ضفاف نهر السين معبرة عما للمصريين من حضارة قديمة . وهنا قصر العدل ، وفي هذه المقصورة سجنت (ماري انطوانيت) ملكة فرنسا ، أثناء محاكمتها ، وها هو موضع سجن (الباستيل) التي يقول فيه شوقي :

فإنّا لم نُوَقَّ النقصَ حتّى ... نطالب بالكمال الأوّلينا
وما (البستيل) إلا بنت أمسٍ ... وكم أكلَ الحديدُ بها سجينا

إلى غير ذلك مما يعرفه أكثر زوار هذه المدينة . ثم أعقبت الجولة استراحة في أحدى مقاهي (الشانزليزيه) فعودة إلى الفندق .

---

(١) انظر « العرب » السنة السابعة صفحة ٤٩٧ .

في مؤتمر المستشرقين

يوم الثلاثاء : (١٣٩٣/٦/١٧ هـ ، ١٩٧٣/٧/١٧ م) خرجت في الصباح مبكراً ، وقد أصبحت أتصور في ذهني جهات المدينة واتجاه الشوارع الرئيسية القريبة من الحي الذي يقع فيه الفندق فسرت في شارع (سانت جرمان) ثم عطفت بانعطاف (بوليفار سانت جرمان) حتى اتصلت بشارع (سان ميشيل) فاتجهت فيه ذات اليمين . حتى بلغت نهر السين ، فسرت بجانبه حتى بلغت — من غير قصد — حديقة النباتات ، واسمها المكتوب فوقها (Jardain des Plantes) وقد بلغتها الساعة السابعة والربع ،وكنت خرجت من الفندق الساعة السادسة وقد وجدتهامفتحة الابواب ورأيت فيها قليلاً من الشيوخ بين جالس في الشمس ، وماشٍ ينقل نظره من بين مختلف أشجارها وأزهارها ، فاستهواني جمالها بالتنقل بين جهاتها حتى بلغت الساعة الثامنة ولم أشعر ، فانصرفت عجلا من حيث أتيت فقطعت المسافة الىمكان المؤتمر في ساعة واحدة، ومع أن الجوّ باردٌ ، والمطر يتساقط رذاذاً ،فقد سال جسمي عرَقا لإسراعي في المشي ،وكنت حريصاً علىالالتقاء ببعض من أعرفهم ممن حضروا المؤتمر ، ولا يتسنّى ذلك غالباً إلا قبل البدء في المحاضرات ، وفي مدخل جامعة السربون ، حيث منظمو الاجتماعات ، فيكون الالتقاء غالباً ، إذ الاجتماعات موزعة حسب الموضوعات التي قرر المؤتمر دراستها . والمؤتمرون والحاضرون موزعون وفق الموضوعات . ومما يجدر ذكره أنني لم أحضر أي اجتماع من اجتماعات لجان المؤتمر إذ لم أرغب الحضور لأنني لا أحسن غير العربية ، ولم أسجل في البطاقة التي بعثت اليّ مع الدعوة اسم اللجنة التي أرغب حضور جلساتها . كما أن استجابتي للدعوة لم تصل الا متأخرة ، ولهذا فيظهر أن اسمي لم يسجّل ، مع أنني دفعت رسم التسجيل حوالة برقية من بيروت . وعندما حضرت في اليوم الأول قابلت الدكتور صلاح المنجد ، متأبطاً الحقيبة السوداء من نوع ما وزع على المدعوين ،

فسألني : أين الحقيبة والبطاقة ؟ إنك لا تستطيع الدخول إلى مكان الاجتماع بدونهما . فأعطيت الأخ المغربي نسخة البرقية التي حولت بها رسم الاشتراك، وسرعان ما عاد إليّ بهما . ويظهر ان المشرفين على تنظيم شؤون المؤتمر قد تكاثر عليهم الحاضرون فكان يعييهم البحث عن كل اسم منهم لكثرتهم فيكتفون بتقديم الحقيبة وبكتابة البطاقة قبل التثبت ، مع أن جُلّ المدعوين إن لم يكن كلهم قد سجلت اسماؤهم في بطاقات عرضت أمام المشاهدين مما يسر لكثير منهم الاهتداء إلى اسمه بسهولة ، وكثير من الأسماء المكتوبة بقيت معروضة حتى انتهاء أيام المؤتمر . ولعل أصحابها حدث لهم كما حدث لي .

أصبحت لا أحتاج إلى من يرشدني للجهة التي أقصدها ، ولهذا خرجت قبل حضور الأخ المغربي قاصداً مقرّ المؤتمر ، وبينما أنا في بهو الالتقاء حيث تعرض الكتب إذا بالدكتور حمد الحويطر ، ممثل وزارة المعارف في هيئة اليونسكو) ومعه الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشامخ ، المدرس في كلية الآداب في جامعة الرياض يلتقيان بي ، فكان حديث ، وكان وعدٌ للاجتماع ولمح الدكتور الحويطر إلى أنني لم أعلق فوق صدري الورقة التي تحمل اسمي — كغيري من كثير من الحاضرين — فسألني : ألم يعطوك حقيبة ؟! فأجبته بالايجاب . فقال : أليس فيها ورقة كهذه التي تراها ؟ — وقد ظنّ أنها وسيلة : (افتح يا سمسم) ! وما علم أنني لم أر حاجة تدعو إليها فطرحتها ، وأجبت بالنفي لئلا يظن بي من الغباء أكثر مما اتصف به ، فسارع حتى أتاني ببطاقة لم يتركها الا بعد أن تركها تلوح فوق صدري بيضاء فاقعاً لونها . ثم أدركني الخجل وأنا أنظر إلى اسمي معلقاً فوق صدري ، وذكرت قصة (جحا) طيب الله ذكره — حينما ربط خيطا في يده ، لكي يعرف نفسه ، وفي أثناء النوم حلّت أمه ذلك الخيط وربطته في يد أخيه ، فلم أصبح ورآه قال لأخيه : أنت أنا وأنا أنت ! !

ان أحبابنا وأبناءنا يريدون منا أن نسير في كل أعمالنا دقيقها وجليها سيراً منظماً لئلا نكون عرضة للسخرية من غيرنا ، ولكن (شبّ عمرو

عن الطوق) ! وفي حفلة الافتتاح حينما رأت ابنتي مُنًا أن صدر كل واحد من الحاضرين تلوح فوقه تلك الورقة البيضاء التي وضعتها داخل الحقيبة طلبت مني بإلحاح أن أعلقها مثلهم . فقلت لها : قد تكون غايتهم تذكرُ أسمائهم وأنا لن أنسى اسمي ! ! فأدركت أنني غير جادّ ، وطلبت الورقة لتعلقها هي ، ويظهر أنها خجلت مثلي فلم تفعل ! وأدركت أن في الإمكان الدخول في كل مكان من أمكنة المؤتمر بدونها .

حديث عن اللحية

وممن قابلته هذا الصباح الأستاذ مصطفى غالب ، وهو من الباحثين اللبنانيين المهتمين بتاريخ الاسماعيلية ، وله مؤلفات عن هذه الطائفة كما نشر بعض المخطوطات المتعلقة بها ، وكان تعارفنا عن غير قصد ، فقد تركت شعر رأسي ولحيتي مسترسلاً بدون تشذيب أو اصلاح ، فبدت لحيتي كثّة أشبه بلحى (البهرة) ولعل هذا مما حمل الاستاذ مصطفى على أن يتقدم إليّ مصافحاً ظاناً أنني أحد رجال طائفته التي يعني بتاريخها ، ولقد أقمت في بيروت زمناً لم يجر بيننا تعارف مع حرصي على ان أعرف وأقابل واتصل بكل من يعني بأيّ جانب من جوانب التاريخ العربي ، ولعل الفضل في تعارفنا هذا يرجع إلى لحيتي التي لفتت نظر كثير من اخواني الذين أبدوا لي عدم تناسق شعرها ، وحاجتها إلى اصلاح ، وليست هذه أول مزية للحية ، فقد خلصتني من ورطة كدت أقع فيها أثناء رحلتي إلى (باكستان) سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) .

لقد سافرت من جدة يوم الأربعاء (١٣٨/٦/٢١ هـ ١٩٦١/١١/٢٩ م) إلى بيروت ، ثم من بيروت الساعة السابعة ليلاً (١٣٨١/٦/٢٢) فكان الوصول إلى مطار كراتشي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت كراتشي ، والنزول في ضيافة الحكومة الباكستانية ، غير أن سفيرنا الرجل الكريم الشيخ محمد

(*) مجلة « العرب » — المجلد الثامن — ص ٤٨٥ — .

الحمد الشبيلي أضفى على الوفد الصحفي من كرمه ما طوق به عنق كل فرد من أفراده ، وقد صلينا الجمعة في مسجد يؤم المصلين فيه الشيخ مولانا خليق الزمان الذي كان له موقف معروف حيال « اليمامة » الجريدة التي كنت صاحبها ونشرت فيها مقالاً لم يثر الاستياء في (باكستان) وحدها بل في غيرها من البلاد ، وكانت الاقامة في كراتشي أسبوعاً ، ثم (راول بندي) ثلاثة أيام وفي ٤ رجب (١١ ديسمبر) في مدينة (بشاور) ثم (روال بندي) ثلاثة أيام وفي ٤ رجب (١١ ديسمبر) في مدينة (بشاور) ثم العود إلى (روال بندي) بعد زيارة ممر خيبر – بين باكستان وأفغانستان – ثم الاتجاه إلى لاهور جواً في يوم الثلاثاء ٤ رجب ومواصلة السير إلى مدينة (دكا) الساعة ١٢٫١٥ والوصول اليها الساعة ٥/٣٠ والسفر منها بالقطار إلى مدينة (شيتا قونق – Chitta Gang) والوصول اليها بعد ثماني ساعات : وفي ليلة الجمعة (١٣٨١/٧/٧ – ١٩٦١/١٢/١٥ م) أقامت أقامت نقابة الصحفيين في هذه المدينة حفلة استقبال للوفد الصحفي السعودي فكان من بين المتحدثين شابٌ حليق اللحية صاحب جريدة ومدير وكالة أنباء، غير أنه في حديثه تجاوز حدود اللياقة فهاجم صاحبَ « اليمامة» ورماه بأشنع فرية ، وبعد انتهاء المتحدثين طُلب مني القاء كلمة عن الوفد ، وبعد أن قلت ما يحسن قوله في هذه المناسبة ، طلبت من ذلك المتحدث الوقوف ثم وجّهتُ اليه سؤالاً عمّن حكم بتفكير صاحب « اليمامة » وكان خطابي بالعربية يترجم إلى الانكليزية فأجاب : مولانا خليق الزمان . فقلت : ما رأي مولانا خليق الزمان فيمن يحلق لحيته ! فلما ترجم السؤال أجاب الحاضرون بصوت واحد : كافر ! ! كافر ! ! وجلهم إن لم يكن كلهم بدون لحى ، وهكذا خرجت من تلك الورطة بفضل اللحية .

لاتستعمل اللغة العربية في المحاضرات والأحاديث أثناء الاجتماعات في جميع أقسام مؤتمر المستشرقين – حتى القسم المتعلق باللغة العربية والتاريخ الاسلامي – وكلها باللغة الفرنسية أو الانكليزية ، أو احدى اللغات الأخرى باستثناء اللغة العربية ، وكانت تلك المحاضرات قد لخصت وطبعت في كتاب

وزع على الحاضرين ، وليس بينها ما استهواني موضوعه للحضور أثناء إلقائه ، ولهذا كنت أكتفي بالتردد في مكان الالتقاء في الصباح ، وقتاً قصيراً . وفي المساء ذهب بنا أبو رائد (١) إلى ناحية مرتفعة ، حيث تقع (كنيسة القلب الأقدس) حيث تشاهد مدينة باريس واضحة من ذلك المكان المرتفع ، ومساكن تلك الناحية صغيرة ، وشوارعها ضيقة ، ملتوية ، وكان سكانها القدماء من (الغجر) فأخرجوا منها قهراً ، وشيِّدت هذه الكنيسة الضخمة فوق هذه الأرض التي أخذت ظلماً . وفي هذه الناحية عدد من المقاهي يجتمع فيها الرسامون ويقولون : إن (بيكاسو) أحد مشاهيرهم كان يمارس هوايته هنا . وهم يتعرضون للزوار ، يعرضون بضاعتهم ، وقلَّ أن يزور أحد هذه المدينة ولا يأتي إلى هذه الناحية . وبعد استراحة في مقهى من مقاهي (الشانزيليزيه) وتناول العشاء في بيت الأستاذ عبد الله ، وقضاء سويعات لا تنسى مغمورين بكرمه ولطف أسرته الكريمة ، كانت العودة إلى الفندق .

الأربعاء : (١٣٩٣/٦/١٨ هـ - ١٩٧٣/٧/١٨ م) في مدخل (السربون) قامت بعض دور النشر بعرض نماذج من مطبوعاتها مما له صلة بأبحاث المؤتمر على اختلافهم ، ومنها (بريل Leidem E. J. Brill) أشهر دار في أوربا تتولى نشر الكتب العربية وتوزيعها وقد أردت شراء « صفة جزيرة العرب » والجزء الذي طبع أخيراً من « أنساب الأشراف » للبلاذري و « ديوان مزاحم العقيلي » الذي جمعه سالم الكرنكوى (ف . كرنكو) المستشرق الألماني الذي أسلم و « فهرس الكتب التي باعها أمين بن حسن » في هولندا ، وبعد أن كتب أحد المشرفين على عرض الكتب عنواني ، واسماء الكتب التي أريدها طلب مني التوقيع في الورقة ، فأخرجت قلمي من جيبي ووقعت به ثم أعدته فما كان من الرجل إلا أن أشار إشارة فهمت منها أنه يبحث عن قلمه ، فأخرجت له قلمي ، وأبرزت له خلوَّ جيبي ،

(١) للاستاذ عبد الله الطويل ثلاثة ابناء : رائد ومنيرة وأوس .

فصار ينظر إلى نظر المستريب ، ولحسن الحظ كان الدكتور عبد العزيز الدوري يتحدث مع الدكتور عبد العزيز مرزوق على مقربة منا ، فدعوته وقلت له : خلصني من هذه الورطة ، لقد ظنَّ أنني أخذت قلمه . وبينما الدكتور الدوري يحادثه ويقلب بعض الكتب إذ وجد القلم ساقطا بينها ، فصار ذلك الرجل يكرر (أيامْ سُورْي) !! ولكن بعد أن كدت أتصبَّب عرقاً من الخجل ، وأحمد الله أنني لا أحسن لغته لكي أخاطبه بها ! وليست هذه هي المرة الأولى التي لدغت فيها من هذه الدار ، بل هذه هي الثانية ، أما الأولى فكانت في شهر اكتوبر سنة ١٩٦٠م حين مررت بمدينة ليدن عائداً من امريكا ، وكان مدير جامعة ليدن قد دعا جماعة أنا أحدهم لزيارة الجامعة ، ومكتبتها التي تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية ، وبعد انتهاء الزيارة ، وتناول الغداء في ضيافته طلبت منه أن يبعث معي من يرشدني إلى مكتبة بريل ، فكان أن انتقيت من مطبوعاتها عدداً من الكتب هي « شمس العلوم » الجزء الأول ، و « منتخبات في تاريخ عدن » و « منتخبات من شمس العلوم » وكتاب « الخيل » لابن الأعرابي تحقيق دلافيدا فطلب مني صاحب المكتبة ثمناً لهذه الكتب ١٣١ دولاراً ، فاستحييت من إرجاعها وطلبت نسخة من القائمة (الكتالوج) مع قائمة الثمن (الفاتورة) ولما وصلت إلى (بادقود سبرج) في المانيا عرضت القائمتين على أحد موظفي سفارتنا وهو الأستاذ صبحي خنشت ، فوجد أن قيمة ما اشتريته لا تتجاوز ٥٠ دولاراً ، فكان أن كتبت بذلك إلى تلك المكتبة ، فكان الجواب :

(١) اعتذار عن وقوع خطإ في القيمة .

(٢) الاسعار الموضوعة في القائمة العامة قد زادت كثيراً بعد طبعها .

(٣) إعادة مبلغ زهيد تحويلاً على أحد المصارف في المملكة . وهكذا كانت اللذعة الأولى !!

ورأيت في قائمة إحدى المكتبات إعلانا عن كتاب يتحدث عن بلادنا من جميع نواحيها العمرانية والاجتماعية والتاريخية ، فلما اطلعت عليه وجدته

أحد الكتب التي أُلفت حديثاً ، وقد ترجم إلى الفرنسية وكنت قد قرأته وكتبت عنه إبان صدوره في « اليمامة » منذ عشر سنوات . ولما سألت صاحب المكتبة عما لديه من الكتب المتعلقة ببلادنا عرض علي كتابا باللغة الفرنسية عنوانه : Expedition en Arabie Centrale ومؤلفه ويُدعى Philippe Lippens وقد قدمه فلبي وتاريخ مقدمته ١٩٥٤/١٠/٨ م كما وضع له ريكمنز G. Ryckmans مقدمة أخرى ويظهر أن المؤلف رافقهما في رحـــلة من الرياض إلى وادي الدواسر ونجران وأبها وبيشة . ويقع الكتاب في ٢١٤ صفحة وفيه ٣٩ صورة ، وخريطة واحدة توضّح الطرق التي سلكها المؤلف في رحلته ، ومضامين الكتاب كما يظهر من فصوله الأحد عشر : ١ ــ مدخل ٢ ــ جدة ، ٣ ــ في جبال الحجاز ٤ ــ من الطائف إلى بيشة ، ٥ ــ من بيشة إلى أبها ، ٦ ــ من أبها إلى نجران ، ٧ ــ في نجران ، ٨ ــ الربع الخالي ، ٩ ــ من نجران إلى اللدام ، ١٠ ــ من اللدام إلى الرياض ١١ ــ الريـــاض . وقد أعود للحديث عنه .

خرجت أنا والأستاذ يوسف محمد عبد الله ، وهو شاب يمني درس في الجامعة الامريكية ، ونال شهادة (الماجستير) عن الآثار في شمال الجزيرة ، وهو الآن يعد رسالة (الدكتوراه) في الموضوع نفسه في إحدى جامعات المانيا ، وهو من تلاميذ الاستاذ الدكتور محمود الغول ، وسبق أن قرأ لي بعض النقوش التي نشرتها في كتابي « في شمال غرب الجزيرة [1] » .

ولما عدت إلى الفندق لم أجد الكتاب بين ما معي من الكتب ، فظننت أنني نسيته في مطعم تغدينا فيه ، فبحثت عن المطعم فلم أهتد إليه ، ولكنني بعد يومين وجدت الكتاب في مكتب الاستقبال في الفندق ، ويظهر أنني نسيته مع الأستاذ يوسف وأنه جاء به فلم يجدني ، وكما يقولون : (الذي فيه نصيب ، ما يأكله الذيب) .

لمحت ــ هذا الصباح ــ وأنا في بهو الاستقبال ، رجلاً هندياً ، ليس على

---

(١) انظر ص ٦٤ منه .

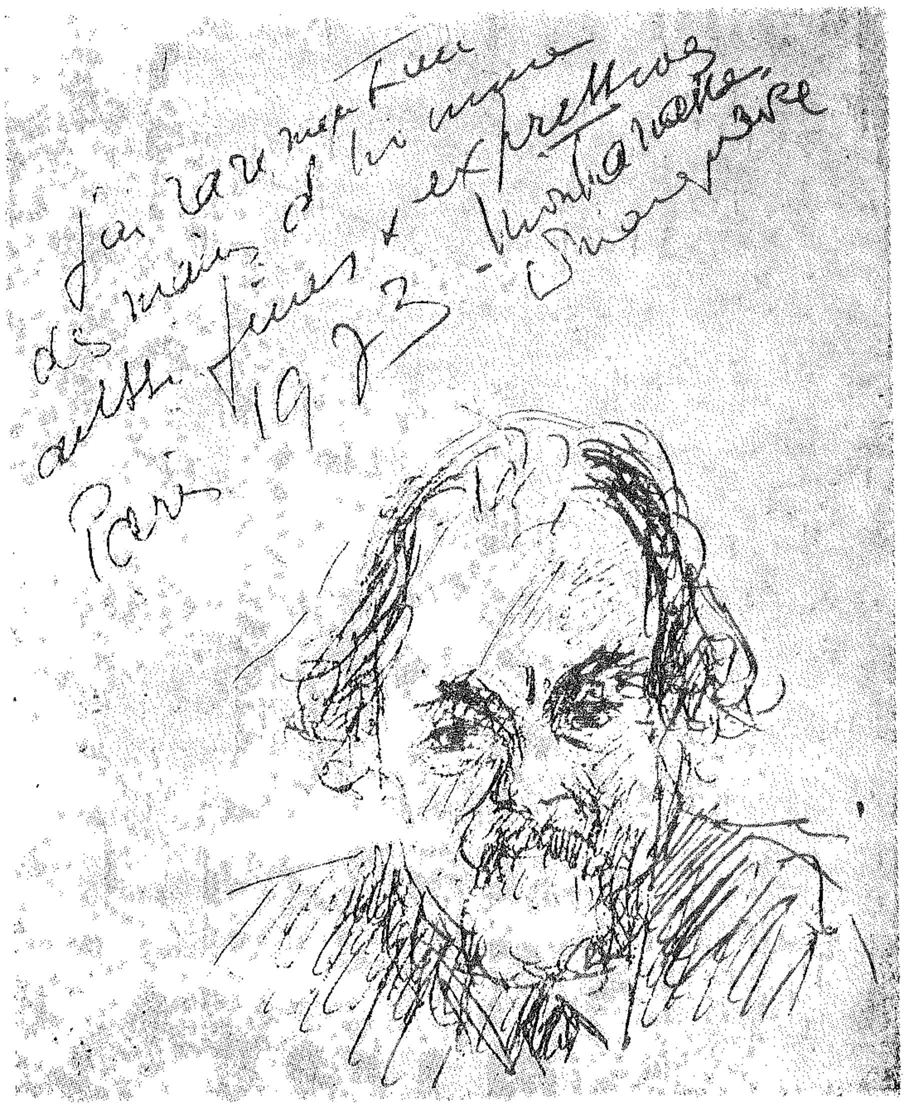
جسمه من اللباس سوى رداء وإزار صغيرين، وكان حافي القدمين ،وكنت لا أزال أحتذي الحذاء الأجرب ، مع إلحـاح ابنتي عليّ بأن أغيّره لئلا أكون اضحوكة لمن يراني ، فإذا قلت لها : انه لا يوجد في هذه المدينة من ينظر إليّ وأنا أقل من أثير فضول أحد حتى لو مشيت حافياً ، لا يقنعها هذا الكلام ، بل تجيبني : بأن الانسان ينبغي أن يهتم بنفسه ويعتني بمظهره ، وكانت والدتها أوصتها بأن تلاحظ جميع شؤوني ، وهكذا كانت . وسرعان ما التفت ــ عندما رأيت الرجل الهندي متأبطاً حقيبة المؤتمر ، ويزدان صدر إزاره ببطاقته ــ فرأيت الدكتور الدوري على مقربة مني وكان مشغولاً بمحادثة رجل آخر ، ولكنني صرفته قائلاً : انظر يا دكتور هذا أحد زملائنا في المؤتمر يمشي حافياً في بهو جامعة (السربون) وقد لا أصدق حينما أقول هذا لأحد فأردت الاستشهاد بك ، فقال : وأنا على ذلك من الشاهدين وأزيدك بأنني رأيت فتيات يمشين حافيات !! .

رغبت ابنتي مُنَىٰ قراءة بعض الصحف الانكليزية فذهبنا مساءً إلى شارع السان ميشيل ، وقبل العودة لمحت في أحد مقاهيه استاذنا الدكتور علي جواد الطاهر ، وكنت حريصاً على الالتقاء به لأقدم له مجموعة من أجزاء « العرب » التي تحوي حلقات من مقاله القيم « معجم المطبوعات في المملكة العربية السعودية » لم تصل اليه في بغداد ، ووجدت معه الدكتور فيصل السامر ، عميد كلية الآداب في جامعة بغداد ، وبعد استراحة عندهما ذهبنا جميعاً إلى الفندق ، حيث أمضينا هزيعاً من الليل في أحاديث لا تخرج عن نطاق التاريخ والأدب والمؤلفات القديمة،وكنت قابلت في الصباح استاذنا الدكتور ابراهيم السامرائي رئيس قسم اللغة العربية في جامعة بغداد ، ثم قابلته مرة أخرى، وكان غير مرتاح البال ، فقد تلقي برقية من صهره المقيم في لندن يخبره بأن زوجته مريضة ، وأنها بحاجة إلى إجراء (عملية) بصورة مستعجلة ، ولذلك فهو يتأهب للسفر ، بعد أن ألقى البحث الذي أعده للمؤتمر ، كما ألقى الدكتوران الطاهر والسامر بحثيهما .

يوم الخميس : (١٣٩٣/٦/١٩ ـ ١٩٦٣/٧/١٩ م) قابلت في صباح

هذا اليوم الدكتور وليد عرفات ، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة لانكستر في انكلترا ، بدون سابق معرفة ، وكنت أتحدث مع أحد الإخوان ، فلما مرَّ بنا وكنا نتهيأ للذهاب إلى قاعة المحاضرات عرفني به ، ثم قابلنا الدكتور محمد الشامخ فذهبنا جميعا ، ولكننا لم نطل الجلوس إذ المحاضرة بالفرنسية ، وكان يجلس بجوار الدكتور عرفات الأستاذ شارل بلا ، فسألني : أتعرف هذا؟ إنه فلان وأشار إليه . فقلت: لا وأودُّ أن أعرفه فقد نكاتبنا ، وقد عرفته بما قرأت من كتاباته وتحقيقاته لبعض مؤلفات الجاحظ . وبعد حديث بيننا خرجنا ، وأبديت رغبتي للاستاذ شارل بِلاَّ في زيارته في مكتبه . وكنت قد وضعت في صندوق بريده ورقة كتبها الدكتور حمد الجويطر أوضحت فيها عنواني ، ويظهر أنه كان غارقاً في أعمال المؤتمر إلى أذُنيه ، فقد قال لي : إنه لم يطلع على الورقة ، وأنه لا مكتب له ، ولما أخبرته بأنني أحضرت له أجزاء من «العرب» كان كتب إليَّ بأنَّها تنقص مجموعته ، لكي يبعث من يتسلمها من الفندق الذي أوضحت له عنوانه قال: بأننا سنتلاقى . صعدت مع الدكتور وليد إلى المقهى (الكافتريا) في الدور الخامس ولما استقر بنا الجلوس إذا بالدكتورين عبد الرحمن الطيب الأنصاري وعبد الله العنقاوي يأتيان ، فكانت ندوة أدبية حول شعر حسان ، وتاريخه وما يتصل بهما ، إذ الدكتور وليد عرفات قد قام بتحقيق شعر حسَّان ، ونشره في مجلدين نشراً علميّاً ثم حان موعد إلقاء محاضرة عن (الله) جل جلاله فنزل الدكتوران لسماعها ، وذهبت مع الدكتور وليد إلى الفندق ثم ذهبنا لتناول الطعام الغداء في أحد المطاعم القريبة منه ، وبينما كنا مستغرقين في الحديث عما نعيش في جوه بأفكارنا ، لا بما يحيط بنا ، إذا بإنسان يجلس أمامنا يصوب نظراته نحونا ، ويجري قلمه على ورق أمامه ، ويكرر تصويب نظره تكريراً يثير الاستغراب ، ومظهر ذلك الانسان يبدو وعليه الوقار ، وهندامه حسن ، وقد بلغ مرحلة الكهولة من عمره ، وبعد أن انتهينا من تناول الطعام ، تقدم إلي الدكتور ومدَّ إليه الورقة التي كان يكتب فوقها، وحدثه باللغة الفرنسية ، فقال لي الدكتور :

إن هذا يقول: بأنه رأى في ملامح وجهك ما دعاه إلى أن يرسم صورتك، فهو يعتذر عن هذا إذا كان فيه شيء من المضايقة، ويقدم لك الصورة ، فسألته : أيريد مكافأة؟ فقال الدكتور لا كلمة (مرسي) تكفيه . ولما أبصرت خرابيشه ولا أريد أن أقول صورتي ـ استعذت بالله من الشيطان الرجيم ، وذكرت قصة الجاحظ مع الفتاة الماجنة التي طلبت منه أن يتبعها ، فسار فسار خلفها حتى وقفتْ به على صائغ فقالت له : كهذا !! وانصرفت . فسأل الجاحظ الصائغ عن المرأة وعما أرادت منه ، فقال : إنها طلبت رسم صورة الشيطان على خاتمها وأن الصائغ لم ير تلك الصورة حتى يتمكن من رسمها ، فكان أن رأت في صورة أبي بحْرٍ ما أرادت ، ولئن كان الجاحظ يتخذ من السخرية أسلوباً للتعبير عن آرائه ، وأنه في كثير من الأحيان يلذ له أن يسخر من نفسه، فانني لا أفعل ذلك ،وها هو الرسم الذي تخيله الباريسي



الفضولي لي ، ولئن كنت فهمت من الدكتور وليد عرفات أن فيه ملامح صادقة تعبر عن قسمات وجهي وخاصة أثناء إصغائي لاستماع الحديث ، فإنني أرجو ألا يكون ذلك حقاً .

لقد سُررت – رغم بشاعة هذه الخرابيش – بان في وجهي من الملامح والقسمات ما يجد فيه الفضوليون من الرسامين ما يستهويهم ولو كان ذلك على حدّ قول الشاعر : (وأرحم القُبْحَ فأهواه) كما سررت وأنا في (مراكش) عندما سلّم عليّ أحدهم ظانا أنني الدكتور عمر فروخ – زميلي في مجمع اللغة – وحمدت الله على أن في خلقه من يدانيني [1] خلقة .

كنت في الأيام الماضية كلما رأيت من توسمته من بلاد الهند احاول التحدث اليه ، فأبدأه بالسلام فبعضهم يردّ علي ويصغى إلى سؤالي ، وبعضهم ينظر إلي باشمئزاز – أو هكذا كنت أتصور – ويزوي وجهه منصرفاً ، وكنت حريصاً على أن أعرف شيئاً عن استاذنا الجليل الشيخ عبد العزيز الميمني ، وكان أكثر من أتحدث معهم عنه يقولون : إنه بخير ولكنهم ليسوا من (باكستان) وبينما أنا أتحدث مع بعض الأخوان إذا برجل يتقدم مني مسلّما ، فذكرت أنني رأيته ولكنني نسيت اسمه ، فذكرني أنه زارني مع استاذنا الدكتور إحسان عباس في بيروت ، وأنه من (باكستان) ويُدَرّس في احدى الجامعات الافريقية ، فقلت له : إذن انت تعرف الشيخ الميمني؟ فقال : معرفة سماع لا رؤية . ولما رأى حرصي على أن أعرف حال الشيخ قال : تعال أدلك على أحد تلاميذه (فلان الندوي) وعنده الخبر اليقين عنه . وكان الندوي في قاعة المحاضرات ، فلما دخلنا القاعة من أعلى مدرجاتها انصلت مسرعاً إلى اسفلها ، ولم استطع مجاراته في النزول فجلست في أعلى المدرج ، ثم أطال المتحدث حديثه بما لا افهمه فخرجت انتظر صاحبنا عند الباب ، ويظهر أنه خرج ولم أبصره .

زارني في المساء أحد أبنائنا الذين يدرسون في انكلترا ، وهو الاستاذ حمزة

---

(١) أنظر « العرب » س ٧ ص ٨١٠ .

بن قبلان المزيني — من مُزَيْنة — من سكان المدينة ، وهو يقوم بدراسة لهجة قبيلة حرب التي أصبحت مزينة فرعاً من فروعها ، وقد بعثته جامعة الرياض ليحضر لشهادة (الدكتوراه) لم يجدني في الفندق فاتصل بي هاتفياً في الساعة التاسعة ليلاً فاجتمعنا الساعة العاشرة والنصف .

وزارني أيضاً الاستاذ أيمن ابن صديقنا الاستاذ فؤاد السيد — رحمه الله — وهو شاب طُلَعَة تخرج في كلية الآداب في جامعة القاهرة ، ثم عمل في (معهد المخطوطات) التابع للجامعة العربية ، ثم تكالب عليه بعض أعداء والده وحاسديه مع ان والده — رحمه الله — فيما أعتقد لا عدو له في حياته ، فخرج من المعهد ، وهو يعمل الآن في المعهد الثقافي الهولندي ، وقد نشرت « العرب » بعض أبحاثه ، وهو يُعنى بتاريخ اليمن ، وقد ألف كتاباً عن مصادر تاريخه ، قال لي . إنه سيصدر قريباً : وكان أعد بحثاً لإلقائه في المؤتمر عن وصف اليمن في كتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري .

كانت جولة مع أبي رائد في المدينة ، واستراحة قصيرة في أحد مقاهي شارعها العظيم ، فعودة إلى الفندق ، وبعد التأهب للنوم اتصل بي الأخ الأستاذ المزيني فأمضينا الهزيع الأول بل النصف من الليل حتى الساعة الثانية عشرة نتجاذب الحديث عن موضوع رسالته ، وفي موضوعات تاريخية مختلفة ، وكان أن أبديت له استغرابي من شدة عناية المستشرقين بدراسة اللهجات العربية ، وتوجيههم بعض أبنائنا للاشتغال بدراستها ، وإن كنت أدرك أهمية دراسة اللهجات من الناحية اللغوية الصرفة ، إلا أنني أرى أن هناك من جوانب تاريخنا ما يفوقها أهمية ، وأشرت إلى أن أحد أبنائنا من الأحامدة من حرب — أيضاً — وضع رسالة (الماجستير) عن لهجة قبيلته ، وهو من موضوع بحث الأخ المزيني . فكان مما أوضحه لي أن موضوع رسالته يختلف عن الموضوع الذي طرقه الأخ الحازمي من حيث الشمول ، يضاف إلى هذا أن قبيلة حرب كثيرة الفروع ، مختلفة المساكن متفرقة ، ولهجتها مختلفة بحسب هذا التفرق والتباين من حيث الفروع ، والأخ الحازمي درس لهجة فرع من القبيلة يقيم في جهة خاصة . وان اللهجات هي الآن في طريقها إلى الانقراض بسبب تأثير الحضارة القوى في إزالة الفوارق ،

وتقريب المسافات وقوة الاختلاط لا بين القبائل العربية التي تجمعها بلاد واحدة ، وروابط روحية واجتماعية فحسب بل حتى بين الشعوب المختلفة، ولهذا فدراسة اللهجات لها صلة بالمحافظة على أثر من مميزات لغتنا التي هي إحدى مقومات كياننا . وقد يكون لبعض الغربيين غاية لا تتصل بهذا الجانب ، لأنهم يطلقون على بعض لهجات الشعوب التي تجمعها اللغة الواحدة اسم (لغة) بدلاً من (لهجة) فيقولون اللغة المصرية يعنون اللهجة . وهكذا استمر حديثنا ذا شجون حتى آذننا صاحب المقهى بالانصراف بالبدء باغلاق محـــله .

يوم الجمعة : (١٣٩٣/٦/٢٠ ــ ١٩٧٣/٧/٢٠ م) حرص كثير ممن حضر المؤتمر على التحدث ، فكان أن اتصل بعضهم بالمشرفين على تنظيم القاء المحاضرات لذلك ، والمعروف أن المحاضرات والأحاديث تقدم إلى المؤتمر قبل الزمن المقرر لعقده ، ليتسنى النظر فيها ، وتقرير ما ينبغي بشأنها ، ثم تحديد زمن إلقائها ووضعها في (البرنامج) وهكذا فعل المؤتمر في المحاضرات والأبحاث التي قدمت له في وقت مبكر ، فقد لخصها في كتيبات ثلاثة ، وحدد زمن إلقائها في (البرنامج) اليومي المطبوع في كتيب أيضاً ، وقد وزعت تلك الكتيبات على كل من حضر المؤتمر قبل افتتاحه ، ومع أن ستة أيام المؤتمر قد شُغلت كل ساعاتها المخصصة لالقاء المحاضرات شغلاً كاملاً ومملاً بحيث أن كثيراً من المتحدثين لا يشاهد أمامه في قاعة المحاضرة إلا عدداً قليلاً من المستمعين ، وأذكر أنني حضرت لاستماع احدى المحاضرات المتصلة بالتاريخ العربي ، أنا وابنتي ، فلفت نظري قلة الحاضرين فعددتهم فإذا هم لم يبلغوا العشرين ، ومع ذلك فقد خرج بعضهم عند البد في الالقاء .

مع كل ما تقدم فقد حرص بعض الأساتذة على إلقاء محاضرات كانوا أعدوها ويظهر أنها لم تصل إلى المؤتمر إلا بعد الانتهاء من تنظيم ما سيلقي فيه ، فكان أن وضعت إدارته جدولاً إضافياً يتضمن أسماء الذين تقدموا

اليه بطلب الحديث ، وخصصت لهم الاوقات التي قد يتخلف فيها أحد المحاضرين ، وأذكر من هؤلاء الدكتور وليد عرفات ، والدكتور مجاهد محمود الصواف ، والاستاذ أيمن فؤاد السيّد ، وموضوع محاضرة الدكتور الصواف عن المفسرين في القرنين الأولين من الهجرة ، أما موضوع محاضرة الدكتور وليد عرفات فكان غريباً حقاً ، كان عن (بني قريظة) ولا أدري هل وجد احد من هؤلاء سعة من الوقت للتحدث بما لديه أم لم يجد ، ثم لا أدري ما سبب الحرص الشديد على القاء محاضرات على جانب كبير من الأهمية في هذا المؤتمر والأمر كما ذكرت ؟! .

رأيت في صباح هذا اليوم الدكتور وليد عرفات ، وبعد تبادل التّحية قال : إنه ذاهب لمكان المحاضرات لكي يرى فيما إذا وجد متسعاً من الوقت لإلقاء محاضرته ، وبعد المرور السريع في قاعة الاستقبال خرجت مع الدكتور ابراهيم السامرائي ، فجلسنا في أحد المقاهي حتّى قاربت الساعة الثانية عشرة فانصرف كل واحد منا لشأنه .

السبت : ((١٣٩٣/٦/٢١ هـ ـــ ١٩٧٣/٧/٢١ م) هذا اليوم هو آخر أيام المؤتمر . وقد بكرت في الذهاب إلى مكان الاجتماع لأحظى بالالتقاء ببعض من أرغب الالتقاء بهم لعلي استطيع معرفة ما أتوق إلى معرفته ، ومن أهم ذلك : ـــ

١ ـــ معرفة شيء عن الشيخ الميمني .

٢ ـــ الحصول على بعض المؤلفات المطبوعة المتعلقة بالجزيرة وخاصة رحلة شارل هوبر والكتاب المتعلق بآثار الحجر .

٣ ـــ طريقة الحصول على صور بعض المخطوطات في المكتبة العامة في باريس .

(*) مجلة « العرب » ـــ المجلد الثامن ـــ ص ٦٥٢ ـــ.

(١) انظر عنه « العرب » السنة الأولى ص ٣٠١ .

٤ ـ البحث عن كراسة طبعت قديما عن زيارة الشيخ أمين بن حسن الحلواني هولندا وحضوره مؤتمر المستشرقين أثناء انعقاده سنة ١٨٨٣ م (١٣٠٤ هـ) ، اي منذ تسعين عاماً .

مرَّ بي الدكتور صلاح الدين المنجد وأنا أطالع عناوين بعض الكتب المعروضة ، ومن بينها مؤلف لابن أبي عَجِيبة ، فأشرت إلى اسم المؤلف سائلاً عن موضوعه فقال : إن هؤلاء لا يُعْنَون إلا بالكتب التي لا تمثل الإسلام تمثيلاً صحيحاً ، ثم تحدث عن إحدى المحاضرات التي ألقاها مدير جامعة دينية في بلاد عربية عن القرآن الكريم ، وما فيها من أمور لا تتفق مع البحث العلمي الصحيح ،وفي هذه الاثناء لمحت الاستاذ الدكتور شكري فيصل ماراً فلحقت به وسلمت عليه ، فوجدته متأثراً من جوّ باريس ويشكو توعكا في صحته ، وأخبرني بأنه ذاهب إلى احدى قاعات المحاضرات . فحدثته عن الشيخ الميمني ـ والاستاذ شكري هو أمين مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي) والشيخ الميمني من اعضائه، فبادرني قائلاً : أبشرك أنه بخير ، فقد كتبت إلى الأستاذ محمد الطيب أسأل عنه ، فتلقيت جواباً منه لم يمض على تاريخه أكثر من شهرين ، وقد علّق على الكتاب الشيخ الميمني بخط يده بما يفيد بصحته وحسن حالته . ثم أضاف الدكتور : ولقد حرصت على إبلاغك بهذا ، وإبلاغ الأستاذ خير الدين الزركلي أن الحوادث الأخيرة في لبنان حالت بيني وبين المجيء إلى بيروت كما كنت أفعل قبل حدوثها .

ولعل معرفتي بصحة أستاذنا الميمني ـ اسبغ الله عليه ثوبها وأطال عمره ـ خير ما استفدته يومي هذا ، ومن خير ما عدت به من حضور هذا المؤتمر من خير العوائد ، أما عن الكتب فقد قيل لي إن البحث عن المطبوعات القديمة يتطلب خبرة بالمكتبات التي تُعْنَى بها . وتصوير المخطوطات من دار الكتب العامة يحتاج إلى بعض الأمور التي لا يتيسّر للمسافر العابر القيام بها ، وأما الكتيِّب الذي كنت اطلعت عليه في مكتبة جامعة ليدن ، وأهديت إليّ نسخة منه فلم أهتمّ بها لأنها باللغة الألمانية ـ المتعلق بالشيخ أمين بن حسن

الحلواني – فعندما سألت الاستاذ شارل بلاً عنه أثناء اجتماعي به قال : إنّ من أول العلماء العرب الذين حضروا مؤتمر المستشرقين ابن شنب. ولكنني اخبرته بأن الحلواني قبله ، فلم يعرف عنه شيئاً ، ولما ذكرت له أنه مترجم في « دائرة المعارف الاسلامية » قال : دائرتنا ؟ ولم يزد .

ذهبت مع الدكتور شكري فيصل إلى أحد أمكنة المحاضرات بعد أن رأينا في البرنامج أن محاضراً سيتحدث عن مخطوطة من كتاب « العبر » لابن خلدون فيها زيادات تتعلق بتاريخ البربر عن المطبوعة ، فذكرت للدكتور شكري أن الاستاذ عدنان درويش – من دمشق – ذكر أنه اطلع على مخطوطة فيها بضعة عشر فصلاً ليست في المطبوعة ، وان تلك المخطوطة في المكتبة العامة في (صوفيا) قاعدة بلاد (بلغاريا) . وفي اثناء سيرنا قابلنا شابٌ في مدخل المكان الذي نقصده فقال لي الدكتور : تعال أعرفك بهذا فهو يحسن اللغة العربية ومن هولندا ، فاغتنمتها فرصة لسؤاله عن عالم عربي زار بلاده قبل تسعين عاماً فقال : أمين بن حسن المدني ، فأدركت أن لهذا العالم شهرة عند المستشرقين الهولنديين اكثر من غيرهم ، ولما سألته عن الكتيب المتعلق به وكيف الحصول عليه ؟ قال : إن فلانا – سماه – وهو ممن حضر المؤتمر وسيتحدث في موضوع عربي – ذكره ونسيته – هو خير من يخبرك عنه ، فطلبت منه كتابة اسم الرجل وعنوانه ، فقد لا تتيسر لي مقابلته هذا اليوم فكتب لي اسمه وعنوانه :

S. J. Koningsveld Rapenburg Universiteits bibliouteek-Leiden

ومررنا بالاستاذ شبيّات مدير المعهد الالماني للدراسات الشرقية في بيروت قبل سنوات ، وكنت عرفته في بيروت مديراً للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية فسألته عن الأستاذ رودلف زلهايم محقق كتاب « نور القبس » وقد جرى التعارف بيننا بعد أن نشرت كلمة عن ذلك الكتاب (١) أوضحت فيها ملاحظات تتعلق به ، فكان هذا سبب التعارف والتواصل بيننا ، بينما

(١) انظر مجلة « العرب » السنة الأولى ص ٤٥٢ .

كانت كتاباتي عن بعض المطبوعات التي يقوم بها بعض اساتيذنا وإخواننا من العرب سبباً للقطيعة ومدعاة للوقيعة أيضاً وقد أخبرني الأستاذ شيبَّات أن الأستاذ زلهايم لم يحضر ، وأضاف : إنه لا يحب حضور المؤتمرات .

ذهبت مع الدكتورين إبراهيم السامرائي ومحمد الشامخ لاستماع المحاضرة المتعلقة بتاريخ ابن خلدون ، فكانت بالفرنسية ، وكان المحاضر يورد جملاً تافهة بالعربية ليست في صميم الموضوع ، ولم أفهم إلا أن المخطوطة في احدى مكتبات اسطنبول وأن نصراً الهوريني اطلع عليها ، وعلق في هوامشها تعليقات موجزة ، فلم استطع البقاء طويلاً ، فانسللت من القاعة .

يظهر أن المشرفين على تنظيم أمور المؤتمر ما كانوا يتوقعون أن يبلغ عدد المشاركين فيه ما بلغه ، ولهذا حرصوا على تسجيل جُلّ ما وصل اليهم من محاضرات وأحاديث ، رغب أصحابها عرضها ، وما كانت كل المباحث المسجلة تلقى اثناء إقامة المؤتمر فقد لا يتمكن كثير من أصحابها من الحضور ، غير ان الذين حضروا هذه المرة كانوا من الكثرة بدرجة بلغت حدّ الفوضى . فقد حضر من الهند ما يقرب من أربعين ، ومن إيران اكثر من عشرين ، ومن مختلف البلدان من الصين واليابان ومن بلدان أخرى لا صلة لها بالاستشراق ، وهؤلاء غير الذين لم توجه اليهم دعوات خاصة للحضور فقد رغب القائمون بشؤون المؤتمر أن يحضره كل من يرغب ذلك ، فكانوا يحثون المدعوين على بث الدعوة لحضوره من الأساتذة والطلاب ، وكأنهم أحسوا بضعف مكانة المستشرقين في هذه الأزمنة فأرادوا أن يكون من مؤتمرهم هذا ما يلفت الأنظار اليهم .

أما من البلاد العربية فالحاضرون قليلون ، لا بالنسبة لكثرة غيرهم ، بل بالنسبة لمختلف اقطارهم ، ويظهر ان اللبنانين كانوا أكثر من غيرهم وخاصة من الجامعة اليسوعية . وحضر المؤتمر من بلادنا (المملكة العربية السعودية) من جامعة الرياض الدكتور عبد الرحمن الانصاري عميد كلية الآداب والدكتور محمد بن عبد الرحمن الشامخ ، والدكتور أحمد الضبيب والدكتور

عبد الله العنقاوي ، والدكتور مجاهد ابن محمد محمود الصواف (المدرس في جامعة الملك عبد العزيز في جدة) . ومن العراق الأساتذة الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور فيصل السامر عميد كلية الآداب ، والدكتور علي جواد الطاهر ، والدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور علي الزبيدي . أما من مصر فلم أعرف ممن حضر سوى الدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، الامين العام لمجمع اللغة العربية ، والدكتور عبد العـــزيز مرزوق ، والاب قنواتي والاستاذ أيمن فؤاد السيد . ومن الشـــام الدكتور حكمت هاشم ، وكيل وزارة الثقافة والدكتور شكري فيصل ، امين مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي) . ولصلة المغرب العربي – بمختلف أقطاره – بفرنسا كان من غير المستغرب كثرة الذين حضـــروا المؤتمر من تلك البلاد .

في مساء هذا اليوم عقدت الجلسة الختامية العامة للمؤتمر في القاعة الكبرى في جامعة السربون في الساعة الثالثة ، أعلن فيها إقامته في العام القادم في أمريكا.

ما كنت أتوقع بأن هذا المؤتمر الذي حضره آلاف من العلماء والباحثين ، وبُذلت جهود كبيرة للاشراف على تنظيمه منذ فترة غير قصيرة من الوقت ، يكون على ما شاهدته فيه من الفوضى ، ولا أعني من حيث الاجتماعات ، وتنظيم أوقات القاء والبحوث والدراسات ، بل من حيث تفاهة ما ألقي فيه من بحوث ، وخاصة في القسم المختص بالدراسات العربية والإسلامية ، ويكفي مثلاً على ذلك أن أستاذاً في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية في (تكساس) يتلقف من أحد الطلاب كلمات عن لهجة لا تختص بأهل بلدة أو ناحية في نجد ، إلا أن هذا الأستاذ يحضر إلى المؤتمر ليلقي بحثاً عن لهجة البلدة التي ينتمي اليها ذلك الطالب ، ثم أصغ سمعك أو افتح قلبك لتلك النتائج التي وصل اليها ذلك المحاضر عن خصائص لهجة تلك البلدة . ويأتي محاضر آخر ليعلن (اكتشاف) مخطوطة من « تاريخ ابن خلدون) ثم يثقل ويطيل على المستمعين وهو يقرأ نصوصاً من تلك المخطوطة ليس فيها ما يزيد على المطبوعة ، بل منها ما يثبت أن أحد المشرفين على طبع

ذلك التاريخ كان اطلع عليها .

قد يكون جهلي اللغة التي كانت البحوث تلقى بها من الأسباب التي لم تمكني من ادراك قيمة تلك البحوث ، وأن الخلاصات التي كانت تُعرَّب لي عما يهمني أن أعرفه منها لم تكن وافية . وهذا ما أخذه عليّ صاحبنا الدكتور صلاح الدين المنجد حينما كتب مقالاً عن هذا المؤتمر في مجلة « الجديد » اللبنانية في شهر أغسطس ۱۹۷۳ فقال : (ولفت الأنظار حضور العالم السعودي الشيخ محمد (؟) الجاسر وهو لا يعرف أية لغة أجنبية ، تمكنه من متابعة الأبحاث) ، وحقاً ما قال غير أني استعنت على متابعتها بمترجمين كانا معي ، ابنتي وكانت تجيد الانجليزية ، والأخ المغربي الذي تحدثت عنه في أول الكلام ، وحرصت على هذه المتابعة لعلي أجد من بينها ما أستفيد به أو أقدمه لقراء مجلة « العرب » للاستفادة منه . ولئن مكنت صاحبنا الدكتور المنجد معرفة اللغة الفرنسية من الاتصال ببعض كبار المستشرقين الذين حضروا ذلك المؤتمر أمثال برنارد لويس وروزنثال وغيرهما فإنني لا آسى على أنني لم اتصل باؤلئك الكبار ، ولكل غايته في الحياة ، ووجهة سيره فيها . وماذا يهمني من أبحاث مؤتمر يصفه الدكتور المنجد نفسه بقوله : (كما لوحظ أن المستشرقين اليهود من جميع البلاد كان لهم أثر واضح ، ونشاط ملموس في توجيه المؤتمر وفي إدارة أقسامه) . بينما عجز العلماء من العرب — والدكتور المنجد منهم — عن اقناع القائمين على امور المؤتمر بأن تلقى الأبحاث المتعلقة بالدراسات العربية والاسلامية باللغة التي كانت أساساً لتلك الأبحاث ، إذ من المضحك حقاً أن يحاضر استاذ عن موضوع لغويّ بحت ولكن بغير اللغة التي يتعلق بها ذلك الموضوع ، أو أن يصف مخطوطاً عربياً فيطلب منه أن يلقى الوصف لا كما كتبه عربياً بل بإحدى اللغات الأخرى ، إذا لم يكن يحسن الفرنسية ، او الانجليزية ، فيضطر لألقائه بلغة ليس بين الحاضرين من يفهمها سوى من يشرف على أمور هذا القسم .

لأدَع هذا إلى ناحية أهم من نواحي هذا المؤتمر وهي جهود المستشرقين في مجال الدراسات العربية . لانُكرانَ ما لبعض فضلائهم من آثار معروفة

نافعة في هذا المجال من أبرزها : —

١ — توجيه الدراسات التاريخية والأدبية واللغة توجيهاً جديداً ورسم طرق لتلك الدراسات التي أمدّت الثقافة العربية بحيوية وبثروة .

٢ — اتخاذ طريقة جديدة في إحياء التراث العربي تسهل للباحث الاستفادة منه بأسهل الطرق .

٣ — توجيه الباحثين من العرب إلى العناية بالتراث بصيانته ، ووضع فهارس شاملة له ، ثم اطلاعهم على ما تحويه خزائن الكتب في بلاد الغرب منه ، ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات العربية .

٤ — عناية كثيرين منهم بدراسة تاريخ العرب من خلال آثارهم ، ومن ثمّ التنقيب عن تلك الآثار بقيامهم برحلات في انحاء مختلفة من الجزيرة وغيرها من البلاد العربية وجمعهم قدراً كبيراً من تلك الآثار في متاحفهم ، ثم دراستها دراسة علمية ونشر تلك الدراسات ، وكتب الرحلات التي قاموا بها وهي تحوي آراء ومعلومات عن بلادنا على جانب كبير من الأهمية . أما الدافع لكل ما تقدم فهي لا تخفى على أحد ، لقد كانت في أول الأمر من الوسائل التي أريد بها السيطرة على الشعوب بأي نوع من أنواع السيطرة، سياسية أو فكرية أو دينية ، ثم اتجه بعض اولئك المستشرقين — وقليلٌ ما هم — وجهة أخرى هي الوجهة العلمية الخالصة ، بعد أن تطورت الحياة ، وتغيرت اساليبها وانتفضت الشعوب انتفاضة القوة والعلم ، وتفتحت آفاق المعرفة ، ووجد بين العرب أنفسهم من العلماء من لا يقل معرفة وسعة اطلاع عن كبار اولئك العلماء من المستشرقين بل يفوقهم بفهمه لكثير من أحوال أمته ، التي يستعصي فهمها على من لم يمتزج بها كل الامتزاج ، ومن هنا يصح القول بأن دور المستشرقين قد انتهى ، ولا يعني هذا إنكار ما لفضلائهم من الفضل وسعة العلم والتجرد من كل غاية تنحرف عنه .

وأما هذا المؤتمر فكما سبقت الاشارة إلى أن من أنفع ما يستفيده المرء

من حضور المؤتمرات والاجتماعات الثقافية الاختلاط وتبادل الآراء بين الأفراد ، والالتقاء بمن حضروا تلك المؤتمرات ليحصل التعارف ، إلا أن اللقاءات، بين الحاضرين في هذا المؤتمر ما كانت بالدرجة التي تحقق تلك الغايات، فقد قسم الحاضرون اقساماً متعددة بحسب الموضوعات التي قرر المؤتمر بحثها ، في أمكنة متباعدة نوعاً ما ، وفي أوقات محدّدة تستغرقها الاجتماعات لإلقاء البحوث أو مناقشتها صباحاً ومساء ، وكانت المساكن التي أعِدّت لكبار المدعوين نائية عن مكان انعقاد المؤتمر مما جعل الالتقاء بهم صعباً وخاصة في أيام المؤتمر القليلة .

في مساء هذا اليوم ـ السبت ١٣٩٣/٦/٢١ ـ أنستُ بلقاء الاستاذين الجليلين الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور فيصل السامر ، فأمضينا سويعات سعيدة ، انغمسنا خلالها في أغوار التاريخ حتى نسينا كل ما يحيط بنا من صخب الحياة ومظاهرها ، في مدينة هي في مباهجها ومفاتن الحياة فيها أبعد ما تكون عما نعمنا به من لذة وأنس بعالمنا الذي عشنا فيه تلك السويعات وحدنا .

عودة إلى (باريس) !

في باريس [1] : كانت العودة إلى باريس ليلة الاثنين : ١٤ رجب ١٣٩٣هـ

وفي الصباح عادت ابنتي مُنَى إلى بيروت فمضى وجه النهار في تهيئة وسائل سفرها ، وآخره في الاستراحة في الفندق الذي سكنّاه قبل السفر إلى لنـــدن .

وفي صباح يوم الثلاثاء ١٥ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/٧ م) بكّرْتُ في الذهاب إلى (المكتبة الوطنية العامة) سائرا إذ المسافة بينها — وهي تقع بقرب (متحف اللوفر) وبين الفندق في (الحي اللاتيني) قصيرة ، يقطعها الماشي في ثاني ساعة ، غير أني لم أتمكن من دخول قاعة المطالعة لعدم حصولي على بطاقة دخول ، لأنني لم احضر جواز سفري ، فذهبت إلى (متحف اللوفر) فوجدته مغلقا هذا اليوم .

فرجعت إلى حديقة (لكسمبرج) بقرب الفندق ، فأمضيت فيها نهار ذلك اليوم ، والمرء فيها لا يدركه الملل فهي تغصّ بالناس من مختلف الاجناس ، وفيها أمكنة مهيأة للاستراحة بقرب نافورة كبيرة محاطة بالأشجار المزهرة المنسقة الترتيب ، وفيها ملاعب للاطفال وغيرهم ، وفي المساء يتهافت اليها الناس بعد انتهاء أعمالهم ، فيكونون حلقاً للعب (الشطرنج) أو (الورق) أو كرة اليد أو غير ذلك من مختلف انواع اللعب . وعلى مقربة من هذه الحـــديقة تقع قهوة تدعى (Gafi audepart) تعتبر مجمعا للعـــرب الذين يأتون إلى باريس ، قلّ أن تخلو من أحد منهم ، وخاصة الطلاب ، فهي قريبة من جامعة السربون .

وفي الحديقة تماثيل كثيرة لمشاهير الفرنسيين من ملوك وعلماء وكتاب وفنانين وغيرهم . ولقد وقفت طويلاً بقرب تمـــثال (جورج ســـاند George Sand) حينما شاهدت حمامتين اتخذتا من رأس التمثال مكانا

---

(١) هذا متصل بالكلام على لندن في رجب سنة ١٣٣٩٣ هـ (٢١/ ٧ ١٩٧٣ م) .

لمناغاتهما ، يدوران حوله ، أما رأس تمثال (شارل بدلير — ١٨٢١/١٨٨٧) فقد ابيض من كثرة وقوع الطير فوقه ، وتلطيخه بذرقه ، وتمنيت أن أكون شاعراً لأعبر عما أحسست به من تفاهة ما تؤول اليه حياة الإنسان ، مهما علت منزلته ، وسما فكره .

(في كل واد بنو سعد): توهمت — وخطأ ما توهمته — أن ما يقال عن نزاهة الغربيين في معاملاتهم كان حقاً ، ولكنني في المساء دخلت مطعماً حسن المظهر في شارع (سان جرمان) فطلبت عشاءً حدد ثمنه في قائمة الطعام بتسعة فرنكات وبإضافة ما يضاف عادة يبلغ ١٢ غير أن الندل (النذل) عبث بوريقة الحساب المطبوعة ، فأصبح المبلغ ١٦ فرنكاً . لا شك أن عمال المطاعم ومن في مستواهم لا يمثلون في معاملتهم جميع طبقات الشعب ، ولا تُعبر أخلاقهم تعبيراً كاملاً عن أخلاق من هم أعلى مستوى منهم اجتماعياً أو ثقافياً ، ومع ذلك فإن الأحكام العامة التي يكثر إطلاقها على حسن معاملة الغربيين وتحضرهم ، لا تنطبق في الغالب إلا على أرقى الطبقات منهم.

الاربعاء : ١٦ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/٨) زرت هذا اليوم المكتبة الوطنية العامة ، وكان مما اطلعت عليه من الكتب :

١ — كتاب « المخبر اللبيب ، عن منزل الحبيب » ورقمه(2251) ويقع في ١٦٥ ورقة (٣٣٠ صفحة) تختلف سطور الصفحات من ١٦ إلى ١٨ ، وليس فيه اسم المؤلف ، وهو بعد السمهودي ، فهو ينقل عنه (كما في الورقة ٧١) وينقل عن « الروض المعطار » الورقة ١٦٣ — وفي أول الكتاب خرم لعله لا يزيد على سبع ورقات ، إذ الكراسة الأولى لم يبق منها سوى تسع ورقات ، وكل كراسة منه تقع في ١٦ ورقة ، وأوله : (فلما دنى مني رميته بحربتي) في خبر قتل حمزة (ض) وفي الصفحة الثانية : (باب في آبار المدينة ، منها بئر أريس) والورقة ٩٠ تتعلق بأسماء المدينة وهي غير متصلة بما قبلها وآخر الكتاب : (وصلٌ)[١] : حكي أن عمر بن عبدالعزيز

(١) يستعمل مؤلف الكتاب كلمتي (فصل ووصل) كثيراً .

قال لحميد الأمجيّ أنتَ القائل :

شَرِبْتُ الـمُدامَ فلم أقلـعِ ... وعُوتبتُ فيها فلمْ أسـمعِ
حُمَيْد الذي (أمَجٌ) داره ... أخو الـخَمْرِ ذُو الشيبة الأصْلعِ
علاه الـمَشيبُ على حُبّهـا ... وكان كريماً فلم يَـنْزَعِ

قال : نعم . قال عمر فما أراني إلا حادّك ، أقررت بشربها ، وأنك لم تنزع عنها . قال : ألم تسمع الله يقول (والشعراء يتبعهُم الغاوون — إلى — وأنهم يقولون مالا يفعلون) قال : ما أراك إلا قد أفلتَّ ويحك كان ابوك رجلاً صالحاً وأنت رجـل سوء — قال : أصلحك الله ! وأين من يشبه أباه ؟ لقد كان أبوك رجل سوء ، وأنت رجل صالح . والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين) إن أوراق هذا الكتاب مختلة الترتيب ، ولم يكن وقتي متسعا لمحاولة ترتيبها ويظهر أنه جزء من كتاب وأن أوله عن آبار المدينة ، وآخره في المواضع المتعلقة بها ولم أستطع معرفة العصر الذي ألف فيه غير أنه ذكر حادثة نهب برغوث ما في الحجرة النبوية سنة ٨٦٠ ، وذكر أن الملك الأشرف أمر شيخ خدام الحجرة بضبط عدد القناديل وذلك سنة ٨٨١ وأشار إلى نهب حسن ابن زبيري ما في الحجرة سنة ٩٠١ . وقد سألت مؤرخ المدينة وعالمها السيد عبيد مدني وهو يعني بتأليف كتاب عن مؤرخي المدينة وتواريخها ، فذكر لي أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الكتاب .

وفي المكتبة ديوان الزمزمي [1] ، عبد العزيز (٩٠٠/٩٧٦ هـ) أحد مشاهير شعراء مكة في عصره، ورقم ديوانه : (3228)ولم أتمكن من الاطلاع عليه لضيق الوقت .

قدمت للمكتبة بعض مطبوعاتي هدية ، فأتى إلي رئيس القسم شاكراً فاظهرت له الرغبة في تصوير بعض المخطوطات ، ولكنه أبدى لي صعوبة

(١) انظر ترجمته في « النور السافر » ص ٣٢٢٠/٣١ .

ذلك في الوقت الحاضر لكثرة طلبات التصوير من أساتذة الجامعات وغيرهم، فكان أن انصرفت نفسي عن المكتبة ، وعدت منها بدون (خُفَّي حُنَين)!!.

زرت بعض معالم باريس الأثرية مثل (غابات بولونيا) وميدان (الكونكرد) و (الحي السادس عشر) حيث يعيش أكثر الفنانين . وأمكنة أخرى ذهبت اليها منقاداً لرغبة ابنتي ، فأنا لا ارتاح إلا لزيارة المكتبات والحدائق .

في ليلة الخميس ١٧ رجب ١٣٩٣ (١٩٧٣/٨/٩) كان سفرنا أنا وابنتي سلوا من باريس بالقطار إلى اسبانيا في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق ، وكانت الأجرة ١٥٢ فرنكا في الدرجة الثانية ، وعند الوصول إلى محطة القطار طلبنا من أحد الحمالين حمل امتعتنا إلى داخلها إلى مكتب كتب فوقه انه لمساعدة السائحين وأشار الينا بالدخول فيه وبعد التحدث مع صاحبه قال : انه لا يساعد إلا السائحين من الغربيين والمغاربة وحدهم من العرب ، فأبدينا رغبتنا بأن يساعدنا فكتب لنا تذكرتي السفر وطلبنا منه ان يحجز لنا كرسيين فكان أن وضع رقمهما في التذكرة ٢٥ و ٢٦ في العربة رقم ٢٥ غير أننا بعد الركوب وجدنا المكانين غير خاليين ، ولم تجد محاولتنا لإزاحة من فيهما فاضطررنا للبحث عن مكانين ، ثم تبين لنا ــ فيما بعد ــ أنَّ تذكرتي الجالسين فوق الكرسيين تحملان رقميهما وأن الخطأ ليس منهما بل من أحد كاتبي التذاكر . وقد يكون خطأ غير مقصود ، غير أن هذا لا ينفي أن الناس هم الناس في كل مكان وزمان، فالمرء لا يعدم في أية بقعة من بقاع الأرض من يحاول خديعته وغشه .

وليس صحيحاً ما يقال عن نزاهة الأوربيين وغيرهم ولا عن حسن معاملاتهم على الاطلاق . ومثل هذا يقال عن النظافة في تلك البلاد فقد دخلت أحد المطاعم الكبيرة المتوسطة في باريس أنا وابنتي فاحتجنا إلى الدفاع عما بين يدينا من سقوط إحدى الحشرات . وبينما كنا سائرين في أحد شوارع (لندن) على مقربة من سور حديقة صغيرة جفلت ابنتي عندما أبصرت فأرة

تقفز أمامها ، مع كثرة القطط والكلاب في تلك المدينة .

وأذكر اننا كنا نتناول الغداء في مطعم فخم في احد الفنادق في مدينة نيويورك ، فشاهدت الذباب يحاول الوقوع فوق الطعام ، ولما قلت لأحد الحاضرين وهو عربي ولكنه (مُتَأمْرِكٌ) أكثر من الامريكين : كيف تصفون لنا هذه المدينة بأنها خالية من جميع الحشرات المؤذية ، وها هو الذباب يكاد يسقط في طعامنا ؟! فقال ــ ولم يكن مهذبا في جوابه ــ : لعله أتى معنا ! وفي استطاعته ان يقول : هذا نادر والنادر لا حكم له .

* * * *

بين مجريط ودير الأسكوريال

كان المسير من باريس الساعة الثامنة من ليلة الخميس، بالقطار والوصول إلى (مجريط) مدريد الساعة السادسة ليلة الجمعة (المسافة مسيرة ٢٢ ساعة) والاقامة فيها تسعة أيام كنت أتردد خلالها على مكتبة (دير الأسكوريال) التي زرتها مرارا قبل أعوام ، وكنت أذهب في القطار صباحاً وأعود مساء ، والمسافة بسير القطار تقارب الساعة . ومع أن تلك المكتبة قد نبشها الباحثون عن نوادر المخطوطات كالدكتور صلاح المنجد والاساتذة رشاد عبد المطلب والأهواني وطاهر مكي وكل واحد منهم أبقى أثره في فهرس تلك المكتبة ، ومع ذلك فالمدقق الباحث قلّ أن يعدم ما يفيده ، والقائمون على هذه المكتبة مهذبون ورقيقو الطباع ، يسهلون للمطالع أمره ، ويصورون ما يطلب تصويره أثناء اشتغاله في المطالعة ، بخلاف دور الكتب في لندن وباريس وروما وغيرها ففضلاً عن التثبت من المرء ، ومطالبته بإبراز جواز سفره ، لا يتسنى له الحصول على ما يريد تصويره إلا بعد وقت طويل .

السبت ١٩ رجب ١٣٩٣ (١١ / ٨ / ١٩٧٣) : بكرت هذا اليوم في الذهاب إلى الاسكوريال ومن محطة القطار أسرعت الركوب في أحد القطارات قبل ان آخذ تذكرة ظاناً أن التذاكر تقطع داخل القطار ، ولهذا دفعت ثمنها مضاعفاً ، ووقعت في خطإ آخر هو أن المكتبة التي ذهبت لزيارتها تغلق الساعة الثانية عشرة ، ولا تفتح في المساء ، وكان وصولي قرب وقت إغلاقها ، فلم يسمح لي بدخولها فأمضيت جزءاً من الوقت في زيارة بعض الأماكن الأثرية في داخل الدير ، وهو دير قديم بني بناء

محكماً بالصخور العظيمة ، وفي أسفله سراديب وأقبية كانت مقبرة لعظماء أسبانيا ، رؤيتها تحدث في النفس كثيراً من الرهبة من مشاهدة الجثث المحنطة ، وأذكر في سنة ١٣٨٣ عندما زرته أنا وأم محمد لم تستطع الاستمرار في السير في تلك السراديب ومشاهدة جثث الموتى . وفي الدير أمكنة أخرى للزيارة ، ولهذا فالسائحون يفدون إليه مجموعات كثيرة . وتعتبر مدينة الاسكوريال من أجمل المدن وأنظفها ، فهي واقعة في سفح جبل ، وتحيط بها الحدائق ، وفيها مطاعم نظيفة ، وأخرى شعبية .

في طليطلة : لم أكن بحاجة إلى مشاهدة شيء من الأماكن الأثرية، إذ زيارتي لهذه البلاد هي الثانية . غير أن ابنتي سلوا رغبت زيارة إحدى المدن الأثرية ، وطليطلة أقربها إلى (مجريط) مدريد . فالمسافة بينهما مسيرة ساعة ونصف بالقطار ، وطليطلة كانت من مراكز الثقافة الاسلامية في هذه البلاد ، وفيها يقول أحمد شوقي :

لولا دِمشقُ لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بَغْدانُ

أمضينا سحابة نهارنا في هذه المدينة الجميلة الواقعة على سفح مرتفع من الجبل ، مطلّ على نهر قوي الجريان ، وتحف بها الحدائق الواسعة الجميلة التي تزخر بالناس في آخر النهار ، وتقام فيها أسواق لبيع ما يحتاج إليه .

زرنا قصرها الأثري العظيم ، ثم (المتحف الارثولوجي) ورأينا في أحد أقسامه أحجاراً وأواني من فخار وأخشابا تزدان بالكتابات العربية التي يخيل لناظرها أنها زخارف ونقوش وليست كتابة ، ولهذا استعملها بعض البنائين في زخرفة بعض الأبنية ، ونقش النقاشون بعض نماذج منها في ألواح الرخام ، التي تبلط بها الأمكنة المعرضة للماء ، وأذكر أنني أثناء استحمامي في غرفة أسكنها في : (Hotel de L'Abbaye) في باريس استرعى نظري أن زخرفة الرخام تشبه الكتابة الكوفية المزركشة ، فحاولت قراءتها فقرأت : (تُمَدُّ بها أيدٍ قوا . . . قواطع) وهو عجز بيت من الشعر ، لم أقم قراءته ، وكل حجر رخامي يحوي هذه الكلمات ، بشكل هندسي .

سألنا مدير المتحف ألا يوجد في هذه المدينة آثار اسلامية ؟ فقال : يوجد مسجد ، فطلبنا كتابة اسمه وموقعه فكتب:

Orgne dogite Mesquite del Coistode Lerenz. سرت على هدى هذه الكتابة مستعيناً بسؤال من يقابلني عند مفترق الأسواق ، حتى وصلت إلى زقاق ضيق منحدر ، بيوته قديمة ، وأكثرها غير مسكون فيما يخيل للناظر . وقبل انتهائه أشرفت على فضاء يطل على أسفل المدينة ، وأسفل منه أحد أبواب المدينة القديمة ، وفي جانب هذا الفضاء المرتفع نافورة مهجورة قد تكاثفت حولها الأعشاب ، ولا تزال تقذف بالماء ، وبقربها صخرة كبيرة منحوتة نحتاً مستديراً عميقا كالبئر ، ظهر لي أنها خزّان ماء ، وآثار حبال الجذب منه قد أثرت في جوانبه ، وفي جانب هذا الفضاء بناء مستدير غير مرتفع ، وكل المكان محاط بسور ليس مرتفعا ، أبصر فوقه رجلاً صينياً أو يابانياً بيده قلم وورقة كبيرة كان يشتغل برسم هذا المكان المشرف على كثير من معالم هذا الجانب من المدينة وما حوله إلى مسافات بعيدة . سألته : أهذا هو المسجد ؟ فأجاب بإيماءة فهمت منها أنه لا يدري ولكنه أعجب بموقعه فاشتغل برسمه ، دخلت المكان المسقّف الذي قد تراكمت فيه الأوساخ ومرّ وقت طويل لم ينظف ولم يدخله أحد ، فاتضح لي أنه المسجد ، وهو مبني بالحجر والقرميد (وقد قام على أربعة أعمدة بشكل قبتين متصلتين وهو منفصل عما حوله من الأبنية) ولا تزال حديقته تَتَغَذّى الشجيراتُ النابتةُ فيها مما تقذفه النافورة من الماء ، ولعل تلك الشجيرات نبتت بدون تَعَهد أو عنايةٌ إذ لا أثَر للإنسان في هذا المكان سوى مَنْ يَتّخذُ منه مَحَلاً للاستراحة ، ولا يأنف من رَمْي بعض الأوساخ فيه . حزّ الألم في نفسي عند مشاهدة الإهمال في هذا الأثر الاسلامي ، وقد حدثت الدكتور أحمد العَبّادي مدير المركز الاسلامي في مجريط (مدريد) عنه ، كما حدثت غيره عن ضرورة العناية به .

يوم الاثنين : ٢ رجب ١٣٩٣ (١٩٧٣/٨/١٢) : قطعت المسافة بالقطار — بل قطعها بي — بين مدريد والاسكوريال خلال ساعة وربع ، وقد وجدت

في صالة المطالعة راهباً يرتدي ثياباً بيضاً ، وكأنه عرفني فقد استقبلني باشاً ، وقدَّم لي الفهرس وورقة أكتب فيها أرقامَ ما أريد من الكتب ، وسرعانَ ما أحْضِرَتْ لي ، وقد عرفت فيما بعد أنَّ ذلك الراهب يُدْعى (الأب لوفيانو لوزيانو) وقد كان لي خير عون أثناء تَرَدُّدِي على تلك المكتبة فكان مما أطَّلعت عليه :

كتاب المُنْتَخل : — وهو مختصر كتاب « اصلاح المنطق » للوزير ابن المغربي ، وقد تقدم ذكره في مؤلفاته(١) ، ورقمه 605 ويقع في ٨٧ ورقة وهي نسخة جيِّدة متقنة الكتابة ، وخطها مغربي كامل الشكل ، جاء في آخرها : (تم المختصر بعون الله وتأييده ، وصلى الله على محمد وآله ، وكان تمامه في ربيع الآخر عام ستة وثمانين واربعمائة) ثم بخط مغاير لخط الأصل : (هذا المختصر من كتاب قوبل بالأصل « إصلاح المنطق » حرفاً بحرف ، من أوله إلى آخره بِأمّ صحيحة النقل والمقابلة فصح إن شاء الله ، قابلته بكتاب صحيح ذكر في آخره : قابلت هذا المختصر بخط الوزير الكاتب أبي مروان (٢) . . . وفي كتابه عند تمامه : تم اختصار « اصلاح المنطق » على ما ثبت في رواية ابي القاسم الحسين بن علي — ثم ساق نسب المؤلف — وكانت الأم المنتسخ منها هذا الكتاب من أمّ قيل فيها بعد (وسلم تسليما) : وكتب من كتاب الأستاذ أبي الحسن (؟) ابن القطان كتبه من كتاب الأستاذ أبي العلاء ، بِمَعَرَّة النعمان . قال أبو الفضل : نقلت من خط أبي عَمْرُو وبن سعيد القُطْرُبُلِيّ قال : سمعت ثعلبا) ثم نقول لغوية لها صلة بكتاب « إصلاح المنطق » . وقد صوّرت لي نسخة من هذا الكتاب .

وكان في هذه المكتبة نسخة أخرى منه في المجموع رقم 378 — على ما جاء في الفهرس — ولكني لما طالعت ذلك المجموع لم أجد فيه من الكتاب

---

(١) « العرب » ص ١١٧ س ٩ .

(٢) كلمات لم أستطع قراءتها .

سوى الورقة الأولى منه ، وهي آخر ورقة من المجموع .

« تنبيه الأديب ، على مافي شعر أبي الطيّب من الحسن والمعيب »: وفي المجموع رقم 1702 نسخة من هذا الكتاب، ومؤلفه عبد الرحمن بن عبد الله باكثير المكي الشافعي من أهل القرن العاشر الهجري ، وتولى قضاء جدة . ألفه سنة ٩٣١ وقدمه إلى شريف مكة في عهده ، ولأدباء مكة في ذلك العهد عناية بشعر المتنبي أوضح جانبا منها المستشرق بلاشير في كتابه: « ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين [١] » ومن هذا الكتاب نسخ إحداها في مكتبة الحرم المكي في ٨٩ صفحة مخطوطة سنة ١٠٦٣ هـ وفي (دار الكتب المصرية) وفي (مكتبة لينينغراد) .

ديوان التهامي[٢] : رقمه 383 ويقع في ٨٣ ورقة في مجموع من الورقة الأولى إلى ٨٤ عن ١٦٦ صفحة في الصفحة ١٨ سطراً ، في الاولى اسم الديوان ، وأسماء بعض من ملكوه ، والأخيرة خالية من الكتابة ، وأوله بعد البسملة (قال أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالتهامي يمدح الشريف أبا عبد الله الحسين ابراهيم الحسني بالرملة :

بعثت إليك بطيفها تعليــــلا وخضاب ليلك قد أراد نصولا

وآخره في الصفحة الاولى من الورقة الـ ٨٣ : (وقال يمدح الأمير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد بن المسيب :

ألمّ خـــيالهـــا بعـــد الهـــجوع فعادت إذ رأت سيفي ضجيع (؟)

وهاجتْ لي بزورتهـــا زفـــيراً يكاد يُقيم معوجّ الضـــلوع

تم الديوان بحمد الله وعونه وحسن توفيقه) ثم أوراق خالية من الكتابة ، بعدها ديوان ابن العفيف التلمساني . والكتابة ليست جيـــدة، وقد يكون

(١) مجلة اليمامة ص ١٤٣ السنة الثانية جزء جمادي الأولى سنة ١٣٧٤ يناير سنة ١٩٥٥ م)
(٢) انظر « العرب » ص ١٦٢ و ٩٠٩ س ٨ .

من مخطوطات القرن العاشر الهجـري ، والديوان كما ترى مبتور فهـو ناقص ، وقد جاء في مجلة « العرب » [١] : أن هذه النسخة من أجود ما رأيت وليس الامر كذلك بل أجـود ما رأيت كتابة وقدما نسخة مكتبة يوسف أغا في قونية في تركية .

رسالة في وصف مكة الخ : وقد نشرتها كاملة في مجلة « العرب » [٢] ووصفتها هناك .

اكتفيت هذا اليوم بمطالعة ما تقدم ذكره ، وعُدْتُ متأبطاً نسختين مصورتين من كتاب « المنخل » و « وصف مكة » .

الثلاثاء ٢١ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/١٣) : وصلت المكتبة الساعة التاسعة والنصف وكان مما اطلعت عليه من الكتب :

« جواهر العقدين ، في فضائل الشرفين » للسمهودي مؤرخ المدينة [٣] ألفه سنة ٨٩٧ ، ويقصد شرف العلم وشرف النسب ، ومن هذا الكتاب في هذه المكتبة نسختان إحداهما رقمها 702 وتقع في١٩٥ ورقة مخطوطة سـنة ٩٤٨ والأخرى رقمها 1533 وتقع في ١٥٩ ورقـة ، مخطوطة سنة ٩٧٥، والسمهودي من علماء بلادنا والاهتمام بمؤلفاته لاعتبارها من تراثنا.

« القول المستطرف في سفر السلطان الملك الأشرف » : وفي المجموع رقم 1708 رسالة بهذا الاسم من إنشاء أبي البقاء ابن الجيعان ، وصف سفر ذلك السلطان إلى الشام ، وقد جذبني إلى مطالعتها أن لديّ نسخة من مؤلف ابن الجيعان هذا عن سفر السلطان المذكور إلى الحج ، فاطلاعي عليها ذو فائدة عندما أحاول ترجمة ابن الجيعان في الحديث عن الرحلة التي ألفها عن حج الأشرف .

---

(١) ص ٩١٠ س ٨ .

(٢) ص ٣٢٤ س ٨ .

(٣) انظر ترجمته مفصلة في مجموع « رسائل في تاريخ المدينة » من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .

« كنز الاسماء » : مؤلف صغير لقطب الدين النهر والي المكي [١] ، وعليه شرح مختصر ، تأبطته معي مصوّراً لأقدمه للاستاذ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، فقد سألني عنه ، وقد قدمته له .

الاربعاء : ٢٢ رجب ١٣٩٣ (١٩٧٣/٨/١٤) بكرت كعادتي إلى مكتبة الاسكوريال فكان مما اطّلعتُ عليه :

مجموعة أشعار : ومما طالعته من الكتب في هذا اليوم مجموعاً رقمه 467 في الورقة الأولى منه : الجزء من شعر الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الصقلي الكاتب ، رواية الفقيه ابي محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الحريمي عنه . وفيه من شعر مهيار البغدادي وابن رشيق القروي [٢] وابن الحكاك المكي وآخرين سماع لعبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى بن اسماعيل العثماني ، ثم بخط مغاير لخط الأصل : اسمع إلى آخر شعر ابي الحسن الصقلي علي الشيخ الامام الشريف القاضي الفقيه أبي محمد عبد الله بن القاضي الفقيه أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيى العثماني الديباجي رضي الله عنه — الشيوخ الفقيه ابو الحسن علي بن فاضل ابن حمدون الصوري ، وأبو القاسم عبدالرحمن بن يوسف بن قاضي التلمساني ينظر في نسخته ، وابو القاسم حسين ابن الشيخ الفقيه أبي محمد عبد السلام بن عتيق السفاقسي ، قراءة علي ابن المفضل بن علي المقدسي علي القاضي من نسخته المنقولة من هذه النسخة في شهر رجب سنة اثنتين وستين وخمس مائة وكتب بخطه حامداً لله تعالى) وأوله بعد البسملة : (أنشدنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيي بن حمود الحريمي بالاسكندرية ، أنشدنا أبو الحسن علي ابن عبد الرحمن الصقلي الكاتب لنفسه ويعرف بالبلنّوبي النحوي الأنصاري :

هل على ذي شبيبة من جناح ... في تماديه خطوة في المـــزاح

(١) انظر ترجمته مفصلة في مقدمة كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني من منشورات (دار اليمامة) ايضا .

(٢) كذا وفي موضع آخر القيرواني .

قصيدة في ٢٨ بيتاً ، ثم أشعار أوائلها غزل وآخرها مديح ، ومنها في الرثاء والغزل . تقع في تسع ورقات بعدها في الورقة (١١ ب) من المجموع :
وأنشدنا أبو محمد المهيار :

عذيري من باغ عليّ أحبه ولم أر بغياً قبله جرّه الحبُّ

قصيدة في ١٢ بيتاً ، ثم أرجوزة مطلعها :

ترنمت ترنُّم الأسير ورقاءُ فوق ورق نظير

في ثمانية أبيات ، فمقطوعة مطلعها :

لِلّهِ قَلْبَا قَرِينِيَّ صَبْوَةٍ قطعا
لَيْلَ الرضا سَهراً أَحْلَى من الوَسَن

في أربعة أبيات ، بعدها في الورقة (١٢ ب) من المجموع : (وأنشدنا أبو محمد لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني :

أرغبتُمُ عني بأنسكُم وحرمتوني طيبَ أمْسِكُمُ ؟
إن كنتُ لم أحضرْ لِعرُسِكُم فلقدحضرتُطلاقَ عِرْسِكُمُ

ثم مقطوعات في الغزل والمديح والهجاء في ورقتين ؛ وفى الورقه ال (١٥) : وأنشدنا لابن الحكاك الكاتب بمكة من قصيدة :

لِلّهِ ما بِي من شُمُوْسٍ هِداجِ
يُزْهَيْن بالأقمارِ في الدِّيْبَاجِ

وبعد ثمانية أبيات : (ومن مديحها) :

ملكٌ حوى سَبْقَ الشجاعة والندى
في كل يَوْم ندًى ويوم هياجِ

ـ خمسة أبيات بعدها : وأنشدنا أبو محمد لابن الحكاك المكي الكاتب :

لأرْوَى منزلٌ أقوَى دُوَيْنَ العِدِّ فالأطوى

سبعة أبيات غزلية . فمقطوعة رائية غزلية في سبعة أبيات أيضا فقصيدة لامية مطلعهـــا :

عقابيلُ سُقْمِي من مسير العقائل ووخْدِ المطايا واحتثاث الرحايل

في ٤٦ بيتاً في المدح منها :

نُــدير كؤوسَ العــلم في وســط مجلس
من الجود والمعروف والخير آهِــــلِ
بحضرة مولانـــا الأمــير محمـــــد
ســليل عليّ ذي العُــلى والفضايـــل
هــو المــلك المرجــو من آل هاشـــم
إذا اشتدَّ لأواء الســنين المواحـــل
تفــرع من نجــل النــبي محمـــد
فأكــرم بمنجــول ، وأكــرم بناجــل

ومنهـــا :

أقــام منــارَ الدين بالعــدل جاهــداً
وصــانَ مــكانَ الحــقّ عن كل باطل
وقــام بأمــر الله في كل مشـــهد
قيــامَ مُجِدٍّ فيــه ليــس بهـــازل

ثم مقطوعات للرضي من الورقة اا (١٨) فقصيدة لابن عبد ربه الأندلسي مطلعهـــا :

كم زلة لك عن يدٍ ولســـان أنسيتَها لم ينسها المـــكان

في عشرة أبيات ، فرائية ابن المعتز التي مطلعها :

سقى الجزيرة ذات الظلّ والشجر

ودير عبدون هطال من المطر

١٦ بيتاً ، بعدها في الورقة الـ (٢٠ ب) : (آخر الجزء والحمد لله رب العالمين وصلواته على المصطفى محمد نبيه وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما) ثم بخط مغاير لما قبله : (سمع مع أول شعر أبي الحسن الصقّلي إلى هاهنا على الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن يحيي بن حمود الحريمي رحمه الله صاحب هذا الكتاب الشريف القاضي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثماني بقراءته واسحق بن أحمد بن موسى المروزي وأحمد بن محمد بن أحمد السّلفي الاصبهاني في جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة وخمس مائة بالاسكندرية ، في منزل الاصبهاني وهذا خطه ، ومن نسخته نقل الكتاب والتسميع جميعا ، والحمد لله وحده) ثم بخط مغاير لما تقدم : (بلغت من أول شعر أبي الحسن الصقلي إلى آخر الرائية التي لابن المعتز بقراءتي علي القاضي الفقيه الأجل الإمام العالم الورع أبي القاسم الحسين ابن الفقيه الإمام العالم أبي محمد عبد السلام رضي الله عنه بحق سماعه من الشريف أبي محمد العثماني ، وسمعه بقراءتي الشيخان ابو محمد عبد الخالق بن طرخان بن الحسين الاموي وأبو محمد عبد الله بن خلف بن عبد الله بن حامد ، وذلك في اليوم الخامس من شهر ربيع الآخر سنة خمس (؟) وستمائة وكتب عبد الرحمن بن مقرب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وسلم) .

عُنيت من ذلك المجموع بمطالعة هذا الجزء منه لما فيه عن الشاعر المكي ابن الحكاك الكاتب المغمور ، وقد طلبت تصوير هذا المجموع ، وعدت بالصورة معي .

كتاب « الاحتفا ل» باستيفاء تصنيف ما للخيل من الخلال :

الخميس : ٢٣ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/١٥) ومما طالعته هذا اليوم جزء من كتاب عن الخيل هو السفر الثاني من كتاب « الاحتفال في استيفاء

تصنيف ما للخيل من الأحوال » رقمه في المكتبه (902 ويقع في مجلد ضخم تبلغ صفحاته ٤٠٤ مقياس الصفحة ١٢/٣٠ س م المكتوب فيه ٢٤×١٥ س م بخط مغربي جميل ، وأكثر الكلمات مشكلة ، وقد ورد في «فهرس المكتبة [١] » أن مؤلفه هو أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد بن ابراهيم بن أرقم النُّميري (٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م) وأنه ألفه للأمير أبي عبد الله محمد بن نصر (٧٠١/٧٠٨ هـ ١٣٠١/١٣٠٩) وجاء في الصفحة الأولى منه : (مما جمع ورفع لخزانة المولى . . . أمير المسلمين . . . أبي عبد الله بن نصر) وفيها : (هذان السفران من خط المؤلف — رحمة الله عليه ، وهو الذي عانى هذه النسخة ، وهي التي رفع للخزانة التي ألفه برسمها ، وكثير منها بخطه) وفيها أيضا : (لعبد الله سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي أهداه إليه الأمير الأجل المذكور ، أيده الله) وبعد هذا الكلام : (ثم لابنه حكم بن سعيد . . . ثم رجع . . حفيد أخي السلطان . . . محمد بن يوسف بن نصر . ثم صار بعدهم لسعيد بن يحيى بن عبد الرحمن الغفاري (؟) الخزرجي . . .) . وفي أعلى الصفحة : (لعبد الله وليه فارس أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين) الخ . وهذا هو الملك المغربي التي نهبت كتبه في البحر فوصلت إلى أسبانيا في أول القرن الحادي عشر الهجري .

وفي آخر الورقة (٢٠٢) تملكات منها ما هو مؤرخ في سنة ٨٨٠، ومنها : (تملك هذا الكتاب للقائد طلحة محمد العروسي حبسه على نفسه ، ثم لمن شاء من بعده) ومثل هذا في آخر الصفحة الثانية من الورقة الأولى .

أعجبت بهذا السفر ، إذ رأيته أوفى كتاب اطلعت عليه يتعلق بالخيل ، فقد جمع ما ورد في المؤلفات القديمة عن جميع أحوالها ، ويظهر أن السفر الأول في أصول الخيل وفيما ورد من أخبارها . وقد رغبت في تصوير الكتاب ، غير أنني وجدت النقود التي معي لا تفي بأجرة التصوير وقدرها ٣٢٣٢ بستا ، للصفحة ثمانية ، وعلى شريط (ميكرو فلم) ١٢١٢ بستا ،

---

(١) ص ١١٩ .

إنه يكلّف مبلغا أنا في حاجة إليه للعلاج ومستلزمات السفر ، فاكتفيت بأن نقلت مباحثه كاملة ، وها هي — والارقام هي للورق ، و (ب) للصفحة الثانية من كل ورقة ، ولئن رأى بعض القراء عدم الفائدة في نقل تلك المباحث فليغتفر لي هذا بجانب ما قاسيته من تعب في نقلها ، مع ضعف نور المكان ، وضعف بصري ، غير أن موضوع الكتاب ، بل دقة أبحاثه وشمولها مما استهواني فوجدت في نقل مباحثه راحة نفسية هوّنت كل ما قاسيته من تعب . و (ويْلٌ للشجيّ من الخليّ) .

١ ب (بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صلى على سيدنا محمد على آله وصحبه وسلم . أبواب من بدء الخلق إلى انتهاء السن ، باب التحصن وارادة الانثى الفحل . يقال تحصن تحصناً وتحصيناً تكلّف ان يكون حصاناً أي فحلاً) .

٢ ب — باب عرض الانثى على الفحل .

٣ — باب النزو والسفاد .

٦ ب — : باب الفحول واختيارها وصفاتها في الفِحْلة .

٨ ب — : باب ماء الفحل وإراقته إياه .

٩ — باب الحمل وما في معناه .

١١ ب — باب الحيال وفساد الحمل والخداج .

١٢ ب — باب الوضع والولاد .

١٤ — : باب ما يخلق في الرحم فيخرج مع الولد .

١٥ — : باب من صفات النُّتَّج وبعض أحوالهن .

١٦ — باب الرضاع وصفات الرُّضع والمراضع .

١٧ ب :— باب الفطام وما في معناه .

١٧ ب :— باب الأولاد .

١٨ ب :— باب الفتاء وانتقال الاسنان وما يتعلق بذلك إلى تمام السن والذّكاء .

٢٠ ب :– باب الشرف والاسنان (؟!) (كلمات غير واضحة) .

٢١ ب :– باب معرفة علامات يستدل بها على عمر الدابـــة .

٢٢ – أبواب تشتمل على أشياء لازمة عن الدواب ومتعلقة بها وهي الآلات وما شاكلها وأماكن تختص بها وأنواع أخرى ضرورية لها – أبواب الآلات . باب اللجـــام .

٢٢ ب :– باب السرج .

٢٤ – اب الحُزُم للسرج وغيره .

٢٤ باب :– باب القـــلادة .

٢٥ ب :– باب البرقـــع .

٢٥ ب :– باب الجُـــلّ .

٢٥ ب :– باب البرذعـــة .

٢٦ – باب من أدوات السواس وما تعلف فيه الدواب .

٢٧ – باب من أدوات البيطار ونحـــوه .

٢٧ ب :– باب القيـــود .

٢٨ – باب مما توثق به الدابـــة .

٢٨ ب :– باب الســـيور .

٢٨ ب :– باب الحبـــال .

٣١ ب :– باب ما تستعجَلُ به الدواب وتستحثُّ .

٣٢ ب :– باب المواضع التي تأوي اليها الدواب .

٣٣ – باب آخر من أماكن الـــدواب .

٣٣ ب :– باب ما تثيره الدواب من الغبـــار .

٣٥ ب :– باب ما تطايره الخيل من الحجارة وتقدحه من النار .

٣٦ – باب الذباب الذي يتعلق بالدواب وشـــبهه .

٣٧ ب :– باب المراعـــي .

٥٧ ب :ـ باب الإرفاق بالدواب وما في معناه .
٥٨ ـ باب في عرض الدواب على البيع وفرّها وتقليبها وبيعها وشرائها.
٥٨ ب :ـ باب ركوب الخيل وما في معناه .
٥٩ ـ باب تمشية الدواب وأنواع من حركات الفارس .
٥٩ ب :ـ باب ركض الفرس وإرساله للجري .
٦٠ ـ باب إمساك الخيل وكفّها .
٦٠ ب :ـ باب اتباع الأثر وطلب الضالة ووجدانها .
٦١ ب :ـ باب أخذ الدابة وإيوائها ورياضتها وتذليلها وتأديبها وتسكينها .

٦٢ ب :ـ انموذج يشتمل على كيفية رياضة الخيل وتحسين ركوبها وما يحتاج اليه في ذلك من مداراة شرّتها ومداواة عيوبها .

٦٣ ب :ـ باب فيما ينبغي أن يلزمه الرائض وما ينبغي أن يحترز منه .
٦٤ ب :ـ باب في رياضة المهاري وتأديبها .
٦٥ ـ باب في تأديب النّفور والعثّور والحرّون والمنازع ونحو ذلك .
٦٦ ـ باب فيما يصلح أن تراض به الدواب وتحمل عليه من ضروب المشي .
٦٨ ـ باب من رياضة الخيل . . .
٦٩ ـ باب في اجراء الخيل وتدريبها عليه .
٧٠ ب :ـ باب في تربية الخيل وعلفها وصنعتها وحسن القيام عليها .
٧٣ ـ باب في كسوة الدواب وتحسين مرابطها ومراعاتها .
٧٣ ـ باب في إعلاف الدواب الشعير والغمير وما أشبهه من اليبيس .
٧٤ ب :ـ باب في صفة إرباع الدواب في الخضر أيام الربيع .
٧٤ ب :ـ باب كيفية الفصلة على الخيل .
٧٦ ـ باب تضمير الخيل .

آخره الورقة ١/٢٠٢ : وقال الشاعر وهو عمران بن حطان في معنى ما أخرج الفكرُ اليه ونختم بقوله الكتاب إن شاء الله :

وليس لعيشنا هذا مهاه (؟) وليست دارنا الدنيا بـــدار
لنـــا إلا ليـــالي هيـــنات وبلغتـــنا بأعمار قصـــار
وإن قلنا لعلّ بها قـــرارا فما فيها لحيّ من قـــرار
أرانالا نملّ العيش فيهـــا وأولعنـــا بحرص وانتظـــار
ولا تبـــقى ولا نبقى عليهـــا ولا في الأمر نأخذ في اختيار
ولكنـــا الغـــداة بنـــو سبيل على شرف ييسر لانحـــدار
كركب نازلين على طريـــق فمنهم رائـــح عجل وســـار
وغـــاد إثرهم طربـــا إليهـــم حثيث السير مؤتنف النهـــار

فسبحان الحي الدائم لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم له الحكم وإليه ترجعون ، كمل الديوان بحمد الله تعالى وحسن عونه) .

والكتاب محشوّ بالنصوص المنقولة عن كتب اللغة ، بالشواهد الشعرية . بحيث يعتبر مصدراً من المصادر المهمة .

رسالتان للمعـــري : ورأيت في المجموع ٤٦٥ رسالتين للمعري احداهما الإغريضية ، والرسالتان مطبوعتان ولكنني صورتهما لصلة الأولى بالوزير ابن المغربي . وبكتابه « المنخل » .

لم يعد لي أرب في المكتبة ، فقد أرهقتني كثرة المطالعة والنقل ، ولم يبق معي من النقود ما يزيد عن حاجتي في العلاج ، ولم أشاهد في الفهرس من أسماء الكتب التي اتطلع إلى معرفة محتوياتها ما يغريني بمراجعة المكتبة ، ولهذا قررت السفر إلى روما .

الجمعة : ٢٤ رجب ١٣٩٣ (١٩٧٣/٨/١٦) : كان لا بُدّ لي من زيارة سفارتنا ، وأن تكون الزيارة حال القدوم إلى مدينة مدريد ، للسلام على معالي الأستاذ الشيخ ناصر المنقور ، فالصلّةُ بيننا أقوى من أن أتحدث عنها

منذ أن كان طالباً في القاهرة سنة ١٣٧٢ (١٩٥٢ م) وكان يشرف على طبع مجلة « اليمامة » ويساعد في تحريرها . وصداقة ربع قرنٍ ما كان أبو أحمد ممن يستهين بحقها ، يضاف إلى هذا ما يتصف به من شهامة ونبل مع جميع الناس ، فخشيت أن أنصرف بدافع من لطفه وكرمه فاشتغل عن التردد على مدينة الاسكوريال لزيارة مكتبتها أو أن يسهّل لي ذلك بطريقة تثقل كاهلي بفضل أعجز عن شكره ، ومن طبعي التخفيف عن نفسي فلا أكلفها حمل ما لا أطيق كفاءة ، وعن إخواني فلا أكون كلاً عليهم ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ذهبت إلى السفارة — وهي لا تبعد عن النزل الذي أسكن فيه كثيراً ، فكان استقبال كريم من أبي أحمد ، كعادته مع كل زائر ، وكان عتاب حينما

علم بما أمضيته من أيام إقامتي في هذه المدينة ، فاعتذرت صادقاً كعذر زهير بن أبي سُلمى حينما كان يحاول التخلص من جوُد ممدوحه فيسلم على من في المجلس غيره ، قائلا : (عموا صباحا سوى هرم بن سنان وخيركم استثنيت) !! ولا أطيل الحديث عما عرف من فضل ابي أحمد: (فالصمت في بعض المواضع أبلغ) .

السبت : ٢٥ رجب ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣/٨/١٧) : رغبت زيارة (المركز الاسلامي الثقافي) ويقع غير بعيد عن السفارة ، فذهبت اليه بعد اتصال هاتفي بمديره . وهذا المركز أنشأته الحكومة المصرية للدراسات العربية الاسبانية ، ولتعليم اللغة العربية ، ولدراسة الآثار الإسلامية بالتعاون مع الأسبان ، وله مجلة دورية تحوي أبحاثاً تاريخية ، ودراسات عن المخطوطات وعن الآثار ، باللغتين العربية والأسبانية ، وقد تنشر بعض الرسائل النادرة . وكانت تدعى « مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية » وتصدر منذ عام ١٣٧٣ (١٩٥٥ م) وتنشر أبحاثاً قيمة للمختصين بالدراسات الأندلسية ، ولا تزال توالي الصدور بعد أن غير اسمها باسم المركز .

استقبلني الدكتور أحمد مختار العَبَّادِي مدير المعهد ، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعتي الإسكندرية وبيروت العربية ، وبعد حديث ممتع حول ما يقوم به هذا المركز في سبيل نشر الثقافة العربية ، وإطلاعي على أجزاء من مجلته ومجموعة من منشوراته بالعربية والأسبانية ، كانت جولة في الدار ، وهي ملك للمركز ، ها هي المكتبة التي يرتادها عدد غير قليل من الباحثين ، لا ينقصها سوى قلة محتوياتها من الكتب ، وهذا مكان مخصص لإقامة الصلوات ، أما الطابق الأسفل ففي قسمه الموالي للمدخل توجد غرفة كبيرة لتعليم اللغة العربية ، وفي قسمه الخلفي توجد المطبعة التي لا تزال من النوع القديم الذي يدار وتصفّ حروفه باليد ، والقائمون بإدارة شؤون هذا المركز الأستاذ الدكتور العبادي مديره ، ويساعده أحد الأساتذة ، وكاتب ، وعاملان اثنان للمطبعة على ما ظهر لي ولم أحاول البحث

والاستقصاء في هذه الناحية ــ ورغم ما غمرني به الأستاذ الجليل من كرم النفس ، ورقّة الطبع ، والأدب الجمّ ، فقد أحسست بكثير من المرارة بعد زيارة هذا المركز ، ومشاهدة ما هو بحاجة اليه من اهتمام وعناية ، بصفته من مراكز الثقافة العربية الإسلامية لا في اسبانيا وحدها بل في أوربا كلها ، إذا اسبانيا أهم قطر سياحي فيها . وكثير من رواده عندما يعلمون صلة العرب بهذا القطر في حاجة إلى أن يكون ما يعلمونه قائماً على أساس قويّ من المعرفة ، وأن يدركوا من حقائق الدين الاسلامي ما يجهلون .

• • • •

فهـــارس الكتاب

أولا ـ الموضوعات العامة

مقدمة الكتاب (٥/٦)

جولة في المغرب العربي الحبيب (٧/١٠٠) .

في الحواضر الأوربية (٢٠٥/)

ثانيا ـ الاعلام (الافراد والجماعات)

احذف (ابن) و (ابو) و (ال) عند البحث عن الاسم

أسماء الكتب والصحف

المواضـــع

(مكتبات ، بلدان ، متاحف ، فنادق ، مواضع وغيرها)

مكتبة الزاوية الناصرية : ٧٦ .